

منهج الشيخ أبي جعفر الطوسي في تفسير القرآن الكريم

دراسة لغوية نحوية بلاغية

تأليف

د. كاصد ياسر الزيدي





بغداد ٢٠٠٤



منهج الشيخ ابي جعفر الطوسي في تفسير القرآن الكريم

دراسة لغوية نحوية بلاغية

د. كاصد ياسر الزيدي

١٤٢٥هـ –٢٠٠٤م

عنوان الكتاب: منهج الشيخ ابي جعفر الطوسي في تفسير القرآن الكريم
دراسة لغوية نحوية بلاغية

اسم المؤلف: د. كاصد ياسر الزيدي

الناشر :بيت الحكمة/ بغداد

الطبعة الاولى/٢٠٠٤

بيت الحكمة- العراق- بغداد- باب المعظم- ص.ب.(٥٣٦٤٠)
هاتف -٠١٥٠١٤٠٤١٤/٤١٤١٢٠١، فاكس٨٨٣٠١٥
E-Mail: al_hikma1@Hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم
مقدمة

بدأ اتصالي بتفسير ابي جعفر الطوسي منذ أربعين عاماً، وكنت قبل ذلك لا اعرف للامامية من التفاسير القديمة الجيدة الا(مجمع البيان في تفسير القرآن)، لابي علي الفضل الحسن الطبرسي المتوفى سنة ٥٤٨ للهجرة، ذلك التفسير الذي نال عناية الامامية وغيرهم. حتى اذ اطلعت على تفسير الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠ للهجرة،لفتنى ما وجدته بين التفسيرين من تشابه، بل تناظر في كثير من موادهما:في التفسير والقراءات واللغة والاعراب، وهو أمر شجعني على الموازنة بينهما، حتى انتهيت الى .حقيقة لم يطمسها الطبرسي نفسه في مقدمة تفسيره، وهي أن تفسير الطوسي كان الاساس الذي بنى عليه كتابه، وإن قلت انه استقى منه جلّ تفسيره، لم أعد الصواب. وهذا ما دفعني الى دراسته دراسة علمية جادة أتناول فيها منهجه بموضوعية وتفصيل، بما فيه من لغة ونحو وصرف وبلاغة، وجعلت عنوانه (الدراسات اللغوية والنحوية والبلاغية في التبيان في تفسير القرآن للطوسي)، إذ لا يخفى أن اللغة بمفهومها العام يشمل، هذه العلوم،كلها.

والكتاب مقسوم على تمهيد وخمسة فصول وخاتمة، تحدثت في التمهيد الذي عنوانه(في حياة الطوسي). عن نشأته وثقافته وأشهر شيوخه الذين أخذ عنهم من الامامية والجمهور، وعن آثاره وأنبه تلاميذه، وختمت الفصل بالحديث عن وفاته. وعرضت بعد ذلك(لتفاسير معاصرة للطوسي)، وهي تفاسير للشريف الرضي(ت٤٠٦هـ)، وأخيه الشريف المرتضى(ت٤٣٦هـ)، الذي تلمذ له الشيخ الطوسي،ونال ثقته وثناءه عليه في اثناء اقامته في بغداد.

وضم الكتاب بعد هذا مادة في العربية منوعة في فصوله الخمسة، تكلمت في الفصل الأول على(مصادر تفسير الطوسي)، وبينت انه رجع الى مصادر عدة متنوعة، منها كتب في معاني القرآن، وكتب تفسير بالمأثور وأخرى عامة، وكتب في الحديث النبوي والسير، وكتب في القراءات والنحو واللغة. وأوضحت في اثناء ذلك منهجه في الافادة من هذه المصادر الكثيرة.

وضم الفصل الثاني:(مادة التفسير) عند الطوسي، وهي النقل عن الرسول(ص) والصحابة والتابعين، والنقل عن الائمة، وتفسير القرآن بالقرآن، والتفسير العقلي والتأويل. وتكلمت في الفصل الثالث على: (القراءات واللهجات)،

وكيف أن الطوسي اهتم بتدوين قراءات الصحابة والتابعين وأهل البيت، وكذلك بالقراءات العشر المشهورة وتوجيهها، وبالقراءات الشاذة والاحتجاج لها. وختمت الفصل بالكلام على اللهجات العربية المختلفة. وتكلمت في الفصل الرابع(اللغة والنحو) على تفسير الطوسي اللغوي للالفاظ القرآنية، وشواهده اللغوية وآرائه النحوية، وعنايته بأصول النحو وأدلته، ومذهبه النحوي. وتكلمت في الفصل الخامس على(البلاغة) في تفسير الطوسي، فوقفت عند رأيه في الاعجاز القرآني، وبينت مفهوم البلاغة عنده، وقسمت الموضوعات البلاغية التي عرض لها، على علومها الثلاثة المعروفة، وهي: المعاني والبيان والبديع.

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على مصادر كثيرة، كان لكل منها أثره فيها. وأفادني على وجه الخصوص فيه تعرّف ما نسب الى الأئمة من تأويل مبني على ما أوتوا من علم وهبة فيه. وقد اعتمدت في تعَرف ماروى عن النبي(ص) والصحابة والتابعين من وجوه التأويل على تفسير الطبري. وأفادني في معرفة القراءات القرآنية المشهورة التي أوردها الطوسي وتوثيقها، كتاب السبعة لابن مجاهد، والقراءات وعللها لابن خالويه، والحجة للقرأءات السبعة لأبي علي الفارسي، وإتحاف فضلاء البشر في قراءات الاربعة عشر للدمياطي. وأفادني في تبين القراءات الشاذة، مختصر في شواذ القراءات لابن خالويه، والمحتسب في القراءات الشواذ لابن جني. كما امدني بمعلومات وافية عن آراء الفرق الاسلامية، مقالات الاسلاميين للأشعري، وأوائل المقالات للمفيد، ورسائل الشريف المرتضى، وشرح الاصول الخمسة للقاضي عبد الجبار. وأمدني بمعلومات مفيدة عن اللهجات العربية القديمة، وما فيها من ظواهر لهجية متعددة،كتاب الخصائص لابن جني. كما أفادني في تعليل هذه الظواهر من الناحية الصوتية، وبيان ما يراه علم اللغة الحديث فيها، كتاب اللهجات العربية للدكتور ابراهيم انيس. وزودني بمعلومات عن البلاغة، كتاب النكت للرماني، وكتاب الصناعتين للعسكري وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ودلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني. وأعانني على تراجم الاعلام الواردة في أثناء البحث، طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، ومعجم الادباء لياقوت الحموي، وبغية الوعاة للسيوطي، وطبقات المفسرين للداودي.

وكان مصدري الاساس في البحث كتاب(التبيان في تفسير القرآن) للطوسي، بأجزائه العشرة. وقد وجدت فيه مادة وفيرة للدراسة .

وآمل أن يستفيد القارئ والباحث من هذا الجهد العلمي الذي بذلته في هذا الكتاب، ويعرف عن كثب القيمة العلمية لتفسير الطوسي، رائد التقريب بين المسلمين، فما أحوجنا اليوم الى هذه الروح السامية الجامعة، في الوقت الذي يعمد فيه المستعمرون، أعداء الاسلام وأعداء العروبة، الى محاولة تفريق كلمتنا، ولن يفلحوا -بحمد الله- مادمنا وعاة نرد ما يدبرون، ونعتصم بحبل الله جميعاً،(والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون).



تمهيد
في حياة الطوسي وتفاسير معاصرة لتفسيره



المبحث الاول
في حياة الطوسي

(١)

نشأته:

هو أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي[١] الملقب بـ "الطوسي" نسبة الى مدينة طوس بخراسان. والصيغة الفارسية الاصلية لها: "تـوس."[٢] فتحت هذه المدينة الشهيرة في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم عرفت من بعد بالآثار الاسلامية، ففيها قبر الامام علي بن موسى الرضا بن الامام موسى بن جعفر(ع)، وكذلك قبر هارون الرشيد الخليفة العباسي المعروف.[٣] وقد وهب الله لهذه المدنية طبيعة جميلة غنية بالمياه والاشجار والاحجار الكريمة كالفيروزج وغيره. ولها ما يزيد على الف قرية[٤] مغ ّلة منتجة. واشتهرت طوس بكونها مركزا علميا مرموقا، فقد تخرج فيها من أئمة العلم والفقه ما لا يسعهم الحصر، كما يقول ياقوت في معجمه.وذكر من مشاهيرهم حجة الاسلام أبا حامد محمد بن محمد الغزالي وأخاه أبا الفتوح، وتميم بن محمد صاحب المسند الحافظ، والوزير الشهير نظام الملك الحسن بن علي[٥] ،ولكنه لم يذكر أبا جعفر الطوسي في جملة من ذكرهم من الطوسيين، مع ما لهذا الشيخ من نباهة الذكر والاشتهار في الأوساط العلمية بخاصة.

وهناك من شارك الطوسي في اسمه ولقبه جميعا، كمحمد بن الحسن الطوسي والد نصير الدين الفيلسوف صاحب العلم الرياضي، المعروف بالخواجة، المتوفى سنة ٦٧٢هـ والمدفون بجوار الامام موسى بن جعفر في مدينة الكاظمية بالعراق[٦] ، ومحمد بن الحسن الطوسي الخراساني الفقيه صاحب كتاب "الفيروزجة الطوسية في شرح الدرة الغروية" في فروع الفقه.[٧]

---

(١) الطوسي: الفهرست ص١٨٩. والنجاشي: الرجال ص٢٨٧، وأمالي الطوسي ٣١/١.
(٢) دائرة المعارف الاسلامية: ٣٥٨/١٥.
(٣) الحموي: معجم البلدان ٤٩/٤، ودائرة المعارف الاسلامية ٣٦٢/١٥.
(٤) القمي: الكنى والالقاب ٣٥٩/٢.الحموي: معجم البلدان ٤٩/٤-٥٠.
(٥) الحموي: معجم البلدان ٤٩/٤-٥٠ .
(٦) الخوانساري: روضات الجنات ٣١٩/٦.ووازن بالعاملي: أمل الآمل ٢٥٩/٢.
(٧) العاملي: اعيان الشيعة ٣٤٣/٤٣ وكحالة: معجم المؤلفين ١٩٥/٩.

ومن عاصر الشيخ من مشاهير الطوسيين: جعفر بن محمد بن عبد الواحد الشريف الطوسي، شيخ الصوفية في عصره.[١]

وقد ولد أبو جعفر الطوسي في شهر رمضان سنة ٣٨٥هـ. ولا نجد بين من ترجموا له خلافا في ذلك. فقد أجمعوا على ولادته في هذه السنة [٢] .نشأ ابو جعفر في مسقط رأسه طوس اذ قضى فيها صدر شبابه، وتلقى دروسه الاولى بها[٣]. ولسنا نعرف شيئا مفصلا عن حياته في هذه الحقبة وطبيعة دراساته المبكرة ونوعها، الا أن الذي لا شك فيه أنه درس أوليات العلوم النقلية والعقلية، التي كانت دراستها لازمة لمن هو في مثل مرحلته وسنه، وأنه تفقه على مذهب الامامية منذ ذلك الحين.

وعلى كل فان الطوسي لم يقض سني حياته كلها في طوس، وانما استشرفت نفسه الطموح الى آفاق علمية ابعد وارحب. ولم يكن هناك ما هو اجدر بأن يرحل اليه من العراق او على وجه الخصوص بغداد، اذ كانت حاضرة العالم الاسلامي، حيث مدارس العلم ومجالسه تموج بالعلماء والمتعلمين وتغص بالوافدين من كل حدب وصوب.

وحقق أبو جعفر ما كان يطمح اليه؛ اذ قدم بغداد سنة ٤٠٨هـ[٤] وما أن حط الرحال حتى انضم الى صفوف أولئك الناهلين من منابع العلم الثرة هناك. فكان يحضر الدروس التي يلقيها العلماء من مختلف المدارس الاسلامية. وكان استماعه لدروس الشيخ ابي عبد الله محمد ابن محمد بن النعمان المقلب بالمفيد، فاتحة تعلمه في عاصمة العلم، والممهد لتبحره من بعد في علوم الشريعة الاسلامية.

فقد كان الشيخ المفيد المعروف بابن المعلم فقيه الامامية وأستاذهم ورئيسهم إذ ذاك.[٥]وكان له مجلس في الفقه والكلام وغيرهما، يحضره كثير من أهل العلم. وكان هذا الشيخ الجليل معاصراً لعلمين من أعلام الكلام في عصره، هما ابو بكر

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٩٥/٥.

(٢) ينظر: الحلي: الرجال ص١٤٨. نجف: اتقان المقال في احوال الرجال ص١٢١. الصدر: تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام ص٣٣٩.القمي: الكنى والالقاب ٣٥٧/٢. روندلسن: عقيدة الشيعة ص٢٨٥. البستاني: دائرة المعارف ٢٤٠/٤.

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ٣٧٧/١٥ مقال بقلم هدايت حسين.

(٤) الحلي: الرجال ص١٤٨. ودائرة المعارف الاسلامية ٣٧٦/١٥.الطهراني: الذريعة الى تصانيف الشيعة ٣٢٨/٣.

(٥) الطوسي: الفهرست ص١٨٦. والعاملي: امل الآمل ٣٠٤/٢.

الباقلاني الاشعري والقاضي عبد الجبار المعتزلي. وكان بينه وبينهما مناظرات حفظتها المصادر التاريخية، وحكت لنا طرفًا منها.[١]

حتى إذا توفى المفيد، انتقل الطوسي الى مجلس على بن الحسين الموسوي المعروف بالشريف المرتضى، الذي آلت اليه رياسة الإمامية.

وحين توفى الشريف المرتضى آلت الأستاذية والرياسة العلمية الى ابي جعفر الطوسي، وصار الإمامية يرجعون إليه، فكانت داره التي في الكرخ يؤمها طلبة العلم.

وكان عصر الشيخ يتسم بشيء غير قليل من حرية الفكر على الصعيد الرسمي، فلم يكن هناك حجر عقيدي على مدارس المسلمين المختلفة، ومنهم الامامية بل كانت المناظرات العلمية في المسائل العقيدية تجرى علناً، حتى ما كان منها يتعلق بالامامة. وساعد على ذلك وجود البويهيين في الحكم. وكان لهم ميل ورغبة في تشجيع الادباء والعلماء. وقد حظى الطوسي لذلك بكرسي الكلام الذي كان يعد للمناظرة، ولا يناله عادة الا من تضلع من العلم وأوتى فيه حظاً وفيراً.[٢] غير أن هذا الكرسي احرق في الفتنة التي حدثت في بغداد سنة ٤٤٩هـ.[٣]

(٢)
شيوخه وثقافته :

درس الطوسي على شيوخ كثيرين. وكثير منهم كانوا من علماء الجمهور. وقد ذكر عددا منهم في أثناء كتبه ولا سيما "الفهرست"و"الرجال "و"الامالي" ومن هنا نجد الذين ترجموا له وذكروا شيوخه، أشاروا الى أن هذا الشيخ من (الخاصة)، وهذا من(العامة). ومرادهم بالاول من كان من الامامية وبالثاني من ينتمي الى الجمهور. وكل هؤلاء الشيوخ تلقى عنهم في إبان اقامته بمدينة بغداد بعد رحلته اليها من مسقط رأسه طوس. اما قبل ذلك فلا نعرف عن شيوخه شيئا،ولم يشر هو الى احد منهم.

---

(١)الخوانساري: روضات الجنات ٢١٩/٦.

(٢) المامقاني:تنقيح المقال في أحول الرجال ص١٠٥ فوق، والطهراني: حياة الطوسي ص(د).

(٣)ابن حجر: لسان الميزان ١٧٩/٨.

وأشهر شيوخه من الامامية خمسة هم: ابو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان الملقب بـ"المفيد" المتوفى سنة ٤١٣هـ، وقد لازمه الطوسي خمس سنوات، أي منذ وروده. من طوس سنة ٤٠٨هـ. ووصفه بأنه مقدم في العلم وصناعة الكلام، وأنه فقيه متقدم حسن الخاطر دقيق الفطنة حاضر الجواب،له مؤلفات كثيرة. ثم ذكر طرفاً من مؤلفاته واشار الى تلقيه عنه بقوله سمعنا منه هذه الكتب كلها أو بعضها قراءة عليه، وبعضها يقرأ عليه غير مرة وهو يسمع [١].وقد روى عنه جملة من الاخبار في كتابه" الاستبصار"[٢]

ومنهم أبو القاسم علي بن الحسين الموسوي الشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦هـ[٣]، لازمه الطوسي مدة طويلة بلغت ثلاثة وعشرين عاما[٤] ،لقى فيها منه رعاية وأهتماما، اذ جعل له دارا في الكرخ، وعطاء شهريا مقداره أثنا عشر ديناراً[٥].وأفاد الطوسي من دراسات أستاذه. المرتضى المتنوعة في الفقه والاصول والتفسير والكلام والعقائد واللغة وغيرها. فكانت هذه المدة الطويلة أساس نبوغه وتبحره في العلوم الاسلامية، ومنها علم التفسير الذي كان للمرتضى فيه، منهج متميز ودراسات خاصة تجلت في أماليه.

وأشاد في ترجمته في"الفهرست" بعلمه وتنوع ثقافته فقال: "علم الهدى الأجلّ المرتضى رضي الله عنه، متوحد في علوم كثيرة، مجمع على فضله مقدم في العلوم،مثل علم الكلام والفقه وأصول الفقه والادب والنحو والشعر ومعاني الشعر واللغة وغير ذلك". وبعد أن عدد كتبه اشار الى تتلمذه عليه وطرق تحمله العلم عنه فقال" قرأت هذه الكتب أكثرها عليه وسمعت سائرها يقرأ عليه دفعات كثيرة"[٦] واشار الى آرائه في التفسير في غير موضع من تفسيره"التبيان".[٧] .

---

(١)الطوسي: الفهرست ص١٨٦- ١٨٧.
(٢) الطوسي: الاستبصار فيما اختلف من الاخبار ١/٩،١٢،١٣.
(٣) الطوسي: الفهرست ص١٢٦.
(٤)الصدر: تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام ص٣٣٩.
(٥)العاملي: الكشكول ص٢٦٩.
(٦) الطوسي: الفهرست ص ١٢٥-١٢٦.
(٧)الطوسي: التبيان ٢/٣٩٨، ٥/٤٥٢، ٩/١٤٩.

ومنهم أبو عبد الله إحمد بن عبد الواحد البزار المعروف بـــابن عبـدون وابـن الحاشر[1] . وصفه الطوسي بأنه كثير السماع والرواية، وبين أنه أجازله بجميع ما رواه[2] وأخبره بكتب وروايات بعض الامامية سماعا واجازة[3].وقد روى عنه فـي الأمالي في غير موضع،[4] وكذلك في الاستبصار[5].ومن هؤلاء الشيوخ أبـو عبـد الله الحسين بن عبد الله الغضــائري المتوفـى سـنة ٤١١هـ. [6]ذكـره فـي الفهرست[7]والرجال[8]وروى عنه في أماليه كثيراً من الأخبار [9].وقد وصفه بأنـه" كثير السماع عارف بالرجال له تصانيف". ثم قال" سمعنا منه واجـاز لنـا بجميـع رواياته".[10]

ومنهم ايضا ابو الحسين علي بن احمد بن ابي جيد القمي، ذكره الطوسـي فـي غير موضع من الفهرست[11]، مشـيرا الـى انـه روى عنـه مصنفـات بعـض الامامية[12]. كما روى عنه في كتابه "الاستبصار" عدة أخبار.[13]

ووراء هؤلاء شيوخ كثيرون ذكرهم في غير كتاب من كتبه، وروى عنـهم فـي أماليه، منهم:ابو عبد الله الحسين بن ابراهيم القزوينـي [14]، وأبـو طـالب بـن عزور،[15] وابو القاسم علي ابن شبل الوكيل.[16]

([1]) الطوسي:الفهرست ص١٢٩ والرجال ص٤٥٠.
([2]) الطوسي: الرجال ص٤٥٠.
[3]الطوسي:الفهرست ص١٢٩.
([4])الطوسي: الامالي ٢/٢،١٦/١، ٨٧، ٢٨٣.
([5]) الطوسي: الاستبصار فيما اختلف من الاخبار ٢/٢،١٦/١.
([6]) الطوسي: الرجال ص٤٧٠-٤٧١.
([7]) الطوسي: الفهرست ص٢٧، ٣٤، ٤٣، ٤٤..
([8]) الطوسي:الرجال ص٤٤٤و ٤٧٤.
([9]) الطوسي: الامالي ١/٣٠٧-٣١٢و ٣٥/٢وما بعدها.
([10]) الطوسي: الرجال ص٤٧٠.
([11]) الطوسي: الفهرست ص٣٠و ٣٢، ٤٦، ٤٨.
([12]) نفسه ص٣٠.
([13]) الطوسي: الاستبصار ١/٢٠، ٥٨، ٣٢٥.
([14]) انظر: الفهرست ص٨٤ والامالي ٢/٢٧٦، ٢/ ٣٠٣.
([15]) انظر: الرجال ص٤٤٣، ٤٤٥،والامالي ٢/٨٧.
([16]) الرجال ص٤٤٣، ٤٤٥،والامالي ٢/٨٧.

وأشهر شيوخه من الجمهور ابو الطيب الطبري، الذي وصفه الطوسي بأنه امام الشافعية في عصره.[1]أخذ عنه الفقه والحديث، اذ روى عنه في أماليه طرفا من الاخبار[2]،وتحدث عن رأيه في بعض مسائل الفقه في تفسيره التبيان [3] .

ومنهم ابو الحسن أحمد بن محمد بن موسى الاهوازي المعروف بابن الصلت المتوفى سنة ٤٠٩هـ وهو احد شيوخه الكبار الذين أكثر من الرواية عنهم، كما يشعرنا بذلك كتاباه: الفهرست[4] والرجال[5].

ومن هؤلاء الشيوخ ابو الفتح هلال بن محمد بن جعفر الحفار المتوفى سنة ٤١٤هـ ذكره الطوسي في كتاب الرجال.[6]وروى عنه في أماليه. قال في بعض المواضع "اخبرنا الحفار"[7] وقال في آخر" قرئ علي ابن أبي الفتح هلال بن محمد بن جعفر الحفار وأنا اسمع"[8] وذكر كثير ممن ترجم للطوسي أنه حدث عن الحفار.[9] .

وهناك شيوخ آخرون من الجمهور ايضا، سمع منهم الطوسي، وأخذ عنهم العلم، وحدث عنهم في أماليه، منهم ابو الفتح محمد بن احمد بن أبي الفوارس الحافظ المتوفى بعد سنة ٤١١ هـ. أخذ عنه الشيخ إملاء في مسجد الرصافة ببغداد سنة ٤١١هـ.[10]، ومنهم أبو محمد الحسن الفحام السامري[11]وأبو علي بن شاذان المتكلم، وقد نص الطوسي في كتاب الرجال على انه من الجمهور.[12].

هؤلاء اشهر شيوخه من الإمامية وأهل السنة، لم نتوخ فيما ذكرناه حصرهم؛ إذ هم كثير، وانما قصدنا الاشارة الى مايلقى ضوءا على مصادر دراسته وثقافته.

---

(1) الطوسي: التبيان ٥/٢٧٢.
(2) الطوسي : الامالي ١/٢.
(3) الطوسي التبيان ٥/٢٧٢.
(4) الطوسي: الرجال ص ٤٤٢ وقارن بالفوائد الرجالية لبحر العلوم ٤/١٠٠.
(5) الطوسي: الامالي ١/٣٨٤.
(6) الطوسي الرجال ص ٤٥٢.
(7) انظر مثلا ابن حجر: لسان الميزان ٥/١٣٥ والسبكي: طبقات الشافعية ٤/١٢٧. والسيوطي: طبقات المفسرين ص٢٩.
(8) نفسه ١/٣٨٤.
(9) انظر مثلا ابن حجر: لسان الميزان ٥/١٣٥ والسبكي: طبقات الشافعية ٤/١٢٧. والسيوطي: طبقات المفسرين ص٢٩.
(10) الطوسي: الامالي ١/٣١٢-٣١٣.
(11) الطوسي: الامالي ١/٢٩١ وانظر بحر العلوم: الفوائد الرجالية ٤/١٠٠.
(12) الطوسي: الرجال ص ٤٦٥.

فالطوسي ذا أفق واسع وعقلية مرنة متفتحة على آفاق العلم المتباينة ومصادره المتنوعة، اذ لم يلتزم- وهو الامام- الامامي بطائفة معينة من الشيوخ ولم ينهل عن شيوخ مذهبه فحسب. وانما انبرى ينهل من معين العلم ويجتني ثماره من أي صوب جاء. ولعل هذا الاتجاه الايجابي هو الذي جعله موسوعيا في تآليفه كثير العناية بالموازنات في كتبه، مجددا في اسلوبه الدراسي والعلمي تجديداً فاق من سبقه ومن لحقه من علماء الامامية على الاطلاق، على كثرة شيوخهم وتعدد تصانيفهم، حتى عد " حداً فاصلاً بين عصرين من عصور العلم- عند الامامية- بين العصر العلمي التمهيدي، والعصر العلمي الكامل. فقد وضع هذا الشيخ الرائد حداً للعصر التمهيدي ، وبدأ به عصر العلم، الذي اصبح الأصول فيه علماله دقته وصناعته وذهنيته العلمية الخاصة".[1].

وتشعرنا مؤلفاته بهذه العقلية المتفتحة والثقافة الواسعة، ولعل تفسيره" التبيان" خير ما يمثل هذا الاتجاه؛ اذ ألفيناه زاخراً بمصادر متنوعة لمؤلفين من الشيعة والسنة والمعتزلة. كما تشعرنا كتبه الفقهية، ولاسيما" خلاف الفقهاء،" بهذه الروح الموسوعية والنظرة العلمية الشاملة، حتى ان الأستاذ المرحوم محمد ابا زهرة عدّه عالما في الأصول على المنهاجين الامامي والسني"[2]،وهي شهادة لها قيمتها العلمية.

ويبدو أن هذه الثقافة المزدوجة أثرت في منهج الطوسي ودراساته الى مدى بعيد، حتى انه اعتمد في كثير مما اورده في تفسيره من المآثور، على أهل السنة. وحتى انه سلك في أصول الفقة مالايسلكه الامامية عادة، من مثل قوله بالقياس والاستحسان في كثير من مسائل كتابية" المبسوط في الفقه"وخلاف الفقهاء"[3], وكأن ذلك صار من المآخذ عليه؛ اذ إن الامامية لايعملون بالقياس الشرعي الا في حدود، كما أنهم لايعولون على الاستحسان والرأي كما هو معروف عنهم.

وكانت ثقافة الطوسي الواسعة في الكلام- وله فيه اكثر من مؤلف- هي التي حدت الخليفة القائم بأمر الله أن يمنحه منصباً علمياً ممتازا هو كرسي علم الكلام.[4] الذي ما كان يحظى به الا من أوتى علما جما، وملكة فائقة،على

([1])الصدر: المعالم الجديدة في الأصول ص ٥٦-٥٧.

([2])ابو زهرة: الامام الصادق ص ٢٦٠.

([3])الخوانساري: روضات الجنان ٢١٧/٦.

([4]) الطهراني: حياة الطوسي ص(د).

المناظرة والحجاج. وكان الذين يأخذون منه في هذا العلم خاصـة، ينتمـون الـى مختلف المذاهب الإسلامية. وقد ذهب الأستاذ أبو زهرة الى أن ذلك هو السبب فـي رواية الطوسي عن غير الإمامية، باعتبار أن هذا المنصب "الذي يتلقى عنه فيه كل طلاب المسلمين من غير انحياز طائفى، بلا ريب يثمر ثمراته في رواياته،فينطلـق من القيد الطائفي الى طلب العلم من كل قبيل، غير مقيد الا بقيد الثقة والاطمئنـان". وعلى هذا الاساس رأى "ان الطوسي كان بشخصيته أول من حاول التقريب الفكري والنفسي بين طائفة الاثني عشرية وجمهور المسلمين"، ولم يجد إزاء ذلـك الا أن يقول: "وإنا لذلك لنرحب بتلك المقدمة التي ابتدأها ذلك العالم الجليل وهي مقدمـة يطمح اليها- لاشك- العالم[1]الاسلامي في حاضره، كما كان طموحـا اليـها فـي غابره".

(٣)
آثاره

ألف الطوسي في موضوعات شتى، في التفسـير والحديـث والفقـه وأصولـه والعقائد وعلم الكلام والتراجم والسير والعبادات والفقه المقارن والادعية وغيرهـا. وأكثر مؤلفاته مطبوع أو مخطوط، وقليل منها لم يصل الينا. ولعله موجـود فـي بعض المكتبات النائية، أو التي لم تنلها يد الفهرسة بعد، أو مطمـور فـي زوايـا النسيان.

وقد تجاوزت مؤلفاته المعروفة الخمسين. ما بين كتاب ورسالة. ذكر اكثرهـا في كتابه (الفهرست) ، وأشار اليه في تفسيره "التبيان" في مواضع كثـيرة. وهـا نحن نرتبها حسب موضوعاتها، على حروف المعجم:

الأدعية:

يعد الطوسي من اقدم المؤلفين في هذا الموضوع من الإمامية وغيرهم وقـد اعتمد عليه كثير ممن جاءوا بعده، يقتبسـون مـن مؤلفاتـه أو يختصرونـها أو يجعلون لها ذيولا وتتمات، ونحو ذاك مما يشعر باتصالهم العلمي بها واعتمـادهم عليها. والكتب التي ذكرت له في هذا المجال اثنان هما:

---

(1)الجليل وهي مقدمة يطمح اليها – لاشك- العالم.

١) (مختصر المصباح في عمل السنة): اختصره الشيخ من كتابه الكبير "مصباح المتهجّد" ويقال له أيضا: (المصباح الصغير)، وهو مخطوط.

٢-(مصباح المتهجّد في عمل السنة): وصفه الطوسي في الفهرست بأنه كبير وله مختصرات وذيول مثل "اختيار المصباح" لابن باقي و"تتمات لمصباح المتهجدّ" لابن طاووس و"منهاج الصلاح في مختصر المصباح" للحلي. طبع المصباح في طهران سنة ١٣٣٨هـ. وبهامشه ترجمته الفارسية للشيخ عباس القمى المتوفى سنة ١٣٥٩هـ.

أصول الفقه:

للطوسي كتاب قيم في هذا الموضوع هو(العدة في أصول الفقه) الذي يعد لدى الامامية أحسن المصادر الاصيلة في الاصول. الفه في حياة استاذه المرتضى بعد كتابيه: الاستبصار والتهذيب،وقد قسمه قسمين: الاول في أصول الدين، والثاني في أصول الفقه. قال عنه آغابزرك الطهراني: "وهو ابسط[١] ما ألف في هذا الفن عند القدماء، أفاض فيه القول في تتبع مباني الفقه بما لا مزيد عليه في ذلك العصر"[٢]. وهو مطبوع عدة طبعات. وقد اشار اليه الطوسي في تفسيره التبيان في غير موضع.[٣]

التراجم والسير:

وله فيها اربعة كتب هي:

١-(الرجال): الذين رووا عن النبي(ص) والأئمة الاثني عشر ومن تأخر عنهم، من الرواة واسم الكتاب يدل على مضمونه. وهو من أقدم وأشهر كتب الرجال عند الامامية، وقد يسمى "الابواب" [٤]أيضا، لانه مرتب على ابواب بعدد أصحاب النبي(ص) وأصحاب كل واحد من الائمة.

---

(١) يريد: اوسع، ولا يريد: اسهل.

(٢) الطهراني: حياة الطوسي (خ).

(٣)انظر مثلا ٣٠٣/١، ٣٩٤، ٣٩٨، ٢/٧٢...

(٤)الطهراني: الذريعة الى تصانيف الشيعة ١٢٠/١٠.

وفي آخره باب من رآهم ولم يرو عنهم. ويبدو انه الفه قبل سنة ٤٣٦هـ، لانه كان يذكر فيه أستاذه المرتضى، ويدعو له بما لا يدل على وفاته.[1]وقد اعتمد على هذا الكتاب عدد ممن ألف في الطبقات من أهل السنة كالحافظ ابن حجر العسقلاني في "لسان الميزان"[2] . والحافظ محمد بن علي الداوري في "طبقات المفسرين" [3]. والكتاب مطبوع أكثر من طبعة، آخرها بتحقيق محمد صادق بحر العلوم سنة ١٩٦١ في النجف.

٢-(اختيار الرجال): وهو تهذيب لكتاب " رجال الكشي" أبي عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز. وكان هذا الكتاب كثير الاغلاط، كما ذكر ابو العباس النجاشي، فعمد الطوسي الى تهذيبه وتجريده من أغلاطه، وأملاه على طلابه في مشهد الامام علي (ع) عام ٤٥٦هـ.

٣-(فهرست كتب الشيعة): ذكر فيه من صنف من الامامية، ومن صنف لهم وليس منهم. ورتبهم على حروف المعجم ليسهل الرجوع اليهم، مبينا أنه لم يرتبهم بحسب أزمانهم وعصورهم، بل ربما يتفق ذكر من تقدم زمانه بعد ذكر من تأخر وقته". وهو لا يكتفي فيه بذكر أسماء المؤلفين وأنما يتناولهم بالنقد توثيقا وتضعيفا. والكتاب من آثاره الثمينة، وقد اعتمد عليه الامامية منذ عصره حتى اليوم. اذ هو كما قال الاستاذ محمد ابو زهرة "سد فراغا في ذلك المذهب ما كان يمكن لغير الطوسي أن يسده"[4] وقد اعتمد الطوسي في فهرسته على الفهارس التي سبقته،كفهرست ابن النديم[5] ، وغلطة في ترجمة لوط بن يحيى[6]. كما اعتمد على فهرس محمد بن علي بن بابويه القمي[7]، الذي يعد من الكتب المفقودة. وأيضا نقل عن كتاب (الرجال) لابي عمرو الكشي[8]. طبع الفهرست في ليدن طبعة جيدة متقنة. وطبع ثانية في كلكتا بالهند سنة ١٢٧١هـ بعناية

---

(1) الطوسي: الرجال ص٤٨٥.

(2) ابن حجر: لسان الميزان ١٠٣/١ في ترجمة ابراهيم بن محمد الثقفي.

(3) الداودي: طبقات المفسرين ١٨/١ في ترجمة ابراهيم بن محمد الثقفي ايضا. وقال "ذكره الطوسي في رجال الشيعة".

(4) أبو زهرة: الامام الصادق ص٤٥٨.

(5) انظر الفهرست للطوسي ص٥٩،٦٦،٦٧، ٩٤، ٩٥، ١٢٩.

(6) انظر المصدر نفسه ص١٥٥.

(7) انظر المصدر نفسه ص٩٧.

(8) انظر المصدر نفسه ص٥٩.

المستشرق أ. شبرنجر والمولى عبد الحق، ثم طبع في النجف سنة ١٩٥٦ بتحقيق محمد صادق بحر العلوم، فجاءت هذه الطبعة وافية متداركة لما فات الطبعتين السابقتين.

٤-(مختصر أخبار المختار بن أبي عبيدة)، ويسمى اخبار المختار ايضا.

٥-(مقتل الحسين)، وكلاهما ذكره في الفهرست.

التفسير:

للطوسي ثلاثة آثار في التفسير هي:

١-(التبيان في تفسير القرآن): وهو من اهم كتب الطوسي وأشهرها، وأكثرها تميزا، ألفه بنمط جديد ومنهج مبتكر لم يسبق اليه. أذ هو أول تفسير للامامية يضم في أبواب متفردة مختلف مباحث التفسير وعلوم القرآن، كالقراءات وحجتها والمعاني، والاعراب، واللغة والنظم، وأسباب النزول وغيرها. وقد اشار الى هذا التفسير كثير من القدامى في تراجمهم للطوسي، كالسبكي[١] والصفدي[٢] وأبن حجر العسقلاني[٣] وابن تغري بردي[٤]وجلال الدين السيوطي[٥] وغيرهم. ووصفه الصفدي وأبن تغري بردى بأنه "تفسير كبير"، كما أشار اليه ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير[٦].

واسم التفسير: (التبيان في تفسير القرآن)، وهو الذي نص عليه معاصره وأستاذه أبو العباس أحمد بن علي النجاشي حين ذكر مؤلفاته[٧]. وما ذكره السيد مهدي بحر العلوم من أنه(التبيان الجامع لعلوم القرآن) غير صحيح، وكذلك من تابعه في هذه التسمية من المحدثين مثل عباس القمي[٨] ويوسف الياس

---

(١)طبقات الشافعية ١٢٦/٤.

(٢)الوافي بالوفيات ٣٤٩/٢.

(٣) لسان الميزان ١٣٥/٥.

(٤)النجوم الزاهرة ٨٢/٥.

(٥) طبقات المفسرين ص٢٩.

(٦)ابن تيمية: مقدمة في اصول التفسير ص٨٤.

(٧) رجال النجاشي ص٢٨٨،كما سماه بهذا الاسم محمد بن علي بن شهر آشوب المتوفى سنة ٥٨٨ في كتابه: معالم العلماء ص١١٤.

(٨) الكنى والالقاب ٣٥٧/٢.

سركيس[١] ،وحمد كمال الدين،[٢] وخير الدين الزركلي[٣] .فما ذكره النجاشي هـو الاثبت والاشهر لمعاصرته للطوسي.

وأبعد بعض المحدثين في تسمية التفسير، الذي كتب عن الطوسي في دائـرة معارف البستاني(البيان الجامع)[٤]، وسماه حاجي خليفة(مجمع البيان فـي تفسير القرآن).[٥]وهو اسم تفسير الطبرسي لا الطوسي. وتابعه في هذا الوهـم والخلط قاسم القيسي[٦]، عادا كتاب(جوامع الجامع) للطوسي ايضا، على حين هـو مـن مؤلفات الطبرسي في التفسير، وقد طبع طبعة حجرية في ايران. وسمى الدكتـور أحمد الشرباصي تفسير الطوسي:(البيان الجامع لكل علوم القرآن) [٧]فأبعد ايضـا في تسميته.

والتفسير يقع في الاصل في عشرين جزءا[٨]، غير ان إدماج النساخ لأجزائـه بعضها في بعض حمل بعض المعاصرين، وهو السيد حسن الصدر الكاظمي، علـى القول إنه يقع في عشرة أجزاء.[٩] .

طبع التبيان طبعتين: أولاهما في ايران ما بين سنتي ١٣٦٠هـ- ١٣٦٤هـ، وهي طبعة مليئة بالاغلاط اللغوية والمطبعية. والثانية في النجف ما بيـن سـنتي ١٩٥٧م- ١٩٦٣م في عشرة أجزاء، وهي طبعة جيدة بتحقيق أحمد شوقي الامين وأحمد حبيب القصير، الا أنها لم تخل من بعض الاغلاط المطبعية أشرنا الى شـيء منها، في أثناء دراستنا للتفسير؛ إذ كانت هذه الطبعة عمدتنا في هذا البحث.

---

(١)معجم المطبوعات العربية والمعربة ١٢٤٨/١٢.
(٢)فقهاء الفيحاء ص٨٢.
(٣)الاعلام ٣١٥/٦.
(٤)دائرة معارف البستاني ٢٤٠/٤.
(٥)كشف الظنون ٣٨٥/٢.
(٦)تاريخ التفسير ص/٧.
(٧)قصة التفسير ص٩٠.
(٨)الصفدي: الوافي بالوفيات ٣٤٩/٢ وبردي: النجوم الزاهرة ٨٢/٥ والسيوطي: طبقات المفسرين ص٢٩.والطهراني: الذريعة الى تصانيف الشيعة ٣٣٠/٣.
(٩)الصدر: تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام ص٣٣٩.

وللتبيان نسخ مخطوطة كثيرة، منها طائفة في العــراق بمدينــة النجــف[1]، ومنها طائفة خارجة عن النجف. وقد أشار آغابزرك الطهراني الى عدة نسخ فـــي ايران، كما ذكر أن لديه مجلداً ضخما منه يقع في ثلاثة اجزاء[2]

٢-(المسائل الرجبية في تفسير القرآن): وهي في تفســير آي مــن الكتــاب الحكيم وصفها الطوسي في الفهرست بأنها "لم يصنف مثلها"[3]..

٣-(المسائل الدمشقية في تفسير القرآن): قال في الفهرست هي "اثنتا عشــرة مسألة وكلتا هاتين المسألتين مفقودة"[4].

الحديث:

١-(الاستبصار فيما اختلف من الاخبار: وهو أحد المصادر الاصيلة الاربعة لــدى علماء الامامية، المعول عليها-بعد كتاب الله- في استنباط الاحكام الشــرعية منذ عصر الطوسي حتى يومناهذا، وقد ذكره في الفهرست وأحصى أحاديثــه بخمسة آلاف وخمسمئة حديث وهو مطبوع عدة طبعات.

٢-(تهذيب الاحكام): وهو الكتاب الآخر الاصيل لدى الامامية في الحديــث ألفــه قبل كتاب الاستبصار، وضمنه ما اتفق واختلف من الاخبار، على حين اقتصـر في الكتاب الاول على ما اختلف منها فحسب. وأحاديثه مرتبة على عدة كتــب في الفقه، مثل كتاب الطهارة وكتاب الصلاة وكتاب الزكاة... وهـــو مطبــوع طبعتين.

٣-(المجالس في الاخبار): وهو المعروف بالامالي،وسمي بذلك لأنه أملاه مرتبــا في عدة مجالس في النجف. وكان ابنه ابو علي الحسن الطوســـي قــد روى هذه المجالس عنه ما بين سنتي ٤٥٥-٤٥٧هـــ، ثم أملاها على تلامذته فـــي سنة٥٠٩هـــ. وهو مطبوع في النجف.

---

(١) انظر في مكتبة الحكيم العامة رقم ٢٦٦و ٥٠٧و ٢٣٠٤و٢٢٨٨(تفسير عربي). وفي مكتبة أمير المؤمنين ألعامة برقم٢٨١و ٢٨٤٦(تفسير) وفي فهرس خزانة الروضة الحيدرية ص٢٥.

(٢) الطهراني: الذريعة ٣/١٧٣،٣٢٩-٣٣١.

(٣) الطوسي: الفهرست ص١٩٠.

(٤) المصدر نفسه: المكان نفسه.

العبادات:

١-(الاقتصاد فيما يجب على العباد): بيّن فيه الطوسي العبادات الشرعية بصورة موجزة والكتاب مطبوع.

٢-(الجمل والعقود في العبارات): وصفه في الفهرست بأنه مختصر، وأحال اليه في تفسيره التبيان في مثل الكلام على مناسك الحج[١]. وهو مخطوط.

العقائد:

١-(اصول العقائد): وصفه الطوسي في الفهرست بأنه "كبير خرج منه الكلام في التوحيد وبعض الكلام في العدل". وأشار اليه في تفسيره التبيان.[٢]

٢-(تلخيص الشافي في الامامة): ذكره في الفهرست، وكذلك في التبيان[٣]. وهو تلخيص لكتاب

" الشافي في الامامة" لاستاذه المرتضى، الذي الفه في نقض باب الامامة من كتب "المغني" للقاضي عبد الجبار المعتزلي. طبع التلخيص في طهران، ثم في النجف بتحقيق حسين بحر العلوم.

٣-(شرح ما يتعلق بالاصول من جمل العلم والعمل): وهو شرح لما يتعلق بأصول العقائد من كتاب "جمل العلم والعمل" المطبوع لاستاذه الشريف المرتضى. ذكره في الفهرست، واحال اليه في التبيان[٤] وسماه (شرح جمل العلم).[٥]

٤-(الغيبة)، وهو كتاب يبحث في اعتقاد الامامية بغيبة الامام المهدي ، طبع بايران سنة ١٣٢٤هـ، والنجف سنة ١٣٥٨هـ،

٥-(المفصح في الامامة)، ذكره في الفهرست،وأشار اليه في التبيان في بحث يتعلق في الامامة وسماه (كتاب الامامة) [٦]. والكتاب مخطوط.

---

(١) الطوسي: التبيان ٢/١٥٤.

(٢)التبيان ٣/٢٢٠.

(٣)التبيان٢/٥٥٨.

(٤) التبيان ٢/٥٤٩، ٣/٤٧٠٩.

(٥) التبيان ٢/٥٤٩.

(٦)التبيان ٢/٤٨٦و٣/٥٦٣و٧/٤٥٧٠٠

علم الكلام:

١-(رياض العقول): وهو شرح لكتابه الموسوم: (مقدمة في المدخل الى علم الكلام)، ذكره في الفهرست بقوله "وله شرح لهذه المقدمة" بعد اشارته الى المقدمة المذكورة.

٢-(المسائل في الفرق بين النبي والامام)، ذكرها في الفهرست، وأوضع في (التبيان) بأنه املاها على طلبته، قائلا "وقد أملينا رسالة مقررة في الفرق بين النبي والأمام" [١].

٣-(الكافى في الكلام):وصفه ابن شهر اشوب بأنه كتاب غير تام. وهو مفقود.

٤-(مقدمة في علم الكلام): ذكرها في الفهرست ووصفها بأنها "لم يعمل مثلها" وقد شرحها قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي المتوفى سنة ٥٧٣هـ. وعزيز الله الحسينى المدرس بأردبيل سنة ٩٦٧هـ.

الفقه:

١-(الايجاز في الفرائض): وصفه في الفهرست بأنه "مختصر" وأشار اليه في تفسيره التبيان، ووصفه ابن شهر اشوب بأنه كتاب حسن. وهو مطبوع.

٢-(المبسوط في الفقه):ذكره في الفهرست أيضا وفي التبيان. وهو يشتمل على ثمانين بابا في فروع الفقه كلها، ولذلك وصفه بأنه "لم يصنف مثله". وهو من اجل كتبه الفقهية. ذكر ابن شهر آشوب. أنه في ثمانية أجزاء ولأنه كتاب حسن. طبع في ايران سنة ١٢٧٠هـ.

٣-(النهاية في مجرد الفقه والفتاوى): هكذا اورد اسمه في الفهرست، واصفا اياه بانه يشتمل على كثير من أبواب كتاب التهذيب. وهو من أعظم آثاره وأجل كتب الفقه ومتون الاخبار، كما يقول الطهراني[٢]. وكان عليه مدار الدراسات الفقهية عند الامامية منذ عصر مؤلفه حتى عصر نجم الدين ابي القاسم جعفر بن الحسن الحلي المشهور بالمحقق، والمتوفى سنة ٦٧٦هـ،

---

(١)التبيان ٤٤٩/١.

(٢)الطهراني: حياة الطوسي (أهـ).

"فكان بحثهم وتدريسهم فيه وشروحهم عليه، وكانوا يخصونه بالرواية والاجازة". [1] . طبع النهاية سنة ١٢٧٦هـ.

وقد ذكر الطوسي هذه الكتب الثلاثة في موضع من التبيان فقال "ومسائل المواريث وفروعها بسطناها في(النهاية)و(المبسوط) وأوجزناها في (الايجاز في الفرائض)، لا نطول بذكرها في الكتاب"[2].

وللطوسي في الفقه المقارن كتاب مهم هو:

(مسائل الخلاف مع الكل في الفقه): ويعد من خيرة كتبه الفقهية، إذ ذكر فيه مسائل الخلاف في الفقه بين الامامية وغيرهم من المذاهب الاسلامية كالأحناف والمالكية والشافعية والحنابلة. وأشار اليه في الفهرست، وأحال اليه في التبيان إحالات كثيرة [3]ويطلق الطوسي عليه فيه اسم(خلاف الفقهاء) أحياناً، و(الخلاف) أحياناً أخرى، كقوله"والظاهر" في روايات أصحابنا أن الساحر يجب قتله. وفيه خلاف ذكرناه في الخلاف".[4] .

وللطوسي عدة رسائل في الموضوعات التي بيناها آنفاً، لم نر ضرورة لذكرها وانما اكتفينا بالاشارة الى كتبه الهامة.[5] .

وهناك كتب نسبت الى الطوسي خطأ. فمثلا نسبت اليه دائرة المعارف- الاسلامية كتابي(الجوشن الكبير) و (الجوشن الصغير)[6]،على حين هما اسمان لدعاءين مأثورين عن علي بن الحسين زين العابدين عن النبي(ص). وقد رويا في كتابي(البلد الأمين) و (المصباح) لابراهيم بن علي الكفعمي العاملي المتوفى سنة ٩٠٠ هـ[7]. ونسبت اليه دائرة معارف البستاني[8]كتاب(الحل والعقد)، وليس له كتاب بهذا الاسم، غير أنه يحتمل أن يكون تحريفا لعنوان كتابه(الجمل والعقود)

---

(١)الطهراني: حياة الطوسي(أ هـ-أ و).

(٢)التبيان ١٣٧/٣.

(٣)التبيان ٣٨٤/١، ١٥٤/٢٥، ١٣٩/٣، ٤٠٥/٧-٤٠٦٠٠.

(٤)التبيان ٣٨٤/١.

(٥)لزيادة الاطلاع على كتبه ورسائله. ينظر: الطوسي الفهرست ص ١٨٩-١٩٠ والنجاشي:الرجال ص ٢٨٨ وابن شهر آشوب/ معالم العلماء ص ١١٤-١١٥ والطهراني:الذريعة ٣٦٥/١،٢/١٤-١٥، ٢٧٠، ٢٨٦، ٣١٠، ٣١٣، ٣٢٨/٣ومابعدها، ٥٠٤/٤، ١٤٥/٥، ٢٣٥/٧، ١٢٠/١٠.والزركلي: الاعلام٣١٥/٦. والعاملي: أعيان الشيعة ٤٧/٤٤-٥٠ط. بيروت ١٩٥٩.

(٦)دائرة المعارف الاسلامية ٣٧٧/١٥.

(٧)القمي: مفاتيح الجنان ص٨٦، وانظر في ترجمة الكفعمي: العاملي: أمل الآمل ٢٨٩/١.

(٨)دائرة معاني البستاني٢٤١/٤.

الذي ذكرناه سالفا في كتب العبادات. ونسبت اليه دائرة معارف البستاني[١] وخير الدين الزركلي[٢] كتاب(معالم العلماء)، على حين هو من كتب محمد بن علي بن شهر آشوب المتوفى سنة ٥٨٨ هـ، وهو مطبوع[٣] متداول. كما نسبا اليه[٤] (ثلاثون مسألة على مذهب الشيعة) و(اصطلاحات المتكلمين)، مع أنهما ليسا من مؤلفاته، ونسب اليه صاحب(الاعلام) كتاب (مصارع المصارع)، ورمز له بحروف الخاء دلالة على أنه مخطوط، وبين أنه رد على كتاب المصارع للشهرستاني الذي انتقد فيه بعض اقوال ابن سيناء وآرائه.[٥] وليس هذا من كتب أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي المفسّر، وانما هو من كتب سميّه ابي جعفر محمد بن محمد بن الحسن الطوسي النصيري المعروف بالخواجة وهو مطبوع. ونسب اليه صاحب" الاعلام" ايضا، كتاب (الفصول في الاصول)،[٦]وليس هذا من كتب الطوسي ، وانما له(العدة في أصول الفقه)وقد ذكرناه في كتبه سالفا.

تلاميذه ووفاته:

درس على الطوسي كثير من طلبة العلم في عصره ، حتى قيل إن تلامذته من الامامية ثلاث مئة ومن الجمهور عدد كبير [٧]. غير أن المعروف منهم نيِّف وثلاثون شيخا[٨]، تصدروا من بعد للتدريس والفتيا والرواية. وقد آثرنا ان نذكر من اشتهر منهم بالرواية والتأليف، وخاصة أولئك الذين عمدوا الى توضيح مذهب الامامية وتقويته في نفوس الأتباع، ومن ثم المساعدة على نشره، وذلك بما ألفوه من كتب في عقائد الامامية كالإمامة مثلا. واشهر تلاميذ الطوسي ابنه أبو علي الحسن بن محمد الطوسي المتوفى سنة ٥١٥هـ. خلف آباه بعد وفاته في الافتاء والتدريس، فصارت الرحلة اليه من بعده. وهو الذي روى عنه اماليه- المتداولة المطبوعة- ثم املاها على طلبته سنة ٥٠٩ هـ، في مشهد الامام علي بالنجف ،

---

(١) المصدر نفسه: المكان نفسه.

(٢) الاعلام ٦/٣١٥.

(٣) طبع الكتاب أكثر من طبعة آخرها في النجف سنة ١٩٦١.

(٤) دائرة معارف البستاني ٤/٢٤١ والزركلي: الاعلام ٦/٣١٥.

(٥) الزركلي: الاعلام ٦/٣١٥.

(٦) المصدر نفسه: المكان نفسه.

(٧) الخوانساري: روضات الجنات ٦/٢١٩ والقمي: الكنى والالقاب ٢/٣٥٨.

(٨) انظر : الطهراني: حياة الطوسي(أو)-(أي).

فحفظ بذلك أثراً هاما من آثار الطوسي. ويشعرنا بذلك قول الراوي لهذه الأمالي عنه: حدثني الشيخ السعيد أبو علي الحسن بن محمد بن الحسن الطوسي رحمه الله بمشهد مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه/ قال: حدثنا الشيخ السعيد الوالد ابو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي رحمه الله..[1] .

وابو علي من جملة من احتفظ برواية صحيحة لتفسير التبيان، اذ كان قد قرأه على أبيه في سنة ٤٥٥ هـ، فأجازه به مع تلميذين آخرين قرآه عليه، كما يشعر تقرير الطوسي في ظهر احدى نسخ التبيان.[2] ولابي علي ، غير رواية الأمالي، من الآثار كتاب" المرشد الى سبيل المتعبد"[3].

وظل ابو علي ينشر على تلاميذه ما اجتناه من علم أبيه، وكان لتقواه وصدقه فيما يحدّث به، موضوع عناية علماء الجمهور أيضا، اذ ذكر ابن حجر ثلاثة ممن رووا عنه منهم، وهم:الفضل بن عطاف وهبة الله السقطي ومحمد ابن محمد النسفي، ثم أثنى عليه مبينا أنه كان ورعا متدينا.[4].

ومن تلاميذ الطوسي المعروفين بالتأليف والرواية ابو بكر أحمد بن الحسين النيسابوري نزيل الري،وصفوه بأنه عدل ثقة جليل وأنه قرأ على الرضي والمرتضى والطوسي، وأن له مؤلفات منها: "الأمالي في الاخبار" بأربع مجلدات، و" عيون الاحاديث" و" الروضة في الفقه" و" السنن و" المفتاح في الأصول" و" المناسك"[5]

ومن تلاميذه ابو الخير بركة بن محمد بن بركة الأسدي، وصفه محمد ابن الحسن العاملي المتوفى في سنة ١١٠٤ هـ، بأنه فقيه ديّن،[6] وترجم له ابن حجر في لسان الميزان، ناقلاً عن فهرست منتجب الدين بن بابويه اسماء كتبه الثلاثة: "حقائق الايمان في الأصول"و"الحجج في الامامة" و" عمل الأديان والأبدان،[7]وهي الكتب التي ذكرها العامليان[1] في ترجمتهما له.

---

(1) الطوسي: الامالي ٣١/١.

(2) العاملي: محسن الامين-: أعيان الشيعة ١٩٧/٣١ ط١ بدمشق ١٩٤٦.

(3) ابن شهر آشوب: معالم العلماء ص ٣٧-٣٨.

(4) ابن حجر: لسان الميزان ٢٥٠.

(5) العاملي- محمد بن الحسن--:أمل الآمل ٤٣/٢ والعاملي -محمد الامين- أعيان الشيعة:٥٧/٨ من الطبعة الاولى بدمشق.١٩٣٨.

(6) العاملي : أمل الآمل٤٣/٢.

(7) ابن حجر: لسان الميزان ٩/٢.

ومن تلاميذ الطوسي النابهين ابو الصلاح تقي الدين بن النجم الحلبي. كـــان من مشاهير فقهاء حلب، ووكيلا له في بلاد الشام[٢] ، وقد ذكره في كتاب" الرجـــال" ووثقه وبين انه قرأ عليه وعلى المرتضى[٣]، وقد عدَّ هذا التنويه دليلا على جلالـــة الرجل ومنزلته في العلم والدين[٤] وللحلبي مؤلفات، رأي محمد بن الحسن العـاملي منها كتاب" تقريب المعارف"،ووصفه بأنه"حسن جيد"[٥]. وذكر ابن شهر آشـوب أن له" البداية في الفقه" وشرح" الذخيرة في أصول الفقه للمرتضى".[٦]

ومن تلاميذ الطوسي الموثقين أبو عبد الله محمـــد بـــن هبـــة الله الـــوراق الطربلسي، قرأ على الطوسي جميع مؤلفاته، ونال اجازتـــه فـــي روايـــة تفســيرة التبيان.[٧] وله مصنفات منها" الزهد" و" النيّات" و" الفرج"[٨] و" الواسطة بين النفي والاثبات"و" مالايسع المكلف إهماله" و" عمل يوم وليلة"و"الزهرة في أحكـام الحـج والعمرة"و" الانوار" و" الاصول والفصول" و" المسائل الصيداوية"[٩]، فهو إذاً مـــن المكثرين في التأليف كما ترى.

ومن تلاميذ الطوسي الكبار الحسن بن الحسين بن يابويه القمـــي المعـروف بـــ" حسكا" وهو من أسرة علم وديـــن. وممـــن قراءتـــه علـــى الشـيخ جميـــع تصانيفه[١٠]. وقد اجازه في رواية التبيان بعد قراءته عليه[١١] وله عـــدة مؤلفـــات منها كتاب" العبادات" و" الاعمال الصالحة " و"سير الأنبياء والأئمة".[١٢]

ومن هؤلاء التلاميذ ابو الفتح محمد بن علي بن عثمان الكراجكي، قال عنـــه العاملي:" عالم فاضل متكلم فقيه محدَّث ثقة جليل القدر"[١٣]وله كتب فـــي اصـــول

([١]) العاملي- محمد بن الحسن:أمل الآمل ٤٣/٢والعاملي محمد الامين- أعيان الشيعة:٤٢١.
([٢])الخوانساري/ روضات الجنات ١١٢/٢-١١٣.
([٣])الطوسي: الرجال ص ٤٥٧.
([٤]) الخوانساري/ روضات الجنات ١١٣/٢.
([٥]) العاملي : أمل الآمل٤٦/٢.
([٦]) ابن شهر آشوب: معالم العلماء ص ٢٩.
([٧]) العاملي : أعيان الشيعة ١٩٧/٢١ ط١ بدمشق.
([٨]) العاملي : أمل الآمل٣١٣/٢.
([٩]) ابن آشوب: معالم العلماء ص ١٣٤.
([١٠]) العاملي :أمل الآمل ٦٤/٢ والعاملي: أعيان الشيعة ١٩٧/٢١، ط١ .
([١١]) العاملي : أعيان الشيعة ١٩٧/٢١ .
([١٢])العاملي: أمل الامل ٦٤/٢.
([١٣]) نفسه ٢٨٧/٢.

العقائد والفقه وغيرهما منها: " الامامة" و " الاستبصار في النص على الأئمة الأطهار" و" الا بانة عن المماثلة في الاستدلال بين طريق النبوة والامامة"و "الكروالفر في الامامة "، و " كنز الفوائد ومعدن الجواهر" و" رياض الخواطر" و"أخبار الآحاد" و" المنهاج في معرفة مناسك الحج" و" شرح جمل العلم" للمرتضى "والاستطراف في ذكر ما ورد في الفقه من الانصاف".[1] وممن تلمذ للطوسي أبو محمد زيد بن علي بن الحسين الحسنى، وصفه بأنه "صالح عالم فقيه"، وذكروا له كتبا هي "المذهب" و"الطالبية" و"علم الطب عن أهل البيت"[2].

ومن تلاميذه أيضا ناصر بن الرضا بن محمد العلوي الحسيني، وصف بأنه "فقيه صالح ثقة محدث" ، وأن له من المؤلفات كتابا في مناقب آل الرسول، وكتب أدعية زين العابدين علي بن الحسين، وكتاباً فيما جرى بينه وبين أحد الفضلاء من المكاتبات والمطايبات[3]. فكان هذا الرجل أديباً فوق انه فقيه.

ومن أشهر تلاميذ الطوسي وأنبههم محيى الدين الحسين بن المظفر الحمداني نزيل قزوين وصفوه بأنه "ثقة، وجه، كبير" وأنه قرأ على الشيخ جميع تصانيفه لمدة ثلاثين سنة، وأن له مؤلفات منها "هتك أستار الباطنية" ونصرة" الحق"و "لؤلؤة التفكر في المواعظ والزواجر"[4] .

هذه قبسة من تلاميذ الطوسي، وكلهم كما ترى من أهل العلم والفضل بما لهم من آثار متنوعة عديدة. وهذا أن دل على شيء، فانما يدل على أثر الطوسي في الجيل الذي عاصره من طلبة العلم، بل في الاجيال التي تلته، إذ إن هؤلاء الطلبة، العلماء، حملوا من بعد علم الشيخ وعلم بقية الشيوخ الذين أخذوا عنهم، ونشروه بين جماعة الامامية ولذلك اطلقوا على الطوسي لقب "شيخ الطائفة"[5] . و"الشيخ" [6] بحيث صار علما له بالغلبة، فاذا أ طلق أي منهما لم ينصرف الى غيره.

([1])العاملي: أمل الآمل ٢٨٧/٢ وابن شهر آشوب: معالم العلماء ص١١٩.

([2]) العاملي: آمل الامل ١٢٢/٢.

([3]) نفسه ٣٣٤/٢.

([4]) نفسه ١٠٣/٢.

([5])الطهراني: الذريعة الى تصانيف الشيعة ٣٢٨/٣. وقد وهم محمد هدايت حسين في دائرة المعارف الاسلامية حين قال ان الطوسي "اشتهر عامة بشيخ الطريقة" ؛إذ ان هذا ليس من القابه، وكأنه بألقاب الصوفية أشبه، ولم يكن الطوسي متصوفا، بل كان متكلما. انظر دائرة المعارف الاسلامية ٣٧٧/١٥.

([6]) انظر دائرة المعارف الاسلامية ٣٧٧/١٥.

وأختلف الذين ترجموا للطوسي اختلافا غير قليل في تاريخ وفاته، فاغلبهم ذكروا أنه توفى سنة ٤٦٠هـ. كابن الجوزي[١]وابن الأثير[٢].وتاج الدين السبكى[٣] وابن تغري بردي [٤] وابن حجرالعسقلاني[٥]والسيوطي[٦].وروندلسن[٧].
وزاد الحلي: أنه توفى في ليلة الاثنين الثاني والعشرين من شهر محرم من تلك السنة [٨]، فحدد تاريخ وفاته تحديدا دقيقا. وتفرد الصفدي بجعل وفاته سنة ٤٥٩هـ[٩] .وعدها ابن شهر آشوب المازندرانى في أخر المحرم سنة ٤٥٨هـ[١٠] . ولم يقطع هدايت حسين في دائرة المعارف الاسلامية بسنة وفاته، بل بين أنه توفي في رواية معظم أصحاب كتب التراجم بالنجف في سنة ٤٦٠هـ،أو في سنة ٤٥٨هـ في قول بعض الروايات،[١١]،وذكر ابن حجر أن بعضهم ارخ وفاته بسنة ٤٦١هـ،[١٢]، بعد أن اشار الى أنه توفي في سنة ٤٦٠هـ كما بينا آنفا. وذهبت دائرة معارف البستاني الى ان وفاته اما في سنة ٤٦٠هـ واما في سنة ٤٥٩ هـ[١٣]. ويبدو ان الكاتب اعتمد فيها على ما أورده الصفدي.والذي يطمئن اليه الدارس أنه توفى سنة ٤٦٠ هـ عن عمر يناهز الخامسة والسبعين، اذ هو الأشهر الذي عليه جمهور من ترجم له، وبخاصة من الإمامية، الذين هم أكثر بحثا في سيرته. فلا يلتفت والحال هذه إلى بقية التواريخ؛لأنها عدت أشبه بروايات الآحاد في مقابل الروايات المتواترة التي يستبعد فيها التواطؤ على الكذب أو الخطأ. وهذا التاريخ هو الأثبت عند السيد مهدي بحر العلوم، إذ نراه يقول بعد إشارته الى شيء من هذا الاختلاف:" والأثبت وفاته عام ستين"[١٤] .وذكر

---

(١)المنتظم: ٨/٢٥٢.
(٢) الكامل في التاريخ١٠/٥٨.
(٣) طبقات الشافعية ١٢٧/٤.
(٤) النجوم الزاهرة ٨٢/٥.
(٥)لسان الميزان ١٣٥/٥.
(٦) طبقات المفسرين ص٢٩.
(٧)عقيدة الشيعة ص٢٨٦.
(٨) الحلي: الرجال ص١٤٨.
(٩) الوافي بالوفيات ٣٤٩/٢.
(١٠) معالم العلماء ص١١٤.
(١١) دائرة المعارف الاسلامية ٣٧٧/١٥.
(١٢) لسان الميزان ١٣٥/٥.
(١٣)دائرة معارف البستاني٤/٢٤٠.
(١٤)بحر العلوم: الفوائد الرجالية ١٠٢/٤.

جميع من ترجم له أنه توفى بمشهد الإمام علي بن أبي طالب بالنجف.[1]الا أن تـاج الدين السبكي ذكر أنه توفى بالكوفة[2] ، وتابعه في هذا روندلسن[3]وخـير الديـن الزركلي[4]الذي عده الطهراني ساهيا فيما ذكر.[5]واحتمل محمد صادق بحر العلـوم أن يكون النجف اذ ذاك ضمن الكوفة، وهذا ليس ببعيد، فيكون الاخبار عـن دفنـه بالكوفة مع أنه في النجف من باب تغليب الكل على الجزء. دفـن الطوسـى فـي داره[6]، وتولى غسله ودفنه بعض تلاميذه.[7]وصارت داره بعد ذلك مسجدا، وصار قبره مزاراً، وهما اليوم في محلة المشراق بمدينة النجف، وعرف مسجده من بعـد بمسجد الطوسي، وهو قريب من مرقد الامام علي(ع)، اذ لايبعد عنـه أكـثر مـن خمسين مترا من الجهة الشمالية. وسمي الباب الذي يؤدي اليه من جهة المرقـد" باب الطوسي"، وهو معروف لدى زوار الامام.

وبمرور الزمن غدا مسجد الطوسي مدرسة من مـدارس العلـم الكـبرى، اذ كانت الحلقات العلمية تعقد فيه لكبار مجتـهدي الاماميـة وفقهائـهم علـى مـرّ العصور.[8].

([1])كابن الجوزي في المنتظم ٢٥٢/٨ والحلي في الرجال ص١٤٨ وابن كثير في البداية والنهاية ٩٧/١٢.

([2])السبكي: طبقات الشافعية ١٢٧/٤.

([3])عقيدة الشيعة ص٢٨٥

([4])الاعلام ٣١٥/٦.

([5]) الطهراني: حياة الطوسي(أبي).

([6]) الحلي: الرجال ص١٤٨.

([7])الخوانساري/ روضات الجنات٢١٧/٦.

([8])بحر العلوم- محمد صادق: مقدمة رجال الطوسي ص١١٦-١١٧.

المبحث الثاني
تفاسير معاصرة لتفسيره

تفاسير للرضي والمرتضى:

كان التفسير عند الامامية حتى بداية القرن الرابع الهجري نقليا، لايتجاوز تفسير القرآن بالمأثور عن النبي(ص) والأئمة وعدد من الصحابة والتابعين. الا أنه لم يستمر على هذه الحال، بل بدت بوادر جديدة تظهر فيه،اساسها العناية بالرأي الى جانب النقل. وكان ذلك قبيل القرن الخامس الهجري بقليل. على يدي الشريفين محمد بن الحسن الرضي المتوفى سنة٤٠٦هـ، وأخيه علي بن الحسين المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ، اللذين كانا الممهدين للتفسير بالرأي عند الامامية. غير أنهما في الواقع لم يحررا ذلك في كتاب تفسير منهجي منظم، وانما أورداه في كتابين: أحدهما، وهو الذي من تأليف الرضي، يعد من كتب معاني القرآن، والآخر الذي من تأليف المرتضى يعد من كتب الأدب. وقد رأينا أن ننوه بهما بوصفهما الخطوة الاولية السابقة لمنهج التفسير بالرأي عند الطوسي.

ويبدو أن هذا المنهج الجديد الذي تجلى في محاولة الشريفين، كان ثمرة الحياة العلمية التي شهدتها بغداد أواخر القرن الرابع الهجري، وأن المؤثرات الفكرية والعقلية التي واكبت تلك النهضة هي التي ولدته. ويبدو أن للتقارب الواضح بين علماء الامامية والمعتزلة في هذه الحقبة اثره ايضا. وآية ذلك مانجده في كتاب(حقائق التأويل) للرضي من نقول عن كبار المعتزلة كأبي علي الجبائي[1]وابي علي الفارسي[2]وعلي بن عيسى الرماني[3]وأبي مسلم الاصفهاني[4] والقاضي عبد الجبار الهمداني[5].وقد صرح الرضي في بعض المواضع من هذا التفسير باطلاعه على كتب المعتزلة، كقوله في تفسير الآية٤٨ من النساء:" ان هذه الآية قد استقصى الاجوبة عنها شيوخ أهل العدل في كتبهم عند الكلام المتعلق بالوعيد".[6]وايضا فإن النقاش الكلامي في المسائل العقيدية بين الامامية

---

(١) الرضي: حقائق التأويل في متشابه التنزيل ص ٥٢، ٩٢.٥٣.

(٢)حقائق التأويل ص١٠.

(٣) حقائق التأويل ص٨٧-٢٢١.٨٨.

(٤) حقائق التأويل ص٢١٨.١٣٧.٩٥.

(٥) حقائق التأويل ص٥٩.٤١.٢٢.١٠.

(٦) حقائق التأويل ص ٣٦١.

والمعتزلة، يشعر بنمو هذا الاتجاه العقلي، وهو جلي فـــي رد المرتضـــى بكتابـــه" الشافي في الامامة" على ماكتبه القاضي عبد الجبار في الامامة من كتابه الكبـــير:" المغني".

ويبدو ان ظهور هذا التأثير في كتابات الشريفين هـــو الـــذي حـــدا بعـــض المعاصرين على أن يعدوا المرتضى من المعتزلة، مع أنه امامي بشهادة كـــل مـــن ترجم له من القدامى. قال ابن كثير في ترجمته له:" علي بن الحسين بن موسى بن جعفر.. الشريف الموسوي الملقب بالمرتضى.. له تصانيف فـــي التشـــيع اصـــولا وفروعا، وقد نقل عنه ابن الجوزي أشياء عن تفرداته في التشيع"[1] ،وايضا فـــأن مؤلفاته في الأصول والكلام تدل على ذلك. وكونه يأخذ ببعض آراء المعتزلة فـــي الفروع لايخرجه من فرقته الى فرقتهم من غير ريب. وقد صرح الحاكم الجشـــمي الزيدي بأنه امامي.[2].

ويبدو أن جولدتسهر ساعد في اشاعة هذا الوهم بين المعـــاصرين؛ اذ تكلـــم على منهج المرتضى بايجاز ضمن مناهج المعتزلة.[3]فكان هذا خطأ آخـــر اضافـــة الى خطئه في الاعتماد على تفسير القمي وحده، في بيان منـــــهج التفســـير عنـــد الامامية.

(١)
التفسير في حقائق التأويل للرضي

وكتاب الرضي الذي ورد فيه تفسير لآي من الذكر الحكيم، هو كتاب(حقـــائق التأويل في متشابه التنزيل)، تناول فيه تفسير الآيات المتشابهات. وهو كتاب يـــدل على معرفة وافية بالعلوم الإسلامية والعربية. وقد شهد للرضي بذلك شـــيخه ابـــو الفتح بن جني حين قال:"إن الرضي صنف كتاباً في معاني القـــرآن يتعـــذر وجـــود مثله، دل على توسع في علم النحو واللغة."[4].

والكتاب في الأصل يقع في عشرة أجـــزاء، الا أن الموجـــود منـــه الجـــزء الخامس فقط، وبقية الأجزاء مفقودة،وتدور مادته الأصلية على تأويل مجموعة من

---

(١)ابن كثير: البداية والنهاية ٥٣/١٢.
(٢)الجشمي: شرح العيون ، ٣٨٣.
(٣)جولدتسهر: مذاهب التفسير .. لامي ص ١٣٦ وما بعدها.
(٤)ابن خلكان/ وفيات الأعيان ٤٥/٣

الآيات المتشابهات، وتشعرنا طريقة تفسيرها بالحرص على دفع شبهة أو ازالة وهم أو رد اعتراض معترض. وتتعلق تلك الشبهات بلغة القرآن وتعبيره بصيغة دون أخرى، كما تتعلق بمعانيه وهو الأكثر. وقد رتبها الرضي على شكل أسئلة يثيرها سائلون تحمل في طياتها تلك الشبهات والأوهام. فيجيب عنها بما يجلى الحقائق ويرد الاشكالات. وهو لايدخر وسعا في التوسل بما يوصله الى غايته، من رجوع الى الآيات المحكمات ورد المتشابهات اليها، واحتكام الى أسلوب القرآن وسياقه، واستئناس بالآثار المروية عن النبي(ص) وصحابته وتابعيهم، وأحيانا عن الائمة، واستشهاد بكلام العرب وأساليبهم في الاداء والتعبير. وعناية بآراء المفسرين واللغويين والمتكلمين والفقهاء من مختلف المذاهب الاسلامية.

فالرضي يفسر القرآن ، اذ يرد الآيات المتشابهات الى الأخر المحكمات ليفسرها بها. وله في ذلك اصل يقرره ويلتزم به في كتابه كله وهو " ان من صفة المتشابه الا يقتبس ظاهره وفحواه، فوجب رده الى ماورد من المحكم في هذا المعنى".[1].وقد حد المحكم بموافقته لدلالة العقل، والمتشابه بمخالفته لتلك الدلالة،[2]وطبق هذا المنهج في تفسيره للآتي. ففي وقوفه عند: قوله تعالى (ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا).[3]. يبين الرضي أن الآية لايمكن أن تحمل على ظاهرها؛ أنها لو حملت على الظاهر لأدتنا الى أن الله سبحانه يضل عن الإيمان. وقد قامت الدلائل على أنه لايفعل ذلك؛ لأنه قبيح وهو غنى عنه، ولأنه امرنا بالأيمان وحببه الينا، فكيف يزيغ قلوبنا عنه؟. ثم يبين أن الازاغة ترد في المحكم تارة وفي المتشابه اخرى، فلابد من ردها في هذه الاية المتشابهة الى أختها المحكمة، وهي قوله تعالى(فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم)، التي اعلمتنا أن الزيغ الاول كان منهم، وأن الثاني كان من الله عقوبة لهم. وأن الزيغ الاول غير الثاني، لأن الاول قبيح والثاني حسن؛ اذ كان جزاء وعقوبة.. فعلمنا أن زيغهم كان عن الايمان وازاغته تعالى لهم، انما كانت عن طريق الجنة والثواب.[4] وهو في هذا

---

(1) حقائق التأويل ص٢٣.

(2) حقائق التأويل ص ٢٧٧.

(3) آل عمران:٨.

(4) حقائق التأويل ص٢٤.

يستمد من المبرد والرماني، اذ كانا يعدان نسبة المكر والزيغ والخداع الى الله تعالى ضربا من المزاوجة المراد بها الجزاء..[1]

والرضي حين يفسر القرآن بالقرآن يلحظ السياق فيجعله قرينة على تبين معاني الآي وبيان الصحيح من السقيم من اقوال المفسرين. فحين فسر بعضهم الملك في آية آل عمران(تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء)[2].بالجنة، استبعد الرضي تفسيره، ورأى فيه استكراها وتعسفا، مبينا ان سياق هذه الاية والاية التي تليها يدلان على أن هذا الملك الذي يؤتيه الله وينزعه انما هو في الدنيا دون الاخرة. يقول :" الا ترى الى قوله تعالى تالى ذلك(وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير تولج الليل في النهار وتولج النار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي..)وهذا كله من أحوال الدنيا لامدخل فيه لأمر الآخرة".[3].

وعناية الرضي بالمأثور عن النبي(ص) والصحابة والتابعين والأئمة في تأويل الآي وتفسيرها، لاتقل عن عنايته بالسياق، اذ نراه يورد كثيراً من الروايات التي تعضد رأيه في معاني الآيات المتشابهات او المحكمات. من ذلك مابينه تعليقا على قوله تعالى(الحق من ربك فلا تكونن من الممترين).[4]أذ وردت شبهة تقول: ظاهر هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله، فكيف يجوز عليه الامتراء والشك وقد باشر برد اليقين وتلقى عن الروح الامين، والشكاك لايكون نبياً ولا عن الله مؤديا"؟ فيجيب عنها الرضى بأربعة وجوه منها:" أنه يجوز أن يكون تعالى أمر النبي بألا يكون من الممترين ليس بأنه داخل معهم في المرية والشك، ولكنه سبحانه أمره بألا يكون منهم بالمقاربة لهم والصبر عليهم والمقارّة على قبيح فعلهم. ثم يستشهد لهذا التأويل بقول النبي (ص): (ليس منا من غشنا) ويبين أن بعض العلماء فسره:ليس من أفعالنا أو أخلاقنا، أو ليس ممن نتولاه ونحبه ونحمد طريقته ومذهبه، وأن الأمام عليا قال:" ليس منا ههنا معناه: ليس مثلنا".[5].

([1])انظر:ما اتفق لفظه واختلف معناه للمبرد ص ١٤.والنكت في اعجاز القرآن للرماني ص٩٩.

([2])آل عمران: ٢٦.

([3]) حقائق التأويل ص٦٥-٦٦.

([4])آل عمران: ٦٠.

([5]) حقائق التأويل ص ١٠٧-١٠٨.

وفي تفسير قوله تعالى(واذ أخذنا ميثاق النبيين لما أتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه..)[1]، يورد الرضي رواية مأثورة عن الامام علي والحسن البصري والسدّي، ان ذلك عهد أخذ على الأنبياء: لئن بعث محمد(ص)وهم احياء، ليؤمنن به ولينصرنه.[2]وفي رواية أخرى يوردها عن ابن عباس وطاووس: أن الذين أخذ ميثاقهم هم الأنبياء دون أممهم ليصدق بعضهم بعضا، ويشهد بعضهم على بعض.[3]وهناك روايات اوردها في مواضع متباينة من كتابه، مروية عن محمد الباقر[4]وجعفر الصادق[5]وابي العالية[6] وعكرمة[7] والشعبي[8] وقتادة[9] والنظام[10].

وهو يعتمد على المأثور في بيان أسباب النزول، ويجعله قرينة من الخارج دالة على معنى الآية [11]كما ينقل الاجماع على سبب النزول في بعض المواضع.[12]ويستعين بالمأثور في التفسير القصصي، فيقبل منه مايراه قريبا.[13]ويرد ما لايراه كذلك، وخاصة حين يكون من أخبار الاحاد، كالذي روى عن النبي (ص) في صعوده الى السماء، ودخوله الجنة وما شاهد فيها من الاشجار والثمار حتى وصف نبقها كأنه القلال..[14].

وما حكي عنه (ع) من اجتماعه مع بعض الانبياء فيها، الى غير ذلك مما يطول ذكره. فهي أخبار آحاد لايعتمد عليها في هذا الباب، وليس طريقها العلم، وانما يجب ان يعمل في ذلك على القطع والتحقق، كما يقول [15]

([1])آل عمران: ٨١.

([2]) حقائق التأويل ص ١٣٣.

([3]) حقائق التأويل ص١٣٣- ١٣٤.

([4]) حقائق التأويل ص٢٩١.

([5]) حقائق التأويل ص٣٧٥.

([6]) حقائق التأويل ص ٧٤.

([7]) حقائق التأويل ص١٢١.

([8]) حقائق التأويل ص ١٥٢.

([9]) حقائق التأويل ص٢٧٣.

([10]) حقائق التأويل ص٩٨.

[11] حقائق التأويل ص٧٤.

([12]) حقائق التأويل ص١٠٩.

([13]) حقائق التأويل ص١٧٥-١٧٦.

([14])في الاصل" كالقلال".ولا حاجة لكاف التشبيه مع وجود (كأن) وهو من أخطاء النساخ.

([15]) حقائق التأويل ص٢٤٧.

وبالمثل نراه يستبعد الاخبار التي هي من قبيل الإسرائيليات، اذا صادمت أسس العقيدة الإسلامية، فلم يرتض مثلاً ماروي عن عكرمة والسدي من "ان الملائكة لما نادت زكريا بالبشرى، اعترض ذلك النداء الشيطان، فوسوس اليه أن ما سمعه من غير جهة الملائكة، وأنه من جهة الشيطان.. فشك حينئذ وقال:" رب أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر".[1]

والكلام هنا يسلم الى التفسير بدليل العقل عند الرضي؛ اذ أثر العقل واضح في تأويله للآى. وقد رأيناه آنفا يقف وقفات عقلية عند المأثور ناقدا له. وهو كغيره من الامامية يعتمد العقل ويجعله حجة بعد السمع، ويتخذه وسيلة في تبين معاني الآي، فالاية الكريمة (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم).[2]،تثير مسألة تتعلق بأفعال الانسان، هل هو مخير فيها أو مجبر عليها؟..

والرضي يقف هنا موقفا عقيدياً واضحاً، اذ يقرر ان الإنسان مخير في أفعاله وليس مجبرا. وهو يبدأ بيانه لهذا الرأي بافتراض اعتراض بهذه الصيغة" فحوى هذا الكلام- يريد الذي في الاية - يدل على ضد ماتدعونه من أن الانسان يمتنع عن فعل ماكتب عليه وعلم منه، وهو قادر على ذلك غير عاجز عنه" فيجيب عنه قائلا:" ان الذي ادعاه الخصم على مخالفيه غير صحيح عنهم ولا هو قول لأحدهم، وذلك ان اهل الحق لايقولون ان احدا من العباد يجوز ان يقع منه خلاف ماعلم الله سبحانه ان يفعله، ومع ذلك فمن قولهم:ان العباد وان كانوا سيفعلون ماعلم الله انهم يفعلونه لامحالة ، فأنهم غير مضطرين ولا مقهورين، بل قادرون مختارون. وبعد فليس في وقوع المعلوم من فعل الفاعل دليل على اضطراره وعدم اختياره؛ لأن المسلمين مجمعون على ان ماعلم الله سبحانه انه يفعله فاعل له لامحالة. وليس يوجب ذلك أن يكون مضطراً او مضطهدا"[3].فهو ينفي هنا مايسموه احيانا:الإلجاء او الاضطرار؛لأنه لايليق بعدالة الخالق سبحانه، اذ كيف يلجئ ويضطر ثم يحاسب ويعاقب؟فهذا اصل هذه النظرية عند من يقول بحرية الاختيار في الافعال.

---

(1) حقائق التأويل ص٩٢ وفي تفسير الاية ٤٠ من آل عمران

(2) آل عمران: ١٥٤.

(3) حقائق التأويل ص٢٦٦-٢٦٧.

وتفسير القرآن باللغة: من منهج الرضي في تأويل الآي، وقد اصّله على قاعدة مهمة هي أن القرآن لايحمل الا على اللغة الفصحى والطريقة المثلى.[1]ولذلك رد قول ابي مسلم الاصفهاني المعتزلي، حين جعل معنى" كنتم خير أمة" صرتم خير امة" مبينا أن فيه بعداً شديداً من سنن فصاحة اللسان العربي،" وذلك أن كان بمعنى صار،وان استعملت على بعض الوجوه، فليس بالفصيح الجيد".[2].

وهو يربط تعابير القرآن بتصاريف العرب للكلام، وعدته في ذلك الشعر القديم واقوال العرب وأمثالهم، فنراه مثلا يحتج على ان المجلس يسمى عند العرب مقاما ببيت لبيد بن ربيعة، وهو قوله

ومقامة غلب الرقاب كأنهم *** جن البدي رواسياً اقدامها

اذا أورده في تفسير قوله تعالى(قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك).[3]والبيت ملفق من بيتين للبيد، أخذ من أحدهما الصدر،[4]ومن الآخر العجز[5].ويبدو أنه وهم في ذلك، أو أن رواية البيت وصلت بهذه الصيغة.

وعنى الرضي، بالاضافة الى ماتقدم، ببلاغة القرآن وقراءاته ونحوه، فكثيرا مايلمح المجاز في الآي ويتخذه عدة لدفع الشبهات والتساؤلات التي تثار حول الآي المتشابهات، وقد يسميه أحياناً:" الاتساع في اللغة"[6]. كما يلمح في مواضع صورا بلاغية أخرى، كالالتفات،[7] والتغليب[8] ، والتكرار لحسن البيان ومنع الالباس في الكلام[9]، والتبيين بعد الابهام،[10]، وغيرهما من صور الاطناب. ويقف تكرارا عند فصاحة القرآن وبلاغته مظهرا الخشوع أمامهما والاعظام لهما"[11].

([1]) حقائق التأويل ص٢١٨.
([2]) حقائق التأويل ص٢١٨.
([3])النمل:٣٩.
([4])انظر ديوان لبيد ص ٢٩٠.
([5])المصدر نفسه ص٣١٧.
([6]) حقائق التأويل ص ٣٠.
([7]) حقائق التأويل ص٨٨.
([8]) حقائق التأويل ص١٤٢،١٥٤.
([9]) حقائق التأويل ص٣٠٢.
([10]) حقائق التأويل ص٣٦٣.
([11]) حقائق التأويل ص ١٠١،٣٥٥.

(٢)
التفسير في آمالي المرتضى

والمنهج التفسيري المتميز للمرتضى يتجلى في أماليه التي املاها في طريقه الى الحج سنة ٣٩٥هـ. وهي ألوان من الادب واللغة والتفسير. جمعها فيما بعد بكتاب سماه" الغرر والدرر".[١]قال عنه ابن خلكان:" وهو كتاب ممتع يدل على فضل كثير وتوسع في الاطلاع على العلوم"،[٢]والمرتضى اذ يتناول تفسير الآي في هذه المجالس المنظمة، يعتمد على العقل واللغة والبلاغة بصورة واضحة، ويسمي ذلك تأويلاً.

فأما العقل، فقد جعله كاشفا عن صحة التفسير او ضعفه. فما يأباه العقل من وجوه التفسير مرفوض عنده باستمرار. وذلك مانراه في تفسير قوله تعالى:(واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين).[٣]اذ حمل على أولئك الذين ظنوا في تأويلهم للاية" أن الله استخرج من ظهر ادم جميع ذريته وهم في خلق الذر ، فقررهم بمعرفته واشهدهم على أنفسهم"، مبيناً أن هذا التأويل يبطله العقل ويحيله،[٤]ومفصلا ذلك بقوله: فأما شهادة العقل فمن حيث لاتخلو هذه الذرية التي استخرجت من ظهر آدم عليه السلام فخوطبت وقررت، من ان تكون كاملة العقول مستوفية لشروط التكليف، أولا تكون.. فان كانت بالصفة الاولى، وجب ان يذكر هؤلاء بعد خلقهم وإنشائهم واكمال عقولهم ماكانوا عليه في تلك الحال، وما قرروا به واستشهدوا عليه؛ لأن العاقل لاينسى ماجرى هذا المجرى وان بعد العهد وطال الزمان.. وان كانوا على الصفة الثانية من فقد العقل وشرائط التكليف، قبح خطابهم وتقريرهم واشهادهم وصار ذلك عبثا قبيحاً".[٥]وينتهي بعد هذا التحليل العقلي الدقيق الى أن في الآية وجهين:" أحدهما أنه انما عنى جماعة من بني ىدم خلقهم وأكمل عقولهم وقررهم على ألسن رسله عليهم السلام بمعرفته وما يجب من طاعته، فأمروا بذلك واشهدهم على أنفسهم.. والآخر أنه

---

(١)ابن خلكان: وفيات الاعيان٣/٣.

(٢) ابن خلكان: وفيات الاعيان٣/٣.

(٣)الاعراق:١٧٢.

(٤)المرتضى: الامالي١/٢٨.

(٥)نفسه: ١/٢٨-٢٩.

تعالى لما خلقهم وركبهم تركيبا يدل على معرفته ويشهد بقدرته ووجوب عبادته، وأراهم العبر والايات والدلائل في أنفسهم وفي غيرهم،كان بمنزلة المشهد لهم على أنفسهم... ويجري هذا مجرى قوله تعالى: (ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين)، وان لم يكن منه تعالى قول على الحقيقة ولا منهما جواب.. ومثل هذا قولهم: جوارحي تشهد بنعمتك وحالي معترفة باحسانك.."[1] .

ومن مظاهر منهجه العقلي التمسك بظواهر القرآن واتخاذها حججا في دعم تأويله لآى، اذا لم تصادم اسس العقيدة الدينية. فحين جعل العقل في الآية المذكورة آنفاً شاهدا على بطلان ذلك التأويل الذي لم يرتضه، بين ايضا انه" مما يشهد ظاهر القرآن بخلافه؛ لان الله تعالى قال: (وإذ أخذ ربك من بني آدم)، ولم يقل: من آدم، وقال(من ظهورهم)ولم يقل من ظهره، وقال(ذرياتهم)ولم يقل: ذريته، وانه تعالى أخبر "بأنه فعل ذلك لئلا يقولوا إنهم كانوا عن هذا غافلين، أو يعتذروا بشرك آبائهم وانهم نشؤوا على دينهم وسنتهم. وهذا يقتضي أن الآية لم تتناول ولد آدم لصلبه،وانما تناولت من كان له آباء مشركون. وهذا يدل على اختصاصها ببعض ذرية بني آدم. فهذه شهادة الظاهر ببطلان تأويله" [2].

واللغة: الاساس الثاني الذي أقام عليه المرتضى منهجه في التفسير. فهو كما قال جولد تسهر حقا: "يستطيع بسيطرته غير المألوفة على اللغة والشعر العربي القديم... أن يبرهن على استاذية حقة" [3] ؛إذ هو يفهم النص القرآني في ضوء لغة العرب وطرائقهم في البيان والتعبير، وما جرى به الفهم وعادتهم من وجوه الكلام. ففي قوله تعالى(أن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق)، [4] وقوله(وقتلهم الانبياء بغير حق)[5]، وقوله (ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به)[6]،يبين المرتضى أن ظاهر الآيتين الأوليين ربما يوحي بأن قتل الانبياء قد يكون بحق، وظاهر الثالثة منها قد يشعر بجواز شرك من لا يجد

---

(1)الامالي ٢٩/١.
(2) الامالي. ٢٨/١.
(3) جولد تسهير: مذاهب التفسير الاسلامي ص١٣٩.
(4) آل عمران: ٢١.
(5) آل عمران: ١٨١.
(6) المؤمنون: ١١٧.

البرهان على التوحيد. ثم يدفع هذه الشبهة التي يفترضها ابتداء، بالوقوف على كلام العرب واتخاذه سندا في هذا الدفع.

كما يجد في شواهد الشعر القديمة خير ما يحقق له هذا الامر، فيقول: "اعلم أن للعرب فيما جرى هذا المجرى من الكلام عادة معروفة ومذهبا مشهورا عند من تصفح كلامهم وفهم عنهم. ومرادهم بذلك المبالغة في النفي وتأكيده. فمن ذلك قولهم: فلان لا يرجى خيره، ليس يريدون أن فيه خيرا لا يرجى، وانما غرضهم أنه لا خير عنده على وجه من الوجوه. ومثله: قلّما رأيت مثل هذا الرجل، وأنما يريدون أن مثله لم ير قليلا ولا كثيرا. وقال امرؤ القيس[١].

على لا حب لا يهتدى بمناره *** إذا سافه العَود الديافيّ جرجرا[٢]

يصف طريقا، واراد بقوله: لا يهتدى بمناره، انه لا منار له فيهتدى به.

وقال ابن أحمر :

لا يفزع الأرنب أهوالها*** ولا ترى الضب بها ينجحْر

أراد: ليست بها أهوال فيفزع الارنب.

ثم اورد بعد ذلك شواهد اخرى على هذا المنوال، وبهذه الدلالة ليثبت ما قرره من معنى الآية[٣] .

ولاحتفائه الكبير باللغة واعتمادها مصدرا وثيقا في تفسير ألفاظ القرآن وتراكيبه نراه يرفض التفسيرات الاختيارية التي لا تعتمد على شواهد اللغة المعتبرة. كتفسير بعض أهل الرأي للفظة(الحساب) في قوله تعالى(والله سريع الحساب) بالعلم أو الدعاء[٤].

وبلاغة العرب: الاساس الثالث الذي يستند اليه المرتضى في تفسيره للآى. وكثيرا ما يتخذها وسيلة لتأويل الآى التي يصادم ظاهرها اصلا من اصول عقيدة الامامية والمعتزلة، كمبدأ العدل الالهي، فيحمل التعبير الذي هو مورد الشبهة، على المجاز أو غيره من وجوه البلاغة، لدفع تلك الشبهة وابطالها. فالآية الكريمة(وإذا اردنا

---

(١) ديوان امرئ القيس ص٦٦.

(٢) العود: المسن من الابل. والديافي: نسبة الى دياف، قرية بالشام. وسافه: شمه، والجرجرة: مثل الهدير الامالي ١/٢٢٩.

(٣) الامالي ١/٢٢٨-٢٢٩.

(٤) الامالي ١/٣٩٠.

أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها)[1] ، إذا أخذت على ظاهرها، كانت حصيلتها المعنوية مصادمة لمبدأ العدل الإلهي؛ لأن إرادة الفسق قبيحة، والقبيح لا تجوز نسبته الى الخالق سبحانه. والمرتضى يتلمس لدفع هذه الشبهة بعضاً من وجوه البلاغة العربية، الاول: المجاز على ما سيؤول إليه والثاني:التقديم والتأخير. فيقول: "في هذه الآية وجوه عدة من التاويل، كل منها يبطل الشبهة الداخلة على بعض المبطلين فيها، حتى عدلوا بتأويلها عن وجهه وصرفوه عن بابه... "وبعد أن يذكر وجهين من وجوه تأويلها، يقول:" والوجه الثالث: أن يكون ذكر الإرادة في الآية مجازا واتساعا وتنبيها على المعلوم من حال القوم وعاقبة أمرهم، وأنهم متى أمروا فسقوا وخالفوا، وذكر الإرادة يجري هنا مجرى قولهم إذا أراد التاجر أن يفتقر أتته النوائب من كل جهة، وجاءه الخسران من كل طريق. وقولهم: اذا أراد العليل أن يموت خلط في مأكله وتسرع الى ما تتوق اليه نفسه، ومعلوم أن التاجر لم يرد في الحقيقة شيئا، ولا العليل ايضا، لكن لما كان المعلوم من حال هذا الخسران ومن حال هذا الهلاك، حسن هذا الكلام، واستعمل ذكر الإرادة لهذا الوجه".

ثم يقول: "وكلام العرب وحي واشارات واستعارات ومجازات. واهذه الحال كان كلامهم في المرتبة العليا من الفصاحة، فإن الكلام متى خلا من الاستعارة وجرى كله على الحقيقة، كان بعيدا من الفصاحة بريا من البلاغة، وكلام الله تعالى افصح الكلام".

وأخير يلتجىء الى التقديم والتأخير فيقول: "والوجه الرابع: أن تحمل الآية على التقديم والتأخير فيكون تلخيصها: إذا أمرنا مترفى قرية بالطاعة فعصوا واستحقوا العقاب، أردنا اهلاكهم. والتقديم والتأخير في الشعر وكلام العرب كثير"[2] .

وبمثل هذا الاسلوب من الاعتماد على البلاغة، يؤول المرتضى النظر في قوله تعالى:(وجوه يومئذ ناضرة العلاقة *** الى ربها ناظرة)[3]. فيحمله على المجاز بالحذف، ويجعل التقدير: انتظار الثواب، مبينا أن تلك عادة للعرب معروفة[4] .

---

(1)الاسراء: ١٦.
(2) الامالي ١/٣-٤.
(3)القيامة: ٢٢-٢٣.
(4) الامالي ١/٣٦.

وهو في هذا على رأي المعتزلة وأصحابه الامامية الذين يرون أن الخالق لا يـــرى ابدا لا في الدنيا ولا في الآخرة، تنزيها له عن أن يشبه بخلقه الذين تقـــع عليـــهم الابصار وتدركهم الانظار. ويتجون لذلك بمثل قوله تعالى(لا تدركه الابصار وهـــو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير)[1]. فيحملون نفي الادراك بالبصر على التـــأييد ولا يوقفونه على الدنيا فحسب. وهو خلاف رأي أهل السنة، الذيـــن يـــرون أن الله سبحانه يتجلى لعباده المؤمنين في الآخرة فيرونه بالابصار، ويحملون الآية علـــى ظاهرها. وقد صرح بذلك منهم الامام أحمد بن حنبل واحتج بـــالحديث الـــذي روى عن الرسول(ص): (انكم سترون ربكم) يخرج من كتب الحديث وبقوله لموســـى عليه السلام (لن تراني)[2] وعدم قوله له "لن أري[3]، كما احتج له من الا شـــاعرة ابو بكر الباقلاني بآيات من القرآن الكريم.[4] وعلى هذا الـــرأى أيضا فريـــق مـــن المرجئة إذ جوزوا رؤيته في الآخرة على حين نفاها آخرون.[5]

وبذا نختم كلامنا على التفسير عند الامامية قبل الطوســـي، راعينـــا فـــي ايـــراده الايجاز.

---

(1)الانعام:١٠٣.

(2)الاعراف:١٤٣.

(3) الامام احمد: الرد على الزنادقة والجهمية ص٨٥.

(4)الباقلاني: الانصاف فيما يجب اعتقاده ص١٧٦،٢٥.

(5) الاشعري: مقالات الاسلاميين ٢٣٣/١.

الفصل الاول
مصادر التبيان

(١)

كتب معاني القرآن:

اعتمد الطوسي على عدة كتب في معاني القرآن، وتفاوتت نقوله منها كثرة وقلة. فنقل كثير من كتب: الفراء والاخفش وأبي عبيدة والزجاج، ونقل قليلا من كتاب المفضّل بن سلمة.

أ.كتاب معاني القرآن للفراء:

مصنف هذا الكتاب ابو زكريا يحيى بن زياد الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ[١]. وكتابه هذا من خيرة كتب معاني القرآن، أملاه على تلامذته فحفظ لنا بعضهم روايته. وكان ثعلب شديد الاعجاب به حتى وصفه بأنه"لم يعمل قبله ولا بعده مثله. ولم يتهيأ لأحد من الناس جميعا أن يزيدوا عليه شيئاً".[٢]والكتاب مطبوع متداول. نقل الطوسي من معاني القرآن كثيرا من النصوص التي تتعلق بالتفسير والقراءات واللغة والنحو. فمما أخذه في التفسير وجاء مطابقا في اللفظ لما في معاني القرآن ما أورده في تفسير قوله تعالى(كتاب أنزل اليك فلايكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين)[٣]،اذ قال:" وقيل في معنى الحرج في الآية ثلاثة أقوال :"... الثالث- قال الفراء: لايضيق صدرك بأن يكذبوك، كما قال عز وجل (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا).[٤]

وقد يتفق نص الطوسي في التفسير مع مافي معاني القرآن الا في الفاظ وعبارات قليلة، كذلك ورد في تفسير الآية الكريمة:(وما كنت ترجو ان يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين)، [٥] يقول :" قال الفراء: تقديره: الا ان ربك رحمك فأنزل عليك، فهو استثناء منقطع ومعناه: وما كنت ترجو ان تعلم كتب الأولين وقصصهم تتلوها على أهل مكة ولم تشهدها ولم تحضرها، بدلالة قوله (وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو)[٦] أي انك تتلو على أهل مكة قصص مدين وموسى، ولم تكن هناك ثاويا مقيما فتراه وتسمعه،وكذلك

---

(١)ابو الطيب: مراتب النحويين ص١٤١. والزبيدي: طبقات النحويين واللغويين ص١٣٢.
(٢)الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين ص ١٣٢.
(٣)الاعراف:٢.
(٤)الطوسي: التبيان ٣٤٢/٤. وقارن بمعاني القرآن ٣٧٠/١.
(٥)القصص : ٨٦.
(٦) القصص:٤٥.

قوله(وما كنت بجانب الغربي).فها أنت تتلو قصصهم وأمره، فـــهذه رحمـــة مـــن ربك".[1].

وقد يختلف النصان في اللفظ ويتفقان في المعنى، كما في اية النمـــل:(فلمـــا رآها تهتز كأنها جان ولىَ مدبرا ولم يعقّب)[2]. فقد أورد الطوســـي تفســـير الفراء للفظة"جان" في مقابل تفسيرة لها قال(فلما رآها تهتز كأنها جان)، وهـــي الحيـــة الصغيرة، مشتق من الاجتنان وهو الاستتار. وقال الفراء : هي حية بين الصغـــيرة والكبيرة.[3]والذي ذكره الفراء:"الجان: الحية التي ليست بالعظيمة ولا الصغـيرة".[4] فالمعنى واحد واللفظ مختلف كما ترى.

وافاد الطوسي من معرفة الفراء بالقراءات، فأورد طرفا من توجيهه للقـــراءات المشهورة، كقراءة حمزة(عَبُـــد الطـــاغوتِ) بـــدلا مـــن قـــراءة البـــاقين: (عَبَـــد الطاغوتَ)،وذلك فـــي قولـــه تعـــالى" وجعـــل منـــهم القـــردة والخنـــازير وعبـــد الطاغوت:"[5]فبعد أن اشار الى هاتين القراءتين، بين ان حمزة أراد بذلـــــك: خـــدم الطاغوت،في قول الأعمش ويحيى بن وثاب، ثم قال" قال الفراء:"عبد" على ما قـــرأ حمزة إن كانت لغة فهو مثل حذر وحذر وعجل وعجل فهو وجـــه، والا فأنـــه أراد قول الشاعر:

ابني لُبينى إنَّ امكمْ *** أمةٌ وإنَّ أباكم عَبُدُ

فحرك، وهذا في ضرورة الشعر لافي القراءة [6] .وحين رجعنا الى كتاب الفراء لـــم نجد فيه تصريحا بأن (عبُدَ الطاغوتِ) قراءة حمزة، وانما فيه بيان لهذه القـــراءة، وتوجيه لها بالصورة التي بينها الطوسي.[7]فيبدو أن عبارة" على مـــاقرأ حمـــزة" أوردها للتوضيح والتذكير بأن هذه القراءة لحمزة. وأخذ الطوسي من كتاب الفـــراء كثيراً من الآراء اللغوية، ولاسيما مايتعلق بلغات العرب. ومن ذلك مـــا بينـــه فـــي تفسير آية البقرة: (كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا اظلم عليهم قاموا)[8]فقال:" قـــال

---

(1)التبيان ١٨٣/٨-١٨٤ ووازن بمعاني القرآن ٣١٣/٢.

(2)النمل: ١٠.

(3)التبيان ٧٧/٨-٧٨.

(4)الفراء: معاني القرآن ٢٨٧/٢.

(5)المائدة: ٦٠.

(6) التبيان ٥٧٤/٣.

(7)الفراء: معاني القرآن ٣١٤/١-٣١٥.

(8) البقرة: ٢٠.

الفراء: يقال ضاء القمر يضوء، واضاء، يضيء، لغتان. وهو الضــوء والضـوء بفتح الضاد وضمها. وقد اظَلم الليل وظلِم، بفتح الظاء وكسر اللام".[1]وهو معنى الفراء[2] ، غير أن الطوسي لم يشر الى أن الضوء والضوء لغتان في قول الفراء.
وعنى الطوسي بمسموعات الفراء عن العرب، فذكر في تفسير قوله تعـالى(فـلا اقسم بالشفق)[3]أن الفراء قال" سمعت بعض العرب يقول عليّ" ثوب كأنه الشـفق حمرةً:.[4]وهو بمعنى ما اورده الفراء.[5]
وفي النحو نقل الطوسي أقولاً للفراء في أعراب الأتي، غير أنه لم يعزها اليه فـي بعض المواضع، كما في قوله تعالى(فما لبث أن جاء بعجل حنيذ)[6]. اذ بين أن في اعراب"(أن جاء) وجهين: أحدهما النصب والآخر الرفع. وكلا هذين الوجهين مـن قول الفراء[7]، الا أن الطوسي لم يعز الاول اليه، بل اكتفى بالقول إنه" في موضوع نصب بوقوع لبث عليه، كأنه قال: فما أبطأ عن مجيئه بعجل، فلما حـذف الجـر نصب"، على حين عزا الثاني الى الفراء فقال" قـال الفـراء: ويحتمـل" ان جـاء بعجل"أن يكون في موضوع رفع، بأن تجعل(لبث) فعلا له، كأنك قلت: فمـا ابطـأ مجيؤه[8]بعجل حنيذ"[9] . ويبدو أنه لم يعز الوجه الاول الى الفراء سهوا منـه؛ اذ لاتفسير له بغير ذلك مع عزو الوجه الثاني.

بـ معاني القرآن للأخفش:

ومن مصادر الطوسي في تفسيره معاني القرآن لأبي الحسن سعيد بـن مسـعدة المجاشعي المعروف بالأخفش الاوسط[10] المتوفى سنة ٢١٥هـ [11] . وكتابه هذا من خيرة الكتب التي الفت في موضوعه، فقد روى عنه أن الكسـائي سـأله بعد

---

(1)التبيان ٨٨/١.
(2)الفراء: معاني القرآن ١٨/١.
(3)الانشقاق: ١٦.
(4)التبيان ١٠/ ٣١٢.
(5) الفراء: معاني القرآن ٢٥١/٣.
(6)هود:٦٩.
(7)معاني القرآن ٢١/٢.
(8)في الاصل:" مجيئه" والصحيح ما أثبتناه لانضمام الهمزة بعد سكون.
(9)التبيان ٢٧/٦.
(10)هذا هو المشهور عنه، غير أن الزبيدي ذكر انه الاخفش الصغير. انظر: طبقات النحويين ص٧٢ .
(11)السيوطي: بغية الوعاة ٥٩١/١ والداودي: طبقات المفسرين ١/ ١٨٥-١٨٦.

التقائه به، أن يؤلف كتاباً في معاني القرآن، قال:" فألفته، وجعله الكسائي إمامـــه، وعمل عليه كتابا في المعاني، وعمل الفراء كتابا عليهما[1] ".وهذا غـــير بعيــد اذا علمنا أن الكسائي والفراء تلمذا له، بل" تابعاه في كثير من آرائه النحويـــة التـــي حاول بها نقض آراء سيبويه والخليل".[2] والكتاب مطبوع[3]، ويضم صنوفــا مــن علوم العربية والقرآن كالتفسير والقراءات واللغة والنحو، وقد افـــاد أبــو جعفــر الطوسي من ذلك كله لاسيما مايتعلق بالنحو.

ومع أن الطوسي لم يصرح بكتاب الأخفش، الا أن مادة النقول هدتنا الـــى انـــها منه. ومنهجه في الأخذ منه يتلخص في أنه يعزو في الاكثر أقوال الأخفــش اليــه، مصرحا بلقبه أو كنيته، فيقول:" قال الأخفش" او " قال ابو الحسن"،والأول افشـــى. وقد يبهم النسبة اليه فيقول:" قال بعض النحويين"أو " قال بعض البصريين"، وهـــو يريد بذلك الاخفش. وقد يهمل الاشارة اليه مطلقا ويدرج كلامه في معيـــة كلامـــه، فيبدو الكلامان كلاما واحدا، مع أنهما ليسا كذلك. فلا يهتدى الـــى نــص الاخفــش عندئذ الا بضرب من التتبع الدقيق أو تداعي المعاني.

وله في التعامل مع نصوص الأخفش اساليب متنوعة ، فهو يأخذ النـــص كـــاملا بألفاظه حينا، وقد يأخذ بعضه ويصوغ بقية الفاظه بأسلوبه، وربما أخذ معنـــاه، او سها فنقل عن الاخفش مالم يقصده من المعاني والأفكار. وهو لايقبل كل مـــاينقل منه، بل يرجع عليه وغيره حين يرى سببا للترجيح. فمما نقله في التفسير وعــزاه الى الاخفش مصرحا بلقبه ما أورده في تفسير قوله تعالى(يا أيـــها الذيـــن آمنـــو ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين)[4]، فقال" قـــال الأخفش: السلم بكسر السين: الصلح، وفتح اللام: الاستسلام[5]". ولـــم يكـــن الاول رأي الاخفش وانما هو قول نقله عن بعضهم، ورأيه أن السلم: الاسلام[6] وليـــس الاستسلام، فما نقله الشيخ هنا عنه ليس بدقيق.

([1]) بغية الوعاة ١/٥٩٠،وطبقات المفسرين ١/١٨٥-١٨٦.

([2])ضيف: المدارس النحوية ص ٦٩.

([3])طبع في العراق بتحقيق الدكتور عبد الامير الورد.و بيروت بتحقيق الدكتور فائز فارس ومنه نسخة مخطوطة بمكتبة المشهد بايران برقم ٢٢٠ تفسير. مصورة عن نسخة بمكتبة القدس.

([4])البقرة: ٢٠٨.

([5])التبيان ٢/١٨٥.

([6]) الأخفش: معاني القرآن الورقة ٧٣ظ.

ومما اخذ من دون أن يصرح باسمه،بل اكتفى ببيان أنه لبعض النحويين، ثم اختار غيره من وجوه التأويل، ما أورده في تفسير قوله تعالى(وإذا أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين إحسانا)[1]، فبين أولا أن تقدير المعنى: وأذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل، قلنا لا تعبدوا الا الله. فجعل صيغة الخبريراد بها الطلب بحسب هذا التقدير. ثم قال مشيرا الى رأي الاخفش: "قال بعض النحويين: المعنى" واذا أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين إحساناً" حكاية. كأنه قال: استخلفناهم لا يعبدون الا الله اذ قلنا لهم: والله لا تعبدون[2]". وهذا نص كلام الاخفش في معاني القرآن، [3] ، الا أن الطوسي لم يختره وأنما رجح عليه القول الاول ورأى انه أجود[4].ولعل تقدير الاخفش للقسم في الآية، هو الذي جعل رأيه مرجوحا لدى الطوسي؛ اذ لا يخلو هذا التقدير من بعد وتكلف.

وأفاد الطوسي من كتاب الاخفش في توجيه القراءات المشهورة والشاذة، فنقل منه آراء مصنفة في بعض تلك القراءات معزوة اليه في اكثر المواضع ومغفلة في بعضها. فمن الاول ما بينه في قراءة من قرأ(شركاً) في آية الاعراف (فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون)[5]. فقال: "وقال أبو الحسن: كان ينبغي لمن قرأ بكسر الشين أن يقول: جعلا لغيره شركاً[6]. وهذا شطر مما ذكره الاخفش في هذه القراءة، وأوله: "وقال بعضهم "شركاً" لأن الشرك انما هو الشركة"[7] ومن الثاني ما أورده في قراءة قوله عزّ وجل: (وقولوا للناس حسنا)[8]اذ بين أن في "حسنا" قراءتين إحداهما بضم الحاء وإسكان السين، والاخرى بفتحهما. ثم قال: "واختلف أهل اللغة في الفرق بينهما، فقال بعض البصريين: هو على وجهين: إحدهما أن يكون أراد بالحُسْن: الحسن- ويكون لمعنيين – مثل البُخْل والبَخَل، واما ان يكون جعل الحُسْن هو الحسَن، لأن الحَسْن

---

(1) البقرة:٨٣.
(2)الاعراف:١٩٠
(3) الطوسي: التبيان ٣٢٨/١.
(4) الاخفش: معاني القرآن الورقة ٥٨و.
(5) التبيان ٣٢٨/١.
(6) البقرة:٨٣.
(7) التبيان ٥١/٥.
(8) الاخفش: معاني القرآن الورقة ١٢٤ظ.

مصدر، والحسَن هو الشيء الحسن، فيكون ذلك كقول القائل: إنما أنت أكلٌ وشربٌ، قال الشاعر[1].

وخَيلٍ قد دَلفَتُ لها بخيــل *** تحية وبينهم ضربٌ وجميعُ[2]

فمراده ببعض البصريين الاخفش. وما ذكره معنى كلام الاخفش، الا أن عبــارة- يكون لمعنيين- تبدو مقحمة؛ لانها تجعل الكلام مضطرب المعنى، ما لــم نحملــها على الاعتراض، وفي حملها عليه نظر، ونص الاخفش خال منها[3].

نقل الطوسي من كتاب الاخفش بعض الآراء اللغوية، ممــا يتصــل باللغــات والجموع وغيرهما. فذكر في تفسير قوله تعالى:(يا بني إسرائيل اذكــروا نعمتــي التي انعمت عليكم)[4] ، أن في (اسرائيل) خمس لغات، وأن الاخفش حكى اســرائل بكسر الهمزة من غير ياء، واسراأل بفتح الهمزة[5]،وهو ماحكــاه الاخفــش عــن العرب[6]. وفي تفسير قوله تعالى:" وأنزلنا المن والسلوى"[7]أورد الطوســـي رأي الاخفش في افراد وجمع كلمة" السلوى"، فقال: قال" الاخفش: لم اسمع له بواحــد، قال و(هو شبيه)[8] أن يكون واحده سلوى مثل جماعته، كما قالوا: دفْلى للواحـــد والجماعة".[9]وعبارة الطوسي": لم اسمع" تشعرأن الاخفش هو الذي لم يسمع ذلك، على حين عمم الاخفش عدم السماع، فلم يخصصه به وحده اذ قال:" لم يسمع لـــه بواحد"[10]، والفرق بين التعبيرين واضح، ولكل منهما حكمه في أصول اللغة.

وافاد الطوسي من كتاب الاخفش في أعراب بعض الآى ، وعزا أليــه اقوالــه في أكثر المواضع، كما في أعراب آية الفاتحة(إياك نعبد واياك نستعين)، اذ قــال : "قال الأخفش: لاموضع للكاف من الأعراب لأنها حرف خطاب".[11] وحيــن رجعنــا

---

(1)انظر كتاب سيبويه ٣٦٥/١.
(2)التبيان ٣٢٩/١.
(3) الاخفش: معاني القرآن الورقة ٥٨و.
(4)البقرة: ٤٠.
(5)التبيان ١٨٠/١.
(6)الأخفش: معاني القرآن الورقة ٣٥ظ.
(7)البقرة:٥٧.
(8)هذه العبارة ساقطة من المخطوطة واحتمل لها المحققان كلمة (يجوز). وما اثبتناه هو الصحيح بدليل نص الاخفش.
(9)التبيان ٢٥٩/١
(10) الأخفش: معاني القرآن الورقة ٤٤ظ.
(11)التبيان ٣٧/١.

الى كتاب الأخفش لم نجده يصرح بحرفية الكاف، ولم يقل انها للخطاب، وانما فهم الطوسي ذلك من مضمون كلامة؛ اذ بين ان" إياك " كلها في موضوع نصب.[1]

واخذ الطوسي الإعراب عن الاخفش في بعض المواضع دون أن يعزوه اليه، ونقل كلامه حرفياً في قوله تعالى(قال إنه يقول انها بقرة لافارض ولا بكر عوان بين ذلك)[2] ، فقال" لافارض ولا بكر": ارتفع ولم ينتصب كما انتصب [3] النفي؛لأن هذه صفة في المعنى للبقرة، والنفي المنصوب لايكون من صفتها، وانما هو اسم مبتدأ وخبره مضمر. وهذا مثل قولك : عبد الله لاقائمٌ ولا قاعدٌ أدخلت (لا) للنفي، وتركت الاعراب على حاله، لو لم يكن فيه(لا)".[4]

جـ: مجاز القرآن لأبي عبيدة:

افاد الطوسي من مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي المتوفى سنة ٢١٠[5]،في التفسير والقراءات واللغة والنحو. وذكره في موضع من تفسيره فقال:" ذكر ابو عبيدة في كتاب المجاز.."[6] واكتفى في بقية المواضع بعبارة" قال أبو عبيدة" او نحوها.

وينقل الطوسي كلام أبي عبيدة بلفظة في عدة مواضع، كما في آية البقرة (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا)[7]،اذ قال:"قال أبو عبيدة: المرض: الشك والنفاق".[8]وقد ينقله بمعناه دون لفظه، كما في قوله تعالى" كل له قانتون"[9].

اذ أورد في باب اللغة ان من معاني القنوت في اللغة: الطاعة، ثم استطرد الى ان ابا عبيدة قال: "القانتات: الطائعات"[10]،على حين هو في المجاز"

([1]) الأخفش: معاني القرآن الورقة ٨.

([2]) البقرة:٦٨.

([3])يريد: مدخول (لا) النافية للجنس، فأنه يبنى على الفتح.

([4])التبيان ٢٩٦/١ ووازن بمعاني القرآن الورقة ٤٨و.

([5])الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين ص ٧٨ والسيوطي: بغية الوعاة٢/ ٢٩٦.

([6]) التبيان ٢٨٦/٨.

([7]) البقرة : ١٠.

([8]) التبيان ٧٢/١ وقارن بمجاز القرآن ٣٢/١.

([9])البقرة: ١١٧.

([10])التبيان ٤٢٨/١.

المطيعات".[1]وكلا اللفظين بمعنى واحد كما لايخفى، الا ان ماأورده الطوسي يناسق صيغة اللفظة المفسرة القانتات" ويناسبها، وكأنه تصرف فيها لهذا السبب.

ونراه يذكر في تفسير قوله تعالى:(إن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله)[2]،أن أهل التأويل اجمعوا على أن المراد بالكلمة في الاية الكريمة: المسيح عليه السلام،ثم يستثنى منهم أبا عبيدة، ناقلاً معنى كلامه في المجاز فيقول" الا ماحكى عن ابى عبيدة أنه قال: "بكلمة":أي بكتاب من الله، كما يقولون: أنشدني فلان كلمة فلان، أي قصيدته، وان طالت".[3]

واختلف مانقله الطوسي اختلافا واضحا في تفسير قوله تعالى (وجعلنا قلوبهم قاسية)[4]. اذ قال: "قال أبو عبيدة "قاسية" معناه: فاسدة، من قولهم: دِرْهَمٌ قَسِيٌ أي زائف" [5].والذي في المجاز: "قاسية قلوبهم": أي يابسة صلبة من الخير".[6]

وبعض ما عزاه الطوسي لأبي عبيدة من توجيد للقراءات، لم نجده في المجاز. ففي قراءة "ننسخ" من قوله تعالى(ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها)[7]، يقول: "من قرأ بضم النون وكسر السين، فإنه يحتمل أمرين: أحدهما: قال أبو عبيدة: ما ننسخك يا محمد، يقال: نسخت الكتاب وأنسخه غيري".[8]. وهذا توجيه ابن خالوية للقراءة وليس توجيه ابي عبيدة. يقول ابن خالوية" ما نُنْسِخْكَ يامحمد من آية، كقولك: نسخت زيدا الكتاب" .[9]

ومع ذلك فأننا لانستبعد ان يكون الطوسي قد نقل توجيه هذه القراءة من نسخة من نسخ المجاز التي لم تصل الينا. ونقل الطوسي من المجاز بعض آراء ابي عبيدة اللغوية، وخاصة ما يتعلق منها باللغات واللهجات التي كانت دائرة على ألسنة العرب، فجاءت نقوله لها مطابقة لما في المجاز. من ذلك انه بين في تفسير قوله تعالى: (ولاتقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقكم واياهم ان قتلهم كان خطأ

---

(1)ابو عبيدة: مجاز القرآن ٥١/١.
(2)آل عمران:٣٩.
(3)التبيان٤٥١/٢. وقارن بمجاز القرآن ٩١/١.
(4) المائدة: ١٣.
(5) التبيان ٤٧٠/٣.
(6) أبو عبيدة: مجاز القرآن ١٥٨/١.
(7)البقرة: ١٠٦.
(8) التبيان ٣٩٥/١.
(9) ابن خالويه: القراءات وعللها٦٣/١.

كبيراً)[1] أن ابا عبيدة يرى خطأت وأخطأت لغتين، والخطء بفتح الخـــاء مصــدرا وبكسرها اسما[2] ،وهو مابينه أبو عبيدة في المجاز.[3].

ونقل الطوسي بعض أقوال أبي عبيدة النحوية[4] والصرفية[5] والبلاغية[6]، لــم نشأ الاطالة بذكرها؛ اذ فيما أوردناه كفاية لبيان أسلوبه في النقل من مجازه.

دـضياء القلوب في معاني القرآن للمفضّل بن سلمة:

مؤلفه ابو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم النحوي اللغوي الكوفي المتوفــى سنة ٣٠٠هــ. نقل الطوسي منه بعض الاقوال، واشار اليه في مقدمة تفسيره فبين أن المفضل ممن استكثروا في علم اللغـــة واشــتقاق الالفــاظ فـــي تآليفــه هــذا الكتاب[7]ولم يسم كتاب المفضل جريا على عادته في غالب المصادر التـــي رجــع اليها، وسماه الشريف الرضي وبين أنه رد فيه على بعــض اقــوال الفــراء فـــي التفسير[8]، كما اشار اليه ياقوت في معجمه وسماه بهذا الاسم ايضا،ووصفه بأنـــه نيِّف وعشرون جزءاً.[9] وهو من الكتب المفقودة.

أخذ الطوسي من ضياء القلوب التفســـير، فبيــن فـــي آيـــة البقــرة (ان الله لايستحيي أن يضرب مثلا مابعوضة فما فوقها)[10] ، ان المفضل يرى (لايســـتحي) لايمتنع[11]، وفي الآية الأخرى(ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك)، بيّن أن المفضــل يرى التسبيح يعني" رفع الصوت بذكر الله"، وأنه أنشد لذلك قول جرير:

قَبحَ الالهُ وجوهَ تَغلِبَ كلما *** سَبَحَ الحَجيجُ وهَللوا تَهليلا[12]

---

(1)الاسراء: ٣١.

(2)التبيان:٦/٤٧٣.

(3)مجاز القرآن١/٣٧٦.

(4)التبيان ٧/١٢٢-١٢٣ وقارن بمجاز القرآن ٢/٧-٨.

(5)التبيان ٤/٥٩ وقارن بمجاز القرآن ١/١٨٢.

(6) البيان ١/٣٠وقارن بمجاز القرآن ١/٢٠.

(7)التبيان ١/١.

(8)الرضي: حقائق التأويل ص ٣٧، ٣٩.

(9)ياقوت : معجم الادباء ١٩/١٦٣.

(10)البقرة: ٢٦.

(11)البيان ١/١١٢.

(12)التبيان ١/١٣٥ والبيت في ديوان جرير ص ٤٥٠، وروايته فيه: شبحَ الحجيجُ وكبروا إهلالا.

ولما كان المفضل لغويا يعني في كتابه هذا،على قول الطوسي، بعلـــم اللغــة واشتقاق الألفاظ، فقد جاءت نقوله منه مصحوبة باســـتطرادات وشــروح لغويــة متنوعة، من ذلك مابينه في تفسير قوله تعــالى (فــلا تجعلــوا لله أنــدادا وأنتــم تعلمون)[١]،فقال: قال المفضل بن سلمة: ال ند: الضد، والندود: الشرود كمـــا ينِـد البعير، "ويومَ التناد": يوم التنافر، والتنديد: التقليل، والفراش: البساط، والفُــرُش: البُسُط، فرَشَ يفرشُ فرشاً، وافترَشَ افتراشا، وفراشُ الرأس: طرائقٌ رقــاق مــن القحف.."[٢].

ولعناية المفضل باللغة، أفاد منه الطوسي في بيان المعنى اللغوي لطائفة مــن الألفاظ التي اتخذت مفهوما اصطلاحيا إسلاميا في التـــنزيل، كالجنـــة والفــردوس والركوع وما اليها. يقول في تفسير قوله عز وجل(وبشر الذين آمنـــوا وعملــوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الانهار).[٣] :" قال المفضل: الجنـــة كــل بستان فيه نخل، وان لم يكن فيه شجر غيره. وان كان فيه كرم فهو فردوس، كــان فيه شجر غير الكرم ام لم يكن".[٤].

هـ-معاني القرآن للزّجاج :

ومن مصادر الطوسي كتاب" معاني القرآن"[٥]لأبي اسحق ابراهيم بن الســـريّ بن سهل الزجاج المتوفى سنة ٣١١هـــ.[٦] وقد نقل منه في عـــدة مواضـــع مـــن تفسيره وخاصة الأجزاء الاولى منه. واشار اليه في المقدمة دون أن يسميه، وعــد مؤلفه الزجاج من علماء الأمة الذين سلكوا في التفسير مسلكا متوســـطا بمقــدار ماقويت به منتهم. وذكر انه من النحويين الذين أفرغـــوا وســـعهم فيمـــا يتعلـــق

---

(١)البقرة:٢٢.

(٢)التبيان ١/١٠١-١٠٢.

(٣)البقرة: ٢٥.

(٤) التبيان١/١٠٨.

(٥)كذا سماه الاكثرون كالازهري في مقدمة التهذيب ص ٣٦ وياقوت في معجم الادباء ١/١٥١ والسيوطي في بغية الوعاة١/٤١٢. وسمته محققته السيدة هدى قراعة" اعراب القرآن ومعانيه" ونحن الى التسمية الاولى أميل/ لأنها أشهر. ومنه مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ١١١ م تفسير تبدأ من النساء الى نهاية هود.

(٦)ياقوت: معجم الادباء ١/١٥١ والسيوطي: بغية الوعاة ١/٤١٣، والداودي: طبقات المفسرين١/١٠.

بالأعراب والتصريف.[1]واثنى الازهري على علم الزجاج في هذا الكتاب، وبين أنــه حضره بعد الفراغ من تأليفه فوجد عنده جماعة يسمعونه منه.[2].

وقد اخذ الطوسي من معاني القرآن التفسير والقراءات واللغة والنحو، ونــوع أسلوبه في الاخذ منه، فتارة يأخذ نص كلامه دون تغيير في ألفاظـــه، أو بتغيــير جزئي فيها، بأن يحذف الفاظا ويزيد أخرى، ويقدم بعض العبــارات علــى بعــض، وتارة يأخذ معنى كلامه فحسب. وهو في كل ذلك قد ينسب اقواله اليه وهو الاكـثر، وقد يغفل ذلك في مواضع. وربما وهم في نقل كلام الزجاج كأنه لم يتأمله جيــدا أو أوقعته السرعة في النقل.

فمما اخذه في التفسير ونسبه اليه، ما أورده في تفسير آية البقرة(قال انــــه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلّمة لاشية فيها)[3]فقــال" قال الزجاج: يحتمل أن يكون اراد: ليست بذلول وهي تثير الارض، ويحتمــل أنــها ليست ذلولاً[4] ولا مثيرة الارض".[5].

ولم يكن الوجه الأول احتمالا من الزجاج، بل أيضا الثـــاني؛ لأن الأول رأيــه القاطع، والثاني رأي لبعض المفسرين ذكره بصيغة" قالوا".[6].

ومما نقله دون أن يعزوه اليه ما أورده في تفسير آية النساء(يا أيها النــاس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها وجها وبث منهما رجالا كثــيرا ونساء).[7]فقال في باب اللغة والمعنى": "وقوله" وبث منهما رجالا كثيرا ونســـاء". معنى بث: نشر، يقال: بث الله الخلق، ومنه قوله(كالفراش المبثوث)، وذلــك يــدل على بث، وبعض العرب يقول: أبث الله الخلق. ويقال: بثثتك سري وأبثثتك ســري لغتان"[8]. وهو نص كلام الزجاج في تفسير هذه الآية، الا أن الزجاج لم يقل أن بث وأبث لغتان،[9] وانما ذاك من استنتاج الطوسي. وللزجاج في فَعَلتُ وأفعلتُ رســالة

([1]) التبيان ١/١.
([2]) الازهري: مقدمة التهذيب ص ٣٦.
([3]) البقرة: ٧١.
([4]) في الاصل: ذلول. وهو خطأ مطبعي.
([5]) التبيان ١/٢٩٩.
([6])الزجاج: اعراب القرآن ومعانيه ص ١٢١، من القسم الثاني بتحقيق هدى قراعة.
([7])النساء: ١
([8]) التبيان ٣/٩٩.
([9]) الزجاج: اعراب القرآن ومعانيه ص ٤٥٤. من القسم الثاني .

يشير فيها الى اختلاف العرب في فعلَ وأفعل، يقول: "دجا الليل وأدجى، اذا اظلم... ودجن الغيم وأدجن اذا لبس الارض"[1]

ونقل الطوسي من كتاب الزجاج توجيهات لبعض القراءات المشهورة والشاذة، ونسب تلك التوجيهات الى الزجاج في اكثر المواضع، وأغفل ذلك في بعضها ففي قراءة من قرأ في الشواذ(غير المغضوب عليهم ولا الضالين) [2] بنصب "غير" يقول "... ويجوز أن يكون نصبا على الحال. وقال الاخفش والزجاج: انها نصب على وجه الاستثناء من معاني صفة "الذين انعمت عليهم"، وتقديره: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم الا المغضوب عليهم"[3] وهذا بسط لكلام الزجاج، في توجيه هذه القراءة، الا انه خلا من الاشارة الى أن الزجاج احتمل نصبها على الحال ايضا، مع أن الزجاج نص على ذلك[4]. ولعله أراد أن يظهر انفراد الأخفش والزجاج بالقول بالاستثناء، ولذلك نسبه اليهما، دون الوجه الاول الذي هو في حكم الشائع المشهور بين النحويين.

واعتد الطوسي بآراء الزجاج النحوية فأورد طائفة منها في اعراب الآى، كالذي أورده في اعراب(بعوضة) من قوله تعالى(أن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها).[5]اذ بين ان الزجاج قال" نصبت بعوضةَ من وجهين.

أحدهما: أن تكون "ما" زائدة: نحو قوله" فبما رحمة". والاخر: أن تكون "ما" نكرة ويكون المعنى: أن الله لا يستحيى أن يضرب شيئا بعوضةً. فكان بعوضة في موضع نصب شيء" [6] .يريد أنها بدل منها؛ لآن البدل يصح أن يوضع موضع المبدل منه. وهذا الذي ذكره الطوسي اختصار لكلام الزجاج في اعراب هذه اللفظة[7].

([1])الزجاج: فعلت وأفعلت ص١٥.

([2])البقرة: ٧.

([3])التبيان ١/٤٤.

([4])الزجاج: اعراب القرآن ومعانيه ص١٥ من القسم الثاني.

([5])البقرة:٢٦.

([6]) التبيان ١/١١٢-١١٣.

([7]) الزجاج: اعراب القرآن ومعانيه ص٦٧ من القسم الثاني.

وأورد الطوسي رد الزجاج على استاذه المبرد في عده "كان" زائدة في قوله عز وجل:[1]"انه كان فاحشة وساء سبيلا" . فقال: "قال الزجاج: هذا ليس بصحيح؛لأنها لو كانت زائدة لم تعمل، كما قال الشاعر: [2]

فكيف إذا حللت ديار قومٍ *** وجيرانٍ لنا كانوا كِرامِ

لما كانت زائدة لم تعمل في الخبر" [3] .وهو معنى كلام الزجاج، الا ان الطوسي ابدل عبارة الزجاج: "لم تنصب خبرها" بأخرى بمعناها هي"لم تعمل في الخبر"، وذكر البيت الذي استشهد به الزجاج كاملا، على حين اجتزأ الزجاج بالعجز،[4].الذي هو موضع الشاهد. وهذه صورة من صور تصرف الطوسي في عبارات وشواهد النصوص التي يوردها في تفسيره.

(٢)
كتب التفسير بالمأثور

أ- اقدم تفاسير الامامية التي رجع اليها الطوسي في تحرير تفسيره، كتاب ابي الجارود زياد بن المنذر العبدي رئيس فرقة الجارودية الزيدية، الذي روى تفسيره هذا، حين كان اماميا، عن الامام محمد الباقر، ثم عنى به من بعد مفسرو الامامية كالقمي والعياشي. وجاء أبو جعفر الطوسي فأفاد منه في تفسيره ناقلا روايات ابي الجارود عن محمد الباقر. واختار من هذه الروايات ما اتفق وأقوال المفسرين الاوائل من الصحابة والتابعين، فهو يذكر اقولهم في معاني الآي والنزول والنسخ. ثم يبين أن ابا الجارود روى ذلك عن محمد الباقر. أو يعكس الوضع، فيذكر رواية ابي الجارود اولا ثم يشير الى ما وافقها من اقوال المفسرين. ففي آية البقرة(وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى واتوا البيوت من ابوابها).[5] يذكر الطوسي أن في تأويل الاية قولين:احدهما- وهو قول ابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين، أن قوما في الجاهلية كانوا اذا أحرموا للحج نقبوا في ظهور بيوتهم نقبا يدخلون منه ويخرجون فنهوا عن التدين بذلك، وأمروا أن يأتوا البيوت من ابوابها، ثم يقول بعد ذلك:" وروى أبو الجارود عن أبي

---

(١)النساء: ٢٢.
(٢) البيت للفرزدق. انظر ديوانه ٨٣٥/٢. والكتاب ١٩٢/١.
(٣)التبيان ١٥٥/٣.
(٤)الزجاج: أعراب القرآن ومعانيه ص٤٨٦ من القسم الثاني.
(٥)البقرة: ١٨٩.

جعفر (ع) مثل قول ابن عباس سواء"[١] وهذه الرواية لم يذكرها القمي[٢] ،ولا العياشي[٣] مما يدل على أن الطوسي رجع الى تفسير ابي الجارود مباشرة. ولا نستبعد وجوده في عصره قبل أن تصيب بغداد الاحداث التي أودت بكثير من تراثها العلمي بعد دخول المغول عليها.

وقد تكون رواية أبى الجارود التي يوردها الطوسي عن الباقر مختلفة عن رواية أخرى عنه ، فيذكر عندئذ كل رواية مع نظيرها من أقوال المفسرين الآخرين،دون أن يرجع احداهما على الأخرى، بل يكتفي بعرضها وبيان مفادهما. من ذلك ما أورده في تفسير قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولاتعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة)[٤] اذ بيّن في باب (المعنى) أن الخطاب متوجه في الآية الى المؤمنين، وأنه تعالى نهاهم عن أن يرثوا النساء كرها، وان المفسرين اختلفوا في معنى ذلك:" فقال الزهري والجبائي وغيرهما وروي ذلك عن أبي جعفر، هو أن يحبس الرجل المرأة عنده لاحاجة له اليها، وينتظر موتها حتى يرثها، فنهى الله تعالى عن ذلك". ثم بين ان الحسن ومجاهدا قالا:" معناه ما كان يعمله أهل الجاهلية من أن الرجل اذا مات وترك امرأته قال وليه: ورثت امرأته كما ورثت ماله. فإن شاء تزوجها بالصداق الاول ولا يعطيها شيئا وان شاء زوجها وأخذ صداقها". ثم قال بعد هذا:" وروى ذلك أبو الجارود عن أبي جعفر"،[٥] ،فتباينت الروايتان عن محمد الباقر ولم يرجح الطوسي احداهما على الاخرى.

وفي النسخ أورد الطوسي رواية لأبي الجارود عن محمد الباقر مع رواية اخرى مباينة لها عن جعفر الصادق دون ان يرجع احدى الروايتين على الاخرى. ففي آية المائدة(اليوم احل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم)،[٦]بين أن ابا الجارود روى عن أبي جعفر الباقر أن الزواج من الكتابيات

([١])التبيان ٢/١٤٢.
([٢])انظر تفسير القمي لهذه الآية في ٦٨/١.
([٣])انظر تفسير العياشي لهذه الآية في ٨٦/١.
([٤])النساء: ١٩.
([٥])التبيان ٣/١٤٩.
([٦])المائدة : ٥.

منسوخ بقوله تعالى(ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن). ثم أورد رواية أخرى عن جعفر الصادق تقول: أنه منسوخ بقوله(ولا تمسكوا بعصم الكوافر)[1]ولم يبد رأيه في الروايتين، اللتين اتفقتا في المنسوخ واختلفتا في الناسخ. وهنا يتجلى لنا الطوسي غير متعصب على ابي الجارود، لكونه زيديا وهو أمامي، وانما كان يضع مروياته على قدم المساواة مع روايات الامامية، كما هو واضح فيما اسلفناه.

ب-واعتمد الطوسي على تفسير علي بن ابراهيم القمي المتوفى بعد سنة ٣٠٧. واشار اليه في تفسير الآية ١٥٩ من النساء وعده من أصحابه الإمامية.[2]. ومن هنا نتبين أن الطوسي اذا قال:" وهو المذكور في تفاسير اصحابنا"، أو مايشبه هذه العبارة، فان تفسير القمي يندرج تحت كلامه هذا. وأكثر رواياته عنه تنتهي الى محمد الباقر وجعفر الصادق، ومنها ماهو مروي عن علي بن ابي طالب وعلي بن الحسين، والنصوص التي أخذها الطوسي من هذا التفسير قليلية بالقياس الى التي أخذها من تفسير العياش وتفسير ابي الجارود، وأكثرها في التفسير وأسباب النزول.

ولما كان تفسير القمي مشحونا بالتأويل الباطني، الذي ليس من منهج الطوسي في شيء، فان الروايات التي أخذت طريقها الى تفسير الطوسي، هي تلك التي تجري مجرى المأثور عن النبي(ص) أو الصحابة أو التابعين. أو بعبارة اخرى، هي الروايات التي لم ينفرد بها القمي بتأويل بعيد عن ظاهر الآي، فالطوسي كان يختار من الروايات المنسوبة الى الأئمة، واختياره واع سليم، خلافا لمن سبقوه؛ اذ كانوا يجمعون الصحيح والسقيم من الروايات ويدونونها في تفاسيرهم.

وفي تفسير قوله تعالى(وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذّر تبذيرا)[3]، يذكر الطوسي أنه روى عن ابي عباس والحسن انهم قرابة الانسان. ثم يقول: " وقال علي بن الحسين عليه السلام: هم قرابة الرسول وهو الذي رواه

---

(1)التبيان ٣/٤٤٦.
(2)التبيان ٢/١٦٥.
(3)الاسراء: ٢٦.

اصحابنا".[١]. وهذه الرواية أوردها القمي عن علي بن الحسين مرسلة من غير اسناد، وبين أنه قال " يعني قرابة الرسول(ص)".[٢].

وفي موضع آخر نقل من تفسير القمي رواية الامام علي في تفسير الآيات الاربع الأول من سورة الذاريات، من غير ان يشير الى أنه مروي في تفسير اصحابه الامامية، أو يشير الى أنه مروي في تفسير القمي. يقول: " روي عن أمير المؤمنين علي بن ابي طالب وابن عباس ومجاهد أن: الذاريات" الرياح. ثم يقول:" وسأل ابن الكوا أمير المؤمنين عليه السلام وهو يخطب على المنبر، ما الذاريات ذرواً)،؟. قال : الرياح. قال ما (الحاملات وقراً)؟ فقال: السحاب. فقال ما (الجاريات يسراً)؟ قال : السفن. فقال ما (المقسّمات أمراً)؟ قال: الملائكة".[٣] وهذا ما رواه القمي في تفسيره بسنده عن ابيه عن ابن ابي عمير عن جميل ابن درّاج عن جعفر الصادق.[٤].

وفي أسباب النزول اخذ الطوسي من تفسير القمي تلك القصة الطويلة التي أوردها في تفسير آية النساء (انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولاتكن للخائنين خصيما).[٥]. وخلاصتها أن الاية الكريمة نزلت في بني ابيرق حين نقبوا على عم قتاده بن النعمان وسرقوه واتهموا بذلك مؤمنا فقيرا يقال له لبيد بن سهل، فلما اغلظ لهم لبيد القول تركوه، ثم بلغهم أن قتادة مضى الى رسول الله(ص) بخبر السرقة، فأرسلوا اليه أسيد بن عروة ليدفع عنهم التهمة. فلما كلم أُسيد الرسول(ص) لام قتادة لرميه القوم بالسرقة، فرجع مغموما لذلك، فنزلت هذه الاية.[٦]والطوسي نقل هذه الحادثة من تفسير القمي في الباب الذي سماه" القصة والنزول"، ولم يغير من عبارات القمي الا بضعة ألفاظ، تركها لتكرارها.[٧]وكان ابو جعفر الطبري قد روي هذه الحادثة بعدة اسانيد عن قتادة عن ابيه عن جده قتادة بن النعمان[٨]، بألفاظ ومفادات فيها تغاير عما اورده القمي.

([١])التبيان ٤٦٨/٦.

([٢])تفسير القمي ٢/ ١٠٨. والرواية مسندة في تفسير الطبري٧٢/١٥ ط الحلبي.

([٣])التبيان ٣٧٨/٩-٣٧٩.

([٤])تفسير القمي ٣٢٧/٢.

([٥])النساء:١٠٦.

([٦])تفسير القمي١٥٠/١-١٥١.

([٧])التبيان:٣١٧/٣.

([٨])الطبري: جامع البيان ١٧٧/٩-١٨٣ من المطبعة المحققة.

وهذا ماجعلنا نقطع بأن الطوسي نقل هذه الرواية من تفسير القمي، لامن تفسير الطبري.

جـ-وبالمثل اعتمد الطوسي على تفسير أبي النضر محمد بن مسعود العياشي المتوفى في أوائل القرن الرابع الهجري ونقل منه روايات في التفسير والنزول، طارحا اسنادها مكتفيا في الغالب بالاشارة الى من رويت عنه من الأئمة. وأكثر هذه الروايات ينمى الى محمد الباقر وجعفر الصادق، وبعضها الى ائمة اخرين مثل علي بن الحسين. ولم يشر الطوسي الى تفسير العياشي، غير أن مادة النقول هدتنا الى أنه استقاها منه. والمنهج الذي سلكه في التعامل مع روايات العياشي لايختلف عن المنهج الذي بيناه في روايات القمي ، فهو يتخير من تلك الروايات مايوائم منهجه في التفسير. وهو المنهج الذي لايأبه بالروايات التي لايحتملها النص القرآني. ففي آية البقرة(حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى)،[1]يذكر أن المراد بالصلاة الوسطى: صلاة العصر، في قول النبي(ص) وعلي وابن عباس والحسن، وان زيد بن ثابت وابن عمر قالا: هي صلاة الظهر. ثم يقول بعد ذلك:" وهو المروي عن ابي جعفر وأبى عبد الله".[2]وهو مارواه العياشي عن زرارة بن أعين ومحمد بن مسلم عن محمد الباقر وجعفر الصادق[3]. وفي اسباب النزول، لم يجعل الطوسي روايات العياشي السبب الوحيد في نزول الآي، وانما اوردها في جملة ماروى عن المفسرين الاوائل من هذه الاساب. ففي قوله تعالى (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله).[4] يبين ان قتادة جعل الآية نازلة في المهاجرين والانصار، وأن عكرمة جعلها نازلة في أبي ذر الغفاري حين اخذه اهله مراراً فانفلت منهم ورجع الى صف المسلمين،وفي صهيب الرومي حين أخذه المشركون،فافتدى منهم بماله وخرج مهاجرا فأدركه من الكفار منقذ بن طريف،فأعطاه بقية ماله ليخلى سبيله.ثم يقول بعد ذلك:وروى عن أبى جعفر محمد الباقر أنها نزلت في علي عليه السلام،حين بات في فراش رسول الله

---

(١)البقرة : ٢٣٨.

(٢)التبيان ٢/٢٧٥.

(٣)تفسير العياشي ١/١٢٧.

(٤)البقرة:٢٠٧.

(ص).لما أرادت قريش قتله[1] وهومعنىرواية العياشي عن جابر بن يزيد الجعفي عن محمد الباقر[2].

وكثيراً مايلتزم الطوسي بنص رواية العياشيعن الائمة،فيوردها بألفاظها وليس بمعناها،كما في قوله تعالى:(وأتوا البيوت من أبوابها)[3]،يقول" روى جابر عن أبي جعفر محمد بن علي(ع).. قال يعني أن يؤتي الأمر من وجهه، أي الامور".[4]

وافاد الطوسي من تفسير العياشي في تعرّف رأي الأئمة في نسخ الآي، فذكر في تفسير آية النساء:" واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم"[5]، ان حكم الآية منسوخ عند اكثر المفسرين، وأنه كذلك فيما روي عن ابي جعفر وأبي عبد الله.[6]وكلتا الروايتين أوردها العياشي، اذ روي عن جابر الجعفي عن محمد الباقر، وعن أبي بصير عن جعفر الصادق أن الآية منسوخة.[7].

(٣)
كتب التفسير العامة

لم يقتصر الطوسي على كتب اصحابه الإمامية في التفسير، وانما اضاف اليها، بوحي من نظرته الشاملة للتراث الاسلامي، كتب غيرهم من مفسري الامة. فأفاد من مصادر أهل السنة والمعتزلة على السواء. وكان رأس ما اعتمد عليه منا، كتاب مهم أصيل مشهور هو:

أـتفسير الطبري:

مؤلف هذا التفسير الكبير المسمى" جامع البيان عن تأويل آي القرآن" ابو جعفر محمد بن جرير الطبري الآمليّ المتوفى سنة ٣١٠ هـ[8]. وقد اشتهر تفسيره هذا في الافاق ونال ثناء العلماء في كل عصر ومصر حتى وصفوه" بأنه لم

---

(١) التبيان ١٨٣/٢.
(٢) تفسير العياشي ١٠١/١ .
(٣)البقرة:١٨٩
(٤)التبيان ١٤٢/٢ وقارن بتفسير العياشي ٨٦/١.
(٥)النساء:١٥.
(٦)التبيان ١٤٣/٣.
(٧) تفسير العياشي٢٢٧/١.
(٨)ياقوت : معجم الادباء ٤٠/١٨ والداودي: طبقات المفسرين ١١٤/٢.

يصنف أحد مثله"[1]واشار الطوسي اليه في مقدمة تفسيره، وعد مؤلفه الطبري من علماء الأمة الذين أطالوا في تفاسيرهم وعنوا بجمع معاني القرآن واستيعاب ماقيل من فنونه.[2]وكأن الطوسي عرف لتفسير الطبري هذه الاهمية، فبنى عليه هيكل تفسيره واقام على اسسه مارواه من غير الامامية خاصة من وجوه التفسير بالمأثور، فروايات الطبري هي المصدر الاول لتلك الوجوه الكثيرة التي يوردها الطوسي عن النبي (ص) وعن الصحابة والتابعين، كعمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس وعبد الله ابن مسعود وأبي هريرة رضى الله عنهم ، أو يوردها عن عبد الله بن عمر وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والسدّي وعكرمة وأبي مالك والربيع وعطاء وغيرهم ممن يزخر تفسيره برواياتهم واقوالهم في مواد مختلفة: في التفسير وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ ونحوها.

ومنهجه الذي اتبعه في الافادة منه، يقوم على طرح سند الرواية والاكتفاء بمتنه غالبا، مع الاشارة الى رأس السند الذي انتهت اليه تلك الرواية. ويكاد يكون ذلك مطردا في تفسيره كله، الا مواضع قليلة اشار فيها الى بعض رجال السند الذين روى عنهم الطبري، كقوله:" روى الطبري باسناده عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس".[3]وفيما عدا هذه المواضيع يورد الطوسي روايات الطبري دون الاشارة الى أنه استقاها من تفسيره، كقوله" روي عن النبي(ص).. وهو المروي عن عمر وابن عباس.. وبه قال عطاء ومجاهد وابن الزبير"[4].فهذه الروايات اوردها الطبري باسناده عن النبي(ص) والصحابة والتابعين الذي ذكرهم الطوسي.[5]بل أن الطوسي ليأخذ طائفة من آراء الطبري اللغوية والنحوية دون أن يعزوها اليه. وقد يشير الى رأي الطبري ليعرضه في جملة آراء مقولة في التفسير أو النزول أو النسخ أو اللغة، أو ليعقب عليه بالموافقة أو الرفض. فهذا ماهدتنا اليه الموازنة الدقيقة بين تفسير الطوسي وتفسير الطبري.

وتبين لنا من هذه الدراسة أيضا أن الطوسي لايمس روايات الطبري بتجريح رجال اسنادها أو تضعيف متونها، وانما يحكيها من غير تعليق، ثم يختار منها

([1])ياقوت: معجم الادباء ١٨/ ٤٠.

([2])التبيان ١/ ١.

([3])التبيان ٦/ ٢٢٣. وانظر مثله في ١٠/ ٩٨.

([4])التبيان ٥/ ١٧١.

([5])الطبري: جامع البيان ١٤/ ١١٤، ١١٦ وما ذكرناه هنا وما بعده مستقى من الطبعة المحققة.

على اسس علمية أصلّها على وفق منهج مدروس واضح، مع أن الطبري جمع في تفسيره روايات مختلفة في اسنادها قـوة وضعفـا، وأخـرى بعيـدة المضـامين كالاسرائيليات ونحوها. كما أنه لايورد في كل حال جميع الوجوه والاقـاويل التـي حملتها روايات الطبري، وانما يتخير منها طائفة ويترك أخـرى. فـهذا مـايتعلق بالرواية، أما ماسبيله الدراية فالامر يختلف فيه تماما، اذ نرى الطوسي يقف منـه موقف الدارس المتأمل، فيأخذ على الطبري بعض هفواته، وينقد عليه طرفـا مـن آرائه في القراءات واللغة والنحو. ولنبدأ بالقسم الاول الذي يتعلق بالرواية، لـنرى كيف افاد منه الطوسي. في تفسير قوله تعالى (وأذان من الله ورسوله الى النـاس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله).[1] يبين الطوسـي أن فـي معنى" الحج الاكبر" ثلاثة أقوال، يقول"" أحدها ماروى عن النبي أنه قـال: عرفـة، وهو المروي عن عمر وابن عباس، بخلاف فيه، وبه قال عطاء ومجـاهد وابـن الزبير. والثاني: في رواية اخرى عن النبي(ص) وعلي (ع) وابن عباس وسعيد ابن جبير وعبد الله بن أبي أوفي وابراهيم ومجاهد: انه يوم النحر. وهو المـروي عن ابي عبد الله- يقصد جعفراً الصادق- . الثالث: قال مجاهد وشعبة هو جميـع ايام الحج".[2]وهذه الوجوه الثلاثة رواهـا الطـبري باسـناده عـن النبـي(ص) والصحابة والتابعين[3]الذين ذكرهم الطوسي، الا أنه لم يشر الى شعبة في روايـة الوجه الثالث، فلعل الطوسي استقى ذلك من مصدر آخر، أو ذكره سهوا.

ولم يورد الطوسي كل ماروا‌ه الطبري في تأويل هذه العبارة، وانمـا اختـار بعضه وترك البعض الاخر، كالقول بأن" الحج الاكبر" حجة الوادع، ويورد الروايلت على الترتيب التي هي عليه في تفسير الطبري والقرآن في الحج، والعمرة كما انـه لم[4]، بل قدم بعضها على بعض. وهذا من اسلوبه في النقل من المصـادر، وقـد بيناه عند الكلام سالفا على كتب معاني القرآن. وعلى هذا المنـوال كـان موقـف الطوسي من روايات الطبري في اسباب النزول، فهو يأخذ طائفة من تلك الروايات، فيطرح اسنادها، ثم يجعلها في مقدمة مايورده من هذه الأسباب. وهو لايعزوها الى

---

(1)التوبة: ٣.

(2)التبيان ١٧١/٥.

(3)الطبري: جامع البيان ١١٦/١٤-١٢٧.

(4)الطبري: جامع البيان: ١٢٨/١٤-١٣٠.

رواية الطبري، ولكن قد يبين ما اختاره الطبري منها ورآه اولى بـالقبول، ففي تفسير قوله تعالى (أن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون)[1]، يذكر الطوسي أن الآية" نزلت في ابي جهل وفي خمسة من قادة الاحزاب قتلوا يوم بدر،في قول الربيع بن أنس" ثم يقول:" وقال ابن عباس نزلت في قوم بأعيانهم من أحبار اليهود، ذكرهم بأعيانهم من اليهود الذين حول المدينة. وقال قوم: نزلت في مشركي العرب، واختار الطبري قول ابن عباس".[2]وحين رجعنا الى تفسير الطبري ألفيناه يروي بسنده عن الربيع بن أنس أن الآية نزلت في قادة الاحزاب، وهم الذين قتلوا يوم بدر.[3]ثم يقول" وكان ابن عباس يرى أن هذه الآية نزلت في اليهود الذين كانوا بنواحي المدينة على عهد رسول الله (ص)"[4]،ويروي بسنده عن ابن عباس أيضا: "أن صدر سورة البقرة الى المئة منها نزلت في رجال سماهم بأعيانهم وأنسابهم من أحبار اليهود".[5]ويقول بعد ذلك مختارا لقول ابن عباس: وأولى هذه التأويلات بالآية تأويل ابن عباس، وان كان لكل قول مما قاله الذين ذكرنا قولهم في ذلك مذهب".[6]

ويلاحظ أن الطوسي جمع بين روايتي الطبري عن ابن عباس، وصاغ منهما رواية واحدة، عدها سببا في نزول الآية. وهذه صورة من صور تعامله مع روايات الطبري، اضافة لما اسلفناه.

وافاد الطوسي من تفسير الطبري في النسخ، فنقل منه بعض الروايات الواردة فيه، واشار في مواضع الى اختيار الطبري منها. فبين في تفسير آية الانفال:"(يسألونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم)[7]أن المفسرين اختلفوا في هذه الاية: هل هي منسوخة او محكمة؟ قال مجاهد وعكرمة والسدى وعامر الشعبي: هي منسوخة بقوله(واعلموا أن ماغنمتم من شيء فان لله خمسه...).وهو ماوراه الطبري باسناده عن هؤلاء المفسرين

---

(1)البقرة: ٦.
(2)التبيان ١/٥٩-٦٠.
(3)الطبري: جامع البيان ١/٢٥٢.
(4) نفسه ١/٢٥١.
(5) المصدر نفسه: المكان نفسه
(6)نفسه ١/٢٥٢.
(7)الانفال:١.

الأربعة.[1] ثم قال الطوسي: وقال[2] آخرون: ليست منسوخة، ذهب اليه ابن زيد واختاره الطبري، وهو الصحيح[3].ورأي ابن زيد رواه الطبري بسنده عنه، فبينَ أنه يرى آية الانفال عامة، وأن المسلمين سلّموا لله ولرسوله الأنفال بعد نزولها يحكمان فيها بما شاءا، فلما نزل بعده: (واعلموا أن ماغنمتم من شيء فإن لله خمسه) علموا أن لهم أربعة أخماس منها.[4]ومعنى هذا أن ابن زيد، وهو عبد الرحمن بن زيد بن اسلم، لايرى آية الغنائم ناسخة لآية الانفال، بل يراها مخصصة لها. وهذا مافهمه الطوسي من رواية الطبري عنه، وهو فهم سليم. وقد صرح الطبري برأيه- الذي نوه له الطوسي- في إحكام الآية فقال:" ليس في الاية دليل على أن حكمها منسوخ... وغير جائز أن يحكم بما قد نزل به القرآن أنه لامنسوخ الا بحجة يجب التسليم لها.. على أنه منسوخ الا ما أبطل حكمه حادث حكم بخلافة ينفيه من كل معانية".[5] وكأن الطوسي تابع الطبري في طلبه الدليل عل النسخ وناصره فيه اذ قال بعد تصحيح قوله" لأن النسخ محتاج الى دليل، ولاتنافي بين هذه الآية وآية الخمس".[6].

وافاد الطوسي من بعض اقوال الطبري اللغوية التي اوردها في تفسيره وهو يتناول الآي بالتأويل، فأخذ منه المعاني المختلفة لكلمة(حصورا) في قوله تعالى(ان الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيدا وحصورا..)[7]مقدما بعضها على بعض، على عادته احيانا في اقتباس الاقوال والنصوص" فبينَ أن الحصور معناه" الممتنع عن الجماع، ومنه قيل: للذي يمتنع أن يخرج مع ندمائه شيئا للنفقة: حصور. ثم احتج بقول الاخطل الذي انشده الطبري:

وشارب مربحٍ بالكأس نادمني *** لابالحصورِ ولا فيها بسوّارِ

وفسر السوّار بالمعربد، ثم قال"ويقال للذي يكتم سره:حصور، ويقال: حصر في قراءته اذا امتنع بالانقطاع فيها... وقال عبد الله: الحصور:العنّين.. وقال الحسن

---

(1) التبيان٥/٧٣-٧٤.
(2) الطبري: جامع البيان ١٣/٣٨٠.
(3) التبيان ٥/٧٤.
(4) الطبري: جامع البيان ١٣/٣٨١.
(5)نفسه ١٣/٣٨٢.
(6)التبيان٥/٧٤.
(7)آل عمران: ٣٩.

وقتاده: هو الذي لايأتي النساء..."[1].وهذا كله مما اورده الطبري في تفسير هذه اللفظة.[2].

وافاد الطوسي من بعض اقوال الطبري النحوية،ادراكا منه لاحاطته بآراء النحاة المختلفة،ولم ينسب اليه تلك الآراء،فيما تبين لنا،الا حين غلّطه فيها.فمن ذلك ما أورده في تفسير قوله تعالى(ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم)[3]،فبين أن بعض النحويين قال:ان هؤلاءتنبيه وتوكيد لـــ "أنتم" وزعم أن أنتم وان كان كناية عن أسماء جميع المخاطبين،فانما جاز أن يؤكد بهؤلاء وأولاء،(لانها)يكنى بها عن المخاطبين،كما قال خفاف بن ندبة:

أقولُ لهُ والرمحُ يأطرْ متنُهُ *** تَبيَنْ خُفافاً أنني أنا ذلكا

يريد:أنا هو.وكما قال(حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبةٍ)[4].

وهو نص ما أورده الطبري في تفسيره،الا ان الطبري قدر الكلام في البيت:"أنــا هذا"[5] والطوسي جعله:أنا هو.فالطوسي هنا لم ينسب هذا القول الى الطبري،ولكنــه نسب قوله اليه حين غلطه في اعراب "ثم "من قوله تعالى(أثُم اذا ما وقـــع آمنتــم الآن وقد كنتم به تستعجلون)[6]،فقال:وقال الطبري:معنى ثم هاهنــــا:هنـــاك.وهــذا غلط؛لأن ثم بالفتح تكون بمعنى هنالك،وهذه مضمومة فلا تكون الا للعطف.[7]وهــذا صحيح،فان الطبري وهِم في عده ثم التي في الآية ظرفا[8]؛اذ لاريب أنـــها عاطفـــة هنا.وهو أمر مستغرب حقا،اذا علمنا أن الطبري جيد المعرفة بالنحو ومسائله،كمـــا يشعرنا بذلك تفسيره.وبذا ننهى كلامنا على تفسير الطبري مصدرا مـــهما لتفســـير الطوسي.

---

(1)التبيان ٢/٤٥٢.
(2) الطبري : جامع البيان ٦ / ٣٧٦ –٣٧٧،٣٧٩.
(3) البقرة :٨٥.
(4)التبيان ١/٣٣٤-٣٣٥.
(5) الطبري: جامع البيان٢/٣٠٤.
(6) يونس :٥١.
(7)التبيان ٥/٣٩٠.
(8)انظر: جامع البيان١٥/١٠١.

بـ-تفسير أبى على الجبّائي:

من اهم التفاسير التي اعتمد عليها الطوسي تفسير أبى علي محمد بن عبد الوهاب الجُبائي المتوفى سنة ٣٠٣هـ[١]،الذي كان رأس المعتزلة في عصره ذلك التفسير الضخم الذي وصفه الملطي بأنه يقع في مئة جزء،[٢]وبين القاضي عبد الجبار انه أملاه على تلامذته من غير كتاب[٣].وقد نال هذا التفسير عناية المعتزلة والشيعة واهل السنة،فنقل منه القاضى عبد الجبار عدة نقول في كتابه(متشابه القرآن)،[٤]والشريف الرضي في (حقائق التأويل)[٥]والطوسي في (التبيان)،وفخر الدين الرازى في تفسيره الكبير (مفاتيح الغيب) [٦]ولم يصل الينا من هذا التفسير الا هذه النقول،وهي التي استأنسنا ببعضها في هذه الدراسة.وعرضنا طائفة من نقول الطوسي عليها لغرض الموازنة والتثبت.

وقد أورد الطوسي أقوالا كثيرة للجبائى،في التفسير والنزول والنسخ والمتشابه والبلاغة،فبين في تفسير قوله تعالى:(هو الذي خلق لكم ما فى الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم).[٧]أن في تأويل الاستواء فى الآية الكريمة وجوها.ثم جعل قول أبي علي ثاني وجهين فضلهما على هذه الوجوه فقال:وأحسن هذه الوجوه ان يحمل على أنه علا عليها فقهرها،وارتفع فدبرها بقدرته...وبعد ذلك قول من قال:قصد اليها فخلقها.[٨]وهذا القول الاخير لأبى علي حكاه عنه القاضى عبد الجبار.[٩]

وفي تفسير قوله تعالى(قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل)[١٠].حكى الطوسي عن أبي علي الجبائي أن قوله (عَبَدَ

---

(١)ابن المرتضى: طبقات المعتزلة ص ٨٤ والداودي: طبقات المفسرين ٢/١٨٩.
(٢)زرزور- الدكتور عدنان: الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن ص ١٣٣.
(٣)القاضي:فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص٢٩٢.
(٤)ينظر مثلا١/١٧٠،١٧٢،١٩٠
(٥)تنظر الصفحات ٦٩،٦٧،٥٢،٢٠،١٠٠،٨.
(٦)ينظر مثلا١/٢٤٢،٢٦٣،٣٠٩
(٧)البقرة:٢٩.
(٨)التبيان ١/١٢٥.
(٩)القاضي:متشابه القرآن ١/٧٤.
(١٠)المائدة:٦٠.

الطاغوت)معطوف على من "لعنه الله" وليس على جعل منهم فهم القردة والخنازير وان التقدير على هذا:من لعنه الله وغضب عليه ومن عبد الطاغوت ومن" جعل منهم القردة والخنازير".واستدل الطوسى بذلك على سقوط شبهة من يظن ان الله جعلهم يعبدون الطاغوت؛اذ بهذا التقدير "تسقط الشبهة".[1]وهذا عين ما حكاه القاضى عبد الجبار عن ابي علي الجبائي،وهو يدفع هذه الشبهة ايضا،فقال:وقال شيخنا ابو على رحمه الله:ان تقدير الكلام:قل هل انبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه ومن عبد الطاغوت ومن جعل منهم القردة والخنازير.[2]

ولم يقف الطوسى موقف المتقبل لأقوال أبي علي،المستأنس بها باستمرار،بل كان يرد منها ما هو بعيد مستغرب،ففي آية البقرة:(وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله)،[3]ضعف الطوسى قول أبى على بأن المراد بالحجارة فى الآية الكريمة البرد النازل من السماء.وعد هذا القول شاذا لمخالفته لقول الاكثرين،وهو ان المراد بذلك الحجارة الصلبة.[4]وهذا الوجه حكاه الرازى في تفسيره عن ابي علي،فبين أنه فسر الحجارة بالبَرد الذى يهبط من السحاب تخويفا للعباد،أوبما يوجب الخشية لله،كما يقال:نزل القرآن الكريم بتحريم كذا وتحليل كذا.وأورد رد القاضى عبد الجبار عليه واستبعاده أن يوصف البرد بالحجارة،لأنه اذا اشتد عند النزول فهو ماء فى الحقيقة،ولانه لايليق ذلك بالتسمية.[5]

وربما اورد الطوسى قول أبي علي من غير تعليق عليه بترجيح او تضعيف،وان خالف قول كبار المفسرين الاوائل.فنراه مثلا يذكر ان قوله تعالى فى سورة آل عمران:(يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون)[6]،منسوخ في قول قتادة والربيع والسدى بقوله(فاتقوا الله ما استطعتم)وأن أبا علي الجبائي انكر نسخ الآية،ورأى أنها محكمة؛"لأن من اتقى

([1])التبيان٣/٥٧٤-٥٧٥.
([2]) القاضي: متشابه القرآن ١/٢٣٠..
([3]) البقرة:٧٤.
([4]) التبيان١/٣٠٩
([5])الرازي: مفاتيح الغيب١/٣٨٥.
([6])آل عمران:١٠٢.

جميع معاصيه فقد اتقى الله حق تقاته،ومثل هذا لايجوز أن ينسخ لأنه اباحة لبعض المعاصي".[١]

ويكتفي الطوسي بهذا البيان دون ان يرجح أحد القولين.ويبدو أنه اختصر كلام أبى علي؛اذ كان الشريف الرضي قد حكاه عنه،بما يدل على أنه كلام مبسوط.[٢]

وفى تفسير آية المتشابه:(وما يعلم تأويله الا الله)[٣]،يذكر الطوسى قولين:أحدهما مروى عن أم المؤمنين عائشة والحسن البصري،وهو أنه ما يعلم تأويل جميع المتشابه الا الله؛لأن فيه ما يعلمه الناس،وفيه مالا يعلمونه كوقت الساعة وما بيننا وبينها من مدة. ثم يذكر أن أبا علي الجبائي اختار هذا الوجه.[٤]وهو ما حكاه الشريف الرضي عن الجبائي،ووصف القائلين به بأنهم العلماء المحققون،وبين أنهم يقفون بذلك موقفا وسطا فى تأويل الآية [٥].

وبذلك يتبين لنا أن نقول الطوسى من تفسير أبي علي الجبائى دقيقة وموافقة لما نقلته كتب التفسير الأخرى منه.

جـ-تفسير أبى القاسم البلخي:

ورجع الطوسي الى تفسير أبي القاسم عبد الله بن احمد البلخي الكعبي المتوفى سنة ٣١٩هـ[٦]الذي كان من كبار المعتزلة وشيوخهم فى عصره وقد ذكر القاضى تفسيره،وأثنى عليه وبين أنه بارع في أكثر من علم فقال:وله كتاب تفسير وقد أحسن فيه،وهو متفنن فى علم الكلام وعلم الفقه أيضا،فأما الادب فناهيك.[٧]

ولم يصل الينا من هذا التفسير الا نقول حفظتها لنا بعض كتب التفسير مثل حقائق "التأويل للشريف الرضي ،وتفسير التبيان للطوسي. وقد أشار الطوسي في مقدمة تفسيره اليه،وعد البلخي من المتكلمين الذين اضافوا الى العناية الفائقة بالمعانى الكلامية،ادخال بحوث مطولة،من بسط فروع الفقة مع بيان اختلاف الفقهاء .[٨]ونقل منه التفسير والقراءات والنحو والبلاغة .

---

(١)التبيان ٥٤٣/٢.
(٢)الرضي حقائق التأويل ص٢٠٢-٢٠٣.
(٣)أل عمران:٧.
(٤)التبيان ٤٠٠/٢.
(٥)الرضي: حقائق التأويل ص٨.
(٦)ابن المرتضى: طبقات المعتزلة ص٨٩، والداودي: طبقات المفسرين ٢٢٢/١.
(٧) القاضي : فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص٢٩٧..
(٨)التبيان ١/١.

وفي تفسير قوله تعالى (ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا)[1]،حكى الطوسي عن البلخي أن الهاء في قوله(انه كان فاحشة)،يحتمل أن تكون عائدة على النكاح بعد النهى،ويحتمل ان تكون على النكاح الذى كان عليه اهل الجاهلية قبل.ولا يكون ذلك الا وقد قامت عليهم الحجة بتحريمه من جهة الرسل[2].وهو عين ما حكاه الشريف الرضي عن البلخي.[3]

ونقل الطوسي من تفسير البلخي اعرابا للآى،واستبعد بعضه ولم يره الوجه،كما في قوله تعالى(لن يضروكم الا أذى وان يقاتلوكم يولوكم الادبار ثم لاينصرون)[4]،اذ بين أن البلخي والطبري جعلا الاستثناء في الآية منقطعا،باعتبار ان الاذى ليس من الضرر في شيء.[5]

وهو ما نقله الشريف الرضي عن البلخي فى تفسير هذه الاية فقال:وقال بعضهم:قوله الا اذى استثناء منقطع من أول الكلام،كقولهم:ماشتكى الا خيراً،والى هذا ذهب أبو القاسم البلخي وبعض المفسرين.[6]ولم ير الطوسي الاستثناء في الاية منقطعا،وانما رآه متصلا؛ولذلك غلط البلخي في قوله السالف،فقال:وهذا ليس بصحيح؛لأنه اذا أمكن حمله على الاستثناء الحقيقى،لم يجز حمله على المنقطع.والمعنى فى الاية:لن يضروكم الاضررا يسيرا،فالاذى وقع موقع المصدر الاول.واذا كان الاذى ضررا فالاستثناء متصل[7].والطوسي يقيم رده على البلخي هنا على مبدأ الأصالة أو استصحاب الاصل،الذى هو الاتصال،ما دام لذلك وجه سائغ فى اللغة.

واورد الطوسي بعض أقوال البلخي في العقائد كالامامة [8]واللطف [9]وتفضيل الملائكة على الانبياء، [1]وناقشها،كما ناقش أقوالا لأبي علي الجبائي أيضا فى الاحباط [2]وتفضيل الملائكة على الانبياء[3] وغيرهما.

([1])النساء:٢٢.
([2])التبيان٣/١٥٤-١٥٥.
([3]) الرضي: حقائق التأويل ص٣١٧.
([4]) آل عمران:١٧٦ .
([5])التبيان٢/٥٥٩.
([6]) الرضي: حقائق التأويل ص٢٧٧.
([7]) البيان٢/٥٥٩.
([8])التبيان:١/١٣-١٤.
([9])التبيان٢/١٩٦.

د-تفسير أبى مسلم الاصفهانى:

ومن تفاسير المعتزلة التى رجع اليها الطوسى في تحرير تفسيره "جامع التـأويل لمحكم التنزيل" لأبى مسلم محمد بن بحر الاصفـهانى المتوفـى سـنة ٣٢٢هـ[٤]،الذى يقع فى اربعة عشر مجلدا.[٥]ولذلك قال القاضي [٦]عنه:"صاحب التفسـير الكبير والعلم الكثير واشار الطوسي الى أبي مسلم فى مقدمة التبيان وأبدى اعجابه بتفسيره،وعده هو وعلي بن عيسى الرماني اصلح من سلك فى التفسـير مسلكا مقتصدا،وعد كتابيهما أصلح ماصنف في تفسير القرآن،الا أنه أخذ عليهما الاطالةفي الخطب وايراد كثير مما لا يحتاج اليه [٧]ولعل ثناء الطوسى يصدق بوجه خاص على تفسير الرماني، اذ هو قيم حقا، كما لاحظناه عند دراسته. أما تفسير أبي مسلم فهو مليء بالتعمق والاغراب، حتى أن ذلك اثار عليه ثـائرة الشـريف الرضي فانبرى ينقده بشدة واضحة.[٨]ولم يصل الينا من تفسير أبي مسلم الا نقـول عنه كالذي في كتاب الرضي وتفسير الرازي.

وأكثر مانقل الطوسي عن أبي مسلم التفسير، ففي آية البقرة(ومنهم أميون لايعلمون الكتاب الا أماني وان هم الا يظنون)[٩] ، يذكر الطوسي، عدة اقوال في معنى الأماني، كالكذب والتمني والاحاديث والتلاوة. ثم يقول" وقال أبو سلم محمد بن بحر الاصفهاني: الأماني:التقدير، قال الشاعر [١٠]

ولا تقولَنْ لشي سوفَ افعلُهُ*** حتى تَبَيَّنَ مايَمني لكَ المانيْ

اي مايقدّر لك المقدّر.[١١]وهو ماحكاه الرازي عن أبي مسلم فـي تفسـير هـذه الآية[١٢].

---

(١) التبيان: ١٤٢/٤.
(٢)التبيان: ١٩٠/٤.
(٣) التبيان١٢٢/٤.
(٤) ياقوت: معجم الادباء ٣٥/١٨. والداودي: طبقات المفسرين ١٠٦/٢.
(٥) ياقوت: معجم الادباء ٣٦/١٨.
(٦)فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص ٢٩٩.
(٧)التبيان ١/١-٢).
(٨)الرضي حقائق التأويل ص٢٤٣.
(٩)البقرة: ٧٨.
(١٠)قائله ابو قربة الهذلي. انظر ديوان الهذليين ٣٩/٣.
(١١)التبيان ٣١٩/١.
(١٢)الرازي: مفاتيح الغيب ٣٨٩/١.

وقد يورد الطوسي تفسير ابي مسلم في مقابل التفسير الذي عليه أكثر المفسرين، والذي تبناه هو وجعله المعتمد في تأويل الآي. ففي آية البقرة (وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة)[١]، يبين الطوسي أن المراد بالجنة هنا: الجنة التي كان فيها آدم في السماء؛ لأنه أهبط منها. ثم يقول بعد ذلك:" وقال ابو مسلم محمد بن بحر: هي في الارض لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نهاهما عنها دون غيرها من الثمار"[٢]. وهو ماحكاه الرازي في تفسيره عن أبي مسلم، ونسبه الى البلخي ايضا فقال من كلام طويل:" واختلفوا في أن الجنة المذكورة في هذه الاية هل كانت في الارض أو في السماء؟... فقال ابو القاسم البلخي وابو مسلم الاصفهاني: هذه الجنة كانت في الأرض، وحملا الاهباط على الانتقال من بقعة الى بقعة".[٣].

وقد يغرب أبو مسلم، وينزع بتأويل الآية بعيدا عن مدلول ظاهرها، فيحكي ذلك الطوسي عنه ويستملحه ويستجيده، ولكنه لايخفي أن فيه تعسفا وتكلفا، ففي وقوفه عند قوله تعالى(وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين)[٤]، يذكر أن المفسرين اختلفوا في معنى" عرضها السموات والارض" فقال ابن عباس والحسن البصري: معناه عرضها كعرض السموات السبع والارضين السبع، اذا ضم بعض ذلك الى بعض. ثم يبين أن الجبائي والبلخي اختارا هذا الوجه، ويقول بعد ذلك:" وقال ابو مسلم : معناه: ثمنها لو بيعت كثمن السموات والارض لو بيعا، كما يقال: عرضت هذا المتاع للبيع". ثم يعقب عليه قائلاً:" وهذا مليح غير أن فيه تعسفا شديدا".[٥]ولست أدري اين موضوع الملاحة في تفسير تجافي عن مفهوم الآية مثل هذا التجافي ،وشرد عنه هذا الشرود؟! وقد حكى الشريف الرضي هذا القول الغريب، عن أبي مسلم، ثم أنكره اشد الانكار؛ اذ قال" فأقول ان هذا التأويل عن اعتساف ابي مسلم وخبطة واستكراهه وتعمقه، وقد قال الشاعر: وعند التعمق الزلل. ويكفي في فساد قوله هذا، إجماع الأمة على خلافه، مع مافيه من شواهد التعسف ودلائل التكلف"[١].

---

(١)البقرة:٢٥.
(٢)التبيان: ١/١٥٩.
(٣)الرازي مفاتيح الغيب١/٣٠٥.
(٤)آل عمران: ١٣٣.
(٥)التبيان:٢/٥٩٢.

هذا، إجماع الأمة على خلافه، مع مافيه من شواهد التعسف ودلائـــل التكلـف"[1].
فالطوسي كما ترى كان رفيقا بأبي مسلم كل الرفق، على حين كان الرضـــي حــادا مشدداوهذا الموقف سائد في منهج الطوسي ؛اذ هو يتلقى الأقوال البعيدة، بـــهدوء واضح، وان لم يقبلها.

هـ- تفسير النقاش:

ومن مصادر الطوسي تفسير ابي بكر محمد بن الحسـن بـن محمـد النقـاش الموصلي المقرئ نزيل بغداد المتوفى سنة ٣٥١هـ[2] ، الذي كان أمام أهل العراق في القراءات والتفسير[3].وقد ذكره الذهبي في الطبقة الثامنة من طبقـات القـراء الكبار، وبين أنه صنف في القراءات والتفسير والحديـث والسـنن.[4]الا أن ابـن مجاهد دلسه، فقال: حدثنا محمد بن سند، نسبة الى جد له أعلى، وضعفـه الـدار قطنى،[5]وذكر ابن عطية أن الناس كثيرا ما استدركوا عليه.[6]واسم تفسيره:"شـفاء الصدور في التفسير"، والموجود منه الجزء الثاني يقع في خمس وسبعين ومئتـي ورقة، ويبدأ من قوله تعالى(وبرا بوالدتي) في سـورة مريـم، وينتـهي بسـورة الناس، وهو مخطوط.[7].

اشار الطوسي الى النقاش في مواضع قليلة من تفسيره، وعني بنقـل معنـى كلامه دون لفظه، وأكثر ما نقل عنه التفسير واسباب النزول. ففي تفسـير قولـه تعالى(فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين)[8]، يقول:" قال النقـاش: معنـى" فليعلمن الله"، أي فليميزن الله الصادقين من الكـاذبين[9].. وهـو تلخيـص لكـلام النقاش[10].وفي تفسير قوله تعالى عز وجل:(والذين هم عن اللغو معرضـون)[1]،

---

(1)الرضي: حقائق التأويل ص ٢٤٣.

(2) الذهبي: معرفة القراءات الكبار١/ ٢٤٠. وابن الخمدي: غاية النهاية في طبقات القراء٢/ ١٢١.
والداودي: طبقات المفسرين ٢/ ١٣٣.

(3) الداودي: طبقات المفسرين ٢/ ١٣٢

(4)الذهبي: معرفة القراء الكبار ١/ ٢٣٦-٢٤٠.

(5)ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء ٢/ ١٢٠-١٢١.

(6)مقدمة ابن عطية لتفسيره" المحور الوجيز"ص٢٦٣، ضمن كتاب" مقدمتان في علوم القرآن"نشر آرثر جفري.

(7)انظر مخطوطته بدار الكتب برقم ٥٢ تفسير.

(8)العنكبوت: ٢.

(9)التبيان ٨/ ١٨٧.

(10)النقاش: شفاء الصدور جـ٢ الورقة ٧٥ ظ.

يقول: وحكى النقاش أنهم نهوا عن سباب الكفار اذا سبوهم وعن مجادثتهم [1]،وهو مابينه النقاش في تأويل هذه الاية، الا أنه لم يذكر انهم نهوا عن محادثة الكفار، بل بين أنهم نهوا عن أذاهم فضلا عن شتمهم،، كما بين أن قوله تعالى:(واذا مروا باللغو مروا كراما)[2]، نزل في هؤلاء المؤمنين[3] الذين اثنى الخالق سبحانه عليهم. ولم يذكره الطوسي، وكأنه رآه استطرادا فتحاشاه.

ونقل الطوسي من تفسير النقاش سبب نزول قوله تعالى:(والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثماً مبينا).[4]فقال:" قال النقاش : نزلت في قوم كانوا يؤذون عليا عليه السلام"[5].هذا بعض ما أورده النقاش اذ قال:" نزلت في علي بن ابي طالب رضى الله عنه، وذلك أن نفراً من المنافقين كانوا يؤذونه ويكذبون عليه"[6]،وواضح أن الطوسي لم ينقل كلام النقاش بلفظه. وإنما تصرف فيه واختصره. وهذه صورة من صور تعامله مع مصادره.

و-تفسير الرماني:

ومن التفاسير التي اعتمد عليها الطوسي اعتمادا كبيرا تفسير ابي الحسن علي بن عيسى الرماني المعتزلي المتوفى سنة ٣٨٤ هـ[7]. وقد عده وابا مسلم الاصفهاني اصلح من سلك في التفسير مسلكا مقتصدا، وعد كتابيهما: "أصلح ماصنف في هذا المعنى". الا أنه أخذ عليهما الاطالة في الخطب، وايراد كثير مما لايحتاج اليه[8]. ولم يسم الطوسي تفسير الرماني وفقا لمنهجه الغالب في مصادره. وسماه الرماني في رسالته:" النكت في اعجاز القرآن" باسم" الجامع لعلم القرآن""[9]ولابد أنه أراد بذلك هذا التفسير الذي وصلت الينا بعض اجزائه، والذي لايزال مخطوطا [10]. واشار القاضي عبد الجبار الى تفسير الرماني،ووصفه

([1])التبيان ٤٨/٧.
([2])الفرقان:٧٢.
([3])النقاش: شفاء الصدور جـ٢ الورقة ٣٧ ظ.
([4])الاحزاب:٥٨.
([5])التبيان:٣٦٠/٨.
([6])النقاش: شفاء الصدور جـ٢ الورقة ٩٩ظ.
([7])السيوطي: بغية الوعاة ١٨١/١. والداودي: طبقات المفسرين ٤٢١/١.
([8])التبيان ١/١-٢.
([9])ص ١٤.
([10])منه الجزء الثاني عشر في معهد المخطوطات، وهو من مصورات المكتبة الخالدية بالقدس الشريف، وقد اعتمدنا عليه في هذه الدراسة.

بالتفسير الكبير. ويبدو أن هذا التفسير نال شهرة واسعة وحظى بثقة اهل العلـــم، فقد قيل للصاحب بن عباد: هلا صنفت تفسيرا؟فقال: وهل ترك لنا علي بن عيســى شيئاً؟![1].

اخذ الطوسي من تفسير الرماني التفسير والقراءات واللغة وغيرها. فنسب اليـه ما أخذه منه غالباً وأهمل ذلك أحياناً، وطرح للايجاز اسلوب السؤال والجواب الـذي اصطنعه الرماني في تحرير مواد تفسيره بصيغة:" ويقال ما...؟ الجواب..." وهــو الاسلوب الذي أخذ به الزمخشري من بعد، وأورده بصيغة الفنقلـــة" فــان قلــت.. قلت.." بعد أن تأثر الرماني تأثراً واضحا فيما أورده من وجوه التأويل [2].

وفي تفسير قوله تعالى(وترى المجرمين مقرنين في الاصفاد)[3]، أخذ الطوســي تفسير كلمتي" مقرنين"والاصفاد" من تفسير الرماني، دون أن يشير اليه، فقــال" أي قرنت ايديهم بالغل الى اعناقهم. وقال الجبائي قرن بعضهم الى بعــض" والصفــد: الغل الذي يقرن اليد الى العنق. ويجوز أن يكون السلسلة التي يقع بــها التقريــن. وأصل الصفد: القيد، وهو الصفاد، وجمعه صفد. قال عمرو بن كلثوم:

فآبوا بالنِّهابِ وبالسَّبايا*** وأبناءِ المُلوكِ مُصَفَّدينا[4]

وهو نص كلام الرماني بعد طرح صيغ السؤال والجواب التي اشرنا اليها آنفــا، الا ان الرماني قال: قال أبو علي"[5]، وعرف الطوسي أنه يحكــى كـلام الجبــائي، فقال" قال الجبائي"كما مر.

وافاد الطوسي من تفسير الرماني في بيان بعض القراءات المشهورة ونقل عنــه رأي النحاة في بعضها، وبين في بعض المواضع توجيهه لها، ولم يشر فــي كــل حال الى أنه اعتمد عليه في ايرادها، بل صرح بذلك في مواضع أخرى. مــن ذلـك نقله عنه رأي اكثر النحاة في قراءة حمزة(ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخــيِّ) بكسر الياء من " مصرخي" بدلا من فتحها في قراءة الباقين[6].اذ قــال" الرمــاني:

([1])ابن المرتضى: طبقات المعتزلة ص ١١٠.

([2])الجويني: منهج الزمخشري في تفسير القرآن ص ٨٥ ومابعدها.

([3])ابراهيم: ٤٩.

([4])التبيان٦/٣١٠ وروايته في تفسير الرماني١٢/٤٠ وجمهرة اشعار العرب لابي زيد ص ١٤٥" وابنا بالملوك مصفدينا" بدلا من " وابناء الملوك"، وهو المشهور الاشبه بالمعنى.

([5])الرماني: الجامع العلم القرآن جـ١٢ الورقة ٤٠ والتفسير غير مرقم فقمنا بترقيمه.

([6])ابراهيم: ٢٢.

الكسر لايجوز عند أكثر النحويين وأجازه الفراء على ضعف[1]،وهو نص كلام الرماني.[2]ومما لم يعزه اليه بيانه لاختلاف القراء في قراءة" مفرطون" من قوله(لاجرم أن لهم النار وأنهم مفرطون)[3]. اذ ذكر ان فيها ثلاث قراءات احداهما بكسر الراء وتخفيفها، والاخرى بفتحها والتخفيف، والثالثة بكسرها والتشديد، ثم وجّه قراءتين منهما التوجيه الذي أورده الرماني في تفسيره، بعد أن قدم احدى القراءتين على الأخرى، وتصرف قليلاً في ألفاظ الرماني فقال:" قرأ نافع" مفرطون" بكسر الراء والتخفيف، من الافراط في الشيء، أي :الاسراف، بمعنى أنهم مسرفون. وقرأ ابو جعفر مثل ذلك بالكسر، غير أنه شدّد الراء، من التفريط في الواجب. وقرا الباقون بفتح الراء والتخفيف".[4]

وفي اللغة نقل الطوسي من تفسير الرماني أنواعا من المباحث اللغوية كالتناظر المعنوي بين الألفاظ، في مثل قوله تعالى:(وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً..)[5]، يقول(للذين استكبروا) أي للذين طلبوا الكِبْر. والاستكبار والتكبّر والتجّبر واحد"[6]. ويقول الرماني:" ويقال ما الاستكبار؟ الجواب: طلب والكِبْر.والا ستكبار والتكبّر والتجبّر من النظائر[7].

وبالمثل أخذ الطوسي من الرماني تحديده لطائفة من الالفاظ القرآنية تحديدا معنوياً دقيقا. يقول في بيان الحق والخلق والخالق:" والحق: هو وضع الشيء في موضعه على ماتقتضيه الحكمة، واذا أجري المعنى على ماهو له من الأشياء فهو حق، واذا أجرى على ماليس هو له من الشيء فذلك باطل. والخَلْقُ فعل الشيء على تقدير وترتيب. والخالق: الفاعل على مقدار ماتدعو الحكمة اليه، لايجوز عليه غير ذلك"[8]. وقال الرماني: ويقال ما الحق؟ الجواب: وضع الشيء في موضعه على ماتدعو اليه الحكمة(واذا)[9]اجري المعنى على ماهو له من الاشياء فهو حق. واذا

([1])التبيان ٦/٢٨٩.
([2])الرماني: الجامع لعلم القرآن ١٢/٩.
([3])النحل: ٦٢.
([4])التبيان٦/٣٩٥ وقارن بالجامع لعلم القرآن ١٢/١٦٨.
([5])ابراهيم: ٢١.
([6])التبيان ٦/٢٨٨.
([7])الرماني: الجامع لعلم القرآن ١٢/٨.
([8])التبيان: ٦/٢٨٦.
([9])غير واضحة في المخطوطة، وقد استدللنا عليهما بنص الطوسي.

أجرى على ماليس له من الاشياء فذلك باطل... ويقال ما الخَلْقُ؟ الجواب: فعل الشيء على تقدير وترتيب. والخالق الفاعل للشيء على مقدار ماتدعو اليه الحكمة، لايجوز عليه غير ذلك في اطلاق الصفة"(١) .

واذا كان الطوسي لم يعز الى الرماني ما أخذه منه في هذين الموضعين من اقوال لغوية، فهو في مواضع أخرى كثيرة يعزوها اليه. من ذلك مابينه في آية الحجر(فانتقمنا منهم وانهما لبامام مبين)(٢)، من تفرقة معنوية دقيقة بين الانتقام والعقاب، فقال، وفرق الرماني بين الانتقام والعقاب، فقال : الانتقام نقيض الانعام، والعقاب نقيض الثواب. فالعقاب مضمن بأنه على المعصية، والانتقام مطلق. وهو ههنا على المعاصي؛ لأن الاطلاق يصلح فيه التقييد بحرف الاضافة"(٣). وهو نص كلام الرماني.(٤).

(٤)
كتب الحديث النبوي والسير

أ-من كتب الحديث الامامية:

من مصادر الطوسي التي رجع اليها الطوسي في الحديث النبوي كتاب" الأمالي" لمحمد ابن علي بن الحسين بن بابويه القمي الملقب بالصدوق. المتوفى سنة ٣٨١هـ. فقد أخذ منه حديث الثقلين بلفظيه المختلفين :(إني مُخَلفٌ فيكمُ الثَّقلينَ ما إنْ تَمسكتَم بهما لن تَضلِوُا: كِتاب الله وعتْرتي أهلَ بيتي وانهما لَن يفترقِا حتى يردا عليَّ الحوضَ)(٥)، و(إني تاركٌ فِيكُم الثقلين كِتابَ الله وعِترتي)(٦)؛اذ كلا الحديثين رواه الصدوق بسنده، الاول: عن علي ابن موسى الرضا عن النبي(ص)، وبين أنه حدث به في مجلس المأمون(٧). والثاني: بسنده عن زيد بن ثابت عن النبي (ص)(٨). ولم يتبين لنا أنه استقاه من كتاب " الكافي" لمحمد بن يعقوب

---

(١)الرماني: الجامع لعلم القرآن ١٢/٥-٦.
(٢)الحجر: ٧٩.
(٣)التبيان:٦/٣٥٠.
(٤) الرماني: الجامع لعلم القرآن ١٢/١٢٣.
(٥)التبيان:١/٣.
(٦)التبيان ٩/٤٧٤.
(٧)الصدوق:الأمالي ص٤٦٩.
(٨)نفسه ص٣٧٢.

الكليني المتوفى سنة٣٢٨ هـ[١]، ولا من صحيح مسلم[٢]وصحيح الترمذي.[٣]وذلك لاختلاف الألفاظ.

كما أخذ من هذا الكتاب الحديث الذي رواه الصدوق بسنده عن علي بن موسى الرضا عن آبائه عن النبي(ص) في حقيقة الايمان وهو(الايمانُ إقـرارٌ باللسان ومعرفةٌ بالجَنان وعَملٌ بالأركانِ).[٤]، غير أنه قدم فيه وأخر، [٥]ولعله كان يحفظه فسها فيه.

وأخذ بعض الأحاديث من كتاب " الأمالي" لشيخه محمد بن محمد بن النعمان المفيد المتوفى سنة ٤١٣ هـ. كالحديث المشهور الذي أورده في تفسير الآية ٥٤ من المائدة، وبين في مناسبته أنه روى عن النبي(ص) في علي ابن أبي طالب قبيل غزوة خيبر، وهو :(لأُعطِيَنَّ الرايةَ غداً رجلاً يُحبُّ الله ورسولَهُ ويحبـهُ الله ورسولُهُ كرّار غيُر فرّارٍ لايَرجع حتى يفتح الله على يديه)[٦]. اذ رواه المفيد بسنده عن سعد بن أبي وقاص عن النبي(ص) بهذا اللفظ.[٧].على حين تباينت ألفاظه في بقية المصادر التي أوردته مثل أمالي الصدوق،[٨]وصحيح البخـاري[٩]، وصحيح مسلم [١٠]،وسنن ابن ماجه[١١]. وصحيح الترمذي[١٢]، ولذلك تأكد لنا أنه أخذه من أمالي المفيد دون هذه المصادر.

([١])رواه الكليني بسنده عن سليم بن قيس عن علي عن النبي(ص). انظر: اصول الكافي ٢/٤١٥.

([٢])انظر صحيح مسلم جـ٤ حديث٣٦، ٣٧ كتاب: فضائل الصحابة.

([٣])رواه الترمذي بسنده عن جابر بن عبد الله وزيد بن أرقم عن النبي (ص) انظر صحيح الترمذي ١٣/ ١٩٩- ٢٠١

([٤])الصدوق: الأمالي ص ٢٣٧-٢٣٨.

([٥])التبيان ١/٥٥.

([٦])التبيان :٣/٥٥٦ .

([٧])المفيد: الأمالي ص ٤٣.

([٨]) الصدوق: الأمالي ص ٤٦٠- ٤٦١.

([٩])رواه البخاري بعدة أسناد عن سهل بن سعد وغيره، عند كلامه على فضائل علي. انظر: الصحيح : كتاب بدء الخلق ٤/٢٤١ بشرح الكرماني..

([١٠])رواه مسلم بسندين: احدهما عن سعد بن أبي وقاص، والآخر: عن أبي هريرة انظر: الصحيح: كتاب فضائل الصحابة، الحديث ٣٢-٣٥ في ٤/١٨٧١-١٨٧٣.

([١١])رواه ابن ماجه بسنده عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن علي عن النبي(ص)، انظر السنن: فضائل علي: الحديث ١١٧ في ١/٤٣-٤٤.

([١٢])رواه الترمذي عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه سعد عن النبي(ص)، انظر: صحيح: الترمذي: ابواب المناقب مناقب، علي في ١٣/١٧١-١٧٢.

ب-كتب الحديث السنية:

والمصادر السنية التي رجع اليها الطوسي في الحديث النبوي ليست قليلــة بــل يبدو لها أنها أكثر من المصادر الشيعية. وهي فيما تبين لنا من الكتب المشــهورة، كمسند الامام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ، الذي أخذ منه على مــانرجح، حديث الوصية في الارث، اذ قال: " نهى النبي(ص) أن يوصي باكثر مــن الثلــث، وقال(والثلث كثيرٌ)، وقال لسعد (لأنْ تدَعَ ورَثَتَك أغنياءَ احَبُ إلي مــنْ أن تدعــهم عالة يتكففون الناسَ بأيديهم)[١].وهو الحديث الذي رواه الأمام احمد باســناد عــن ثلاثة من ولد سعد بن أبي وقاص عنه.[٢]. وايضا نرجح انه اخذ من هــذا الكتــاب الحديث المروي عن النبي(ص):(لاتنكحُ المرأةَ على عمتها ولا خالتها)[٣]، الــذي رواه الامام أحمد بسنده عن الامام علي عن النبي(ص)[٤]. وكصحيــح البخــاري المتوفى سنة ٢٥٦هـ، الذي أخذ منه الطوسي قول النبي(ص): (أَحَبُّ الأديان الى الله الحَنَفيةُ السمحةُ)[٥]، اذ كان البخاري رواه معلقاً في صحيحه[٦] ، ثم وصله فــي " المفرد"[٧]كما اخذ منه قول النبي(ص): (ولعلَّ بعضَكم ألحَنُ بحجته [٨]،وكصحيــح مسلم المتوفى سنة ٢٦١هـ. فيبدو ان الطوسي أخذ منه قول النبي(ص)(إبدأ بمن تعولُ)[٩] وقوله(ص)(العين حق)[١٠]. ومثلها صحيــح الــترمذي المتوفــى ســنة ٢٧٩هـ، الذي لاشك أنه أخذ منه حديث أم المؤمنين عائشة عن النبي(ص)(مَــنْ نوقشَ الحسَابَ هَلَكَ)[١١]، وحديثها الآخر(ايّما امرأةٍ نُكِحَتْ بِغير إذْنِ وَليها فنكاحُــها باطلٌ) [١٢].

---

(١)التبيان٣/١٢٥.
(٢)الامام احمد: المسند، الحديث رقم ١٤٤٠ في ٣/٢٥.
(٣)التبيان ٣/١٦٧.
(٤)الامام احمد: المسند، مسند علي . الحديث رقم ٢٥٧٨ في ٢/٢٦.
(٥)التبيان ١/٤٨٠.
(٦)انظر: صحيح البخاري: كتاب الايمان في ١/١٦٠.
(٧)المنتحب من السنة١/٣٥٦.
(٨)التبيان ٩/٣٠٥. وقارن بصحيح البخاري: كتاب الشهادات في ١١/٢٠٤.
(٩)التبيان :٣/١٠٩.وقارن بصحيح مسلم: كتاب الزكاة. الحديث رقم ١٠٦ في ٢/٧٦١.
(١٠)التبيان ٦/١٦٧. وقارن بصحيح مسلم: كتاب السلام. الحديث رقم ٤٢،٤١ في ٤/١٧١٩.
(١١)التبيان:١٠/٣٠٩-٣١٠ وقارن بصحيح الترمذي: ابواب صفة القيامة في ٩/٢٥٨.
(١٢) التبيان٣/٥٥٩. وقارن بصحيح الترمذي ابواب النكاح في ٥/١٣.

ويمكن أن نعد تفسير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ . أهم المصادر السنية التي أمدت الطوسي بالاحاديث النبوية: اذ كان عدته في استقاء اكثر ما استشهد به منها. وله في الافادة منه أسلوبان: احدهما أن يذكر الحديث بعد طرح سلسلة اسناده، مكتفيا بايراد الراوي الاخير الذي سمع الحديث مباشرة من النبي(ص) وهذا هو الغالب. وفي هذه الحال لاينسب رواية الحديث الى الطبري، بل يكتفي بايراد النص. والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ماذكره في مقدمة تفسيره من أن واثلة بن الاسقع روى عن النبي(ص) انه قال (أعطيت مكان التوارات السبع الطوِل، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الانجيل المثاني. وفُضِّلت بالمُفصّل). وهو الحديث الذي رواه الطبري بسنده عن واثلة عن النبي (ص). واللفظان متفقان تماما[١]. ومنها الحديث القدسي الذي أورده في تفسير سورة الفاتحة عن جابر بن عبد الله أنه قال:" قال رسول الله (ص): قال الله تعالى(قسمْتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي، فله ماسأل، فإذا قال العبدُ:الحمدُ لله ربِّ العالمين، قال : حمدني عبدي. وإذا قال:الرحمن الرحيم قال: أثنى عليّ عبدي. واذا قال: مالك يوم الدين،قال مجّدني عبدي.. ثم قال: هذا لي ولهُ مابقي)[٢] . وهو نص الحديث الذي رواه الطبري بسنده عن جابر بن عبد الله[٣].

والأسلوب الآخر الذي انتهجه الطوسي في الافادة من أحاديث الطبري،عزوها اليه مع الاشارة الى بعض رجال السند. وأكثر هذا النوع يتعلق بفضائل الامام علي خاصة. وهو هنا إما أن يجتزئ ببعض الحديث ناقلا اياه بألفاظه، أو يشير الى مضمونه مع ذكر الراوي الذي رواه عن النبي(ص). فمن الاول قوله:" روى الطبري بأسناده عن عكرمة عن بريدة، قال: سمعت رسول الله(ص) يقول لعلي عليه السلام(ياعليُّ إنّ الله أمرني أن أدنيك ولا أقصيك وأنْ أُعلمُك)[٤].وهو الحديث الذي رواه الطبري بسنده عن بريدة، وتمامه:"وأنْ تعي، وحقّ على الله أن تعي[٥].ومن الثاني ماذكره في تفسير قوله عز وجل(لنجعلها تذكرة وتعيها أذن

---

(١)التبيان ٢٠/١. وقارن بجامع البيان١/١٠٠ من الطبعة المحققة.
(٢)التبيان :٤٦/١.
(٣)الطبري: جامع البيان ٢٠١/١ من المحققة.
(٤)التبيان ٩٨/١٠.
(٥)الطبري: جامع البيان٥٥/٢٩ من طبعة الحلبي الثانية.

واعية[1]،فقال:" وقيل: انها لما نزلت هذه الآية، قال النبي(ص): (اللهمَّ اجعلها أذن عليّ) ثم قال: "ورواه الطبري باسناده عن مكحول"[2]. والذي رواه الطبري باسناده عن مكحول:(سألت الله أن يجعلها أذنك)[3]. وهي رواية الحاكم الحسكاني أيضا عن مكحول[4]. فالطوسي هنا لم يذكر نص الحديث الذي رواه الطبري. وانما أشار الى مضمونه، بدليل الحديث الذي رواه عن غير الطبري". والأمثلة على استقائه من كتب أهل السنة في الحديث كثيرة، اجتزأنا منها بما ذكرناه آنفا، تجنبا للاطالة.

جـ-كتب السيَر:

أما كتب السير: فلدينا منها كتابان مهمان رجع اليهما الطوسي، أحدهما كتاب السيرة النبوية لابن اسحق، والآخر: كتاب الغازي للواقدي. وابن اسحق هو ابو عبد الله محمد بن اسحق بن يسار المطلبي المتوفى سنة ١٥١هـ[5]، احد الأئمة الأعلام والمحدثين الاثبات. وكتابه في سيرة الرسول(ص) نال ثقة أهل العلم في مختلف العصور. غير أن أصل الكتاب ضاع، ولم يصل الينا منه الا تهذيب ابن هشام له، اذ ألف كتابا في السيرة الشريفة، ضمنه مختصر سيرة ابن اسحق، مع اضافات من عنده ذات فائدة لاتنكر. والغالب أن يذكر الطوسي محمد بن اسحق[6] بكنيته فيقول:" قال ابن اسحق"[7]. والغالب أن يذكر رواياته من غير اسناد، وقد يذكرها بأسنادها كقوله:"... ذكر ذلك محمد بن اسحق باسناده عن عكرمة عن ابن عباس".[8].

ومنهجه في نقل المادة العلمية من كتاب السيرة، كمنهجه في سائر مصادره، فهو ينقل باللفظ وبالمعنى، وأكثر ما نقل بالمعنى في اسباب النزول. وفي التفسير كان النقل باللفظ أكثر، فمما أخذه في النزول، ما أورده في تفسير قوله عز

---

(1)الحاقة:١٢.
(2)التبيان ٩٨/١٠.
(3) الطبري: جامع البيان٥٦/٢٩ من طبعة الحلبي الثانية.
(4)الحسكاني: شواهد التنزيل ص ٢٧٧-٢٧٨.
(5)ياقوت: معجم الادباء ٥/١٨. وابن حجر تهذيب التهذيب٤٥/٩.
(6) التبيان٣٢١/٢، ٣٢٦، ٩/٣، ٢٥٩/٧.
(7). التبيان٥/٧.
(8)التبيان :نفس المكان.

وجل:(وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا)[1]، فقال:" قال ابن اسحق: وقال بعض أحبار اليهود: ألا تعجبون من محمد(ص) يزعم أن سليمان كان نبيا، والله ماكان الا ساحرا، فأنزل الله تعالى(وماكفر سليمان)[2]. وهو قريب في اللفظ مما حكاه ابن هشام عن ابن اسحق.[3]. وفي تفسير قوله عز وجل:(ولاعلى الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ماينفقون)[4]،يقول:" وقال محمد ابن كعب القرظي وابن اسحق: نزلت في سبعة نفر من قريش من قبائل شتى[5]. وهو اختصار لكلام طويل لابن اسحق حكاه عنه ابن هشام. فقال:" قال ابن اسحق: ثم أن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله(ص) وهم البكاؤون، وهم سبعة نفر من الانصار وغيرهم"، ثم نقل عنه بعد ذلك أسماءهم وقبائلهم[6] .

والطوسي يسلك ابن اسحق في مسلك المفسرين، فيأخذ من سيرته التفسير كما يأخذ النزول. يقول في تفسير آية البقرة(واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان)[7]:

(والذي تتلوه هو السحر، على قول ابن اسحق وغيره من أهل العلم)[8]. وهو عين ماحكاه ابن هشام عن ابن اسحق[9].

اما الواقدي فهو محمد بن عمر الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ[10] .وكتابه هذا من مراجع سيرة الرسول(ص) ومغازيه. وقد اشار اليه الطوسي في أحد المواضع فقال:" والحديث- يقصد القصة- مشروح في كتاب الواقدي"([11]). وأخذ منه اسباب النزول وتبيين بعض المبهمات القرآنية. ونقوله عنه اقل من نقوله عن ابن

([1])البقرة:١٠٢.
([2])التبيان ٣٧١/١.
([3])ابن هشام: السيرة النبوية٣٨٦/٢.
([4])التوبة:٩٢.
([5])التبيان ٢٨٠/٥.
([6]) ابن هشام: السيرة النبوية٩٤٥/٤.
([7])البقرة:١٠٢.
([8])التبيان:٣٧١/١.
([9]) ابن هشام: السيرة النبوية٣٨٦/٢.
([10])ابن خلكان: وفيان الاعيان٥٠٦/١. ابن حجر: تهذيب التهذيب٣٦٦/٩.
([11]) التبيان:٢٦١/٥.

اسحق، ولعل ذلك يرجع الى أصالة سيرة ابن اسحق بين كتـــب الســير وشــهرة مؤلفها.

وأكثر مانقل عن الواقدي مطابق لما في كتابه، وبعضه فيه شيء من التبـــاين. والغالب أن ينقل كلامه بمعناه ، كما في سبب نزول آية الانفقال(واما تخـــافن مـــن قوم خيانة فآنبذ اليهم على سواء)[١]،اذ" قال الواقدي: نزلت هذه الآيـــة فـــي بنـــي قينقاع. وبهذه الآية سار النبي(ص) اليهم"[٢]. ويلاحظ أن هذه الرواية مسندة فـــي مغازي الواقدي؛ إذا رواها بسنده عن الزهري عن عـــروة بـــن الزبـــير[٣].فطـــرح الطوسي سندها ايجازا ونسبها الى الواقدي باعتباره الراوي لها، وهذا من منـــهج الطوسي في التعامل مع روايات الواقدي.

وقد يلتزم الطوسي بأكثر لفظ الواقدي وهو يحكي سبب النزول عنه،كمـــا فـــي قوله تعالى(ومنهم من عاهد الله لئن آتانـــا مـــن فضلـــه لنصـــدق ولنكونـــن مـــن الصالحين)[٤]،اذ قال(نزلت الآية في بلتعة بن حاطب وكـــان محتاجـــا، فنـــذر لئـــن استغنى ليصدّقن. فأصاب اثنى عشر ألف درهم، فلـــم يتصـــدق ولـــم يكـــن مـــن الصالحين.هكذا قال الواقدي[٥] . ويلاحظ أن الواقدي جعل هذا السبب شاملا للآيـــة التي بعدها ايضا[٦] على حين قصره الطوسي على هذه الآية. ونقل الطوســـي مـــن مغازي الواقدي تبيينا للمبهم الوارد في آية آل عمران:(الذين قال لـــهم النـــاس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم)[٧]. فبين أن المراد بلفظة" النـــاس" الاولـــى ثلاثـــة اقوال منها: " قال الواقدي: هو نعيم بن مسعود الأشجعي"[٨]، والطوسي اقتصر فيما نقله عن الواقدي هنا على تبيين المبهم في الآية الكريمة، من غير أن يشير الـــى الأحداث التي لابست نزولها، والتي بسطها الواقدي في مغازيه[٩]، والسبب هو أنه معني في هذا الموضوع بتفسير الاية ببيان سبب نزولها. إذ بين ذلـــك فـــي بـــاب"

---

(١) الانفال:٥٨.
(٢) التبيان ١٤٦/٥.
(٣) التوبة:٧٥.
(٤) التبيان٥/٢٦٢-٢٦٣.
(٥) الواقدي: المغازي ٣/١٠٦٨-١٠٦٩.
(٦) آل عمران:١٧٣.
(٧) البيان:٥/٢٨٠.
(٨)
(٩)الواقدي: المغازي ٣/٩٩٤.

المعنى" الذي خصصه لتفسير مفردات الاية وتراكيبها. وهذه صورة من صور افادته من هذا الكتاب.

(٥)
كتب القراءات واللغة والنحو

اعتمد الطوسي على بعض كتب القراءات والنحو واللغة الجيدة المشهورة.

أـكتب القراءات:

القراءات وعللها لابن خالويه:

ومؤلفه أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه النحوي اللغوي المتوفى سنة ٣٧٠هـ[١]، تلميذ عالم القراءات الكبير ابي بكر بن مجاهد؛ اذ أخذ عنه القراءات عرضا[٢]. وله عدة مصنفات في الدراسات القرآنية، منها هذا الكتاب الذي ألفّه لعضد الدولة البويهي.[٣] وهو الذي اتخذه ابو جعفر الطوسي مصدرا للقراءات في تفسيره، والذي منه نسخة مصورة بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية.[٤] . نقل الطوسي عن ابن خالويه توجيها لبعض القراءات المشهورة وروايات وآراء لابن مجاهد في بعض القراءات المشهورة والشاذة. وهو ينسب اليه ما استقاه من كتابه، فيقول:" قال ابن خالويه"[٥] او " روى ابن خالويه[٦]وهو لايذكر في جميع المواضع كل مايورده ابن خالويه في توجيه القراءات، بل انه ليجتزيء منه، في بعض المواضع، بالاقوى في رأي ابن خالويه. من ذلك مابينه في قراءة عبد الله بن عامر الشامي لقوله تعالى(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه)[٧]، فقال:" قرأ ابن عامر وحده" بالغُدْوةِ والعشِيِّ" بضم الغين.. واسكانِ الدال، الباقون بفتح الغين والدال ومع الالف. ولايجوز عند أهل العربية ادخال الالف واللام على " غدوة؛ لأنه معرفة.. وقال ابن

---

(١) ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء(٢٣٧/١ والداودي: طبقات المفسرين١٤٨/١.
(٢))ابن الجزري: غاية النهاية٢٣٧/١.
(٣) المصدر نفسه:المكان نفسه.
(٤) برقم٥٢ قراءات، وتقع في جزأين، وهي التي رجعنا اليها في هذه الدراسة.
(٥) التبيان:٥٠٥/٦، ٣٤/٧-٣٥، ١٥٨/١٠.
(٦) التبيان:٣٢٤/٦.
(٧) الكهف:٢٨.

خالويه: العرب تدخل الالف واللام على المعرفة اذا جاؤا بمافيه الألف واللام ليزدوج الكلام، قال الشاعر[1]:

وَجدنا الوليدَ بنَ اليزيد مُباركاً**شَديداً بأعباءِ الخِلافة كاهلهْ

فأدخل الألف واللام على اليزيد .. جاور الوليد. فلذلك أدخل ابن عامر الالف واللام في" الغُدْوة" لما جاور" العشي". والعرب تجعل بكرة وغدوة وسحر معارف اذا ارادوا اليوم بعينه".[2]وهذا الذي ذكره الطوسي الوجه الثالث من وجوه احتجاج ابن خالويه لقراءة ابن عامر وتوجيهه لها،وقد أورده بنصه، الا عبارة" فلذلك ابن عامر أدخل الالف واللام"[3]، اذ جعلها الطوسي: "فلذلك ادخل ابن عامر الالف اللام"، وكأنه وجدها أليق بالتعبير. ويبدو أنه اختار هذا الوجه دون الوجهين الاولين فحكاه عن ابن خالويه، لتوثيق ابن خالويه له واعتباره" أشبهها بالصواب".[4]

والطوسي يطرح اسناد روايات خالويه لبعض القراءات، ويكتفي بالاشارة الى من رويت عنه على وفق منهجه العام في ايراد الروايات الذي اشرنا اليه في غير موضوع سالف. ففي قراءة آية الحجر:(لقالوا إنما سُكرتْ ابصارنا بل نحن قوم مسحورون).[5] يقول:" روى ابن خالويه عن الزهري أنه قرأ" سكرت" بفتح السين وكسر الكاف والتخفيف. أي اختلطت وتغيرت عقولهم".[6] وهذه القراءة رواها ابن خالويه عن ابن مجاهد بسنده عن الزهري.[7]فهي إذاً مسندة في كتاب ابن خالويه، ومرسلة في تفسير الطوسي ايجازا. ونقل الطوسي من كتاب ابن خالويه رأي ابن مجاهد في قراءة طلحة بن مصرف في الشواذ:(ومن يعص الله ورسوله فأنَّ له نار جهنم)[8]بفتح همزة" أن" بدلا من كسرها في القراءة المشهورة فقالت:" وروي عن طلحة بن مصرف[9]انه فتح- يريد فتحَ الهمزة- على تقدير فجزاؤه أن لهُ. وقال

---

(1) البيت من شواهد الفراء في معاني القرآن٢/٤٠٨،وروايته في"بأحناء".

(2) التبيان ٧/٣٤- ٣٥.

(3) ابن خالويه: القراءات وعللها ١/٢٧٧-٢٧٨.

(4) نفسه ١/٢٧٧.

(5) الحجر: ١٥

(6) التبيان:٦/٣٢٤.

(7) ابن خالويه: القراءات وعللها ١/٢٣٩-٢٤٠.

(8) الجن:٢٣.

(9) في الاصل: مصروف: وهو تحريف الناسخ.

ابن خالويه: سألت ابن مجاهد عن ذلك فقال: هو لحن"[١]. وهو عين ماذكره ابن خالويه في كتابه هذا[٢]،وزاد في كتابه الاخر" مختصر في شواذ القراءات الشاذّة" في مضمون روايته عن ابن مجاهد فقال:" وسمعت ابن مجاهد يقول: ماقرأ بذا أحد، وهو لحن؛ لأنه بعد فاء الشرط"[٣]. يريد أنها يجب أن تكسر بعد هذه الفاء.

الحجة في القراءات السبع للفارسي:

ومؤلف هذا الكتاب القيم[٤] ابو علي الحسين بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي النحوي المشهور المتوفى سنة ٣٧٧هـ[٥] . وهو تلميذ ابن مجاهد ايضا، روي عنه القراءة عرضاً[٦] ، واحتفظ لنا، كما يقول أستاذنا الدكتور شوقي ضيف، بنسخة عالية السند من كتاب ابن مجاهد[٧]؛ وذلك لأنه روى عنه هذا الكتاب، ثم اذاعه في الناس. فالطوسي حين اعتمد على كتاب الفارسي كان واعيا لهذه الحقيقة حق الوعي . وقد أحسن الاختيار إذ افاد من الرواية الصحيحة للقراءات والتوجيه الدقيق لها، كما أفاد من آراء أبي علي اللغوية والنحوية التي نثرها في أرجاء كتابه.

ومنهجه في ايراد القراءات يقوم غالبا على التصرف في عبارات الفارسي، وفي ترتيب وجوه القراءات، مع القصد الى الايجاز، وهو لاينسب هذه القراءات الى أبي علي على سبيل الرواية ، خلافا لحججها، فأن الغالب أن ينسبها اليه. والأمر واضح؛ اذ إن القراءات ليست أفكارا لأبي علي، وانما هي مما رواه عن استاذه أبن مجاهد، كما نوهنا، على حين كانت حججها من نتاج فكرة، وان كان استاذه افتتحها في كتابه" السبعة" الا أنه لم يتمها.[٨]

---

(١)التبيان: ١٠/١٥٨.

(٢)ابن خالويه: القراءات وعلها ٢/٥٥٦.

(٣)ابن خلويه: مختصر في شواذ القراءات.١٦٣.

(٤)الكتاب منه نسخة مصورة عن مكتبة مراد ملا محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة برقم(٢٤٠١٢) . وهي التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة. كما اعتمدنا على الجزء الاول المطبوع بتحقيق الاستاذ علي النجدي ناصف ورفيقه.

(٥)ابن الجزري: غاية النهاية١/٢٧٠ والسيوطي: البغية١/٤٩٧.

(٦))ابن الجزري: غاية النهاية١/٢٧٠.

(٧)مقدمة كتاب السبعة في القرءات ص٤٠.

(٨)انظر ماكتبه ابن مجاهد في خاتمة قراءة" غير المغضوب عليهم" من كتاب السبعة ص١١٢.

فلننظر بعد هذا كيف أخذ الطوسي القراءات من كتاب الحجة: في قـراءة قولـه تعالى(ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سَلاما قالَ سِلام)[1]يقـول: " قـرأ حمزة والكسائي(سِلْمٌ) بكسر السين وسكون اللامِ من غير ألف هنا وفي الذاريات".[2].وهو اختصار لما أورده أبو علي اذ قال: قرأ حمزة والكسائي:(قالوا سلاماً قال سِلْمٌ) بكسر السين وسكون اللام، في السورتين جميعا، هـا هنا في الذاريات".[3].

وفي توجيه القراءات يورد الطوسي كلام أبي علي ملتزماً بأكثر الفاظـه، ففي قراءة" عقد" من قوله تعالى (لايؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان)[4]يقول:" قال أبو علي الفارسي: من شَدَّدَ احتمل أمرين: احدهما أن يكون لتكثير الفعل لقوله(ولكن يؤاخذكم) مخاطباً الكثرة. فـهم مثل(وغلّقت الأبوابَ). والآخر: أن يكون" عقّد" مثل ضَعّف لايراد به التكثير، كما أن ضاعف لايراد به فعل من اثنين". ثم يقول :" ومن قرأ بالتخفيف جاز ان يريد به الكثير من الفعل القليل. الا أن فَعَلَ يختص بالكثير، كما أن الرَكْبة تختص بالحال التي يكون عليها الركوب"[5]. وفي بعض المواضع يحافظ على المعنى أكثر مما يحافظ على اللفظ، كما في آية البقرة (فازلهما الشيطان فاخرجهما مما كانا فيه)[6] إذ يقول" قال أبو علي.. ومن قرأ(فأزالهما) أراد المقابلة بين قوله(أزلّهما) وبين قوله(اسكنْ) وأثبت أنت وزوجك. وتقديره: اثبتا. فأراد أن يقابل ذلك فقال(فأزالهما) فقابل الزوال بالثبات".[7].

وفي بعض المواضع يورد الطوسي توجيه ابي علي للقراءات دون أن يعزوه اليه. كما في قراءة" عليهم" بكسر الهاء في آية الفاتحة(صراط الذين أنعمت عليهم) اذ يقول" فمن قرأ بكسر الهاء واسكان الميم، أنه أمن اللبس إذ كانت الالف في التثنية قد دلت على الاثنين، ولا ميم في الواحد. فلما لزمت الميم الجمع، حذفوا

---

(1)هود:٦٩.
(2)التبيان٦/٢٤.
(3)الفارسي: الحجة في علل القراءات السبع م ٣ الورقة ٣١٨و.
(4)المائدة: ٨٩.
(5)التبيان ٤/١١. وقارن بالحجة م ٣ الورقة ٣٤-٣٥و.
(6)التبيان ١/١٦١ وقارن بالحجة م ٢ الورقة ٥٧ ظ.
(7)البقرة:٣٦.

الواو واسكنوا الميم طلبا للتخفيف".[1]وهذا عين ماروواه أبو علي عن أستاذه ابن مجاهد.[2].

واخذ الطوسي من كتاب الحجة اللغة ايضا، سواء أكانت من مقولات ابي علي نفسه كاشتقاق الشفاعة الذي أورده دون أن يعزوه اليه فقال" وأما الشفاعة فهي مأخوذة من الشفع الذي هو خلاف الوتر. فكأنه سؤال من الشفيع شفع سؤال المشفوع له"[3] ، أو كانت مما حكاه أبو علي عن بعض اللغويين الذين يعني بمقولاتهم كابى زيد الانصاري[4]، ومحمد بن يزيد المبرد. يقول الطوسي في تفسير آية البقرة(قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم)[5]،حاكيا رواية أبي علي عن أبي زيد" قال أبو علي... وحكي عن أبي زيد انه قال رجل من بكر بن وائل أخذت هذا منه ومنهما. وكسر الهاء في الادراج والوقف. وحكى عنه: لم أعرفِهِ ولم أضربِهِ. فكسر الهاء مع الباء. ويحتمل أن يكون ما اعتد بالحاجز بين الكسرة والهاء لسكونها فكأن الكسرة وليت الهاء".[6]وعبارة " يحتمل" وما بعدها من تعليل الطوسي لهذه الظاهرة اللغوية؛ اذ لم يذكر ذلك ابو علي عقب حكايته لرواية أبي زيد[7]. وفي تفسير قوله تعالى:(قالوا سلاماً قال سلام).[8]. يذكر الطوسي، ماروواه أبو علي عن استاذه أبي اسحق الزّجاج، عن استاذه المبرد في المعاني المختلفة لكلمة" " السلام" في اللغة[9]،دون أن يشير الى أنه استقاه من كتاب الحجة فيقول:" قال محمد بن يزيد المبرد:" السلام" في اللغة يحتمل أربعة أشياء: منها مصدر سلمت، ومنها جمع سلامة، ومنها اسم من أسماء الله، ومنها اسم شجرة، ومنه قول الاخطل:

إلاسَلامٌ وَحَرمَلْ[10]

---

[1] التبيان ١٦١/١. وقارن بالحجة م ٢ الورقة ٥٧ ظ.

[2] التبيان: ٤٣/١.

[3] الفارسي: الحجة ٤٤/١ من المطبوعة.

[4] التبيان ٢١٣/١ وقارن بالحجة م٢ الورقة ١٧٠ يبدو أن الفارسي كثير العناية بأقوال أبي زيد اللغوية. فقد ذكر تلميذه ابن جني في المحتسب ٦٣/١ أنه قرأ عليه نوادر أبي زيد.

[5] البقرة: ٣٣.

[6] التبيان ١٤٤/١.

[7] ينظر الحجة م ٢ الورقة ١٥٦ و.

[8] هو: ٦٩.

[9] الفارسي: الحجة م٣ الورقة ٣١٨.

[10] التبيان ٢٤/٦.

وبالمثل يأخذ الطوسي من كتاب الحجة أقوالاً لابي علي في اعراب الاي، كاعراب" يوم" في قوله تعالى في الفاتحة(مالك يوم الدين)[1].وبذلك نستطيع أن نقول: ان كتاب الحجة للفارسي من أهم مصادر الطوسي في تفسيره.

ب-كتب اللغة والنحو:

كتاب العين:

رجع الطوسي في كثير من مسائل اللغة الى كتاب" العين"[2] المنسوب للخليل ابن احمد الفراهيدي المتوفى سنة ١٧٠هـ[3]. الذي يعد أول معجم في اللغة العربية. ولم ينسب الطوسي النصوص التي اخذها من هذا الكتاب الى الخليل. وانما كان يقول:" قال صاحب العين". فكأنه يقف بهذا التعبير موقفا وسطا بين من يقول ان الكتاب للخليل[4]،وبين من يرى أنه لليث بن المظفر الخراساني نحله الخليل ليرغب الناس فيه.[5] والغالب أن يستشهد الطوسي بأقوال صاحب العين في باب"اللغة". فيوردها مع أقوال اللغويين الآخرين مثل ابن دريد صاحب الجمهرة، وهو يتخذ من كلامه شاهدا على معاني المفردات القرآنية التي يعنى بتفسيرها. وليس للطوسي منهج مطرد في تعامله مع نصوص كتاب العين من حيث الالتزام بألفاظه أو عدمه، غير أن الغالب عليه ألا يذكر النص بجميع الفاظه وعباراته، وانما يتخير منه، مسقطا أكثر من عبارة وصيغة، وتاركا بعض الاحاديث النبوية والايات القرآنية، طلبا للايجاز. فلما فسر قوله عز وجل:" انما حرم عليكم الميتة والدم ولَحِم الخنزير"[6]: قال صاحب العين: يقال رجلٌ لحم، اذا كان أكول اللحم، وبيتٌ لَحِمٌ : يكثر فيه اللحم. وألحَمتُ القوم: اذا قتلتهم وصاروا لحماً. والملحمة: الحرب ذات القتل الشديد. واستلحم الطريق اذا اتسع. واللحمة: قرابة النسب. واللّحمة: مايسدى به بين السديين من الثوب..."[7] فالطوسي لم يورد كل ماذكره صاحب العين في هذه المادة، وانما ترك بعض العبارات مثل" وبازي لحم

---

(1) التبيان ١/٣٥. وقارن بالحجة ١/١٤-١٥ من المطبوعة.
(2) من نسخة مخطوطة بمكتبة الاثار العراقية برقم ٥٠٩ و ٧٧٣ لغة.
(3) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين ص٥١. والسيوطي: بغية الوعاة ١/٥٦٠.
(4)من القائلين بذلك ممن جاء بعد عصره ابن الانباري. انظر: نزهة الالباء ص٤٦.
(5)هذا رأي الازهري. انظر مقدمة التهذيب ص٢٧.
(6)البقرة: ١٧٣.
(7)التبيان ٢/٨٦.

ولاحِمٌ:يأكل اللحم. ومُلْحِم: يُطعم اللحم.. اللّحيم: القتيل". فضلا عن الحديث النبوي(إن الله ليُبغِضُ البيت اللحم وأهله)[1]. وهذا يدل على أنه يختار من مواد الكتاب.

وقد يكون العكس، اذ يورد الطوسي شاهدا لم يرد في كتاب (العين)، ويدرجه في أثناء النص، حتى انه ليبعدُ وكأنه منه، وما هو منه، وانما هو مما اضافه للبيان وزيادة الايضاح. كالحديث الذي روي عن النبي(ص) انه قال(لاتنُبر باسمي) لمن قال له: يانبي الله. فقد جعله الطوسي ضمن نص العين الذي اورده في تفسير آية البقرة:" قال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين[2]"فقال: الإنباءُ والأعلامُ والأخبارُ واحدٌ. قال صاحب العين: النبأ- مهموز-[3] هو الخبر والمُنْبِئ: الخَبَر. ولفلان نبأٌ: ايْ خبر.. والنُبوّة إذا أخذت من الأنباء فهي مهموزة لكن روي عن النبي صلى الله عليه وآله، أنه قال: " لاتنُبرْ بأسمي" لرجل قال له :يانبي الله. والنبي بالمهز: الطريق الواضح يأخذ بك الى حيث تريد..،[4]فصاحب العين لم يذكر نص الحديث الشريف ولا مناسبته، وانما قال" والنُبوةُ: لولا ماجاء في الحديث، الهَمزُ"[5]، يريد أنها مهموزة لولا النهي الذي ورد في الحديث فهذه صورة لتصرف الطوسي في نصوص العين.

وربما عمد الطوسي الى مضمون بعض كلام صاحب العين فصاغة بأسلوبه، بعد طرح قسم من عباراته. ففي تفسير قوله تعالى : قوله تعالى (يا أيها الذ ين أمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذ ين من قبلكم[6])،يقول في بيان معنى الصوم:" قال صاحب العين: الصوم والصمت واحدٌ كقوله "إني نذرت الرحمن صوماً اي: صمتاً والصوم: قيامٌ بلا عمل. صام الفرس على آريّه: إذا لم يُعْلَف. وصامتِ الريحُ: إذا ركدتْ.."[7] ، وفي كتاب العين نجد النص بهذه الصورة:" الصوم: ترك الأكل وترك الكلام. وقوله جلت عظمته" إني نذرت للرحمن صوماً،

---

(1)العين:١/٢٤٥ من المخطوطة. وهي مرقمة حسب الصفحات.
(2)البقرة: ٣١.
(3)كذا في الاصل، وهو كذلك في العين. ويبدو أنه:" مهموزا " بالنصب علىالحال.
(4)التبيان ١/١٣٧.
(5)العين ٢/٣٧٦.
(6)البقرة:١٨٣.
(7)التبيان:١/١١٤-١١٥.

اي: صمتاً، وقرئ به. ورجالٌ صيامٌ. ولغة تميم صُيَّمٌ. والصومُ: قيامٌ بلا عمل. وصام الفرس على آربِّه: إذا لم يعتلف. وصامت الريح: ركدت.."[1] .
ولابد من الاشارة هنا الرأي الى أن الطوسي كثيرا مايعقب على نصوص كتاب العين، ببيان الاستعمال الاول للمادة اللغوية ويسميه" أصل الباب" كما في مادة " ل ح م" التي ذكرناها سالفا، اذ نراه يقول :"....... واصل الباب: اللزوم، فمنهُ اللحم للزوم بعضه بعضاً".[2].

كتاب سيبويه:

واتخذ الطوسي كتاب ابي بشر عمرو بن عثمان الملقب بسيبويه المتوفى سنة ١٨٠ هـ[3]، مصدرا من مصادر تفسيره في النحو والصرف وبعض القراءات. واستشهد بعدد غير قليل من شواهده في موضوعات متباينة وافاد منه في التعرف على اقوال الخليل ويونس. وهو ينقل عادة معنى كلام سيبويه. وقد يضيف اليه مايشبه الشرح والبيان. أو يضم الى شواهد سيبويه شواهد أخرى، كأنما يعزز بها قوله ويدعم الوجه الذي ارتآه. وذلك يبدو في النحو خاصة. من ذلك قوله في تفسير آية البقرة:(إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصاري من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[4]:" وقيل في معنى رفع الصابئين ثلاثة اقوال: أحدها- قال سيبويه: انه على التقديم والتأخير، إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون، والصابئون كذلك. قال الشاعر:

وإلّا فاعلَموا أنّا وأنتمُ * * * بغُاةٌ مابقينا في شِقاق

والمعنى: فاعلموا أنا بغاة مابقينا في شقاق، وأنتم كذلك. وقال ضابئ البرجمي:

فمن يَكُ أمسى بالمدينة رَحْلُهُ * * *فإني وقيارٌ بِها لَغريبُ[5]

وحين رجعنا الى " الكتاب" ، لم نجد سيبويه يبسط معنى الاية بعد إعراب" الصابئون" بهذه الصورة، ولا ذكر الشاهد الثاني المشهور الذي أورده الطوسي في

---

(1) العين ٢/٢٠٣.
(2) التبيان ٢/٨٦.
(3) الزبيدي: طبقات اللغويين النحويين ص ٧٢.
(4) المادة: ٦٩.
(5) التبيان ٣/٥٩٣. والبيت في الكتاب ٣٨/١.

جملة حكايته لقوله.[1]، وهذا لاشك استطراد من الطوسي لغرض الايضاح وزيـــادة البيان.

ولفتنا في هذه الدراسة أمر، وهو أن الطوسي يعزو الاقوال التي رواها ســيبويه عن الخليل، الى الخليل صراحة، خلافا لمنهجه في النقل مـــن كتـــاب" العيـــن"، اذ ألفيناه هناك لايتجاوز عبارة" قال صاحب العين". فكأنه مســـتوثق، كمـــا اســـتوثق الأوائل، من صحة رواية سيبويه عن الخليل، وقد شهد يونس من قبل بذلك حيـــن تصفح الكتاب لينظر أقوال الخليل فيه،[2]ولم يقدح من جاء بعده فيما نعلم في نســبة هذه الاقوال الى الخليل، على حين كان حول كتاب العين كلام وكان هنلك من يـــرى أنه لغير الخليل، كما بينا سالفا.

والطوسي لايورد في كل حال مايحكيه سيبويه عن أستاذه الكبير في المســـألة الواحدة، وانما قد يجتزئ منه بما يتصل بالموضوع الذي يبحث فيه، تاركا مافيـــه من تعليل أو تنظير أو نحوهما. ففي تفسير آية آل عمران: (قل اللّهم مالك الملـــك) يبين أن في زيادة الميم في (اللّهُمّ) قولين: أحدهما قول الخليل انـــها عـــوض مـــن يالتي النداء.[3] وهذا بعض ماورده سيبويه عن الخليل في هذا الموضوع؛اذ ذكـــر أنه يجعل الميم في هذه الكلمة نظيرة النون في جمع المذكر السالم، وأنها حرفـــان أولهما"مجزوم"،وأن الاعراب يقع على الهاء في لفظ الجلالة.[4]

وقد يقيس الطوسي اعراب مافي الآي من الالفاظ، على الامثلـــة التـــي رواهـــا سيبويه عن الخليل ويونس. ففي تفسيرقوله تعالى(ثم لننزعنَّ من كل شيعة أيـــهم أشد على الرحمن عتياً)[5]،بين ان في رفع" ايهم". ثلاثة اقوال: أولـــهماوهو قـــول الخليل انه على الحكاية على تقدير: فيقال لهم ايـــهم اشـــد علـــى الرحمـــن عتيـــا فليخرج.[6]وهذا الوجه رواه سيبويه عن الخليل، الا أنه لم يذكر أنه مثل له بالآيـــة الكريمة، وانما بيّن أنه مثل له بكلام مصنوع هو :" اضرب أيـــهم أفضـــل فقـــال" وزعم الخليل أن " أيهم" في " أضربْ أيهم أفضلُ" على أنه حكاية، كأنه قال: اضـــرب

([1])سيبويه: الكتاب: ١/٢٩٠-٢٩١.

([2])الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين ص ٥٢.

([3])التبيان ٢/٤٢٨.

([4])سيبويه: الكتاب ١/٣١٠.

([5])مريم:٦٩.

([6])التبيان ٧/١٤١.

الذي قال له أيهم أفضل"[1]، فالطوسي إذاً قاس موضوع (أيٍّ) في الآية على موضعها في مثال الخليل، وجعل قول الخليل في المثال شاملا لها.

ومثلة ماحكاه عن يونس في اعراب"أيُّ" في الآية نفسها، وجعله الوجه الثالث فقال" والثالث أن يكون" لننزعنَّ" معلقة كتعليق: علمت أيهم في الدار وهو قول يونس"[2]، اذ وجدنا سيبويه يروي عن يونس أنه يجعل الفعل في مثال الخليل السالف:"اضرب أيهم أفضل" معلقا بمنزلة قولك: أشهدُ إنّك لرسولُ الله[3]، دون أن يشير الى الآية. فما نسبه الطوسي إذاً ليونس في اعراب"أيٍّ" في الآية قياس منه، ولكنه قياس صحيح؛ لأن أيٍّ في مثال الخليل كأي في الآية الكريمة كما هو واضح.

وعرض الطوسي لرأي سيبويه في بعض القراءات، الا أنه- رحمه الله- لم يكن دقيقاً فيما حكاه عنه في قراءة آية هود(هؤلاء بناتي هُنَّ أطهرُ لكم)[4]،اذ قال:" ولايجوز نصب " اطهر" في قول سيبويه وأكثر النحويين، لأن الفصل انما تدخله مع الخبر ليؤذن أنه معتمد الفائدة دون ماهو زائد الفائدة، أو على معنى الصفة، فلهذا لم يجز في الحال.."[5]. مع أن كلام سيبويه في الكتاب لايدل على أنه لايجيز نصب" أطهر" في الآية، وانما روي عن يونس أن ابا عمرو كان لايجيزه، وأنه أنكر على محمد بن مروان هذه القراءة، فقال في باب" لاتكون هو وأخواتها فصلاً":" ولكن يكن بمنزلة اسم مبتدأ، وذلك قولك: ما أظن أحداً هو أكرم منك، وما أجعل رجلاً هو أكرم منك.. لم يجعلوه فصلا وقبله نكرة، كما أنه لايكون وصفا ولابدلاً لنكرة.. وأما أهل المدينة فينزلون (هو) هاهنا بين المعرفتين، ويجعلونها فصلا في هذا الموضع" فزعم يونس أن ابا عمرو رآه لحنا، وقال احتبى ابن مروان في ذه اللحن.يقول: لحن وهو رجل من المدينة، كما تقول: اشتمل بالخطأ، وذلك أنه قرأ(هؤلاء بناتي هن أطهرَ لكم) فنصبَ".[6]فليس سيبويه إذاً هو الذي أنكر هذه القراءة، وانما ذلك ابو عمرو، كما هو جلي من نص الكتاب. وقد أنكرها من بعد

([1])سيبويه: الكتاب ٣٩٧/١-٣٩٨.
([2])التبيان ١٤١/٧.
([3])سيبويه: الكتاب ٣٩٨/١.
([4])هود:٧٨.
([5])التبيان ٤٠/٦.
([6])سيبويه : الكتاب ٣٩٧/٢ من المحققة. والنص فيها أتم من طبعة بولاق ٣٩٧/١.

المبَرد وعدها لحنا فاحشا وعللها بجهل قارئها ابن مروان بعلم العربية[1]. وفي كل ماذكراه نظر؛ اذ لابد أن تكون هذه القراءة مسندة، والا ماقرأ بها ابن مـــروان، اذ لادليل على أنه كان يقرأ بالقياس والعقل،حتى يصح القول بأنه أخطأ. وسيبويه لـــم يمنع الفصل بهذا الضمير مطلقا، وانما قيد المنع بتقديم النكرة عليه، بدليل كلامـــه الذي قدمناه. والضمير في الآية مسبوق بمعرفة فلا يشمله منعه.

على أن هذا الذي وقع فيه أبو جعفر الطوسي، له اشـــارة فـــي أوقـــوال بعـــض المتقدمين، اذ نقل ثعلب في مجالسه عن سيبويه المنع ايضا. ووهم فـــي اعتبـــاره قول ابي عمرو رأيا لسيبويه. كما غلط في تسمية القارئ؛ اذ نسب الى سيبويه أنـــه قال" احتبى ابن جُويّة في اللحن في قوله(هُنَّ أطهَر لكم)، لأنه يذهب الى أنه حـــال" واضاف أنه" قال: والحال لايدخل عليها العماد".[2]مع أن سيبويه لم يقل ذلك مطلقـــا ولا ذكر الحال أصلا. ويبدو أن ثعلبا لم يدقق في كلام سيبويه وكذلك الطوسي مـــن بعد..

الجمهرة لابن دريد:

وافاد الطوسي من معجم" الجمهرة في اللغة" لابي بكر محمد بن الحســـن ابـــن دريد الازدي المتوفى سنة ٣٢١ هـ[3]. فنقل منه طائفة من النصـــوص اللغويـــة واستشهد بها وهو يفسر الأتي ، مستدلا بها علـــى المعـــاني اللغويـــة المختلفـــة ومنهجه في الاستشهاد بنصوص الجمهرة، شبيه بما اتبعه في العين، اذ هو يـــورد معاني الصيغ المختلفة للمادة اللغوية، ثم يعقبها غالبا ببيان الاستعمال الاول لـــها، ويسميه" اصل الباب" فيقول مثلا في مـــادة " ر س ب":" واصـــل البـــاب: الغـــرق الرسوب في الماء".[4]، ويقول في مادة " ب د ع":" وأصل الباب: الانشاء".[5].

وهو يراعي الترتيب الزمني والسبق العلمي فيما يورده عن ابن دريـــد. فـــاذا ذكره وصاحب العين في موضع واحد من تفسيره، قدم صاحب العين عليه ويبـــدو في بعض المواضع كأنه يربط قوليهما برباط معنوي واحد، فحين نقل عن صـــاحب

---

(1) المبرد: المقتضب ١٠٥/٤.
(2) ثعلب: المجالس ٣٥٩/٢.
(3) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين ص ١٨٤ وابن الانباري: نزهة الالباء ص٣٥٨ وابن قاضي شهبة: طبقات النحاة واللغويين ص٨٤.
(4) التبيان ٢٢٧/١.
(5) التبيان ٤٢٩/١.

العين أن" الأ بعد نقيض الأقرب"، شفعه بقول ابن دريد" البُعدُ ضدُّ القرْبِ. وبَعدُ ضِدُّ قبلُ ".[١]

وهو يتخذ من نصوص الجمهرة سنداً لدعم أقواله في مسائل لغوية متنوعة كبيان اللفظة التي ترد في العربية مناقضة في المعنى للفظة التي يتولى تفسيرها. ففي تفسير قوله تعالى(أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم)[٢]يقول:" البِرُ – في اصول اللغة– والصلة والاحسان نظائر. يقال: هو بارٌّ وصولٌ محسنٌ. وضدُّ البرِّ: العقوق. وقال ابن دريد: البرُّ: ضد العقوق. ورجلٌ (بارٌ) وبَرٌّ بمعنى واحد"[٣]، وهو ماذكره ابن دريد في الجمهرة، الا أن كلمة(بر) مقدمة فيها على (بار).[٤]فالطوسي تصرف في العبارة، والمعنى في الموضعين واحد.

وقد يستشهد بكلام ابن دريد للتدليل على التناظر المعنوي بين اللفظة القرآنية التي يتناولها بالتفسير وبين ألفاظ أخرى في العربية لها نفس المدلول ففي وقوفه عند قوله تعالى:" بديع السموات والارض".[٥]، يذكر أن " الابداع والاختراع والانشاء نظائر"، ثم يستشهد بنص كلام ابن دريد في الجمهرة[٦] فيقول:" وقال ابن دريد: بدعت الشيء: اذا أنشأته، والله(بديع السموات والارض): اي مُنشِئُهما، وبدعت الركيَّ[٧]: اذا استنطتُها"[٨].

وربما يطرح الطوسي من كلام ابن دريد مايراه تكريراً لكلام صاحب العين.كالذي نراه في تفسير قوله تعالى(فمن خاف من موص جنفا أو اثما فأصلح بينهم فلا اثم عليه)، اذ استشهد لمعنى الجنف في الاية الكريمة ببعض ما أورده ابن دريد في الجمهرة فقال" قال ابن دريد: جَنِفَ يَجفُ جَنفاً: أذا صدَّ عن الحق"[٩]، وترك بقية النص وهو " رجلُ أجنفُ: إذا كانَ في خلقه ميلٌ وقال آخرون: الأجنف:

---

(١)التبيان ٢٣٦/١ وقارن بالجمهرة١/٢٤٥.
(٢)البقرة: ٤٤.
(٣)التبيان ١٩٧/١.
(٤)ابن دريد: الجمهرة ٢٧/١.
(٥)البقرة:١١٧.
(٦)ابن دريد: الجمهرة١/٢٤٥.
(٧)الركي: البئر.
(٨)التبيان ٤٢٩/١.
(٩)التبيان ١١٢/٢.

الذي ينخفض أحد جانبي صدره ويرتفع.."[1]فكأنه رأى فيه تكريرا لقـول صـاحب العين الذي أورده قبل كلامه. وهو" الجنفُ الميلُ في الكلام.. ورجل أجنفُ: في أحـد شقَيه ميلٌ على الآخر"[2].

تهذيب اللغة للازهري:

وهو ثالث كتب اللغة التي رجع اليها الطوسي. ومؤلفه ابو منصور محمد ابـن احمد الازهري المتوفى سنة ٣٧٠ هـ[3]. وقد افاد منه الطوسي في تفسير طائفـة الالفاظ العربية في القرآن. وأكثر مانسبه الى الأزهري من أقوال، حكاه الازهـري عن كبار اللغويين كابي زيد الانصاري وابي عبيد القاسم بن سلام واللحياني وثعلب وغيرهم. وجاءت نقوله مطابقة لحكاية الأزهري عن هؤلاء في مواضع ومغـايرة لها في أخرى. ولم نجد بعض النصوص في كتاب التهذيب، فلعله استقاها من كتاب الازهري الآخر" التقريب في التفسير".[4].

والغالب أن يورد الطوسي القول الذي ينسبه الى الازهري، مع اقوال المفسرين فقد بين في وقوفه عند قوله تعالى:(ومن كان غنيا فليستعفف ومـن كـان فقـيراً فليأكل وليّه بالمعروف).[5] أنّ عباس سأله وليّ يتيم له ابل، هل يصيب من ألبانها؟ فقال له(: إنْ كنت تلوط حوضها وتهنأ جرباها فأصبت من رسْلها.. ثم قال مفسـرا كلام ابن عباس:" إن كنت تلوط حوضها: تطيِنه. وتهنأ جرباهـا معنـاه: تطليـها بالهناء وهو الخضْخاضُ ذكره الازهري"[6]وحين رجعنا الى التهذيب ألفينا الازهـوي يحكى شطرا مما نسبه اليه الطوسي، عن أبي عبيد وهو الـى قولـه" تطينـه"[7] فيحكى الشطر الاخر عن أبي زيد الانصاري.[8]وقد حافظ الطوسي على معنى كـلام الازهري، مستعملا بعض الالفاظ المناظرة لالفاظه كالخضخاض بدلا من القطـران الذي ورد في كلام الازهري.[9]والمعنى واحد اذ أن" الخضخاض ضرب من القطران

---

(1)ابن دريد: الجمهرة ٢/١٠٨.
(2)التبيان ٢/١١٢.
(3)ابن قاضي شهبة: طبقات النحاة واللغويين ص ٣٠ والسيوطي: بغية الوعاة١/٢٠.
(4)الداودي:طبقات المفسرين٢/٦٢.
(5)النساء:٦.
(6)التبيان٣/١١٩.
(7)الازهري: التهذيب ١٤/٢٣ مادة (لوط).
(8)الازهري: التهذيب ٦/٤٣٢. مادة (هنأ).
(9)نفسه:المكان نفسه.

تهنا به الابل" كما يقول الجوهري[١]وفي تفسير قوله تعالى:" إن يدعون من دونه الا إناثاً[٢] يذكر الطوسي خمسة أقوال في معنى الآية بداها بالمأثور عن المفسرين الأوائل من الصحابة والتابعين، وختمها بقول نسبه الى الازهري، فقال :" قال الازهري: الاناثُ: للمواتُ".[٣]ولم يزد على ذلك.

وحين رجعنا الى التهذيب وجدنا الازهري يحكى هذا المعنى عن اللحياني عن المفسرين. وقد مثل له بالحجر والخشب والشجر[٤]. وأهمل الطوسي التمثيل لظهوره، أو اختصارا فيما يبدو.

ولم نجد في التهذيب ماعزاه الى الازهري من أن المراد بأهل الذكر في قوله(فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون).[٥] ،أهل العلم بأخبار من مضى من الامم، سواء كانوا مؤمنين أو كفاراً".[٦]وكل ماوجدناه فيه" الذكر: الكتاب الذي فيه تفصيل الدين، وكلل كتاب من كتب الانبياء عليهم السلام"[٧]. كما لم نجد في التهذيب اصلا مابينه في تفسير قوله تعالى" واذا العشار عطلت"[٨] من أن الازهوي حكي عن أبي عمرو أنه قال: العشار: الحساب، وأنكر معرفته لذلك في اللغة، وقال: المعنى إن الحوامل التي يتنافس أهلها فيها قد أهملتْ.[٩]ولدينا ظن قوي أن هذين النصين الاخيرين استقاهما الطوسي من تفسير الازهري" التقريب" اذ لايعقل أن يرجع الى كتابه الذي في اللغة ولايرجع الى تفسيره وهو الصق بموضوعه، واقرب الى مادة بحثه. وعدم تسميته لكتب من يأخذ منهم من أهل العلم، لايحيل هذا الظن.

---

(١)الجوهري: الصحاح٣/١٠٧٤ مادة(خضض).
(٢)النساء :١١٧.
(٣)التبيان ٣/٣٣٢.
(٤)الازهري: التهذيب ١٥/١٤٦.
(٥)النحل:٤٣.
(٦)التبيان:٦/٢٨٤.
(٧)الازهري: التهذيب ١٠/١٦٢.
(٨)التكوير: ٤
(٩)التبيان ١٠/١.

الفصل الثاني
مادة التفسير

تنوعت مادة التفسير في (التبيان) ، فكانت صفوفاً متعددة، منـــها مـــايتعلق بالفعل ومنها مايتناول الموازنة بين المنقول وترجيح بعض ما فيه علـــى بعـض، وذلك بأدلة متعددة، منها الاجماع، واللغة، وسبب النزول، كما تناولت مادة التفسير النقل عن أئمة التفسير ، وتفسير القرآن بالقرآن، والتفسير العقلي والتأويل. وذلـك مايجلبه الآتي:

النقل عن الرسول والصحابة والتابعين[١]

عنى الطوسي بالتفسير النقلي عناية فائقة ، وذلك ينسجم مع ثقافتـــه العامـة واتجاهه العلمي، اذ هو أكبر محدثي الامامية وأكبر الفقهاء والاصوليين عندهـم، يروي عنهم كما يروي عن جماهير المسلمين.[٢]وهذه السمة واضحة ايضـا فـي تفسيره . اذ نجد اكثر الروايات فيه مأثور عن النبي(ص) والصحابــة والتـابعين، وينضم اليها في مواضع ما اثر عن الأئمة من وجوه التفسير. وقد يسر لـه هـذه المهمة اعتماده على مصادر متنوعة ، والافادة منها بعقلية واعية متفتحة. فكأنـه أراد أن يشعرنا بوحدة المسلمين حين ضم المأثور عن الأئمة الـى المـأثور عـن غيرهم من علماء الامة. وأكثر الروايات دورانا في تفسيره مأثورة عن العبادلـة الثلاثة: عبد الله بن عباس[٣] وعبد الله بن مسعود[٤]وعبد الله بن عمـر[٥]، وعـن صحابة آخرين منهم: جابر بن عبد الله[٦] وابو هريرة[٧] وعمر بن الخطاب[٨] وابـو سعيد الخدري [٩]وابو بكر الصديق[١٠] وعثمان بن عفـان[١١]والسـيدة عائشـة[١٢] وسلمان الفارسي[١٣] ,ابو ذي الغفاري.[١٤] .

---

(١) ابو زهرة: الامام الصادق ص ٤٥٢.
(٢) التبيان ١/ ٤.٤٨، ١٠٤. ٢/ ٥٣٧. ٣/٣ ،٦هذا ومابعده للتمثيل لا الحصر.
(٣) التبيان ١/ ٤٨، ٨٨. ٣/ ٤٥، ٦٤.
(٤) التبيان ٢/ ٢٤٧، ٥٣٧. ٣/ ٣٣، ٣٥.
(٥) التبيان ٢/ ١٥٩، ٣/ ٩٣.٨٢، ٥٢٢.
(٦) التبيان ٢/ ٣.٢٦٢/ ٥٩.٣٥، ٦/ ٢٩٤.
(٧) التبيان ٢/ ٣٦٢، ٣/ ٢٥، ١١٩، ١٦٢..١٦٦
(٨) التبيان ١/ ٣٢١، ٣٣٢. ٦/ ٦٨. ٧/ ١٣٤.
(٩) التبيان ١/ ٣٢١، ٣٩٤. ٣/ ٢٩٣.
(١٠) التبيان ١/ ٣٢١، ٥ /١٦٧.
(١١) التبيان ١/ ٤، ١٠٤. ٣/ ٣٣٧، ٧/ ١٥٤.
(١٢) التبيان ١/ ٧٤، ٦/ ١٩٩.
(١٣) التبيان ٢/ ١٥٩.
(١٤)التبيان ٢/ ١٥٩.

وعقيدة الطوسي في الصحابة معتدلة، اذ لم يتعرض في تفسيره لتجريح أحد منهم بما يثلم عدالته او يضعف الثقة به، بل وجدناه يدعو لابي بكر برضوان الله ويذكر في أثناء بيان رأيه في امامة علي بعد رسول الله(ص)، أنه لايريد أن يطعن بذلك على أبي بكر لان عقيدته فيه أجمل شيء .[1]وبذلك نزه الطوسي تفسيره عن بعض التأويلات التي نسبت الى الائمة في تفاسير الامامية السابقة له، كتفسير القمي وتفسير العياشي.

وبالمثل نجد الامر مع كبار التابعين وأواسطهم، اذ حفل تفسيره بما روي عنهم. فكثير من وجوه التأويل التي يوردها مروية عن مجاهد بن جبر[2]تلميذ ابن عباس، الذي كان الثوري يقول فيه:" اذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به"[3]، وعن قتادة بن دعامةالسدوسي[4]والسدي[5]وسعيد بن جبير [6] ومحمد ابن اسحق صاحب السيرة[7] وعكرمة مولى ابن عباس[8] والربيع بن أنس[9] والضحاك [10]وعامر الشعبي[11] والحسن البصري[12]وسعيد بن المسيب[13]وطاووس بن كيسان[14] وعطاء بن أبي رباح[15]وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم[16]وغيرهم ممن ازدان تفسيره بأقوالهم.

ولم يتعرض الطوسي لأحد من التابعين بتجريح، شأنهم في ذلك شأن الصحابة. الا أنه أورد في ابي صالح والسدي والكلبي ماهو معروف عنهم في كتابات

---

(١)التبيان:٣/٥٥٧.
(٢)التبيان ١/٦٤،٣٤،٢/٦.
(٣)ابن تيمية: مقدمة في اصول التفسير ص ١٠٣.
(٤)التبيان ٢/ ٢٤٣، ٣/٣٠١، ٤/٣٢٥.
(٥)التبيان:١/٢٦٣، ٣/٣، ٥،١٤، ٤٣.
(٦)التبيان:٢/٢٨٠، ٣٠٨، ٣/٢٢٤، ٣٠٦.
(٧)التبيان:٢/٣٢٠، ٣٢٨، ٣/٣٨٣.
(٨)التبيان:٢/٣٦٥، ٣/٣٠٤، ٣٠٦.
(٩)التبيان:٢/٢٩٤، ٣٠٤، ٣/٣٣٤.
(١٠)التبيان:٢/١٥٢، ١٦٨، ٣/٣٢،٣٦.
(١١)التبيان:٢/١١٩، ١٥٥، ٣/١١٧، ١١٩.
(١٢)التبيان:٢/١١، ٥٣٧، ٣،٣٢، ٣٦.
(١٣)التبيان:٢/٢٦٩، ٢٧٢، ٣/٤٤٤.
(١٤)التبيان:٣/٤٤٠، ٤/١٣.
(١٥)التبيان:٢/١٦،٣/٤١٩،٧/٣٠٢.
(١٦)التبيان:٢/١٠، ٢٥٩، ٣/٣٣١، ٣٣٤.

السابقين له من المفسرين واقوالهم. اذ عدهم ممن ذمت مذاهبه في التفسير على حين جعل ابن عباس وقتادة والحسن البصري ممن" حمدت طرائقه ومدحت مذاهبه".[١]. وكان عامر الشعبي قد طعن من قبل علي السدي وأبي صالح[٢]، فلم يكن الطوسي إذا متفردا بهذا الرأي. ولا كان منه بسبب مذهبي.

ولم يخل تفسير الطوسي، من روايات اهل الكتاب الذين اسلموا مثل كعب الاحبار[٣] ووهب آبن منبه[٤] وعبد الملك بن جريح.[٥]. فهو في هذا على منهج الطبري الذي حفل تفسيره بالرواية عن هؤلاء.

والغالب أن يصرح الطوسي باسم الصحابي أو التابعي الذي اثر عنه التفسير. وقد يبهمه فيقول مثلا:" وروى عن ابي مسعود وجماعة من الصحابة"[٦]، او :" روي عن جماعة من السلف"[٧]أو" روى عن بعض التابعين"[٨]. وقد يكتفي بعبارة" روي في الاخبار"[٩]أو روي" وحدها[١٠].

ويبدو أن هذا المنهج الجديد الذي افتتحه الطوسي، لم يرق بعض مفسري الامامية المتأخرين، لخروجه في نظرهم عن المنهج المألوف لدى الامامية في التفسير بالمأثور. ذلك المنهج الذي عمدته المروي عن الائمة ثم المروي عن الصحابة والتابعين. وقد صرح بذلك منهم ملا محسن الكاشاني المتوفى سنة ١٠٩١ هـ. اذ أخذ على بعض مفسري الامامية، دون أن يذكرهم، مخالفتهم لهذا الاسلوب، باستنادهم الى اقوال أهل السنة ونسجهم على أقوالهم، وعدم نقلهم عن اهل البيت الا القليل.[١١] وكأنه عنى بذلك الطوسي ومتابعه الطبرسي، لانهما أول من سلك هذا المنهج الجديد في كتاب تفسير، وللطوسي على خلفه السبق. وينعت

---

(١)التبيان: ٦/١.
(٢)الزركشي: البرهان في علوم القرآن ١٥٨/٢.
(٣)التبيان: ٣٧١/٢. ٣٠/٥.
(٤)التبيان٢/٢٩٢، ٤٧٨، ١٨٣/٧.
(٥)التبيان ٢٤٤/٢، ١٣/٣، ١٩٣،١٤.
(٦)التبيان: ٩٤/١.
(٧)التبيان: ٣٩/٧.
(٨)التبيان: ٢٩/١.
(٩)التبيان: ٨٠/١.
(١٠)التبيان ١٤٦/١.
(١١)الكاشي: الصافي في تفسير القرآن ص ٣.

الطوسي المفسرين من الصحابة والتابعين بالمفسرين[١]تارة، وبـأهل التـأويل[٢]أو اصحاب التأويل[٣]أخرى. وهذا يشعرنا أن مفهوم التأويل والتفسير عنـده واحـد. وهو مبني" بحسب عرف الاستعمال".[٤]، خلافاً لمن يفرق بينـهما مثـل الراغـب الاصفهاني، اذ يجعلهما مختلفين عموما وخصوصا، بأن يكون التـأويل أعـم مـن التفسير، وغير ذلك من صور الاختلاف في النسبة.[٥] ،وواقع التفسير يكشف عـن ذلك اذ نجد الطوسي يذكر التأويل فيه مرادفا للتفسير، كما في تفسـير قولـه عـز وجل(ومن الذين اشركوا يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة وما هـو بمزحزحـه مـن العذاب ان يعمّر والله بصير بما يعملون).[٦]اذ يقول :" تأويل الآية: وما طول العمـر بمبعده من العذاب ولا منجيه منه، لأنه لابد للعمر مـن الفنـاء فيصـير الـى الله تعالى[٧] " وهو تفسير للآية كما هو واضح.

ولايعني التأويل عنده صرف اللفظ القرآني بالضرورة عن ظـاهره، أو حملـه على معان باطنية وأخرى بعيدة، فاذا قال:" وعند اصحابنا وأكثر اصحاب التأويل[٨]" لم يرد به التأويل الباطني الذي عرف في بعض تفاسير الامامية كتفسـير القمـي والعياشي. أو في بعض تفاسير الفرق والجماعات الاسلامية كالمتصوفة واخـوان الصفا والفلاسفة، بل يريد به مطلق التأويل المساوي في النسبة للتفسير.

ولابد لنا بعد هذا أن نبين كيف افاد الطوسي، في تفسيره النقلي، من المـأثور؟ وما المنهج الذي سلكه في الافادة منه؟ وما موقفه من تلك الروايات الكثيرة التـي أوردها مأثورة عن النبي(ص) والصحابة والتابعين. ان نظرة الطوسي الى الحديـث النبوي لاتختلف عن نظرة جمهور المسلمين له. فهو يراه مصدرا مهما من مصادر تفسير الكتاب العزيز، من غير أن يعده المصدر الوحيد لتفسيره وأنه كما ينقل عـن الحشوية والمجبرة،" لايفهم معناه الا بتفسير الرسول له". وحجته في ذلـك" أنـه

---

(١)التبيان ٣/١٠٠.
(٢)التبيان: ١/٣٦٢. ٣/١١٢.
(٣)التبيان: ٦/٤٤٦.
(٤)الزركشي:البرهان في علوم القرآن ٢/١٤٩.
(٥)تنظر هذه الاقوال في : السيوطي/ الاتقان ٢/١٧٣.
(٦)البقرة: ٦٩.
(٧) التبيان ١/٣٦٠.
(٨)التبيان ٦/٤٤٦.

تعالى حث على تدبره ليعملوا به"[1]. وقد وجد في بعض آي التنزيل مايدعم وجهته هذه. كقوله تعالى(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها[2])؟، فقال بعد بيانه لمعنى هذه الآية"وفي ذلك حجة على بطلان قول من يقول لايجوز تفسير شيء من ظاهر القرآن الا بخبر وسمع".[3]. غير أنه يقرر ايضا أن " من القرآن مايعلم المراد منه بدليل ويحتاج الى الفكر فيه والرجوع الى الرسول في معرفة مراده، وذلك مثل المتشابه".[4] فهو إذا لاينكر اهمية الحديث النبوي في بيان ما استغلق فهمه من القرآن، وعزّ على الناظر فيه معرفته، بل هو ينفي أن يتوقف فهم القرآن بجملته على الحديث وحده. وهذا مالا مشاحة فيه.

ثم أنه لايعتمد بكل حديث مروي، بل يقف من الأحاديث موقف الناقد المدقق تساعده على ذلك ثقافته الجيدة في علم الحديث. فلا يقبل منها الا مابلغ مرتبة الوثاقة في السند. كأن تتعدد طرقه وتستفيض، مثل الحديث الذي أجمعت الأمة عليه ولا خلاف بينها فيه،فهذا يبلغ عنده أعلى مراتب القوة، ولذا يتخذه سندا وحجة في بيان معاني القرآن وتفسير الفاظه (فآزر) الوثني لايمكن أن يكون في رأيه ورأي اصحابه الامامية أباً لابراهيم ابي الانبياء، لقول النبي(ص) في الحديث الذي ينقل الاجماع عليه:(نقلني الله من أصلاب الطاهرين الى أرحام الطيبين لم يُدنسني بدنس الجاهلية).[5]فلو كان منهم كافر لما جاز وصفهم بأنهم طاهرون،لأنّ الله وصف المشركين بأنهم أنجاس فقال (انما المشركون نجس). على هذا فان الصحيح أن يكون (آزر)جد ابراهيم لأمه او عمه، لان هذا الحديث دل على أن آباء النبي(ص) موحدون الى آدم .[6].

والمتواتر من الاخبار" معلوم" لايتسرب اليه الشك، وهو حجة في الدين كثبوت رجم الزاني المحصن، فإنه معلوم من جهة التواتر على وجه لايختلج فيه شك.

وعليه اجماع الامامية، بل اجماع الامة. ولم يخالف فيه الا الخوارج وهم لايعتد بخلافهم فيما يذكر الطوسي.[7]

---

(١) التبيان:٣/ ٢٧٠.

(٢)سورة محمد:٢٤.

(٣)التبيان: ٩/ ٣٠٣.

(٤)التبيان:٥/ ٣٧٩.

(٥)التبيان:٤/ ١٧٥.

(٦) التبيان:٤/ ١٧٥.

(٧) التبيان:٣/ ١٤٢.

وحرية الطوسي في تفسير النص القرآني لاتتجاوز تأويله. أما الحديث فهو الذي يخضع عنده لاعتبارات المحدثين ومقاييسهم في النقد والموازنة، فقد يجرح المتن كما يجرح السند، وعدته في ذلك العقل والنقل. فالاخبار في رأيه تبنى على أدلة معقول، وما خالف هذه الادلة من متون الاخبار يخضعه للتأويل. فان قبله أخذ به والا طرحه. وهو يضرب لذلك مثلا ما عارض من الاخبار تنزيه الانبياء عن المعاصي، وتنزيه الخالق العادل عن الظلم والتشبيه، فيقول:" والاخبار تبنى على أدلة العقول. فاذا علمنا بدليل العقل أن الانبياء لايجوز عليهم المعاصي، تأولنا كل خبر يتضمن خلافه وابطلناه، كما نفعل ذلك بأخبار الجبر والتشبيه[1] . من هذا فيهذا على القاعدة التي أرساها المحدثون". وهي " أن كل متن يناقض المعقول فهو موضوع على الرسول".[2]ولذلك أول ماقبل التأويل من الاحاديث التي رآها مصادمة لمقتضى العقل، ورد مالم يقبل التأويل منها. فمن ذلك تأويله للحديث النبوي" إنّ الشقيَّ شقيٌّ في بَطن أُمهِ".وهو يفسر قوله تعالى:(فأما الذين شقوا ففي النار).[3] اذ حمل هذا الحديث على ضرب من المجاز، هو الذي يسميه البلاغيون المجاز المرسل على ماسيؤول اليه. وذلك لان ظاهره يوهم بالجبر ويصادم رأيه في حرية الاختيار. فقال:" أخبر الله تعالى في هذه الاية أن الذين شقوا باستحقاق عذاب النار جزاء بسوء اعمالهم داخلون في النار. وانما سمى الشقي شقيا قبل دخوله النار، لأنه على حال تؤديه الى دخولها من قبيح أعماله. فأما ماروي من قوله(ع)(ان الشقيَّ شقيٌّ في بطن أمه) فمجاز؛ لأن المعنى أن المعلوم من حاله أن سيشقى بارتكاب المعاصي، التي تؤديه الى عذاب النار، كما يقال لولد شيخٍ هرم: هذا يتيم ، ومعناه: سيتيتم".[4]

واستبعد الطوسي ماروي من أن النبي(ص) قال: (ماكذب أبي ابراهيمُ إلا ثلاثَ كذبات يحاجز بها عن ربه، قوله:(إني سقيم) ولم يكن كذلك. وقوله:(بل فعله كبيرهم هذا)وقوله في سارة :(إنها أختي، وكانت زوجته)، وذلك حين فسر قوله عز وجل:(فنظر نظرة في النجوم. فقال إني سقيم)[5]؛ مبينا أنه" قد دلت الادلة

(١) التبيان:٥/٥٥.
(٢)الذهبي: التفسير والمفسرون١/٤١.
(٣)هود:١٠٨.
(٤) التبيان:٦/٦٧.
(٥)الصافات :٨٨/٨٩.

العقيلة على أن الانبياء لايجوز أن يكذبوا فيما يؤدونه عن الله، من حيث إنه كان يؤدي الى أن لايوثق بشيء من أخبارهم".[1].

وعنايته بأسانيد الاخبار وأحوال الرواة واضحة في تفسيره، وهو يخضعها عند النظر فيها لمقاييس المحدثين فيحكم عليها بالقوة أو الضعف بناء على هذا الاساس العلمي. فالخبر المرسل، وهو على الاقوى الذي انقطع اسناده بعد الوصول الى التابعي،[2]ضعيف عند الطوسي. وهو كذلك عند" جماهير اصحاب الحديث.[3]" فاذا عارضت مضمونه أخبار أخرى، كان ذلك أدل على ضعفه. ففي تفسير قوله تعالى(فلما آتاهما صالحا جعلاله شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون)[4]،يذكر أن الهاء في قوله (جعلا له شركاء) راجعة الى الوالد لا الى الله. ويكون المعنى انهما طلبا من الله تعالى أمثالا للولد الصالح، فأشركا بين الطلبتين. كما يقول القائل: طلبت مني ردهما فلما أعطيتكه شركته بآخر، اي طلبت آخر، مضاف اليه. فيكون الضمير في (آتاهما) عائداً ، على هذا الى آدم وحواء، على قول بعض المفسرين . ويكون قوله:(فتعالى عما يشركون) منقطعا عن حكم ماقبله، غير عائد عليهما. بدليل قوله بعد ذلك (أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون)، فنزه نفسه عن هذا الشرك دون ماتقدم.[5] ثم يبين أن الخبر المروي في هذا الباب، من اضافة الشرك الذي تحدثت عنه الآية الى آدم وحواء، لا يلتفت اليه، لأن العقل يدل على أن الانبياء لايجوز أن يصدر منهم ذلك، ولان" هذا الخبر مطعون في سنده. لانه يرويه قتادة عن الحسن عن سمرة، وهو مرسل لان الحسن لم يسمع من سمرة شيئا- في قول البغداديين- ، ولأن الحسن قال بخلاف ذلك فيما روي عنه عروة.. قال: هم المشركون. ويعارض ذلك ماروي، عن سعيد بن جبير وعكرمة والحسن وغيرهم ، من أن الشرك غير منسوب الى آدم وزوجته، وأن المراد به غيرهما".[6].

والجهل بحال الراوي سبب في ضعف سند الحديث عند الطوسي، وهو كذلك

---

(١) التبيان٨ /٥١٠ .
(٢)ابن الصلاح: مقدمة في علوم الحديث ص ٢٥.
(٣)مقدمة في علوم الحديث ص ٢٦.
(٤)الاعراف:١٨٩.
(٥)التبيان:٥/٥٤-٥٥.
(٦)التبيان :٥/٥٥.

عند المحدثين مالم يرو عن المجهول عدلان.[1]لأن حكم المجهول كحكم الساقط من السند، كلاهما موجب للضعف. ومن هنا نجد الطوسي يضعف الحديث الذي روي عن عمرو بن الخطاب رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى(وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا)[2].ومفاد هذا الحديث أن الله تعالى أخرج ذرية آدم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم وهم كالذر. وقد رواه عن عمر، فيما يذكر الطوسي، سليمان بن بشار الجهني ، وقيل مسلم بن بشار. غير أن سليمان مجهول لايعرفه أحد من اهل العلم. ولذلك قال يحيى بن معين: سليمان هذا لايُدرى اين هو؟[3]ومن هنا ضعف هذا الحديث عند الطوسي، لمجهولية راويه.

وخبر الواحد من الاخبار الضعيفة، عند الطوسي لايفيد بحسب رأيه علما ولا عملا. أي انه ليس حجة في الدين من الناحية النظرية ولا العملية. ومدح بذلك مرارا في تفسيره. وقطع ضعفه مطلقا، وبأنه لايمكن الاعتماد عليه[4] فنراه مثلا يذكر في تفسير قوله تعالى (استغفر لهم أو لاتستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم).[5]. أن قوله(استغفر لهم) صيغته صيغة الامر والمراد به المبالغة في التيئيس من المغفرة، وأن السبعين في الآية الكريمة لايراد به العدد المخصوص، بل يراد به المبالغة والتكثير، كما يقول القائل: لو قلت الف مرة ماقبلت، والمراد: أني لاأقبل منك. ثم يقول:" وما روي عن النبي صلى الله عليه وأله أنه قال (والله لأزيدن على السبعين) خبر واحد لايلتفت اليه، ولان في ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله استغفر للكفار وذلك لايجوز بالاجماع".[6]

وعلى هذا الاساس من النظرة الى الحديث الآحادي لم يجز الطوسي نسخ الآي به، باعتبار أن القرآن متواتر، ولاينسخ المتواتر إلأمثله. وهو رأي الجمهور أيضا إذ أوجبوا أن يكون الخبر الناسخ للكتاب متواترا أو مستفيضا.[7]وقالوا: لأن القرآن

---

(١)ابن الاصلاح: مقدمة في علوم الحديث ص٥٣.

(٢)الاعراف: ١٧١.

(٣) التبيان:٥/٢٨.

(٤)التبيان: ١/٣، ٢/٤٦، ٣/١٣٠/٤٥٧.

(٥)التوبة: ٨٠.

(٦)التبيان ٥/٢٦٧-٢٦٨.

(٧)الخضري: اصول الفقه ص ٢٦٢، وابو زهرة: أصول الفقه ص١٩٥.

قطعي السند ، فلا ينسخ بعض أحكامه الا مايكون قطعي السند مثله.[1] والطوسي يفصح عن رأيه هذا اذ يقف عند قوله عز وجل(فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة).[2] فيفسر الاستمتاع بالمتعة الى أجل مسمى، مبينا انه قول ابن عباس والسدى ومذهب الامامية، ومحتجا له بالمفهوم الشرعي للفظة عند الاطلاق. ثم يضعف الخبر الذي يروى عن النبي(ص) انه نهى عن المتعة، مستدلا على ذلك بأحاديثه، الى جانب اختلاف الفاظه اختلافا يخرجه، في رأيه، عن صحة الاحتجاج به على نسخ الآية.[3].

وبالمثل لم يجز الطوسي تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد وترك ظاهره له[4]، لأنه- عنده- مظنون وعموم القرآن معلوم، ولايخصص المعلوم إلامثله.[5].

فهذا موقف الطوسي من أخبار الآحاد. التي تعد عند الاصوليين من الادلة الناقصة،[6] لاحتمال الخطأ أو الشذوذ فيها. الا أن الكثيرين يعدونها حجة اذا رواها الثقات، ويرون الشارع أمر باتباعها وتصديقها، فارتفعت بذلك في عملية الاستنباط الى مستوى الدليل القطعي.[7] وهو مذهب جمهور الامامية، وعليه الائمة الاربعة، الا أن أبا حنيفة يشترط مع الثقة بالراوي وعدالته ألا يخالف عمله مايرويه. ويشترط مالك ألا يخالف خبر الآحاد ماعليه أهل المدينة.[8].

ورأي الطوسي في عدم تخصيص عموم الكتاب بخبر العدل الواحد مرجوح؛ اذ لا مانع فيما يبدو من ذلك حتى مع القول بأن دلالته ظنية وليست قطعية. لان الدلالة في عام الكتاب ظنية ايضا، ذلك لان الكتاب وان كان قطعي الصدور، الا أنه ظني الدلالة بحكم ماله من ظهور في العموم، فلا موجب إذاً لاسقاط احدهما بالآخر[9]. وهذا رأي جمهور الامامية[10] والشافعية والحنابلة.[11]. كما أنه رأي الاحناف والمالكية بشروط.[12].

---

(١) ابو زهرة: أصول الفقه ص١٩٦.

(٢)النساء: ٢٤.

(٣)التبيان:٣/١٦٥-١٦٦.

(٤)التبيان:٨/٨٣.

(٥)التبيان:٣/١٣٠.

(٦)الصدر- محمد باقر-: المعالم الجديدة في الاصول ص١٠٩.

(٧)نفسه ص ١٠٩-١١٠.

(٨) ابو زهرة: أصول الفقه ص١٠٩.

(٩)الحكيم: الاصول العامة للفقة المقارن ص ٢٤٣.

(١٠)نفسه: المكان نفسه.

(١١)ابن تيمية: مقدمة في أصول التفسير ص ٦٧. وابو زهرة: أصول الفقه ص١٥٩.

(١٢)الخضري: اصول الفقة ص ١٨٧. . وابو زهرة: أصول الفقه ص١٥٩-١٦٠.

واستشهد الطوسي بالحديث القدسي، وهو يفسر الآي، غير أن ماأورده منه قليل. وذلك يرجع الى قلة هذا النوع من الحديث اصلا بالقياس الى الحديث النبوي.
ومن ذلك ما أورده في تفسير قوله تعالى:(انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما).[1]. اذ إن قال: " وقوله:(وكان الله عليما حكيما) معناه ههنا : وكان الله عليما بتوبتهم ان تابوا واصرارهم أصروا، وحكيما في مؤاخذتهم ان لم يتوبوا. وروي عن النبي(ص) أنه قال: لما أهبط ابليسُ قال: وعزتك وعظمتك لا افارق ابن آدمَ حتى تفارقَ روحــُهُ جَسدَهٌ. فقالَ اللهُ: وعِزتي وعَظمَتي لا أحجُبُ التوبةَ من عبدي حتى يُغرغر".[2]

ومنهج الطوسي في ايراد الاحاديث النبوية يقوم على طرح سلاسل اسنادها غالبا، وذكر متونها فحسب مكتفيا بعبارة" قال النبي (ص)"[3] أو " روي عن النبي (ص) [4]أو روي عنه عليه السلام"[5]وما أشبه ذلك. وقد يذكر الراوي الأخير الذي حمل الحديث عن النبي(ص) كقوله": روى ابو قلابة عن النبي(ص) أنه قال"[6] ويبدو انه سلك هذا المنهج ايثارا للايجاز الذي نوه به في مقدمة تفسيره ،[7] وفي مواضع أخرى منه[8]، ولان غالب هذه الاحاديث مشهور معلوم الاسانيد لدى أهل العلم، وأحوال رواتها لم تكن خافية عليهم، وخاصة أن أكثرها رواه الطبري في تفسيره واصحاب الصحاح والمسانيد في كتبهم الحديثية، وهي من الشهرة بمكان.

ويسمى القول المرفوع الى النبي (ص) أثراً فيقول مثلا: " ورد الأثر بذلك، روى أبو سعيد الخدري عن النبي(ص) [9].كما يسميه خبراً فيقول" روي في

---

(١)التوبة:١١٧.
(٢)التبيان: ١٤٧/٣.
(٣) التبيان :٥/١.
(٤)التبيان:٥/١، ٩، ١٠٠/٣.
(٥)التبيان التبيان :٥/١.
(٦)التبيان:التبيان: ٧/١.
(٧)التبيان:٢/١.
(٨)التبيان:١٣٧/٢، ٢٠٩/٣.
(٩)التبيان:٢٩/١

خبر مرفوع"[١]، وفي موضع آخر:" وهو ف معنى الخبر عـــن النبـــي"[٢]. فـــالخبر والأثر عنده اذاً بمفهوم واحد، وهو المشهور. على حين فـــرق فقـــهاء خراســـان بينهما، اذ كانوا يسمون الموقوف على الصحابي أثراً والمرفوع الـــى النبـــي(ص) خبرا.[٣]

ونعلم مما تقدم أن الخبر المرفوع عنده ما اثر عن النبي (ص). ولعله يريـــد به مايرويه الصحابي عنه، على ماهو مشهور بين أهل العلم. وبه قـــال الخطيـــب البغدادي[٤] وابو عمرو بن الصلاح[٥] وغيرهما. وقد يشعرنا بذلك قوله في موضـــع آخر:" وروى الحسن- يريد- البصري- في حديث رفعـــه عـــن النبـــي(ص)"[٦]. فعبارة" رفعه" تدل على أن الحسن رواه عن صحابي رواه عن النبي (ص).ولابـــد من الاشارة هنا الى مسألة مهمة، وهي أن تفسير الطوسي خـــلا مـــن الروايـــات الواردة في فضائل السور مثل الذي يرويه العياشي والثعلبـــي والواحـــدي. ولعـــل ضعفها السبب في ذلك، اذ هي كما يقول ابن تيمية موضوعة باتفاق أهل العلم[٧].

فاذا انتقلنا الى المأثور عن الصحابة والتابعين، ألفينا الطوسي يقف منه موقف المختار الذي لايقيده في اختياره الا القيد العلمي المبني على الادلة. ولكنه اختيـــار لايخرج في الواقع عن اطار هذا المأثور، لأنه كثير الاعتداد به. وكل ماخالفه مـــن اقوال المفسرين الذين يسميهم المتأخرين، لا اعتبار له عنده. فلم يرتض مثلا قـــول أبي على الجبائي وأبي القاسم البلخي، وأكثر المعتزلة، حين جعلوا الظلم الوارد في آية الانعام(الذين آمنوا ولم يلبســـوا ايمانـــهم بظلـــم أولئـــك لـــهم الأمـــن وهـــم مهتدون)[٨]عاماً "يدخل فيه كل كبيرة تحبط ثواب الطاعة"، ولم يخصـــــوه بالشـــرك الذي دلت على ارادته في الآية روايات جمع من الصحابة والتابعين كـــابن عبـــاس وابن مسعود وأبيّ بن كعب وسلمان الفارسي وحذيفة بـــن اليمـــان وســـعيد بـــن

---

(١)التبيان:٣٠٢/٧.

(٢) التبيان ٦٢/٥.

(٣) ابن الصلاح: مقدمة في علوم الحديث ص ٢٢. والصالح: علوم الحديث ومصطلحة ص ١١٠.

(٤) ابن كثير: الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث ص ٢٣.

(٥)مقدمة في علوم الحديث ص ٢٢.

٦)التبيان ٢٨٨/٧.

٧)ابن تيمية: مقدمة في اصول التفسير ص ٧٦.

(٨)الانعام: ٨٢.

المسيب وقتادة ومجاهد وحماد بن زيد[١]. بل رد قول هؤلاء المفسرين من المعتزلة مبينا " أن الذي ذكروه خلاف أقاويل المفسرين من الصحابة والتابعين".[٢]وهو موقف جديد في تفاسير الامامية، لاقبل لنا به من قبل. اذ نجد لأحدا من مفسريهم يجعل لأقوال الصحابة والتابعين مثل هذه القوة والاعتبار،وان كانوا لايعدمون الرواية عنهم.

هذا اذا اتفقوا في التأويل أو تقاربت أقوالهم. أما اذا اختلفوا، وكثيرا مايرد ذلك عنهم فأن الطوسي يوازن بين أقوالهم ويرجح بعضها على بعض ببينات وأدلة علمية متنوعة ، أظهرها فيما هدانا اليه الاستقراء:

(٢)
أدلة الترجيح بين المنقول

أ-الإجماع:

وهو حجة عند الأئمة قبل أن يكون حجة عند الطوسي، إذ روي عن الامام جعفر الصادق أنه قال:(خذوا بالمجمع عليه، فإن المجمع عليه لاريب فيه)[٣]. وقد نبه عليه الطوسي في مقدمة تفسيره، وعدّه من الادلة الصحيحة في علم التفسير[٤]. ثم مضى يطبقه، وهو يفسر الآي، بالتزام واضح. فكل قول مخالف للاجماع مردود ضعيف، لخروجه عن الدليل الصحيح. فهو على هذا من قبيل الشاذ الذي لايعتدّ به. والأمثلة على ذلك كثيرة نجتزئ منها بما أورده في تفسير قوله تعالى(ولكم في القصاص حياة ياأولي الألباب).[٥]اذ قال: " أكثر المفسرين على إن قوله (ولكم في القصاص حياة): المراد به القصاص في القتل.. وقال أبو الجوزاء: معناه أن القرآن حياة.. وهذا ضعيف لأنه تأويل خلاف الاجماع"[٦] وليس المراد بالاجماع في عرف الطوسي اجماع مفسري الشيعة أو أئمتهم، بل المراد به، بدلالة عبارته، اجماع عامة المفسرين من غير تقيد بفئة معينة منهم. ويدخل فيهم بالطبع مفسرو أهل السنة. وهذا يتلاءم ومنهجه العام في الرواية ، اذ" هو يروي عن غير

---

(١)التبيان ٤/١٩٠.
(٢)التبيان : نفس المكان.
(٣)الكليني: اصول الكافي ١/٧-٨.
(٤)التبيان ١/٦.
(٥)البقرة : ١٧٩.
(٦)التبيان:٢/١٠٥.

الامامية من جماهير المسلمين ".[1]وهو منحى نراه جديدا في تفاسير الاماميـــة، اذ لم نعرف قبل الطوسي مفسرا منهم، بني الاجماع على هذا الاساس من الشمول.

ومنها الاحتكام الى النص القرآني، واتخاذه دليلاً على قوة المنقول أو ضعفـــه، يهديه الى ذلك السياق أو الايات الواردة في مواضع أخرى من التنزيل. فمـــن الاول الذي احتكم فيه الى السياق ما أورده في تفسير قوله عز وجل: (ما يـــودّ الذيـــن كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختـص برحمته من يشاء)[2]اذ بيّن أن المراد بالرحمة في الآية الكريمة النبوة، وأن ذلـــك مروي عن الامام علي ومحمد الباقر والحسن البصري، وبه قال ابو علي الجبـــائي وعلي ابن عيسى الرماني وابو القاسم البلخي وغيرهم من المفسرين. ثم بين أنـــه روي عن ابن عباس أن المراد بالرحمن هنا الاسلام. ورد هـــذا الوجـــه مســتدلا بقرينة سياقية هي عبارة" أنزل" في الآية الكريمة، فقال:" وهذا بعيد، لأنه وصـــف ذلك بالانزال، وذلك لايليق الا بالنبوة".[3]. وليس مراده أن مطلق الانزال لايليـق الا بالنبوة، لأنا نعلم أنه يرد في القرآن لغير هذا المعنى أيضا. وانما مراده أنـــه مـــع لارحمة لايكون الا كذلك. وهو وجه لايخلو مـــن قـــوة. ويعضـــده قولـــه تبـــارك وتعالى:(وما أرسلناك الرحمة للعالمين).[4]فوصفه بأنه رحمة، لأنه مبعوث بـــالنبوة. وفي تفسير سورة الكهف حكي عن قطرب وابن عباس أن المراد بقولـــه:(رابعـم كلبهم)[5]:راع يتبعهم وأنه انما أخبر عن الكلب وأراد صاحبه، كما قـــال:(واســـأل القرية) وأراد أهلها. ثم ضعف هذا الوجه بناء على ملحظ السياق قبل ذلك، فقـــال:" وهذا لايصح مع ظاهر قوله":وكلبهم باسط ذراعيه"[6]وهو ملحظ دقيق، لأن بســـط الذراعين في فناء الكهف يلائم حالة الكلب فـــي اســـترخائه ونومـــه، دون حالـــة الانسان، الذي له في مثل ذلك وضع مخصوص.

ومما احتكم فيه الى آيات واردة في تفسير قوله تعالى:(إن الذين يكتمون مـــا أنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس فـــي الكتـــاب أولئـــك يلعنـــهم الله

---

(١)ابو زهرة: الامام الصادق ص ٤٥٢.
(٢)البقرة:١٠٥.
(٣)التبيان ٣٩١/١.
(٤)الأنبياء:١٠٧.
(٥)الكهف:٢٢.
(٦)التبيان :٣٠/٧.

ويلعنهم اللاعنون).[١]اذ بين أن في معنى(يعلنهم اللاعنون) أربعة أقـــوال: الاول: ماقاله الربيع وقتادة واختاره أبو على الجباني والرماني وغيرهما، أنهم الملائكـــة والمؤمنون. والثاني: ماقاله: مجاهد وعكرمة أنـــها دواب الارض. تقـول :منعنـا القطر لمعاصي بني أدم. والثالث: ماحكاه الفراء عن ابن عباس أنـــه كـل شـيء سوى الثقلين: الانس والجن.والرابع: قول ابن مسعود: اذا تلاعن الرجلان رجعـت اللعنة على المستحق لها، فان لم يستحقها واحد منهما،[٢]رجعت على اليهود الذيـن كتموا ما أنزل الله. ثم اختار بعد هذا الوجه الاول مبينا أنه" هـو الصحيـح لقولـه تعالى في وعيد الكفار:(أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين).[٣]فاختـار من وجوه المنقول مايعضده قرآن.

ومن الأسس التي سلكها الطوسي في اختيار المأثور وترجيح بعضـــه علـى بعض، موافقته لعموم اللفظ الذي يدل عليه الظاهر. فهو يختار الاشبه بهذا العموم، ولايحيد عن ترجيحه مادام الدليل على التخصيص معدوما. ومـا دام ذلـك الوجـه الذي يفيد العموم يمكن أن تنضوي تحته بقية الوجوه المخصصة للمعنى. وهذا فـي تفسيره كثير. منه ما أورده في وقوفـه عنـد قولـه عـز وجـل فـي مخاطبـة الملائكة(وأعلمْ ماتبدون وما تكتمون)[٤]. فقد بيَّن أن في تأويلـــه ثلاثـة اقـوال: الأول: أنه يعلم سرهم وعلانيتهم. والثاني: أن معنى" تكتمون" ما أضمره ابليـــس من المعصية والمخالفة، ومعنى" تعلنون" قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسـفك الدماء)؟. والثالث: ماروي أن الله تعالى لما خلق آدم مرتَ به الملائكة قبل أن ينفخ فيه الروح، ولم تكن رأت مثله قبل، فقالت: لن يخلق الله خلقا الا كنـا أكـرم منـه وأفضل عنده. فزعم أن هذا الذي اخفوه في نفوسهم، وأن الذي أبدوه قولهم(أتجعل فيها من يفسد فيها)؟. وبين أن هذا الوجه روي عن الحسن، ثم قـال بعـد ذلـك:" والوجه الاول اقوى، لأنه أعم، ويدخل فيه هذا الوجه. ولا دلالة يقطع بـــها علـى تخصيص الآية".[٥]

واذا لم يكن هناك مايدعو الى تخصيص المعنى بوجه من الوجـوه دون آخـر

---

(١)البقرة:١٥٩.

(٢)في الاصل: منهم. والصحيح ما اثبتناه. لان الضمير يعود على الرجلين المتلاعنين.

(٣)التبيان ٢/٤٧.

(٤)البقرة: ٣٣.

(٥)التبيان ١/١٤٦.

فإن عناية الطوسي بتعميم المعنى تجعله يضم كل ما اثر فيها من أقوال على أنه يحتمله المعنى ولاتنافي بينه. وكأنه يلمح في هذا الصنيع بلاغة القرآن على ايراد المعاني العديدة في عبارة موجزة. وهي خاصة عرفتها العربية في بلاغتها وسمتها الأولى الايجاز[١]. ففي تفسير قوله تعالى:(الذين يذكرون الله قياماً وقعودا وعلى جنوبهم)[٢] يضم الطوسي ما أثر عن أهل البيت الى ماأثر عن بعض التابعين ويربطهما برباط معنوي واحد، فيقول:"أي: فهؤلاء يستدلون على توحيد الله بخلقه السموات والأرض، وأنهم يذكرون الله في جميع أحوالهم: قياما وقعودا.. ومضطجعين . وقال قوم:.... أي يُصلُّون على قدر امكانهم في صحتهم وسقمهم وهو المروي في أخبارنا. ولاتنافي بين التأويلين، لأنه لايمتنع أن يصفهم بأنهم يفكرون في خلق السموات والارض في هذه الاحوال، ومع ذلك يصلون على هذه الاحوال في اوقات الصلوات. وهو قول ابن جريح وقتادة".[٣].

غير ان الطوسي على الرغم من التفاته الى ما في الآي من دلالة على العموم، وأخذه به في كل موضوع لايجد فيه دليلاً على النخصيص، نراه يسكت أحياناً على تخصيص بعض المفسرين من الصحابة والتابعين للمعنى من غير دليل، أو على حد تعبير الاصوليين والمفسرين، على التخصيص من غير مخصص. فمن ذلك تفسير الحجارة في قوله عز وجل(واتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين).[٤]اذ بين ان المروي عن ابن عباس وابن مسعود أنها حجارة الكبريت لانها أحر شيء اذا حميت .[٥]ولم يعلق على هذا التفسير بشيء. مع أن الظاهر الذي يستمسك به كثيرا على خلافه. لأنه لا دلالة فيه على هذا التخصيص من جهة، ولان المعنى أقوى اذا حملنا الحجارة على الجنس كله، من جهة أخرى. لان هذا أغلظ في الوعيد، وأدل على شدة نارجهنم. وفيه مافيه من تحقيق الهدف الديني بالتأثير في النفوس وحملها على الخوف من عذاب الله.

بـ اللغة:

واللغة بينة أخرى لدى الطوسي في تبيان قوة المنقول أو ضعفه، وبالتالي

---

(١)وكان الطبري سابقا الى هذا المنهج. انظر :الجويني: مناهج في التفسير ص ٣٧٢.

(٢)آل عمران: ١٩١.

(٣)التبيان ٣/٨١.

(٤)البقرة: ٢٤.

(٥)التبيان:١/١٠٦.

قبوله أورده. فما وافق المفهوم اللغوي للفظة القرآنية عند الاطلاق والتبادر، من اقوال الصحابة والتابعين، هو الأقوى عنده. كتفسير عطاء للعاكفين في قوله تعالى:(وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود)[1] بالمقيمين في حضرته. اذ رآه أقوى من بقية الاقوال التي أثِرت في تفسير هذه اللفظة. كقول مجاهد وعكرمة: إنهم المجاورون، وقول سعيد بن جبير وقتادة: إنهم أهل البلد الحرام. وقول ابنه عباس: هم المصلون وحجته في هذا الترجيح:" أنه المفهوم من اطلاق هذه اللفظة". وقد استدل عليه بقول النابغة الذبياني[2]

عُكوفٌ على أبياتهم يثمدونها***رمى اللهُ في تلك الاكفَ الكوانعِ[3].

وما خالف الصحيح في اللغة من تلك الاقوال المنقولة، مردود عنه أيضا. كقول السدى: أن المراد بالاحصار في قوله تعالى:(للفقراء الذين أحصروا): [4]" منع الكفار لهم وخوف المؤمنين منهم"، فبين ان المعنى لوكان كما ذكر لسدى، لاستعمل القرآن عبارة" حُصروا" بدلا من " أحصروا"، لأن الذي يمنعه العدو، محصور، والذي يمنع نفسه مُحْصر.[5].

وما لم يعرف في اللغة من وجوه التأويل المأثورة عن الصحابة والتابعين،مستبعد عنده. كالذي بينه في تفسير الاية الكريمة:(قل أن كانت لكم الدار الاخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كُنتم صادقين).[6] فقال.." روي عن ابن عباس أنه قال: فاسألوا الموت. وهذا بعيد؛ لأن التمني بمعنى السؤال لايعرف في اللغة".[7]

جـ-سبب النزول:

وسبب النزول قرينة أخرى على صحة المنقول أو ضعفه لدى الطوسي. وذلك مانجده مثلا في تفسير قوله تعالى: (ولاتحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم)،[8] اذ بين أن المعنى على ماقاله السدي: بخلوا أن ينفقوا في

---

(١)البقرة: ١٢٥.

(٢)ديوانه ص١٢٩. وفحول الشعراء ص ٧٣. وروايته" قعودا لدى" بدلا من "عكوف على ".

و" الأنوف" بدلا من" الاكف". ومعنى يثمدونها: يلازمونها ويسترزقونها، وهو هزء بهم. والكوانع: جمع كانع وهو الخاضع الذليل.

(٣)التبيان ١/٤٥٥.

(٤)البقرة:٢٧٣.

(٥)التبيان:٢/٣٥٥-٣٥٦.

(٦)البقرة:٩٤.

(٧)التبيان ١/٣٥٧-٣٥٨.

(٨)آل عمران:١٨٠.

سبيل الله، كما بخلوا بمنع الزكاة الذي دلت عليه الآية التي قبله. ورجح هذا الوجه على آخر روي عن ابن عباس يقول: إنها نزلت في مانعي الزكاة. وبين أنه قـول محمد الباقر. أيضا.[1]وفي تفسير الاية ١٧١ من البقرة، ذكر ثلاثة وجوه في تأويلها ثم رجح الوجه الاول منها ، لأنه رآه مطابقا لسبب النزول.[2]وما لاينافى السبب من وجوه المأثور محتمل عنده ومقبول.[3].

والكلام هنا يسلمنا الى المنقول في نزول الآي ، الذي يشمل سبب النزول ومكانه وزمانه، وهي المرادة بكلمة النزول في الاصطلاح.[4]وقد عني الطوسي بما روي فيها عن النبي(ص) والصحابة والتابعين عناية واضحة. فجعل لها بابا خاصا سماه" النزول"[5]وسماه في بعض المواضع" القصة"[6] وجعل البحث في هذه الاركان الثلاثة عونا له في الكشف عن معاني الآي ، اذ إن النزول، كما لايخفى قرينة على المعنى من الخارج. ولذلك صرح بأهميته في بعض المواضع فقال: " وينبغي لمن تكلم في تأويل القرآن. أن يرجع الى التاريخ ويراعي أسباب نزول الاية على ماروي[7]".

فالطوسي اذا يعتمد على المنقول في أسباب النزول، ولا يجد بديلا عنه، لأن هذه الاسباب حوادث لابست نزول الاي ، فهي إذاً تاريخ لادخل فيها للعقل، وانما طريق العلم بها النقل وحده. ويبدو أنه ملم الماما حسنا بالمنقول في هذا الباب. وآية ذلك نقله الاجماع على سبب النزول في غير موضع من تفسيره، كقوله في وقوفه عند قوله عز وجل:(ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الاخر وما هم بؤمنين)[8]،:" لاخلاف بين المفسرين أن هذه الآية وما بعدها، نزلت في قوم من المنافقين، من الاوس والخزرج وغيرهم".[9]

ومنهج الطوسي في الموازنة بين المنقول في أسباب النزول، يقرب من منهجه، الذي أسلفناه، في الموازنة بين المنقول في التأويل. فهو يحتكم الى النص القرآني عدة مرات لامحا سياق الايات. فنراه مثلا في وقوفه عند قوله تعالى:(ان

---

(١)التبيان: ٣/ ٦٣.
(٢)التبيان: ٢/ ٧٨.
(٣)التبيان: ٢/ ٣٤٤.
(٤)الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٤٧١.
(٥)التبيان: ١/ ٣٦٢. ٢/ ٢٣٨ ، ٣٦٥، ٤٨٨.
(٦)التبيان ٣/ ١٧، ٢٢.
(٧)التبيان: ٩/ ٣٢٦.
(٨)البقرة: ٨.
(٩)التبيان ١/ ٦٧.

الله لايستحيي أن يضرب مثلا مابعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا ماذا أراد الله بهذا مثلا..)[١]، يذكر أن أهل التأويل اختلفوا في نزول الاية، فروي عن ابن مسعود وابن عباس أن الله تعالى لما ضرب مثلين للمنافقين بقوله(كمثل الذي استوقد نارا) وقوله(أوكصيب من السماء)، قال المنافقون: الله أجل من ان يضرب مثلا ما بعوضه.. فأنزل الله هذه الاية. ثم يذكر ان الربيع بن أنس قال: هذا مثل ضربه الله للدنيا. وأن قتادة قال: معناه ان الله لايستحيي من الحق أن يذكر منه شيئا قل أو كثر. ثم يقول بعد ذلك:" وكل هذه الاقوال حسنة، وأحسنها قول ابن عباس لانه يليق بما تقدم[٢]". فجعل السياق قرينة على رجحان المنقول عن ابن عباس في نزول الآية .

ويلاحظ هنا أمر مهم، وهو أن الطوسي جعل(نزول) الآية متناولا لأمرين: أحدهما سبب نزولهما، وهو الذي حكاه عن ابن مسعود وابن عباس، والآخر: المعنى المراد منها، وهو الذي حكاه عن الربيع وقتادة. وهذا فيما يذكر ابن تيمية متعارف عليه بين المفسرين اذ يقول:" نزلت هذه الاية في كذا، ويراد به تارة أنه سبب النزول، ويراد به تارة أن هذا داخل في ألاية وان لم يكن السبب، كما يقول عنى بهذه الآية كذا".[٣]

ويرجع الطوسي الى التاريخ، وقد نوه بأهميته كما اسلفنا، ليتعرف على الأقوى من المنقول في أسباب النزول، وترجيحة على ماسواه. فنراه في تفحصه للاقوال الواردة في سبب نزول الاية التي تتكلم على الاحزاب، وهي قوله عزوجل(وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا)[٤]، يرجح قول أكثر المفسرين انها نزلت في بني قريظة من اليهود لما نقضوا العهد الذي بينهم وبين النبي(ص)، وعاونوا ابا سفيان ومن معه من الاحزاب. يرجحه على قول الحسن البصري: انها نزلت في بني النضير. مستدلا على ذلك بالأحداث التأريخية اذ يقول:" والاول اصح.. لأن

---

(١)البقرة: ٢٦.

(٢)التبيان ١/ ١١٠-١١١.

(٣)ابن تيمية: مقدمة في أصول التفسير ص ٤٨.

(٤)الاحزاب: ٢٦.

بني النضير لم يكن لهم في قتال الاحزاب شيء، وكانوا قد انجلوا قبل ذلك".[1]

والطوسي ينهج نهجاً سليماً في نظرته الى أسباب النزول، اذ هو لايقصر معنى الاية على سبب نزولها، ولا يحجرها عليه. بل هو يأخذ بالقاعدة العامة التي اقرها المحققون من الاصوليين والمفسرين، من أن " العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب".[2] ومفادها أن الاية التي تنزول على سبب لاتنحصر في الافراد الذين نزلت فيهم، بل تتجاوزهم الى كل من ينطبق عليهم حكمها ويتناولهم مضمونها، مهما تباعدت امصارهم وتغايرت أعصارهم. ويصرح بذلك في غير موضع من تفسيره، فمن امثلته ماجاء في الاية الكريمة:(وأن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا)[3]، إذ اورد عن عدد من التابعين أقوالا متباينة في نزولها، فبين أن منهم من قال: نزلت في النجاشي حين بلغ النبي(ص) موته فاستغفر له. ومنهم من قال: انها نزلت في جماعة من اليهود كانوا قد اسلموا، وفيهم عبد الله بن سلام ومن معه. ثم ذكر أن مجاهدا قال:" نزلت في كل من اسلم من أهل الكتاب من اليهود والنصارى" ورجح قوله على القولين السابقين لاتساقه مع عموم الآية. ثم قال:" ولا دليل يقطع به على ماقالوه. على أنها لو نزلت في النجاشي أو من من ذكر، لم يمنع ذلك من حملها على عمومها في كل من اسلم من أهل الكتاب. لان الآية قد تنزل على سبب وتكون عامة في كل من تناوله".[4]وأورد في سبب نزول الآية ٥٨ من النساء قولين ثم قال:" والمعتمد هو الاول، وان كان الاخير روي أنه سبب نزول الآية، غير أنه لايقصر عليه".[5]واذا بنى وجه فقهي على المنقول في سبب نزول الاية، فإن ذلك لايمنع عنده من احتمال غيره من الوجوه؛ لأن غاية مافي السبب ان تطابقه الآية. فأما أن لاتتعداه، فلا يجب عند أكثر المحصلين".[6]

ولعل التزامه بهذه القاعدة السليمة هو الذي حمله في بعض المواضع على عدم تسمية الافراد الذين روي أن الاية نزلت فيهم ، مصرحاً بأنه" لافائدة في

---

(١)التبيان:٣٣٢/٨.
(٢)السيوطي:الاتقان ٢٩/١.
(٣)آل عمران:١٩٩.
(٤)التبيان:٩٣/٣.
(٥)التبيان٢٣٤/٣.
(٦)التبيان:٢٢٤/٢.

ذكرها[1]" مادامت الآية لا تقف عند هؤلاء بل تتجاوزهم الى غيرهم ممن يشاركهم في سمتهم.

ويلحظ في آيات الاحكام، أنه اذا اشتجر الخلاف في سبب نزولها، ولم يكن ذلك قادحا بسلامة التأويل، بين الطوسي الحكم الشرعي العام الذي تضمنته الاية وجوز في سبب نزولها كل ماقيل، من غير أن يقطع بواحد منه . فمن ذلك أنه بين في سبب نزول قوله تعالى(يأأيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن القى اليكم السلام لست مؤمنا)[2]. اقوالا متباينة منقولة عن جماعة من الصحابة والتابعين كابن عباس وابن مسعود وابن اسحق والسدي ثم قرر أخيراً أن "كل واحد من هذه الاسباب يجوز أن يكون صحيحا ولايقطع بواحد بعينه. والذي يستفاد من ذلك أن من أظهر الشهادتين لايجوز لمؤمن أن يقدم على قتله، ولا اذا أظهر مايقوم مقامها من تحية الاسلام".[3].

وعنى الطوسي بمكان النزول عنايته بسبب النزول، سواء تعلق بالسورة كلها أو بآية منها. فكان يورد المنقول فيه في صدور السور قبل أن يشرع بتفسيرها، كقوله في سورة المائدة: " وهي مدنية في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة.. وقال الشعبي: نزل قوله" اليوم اكملت" والنبي صلى الله عليه وآله واقف على راحلته في حجة الوداع"[4]. وقوله في سورة يوسف:" مكية في قول مجاهد وقتادة".[5]وعنده أن المدني مانزل بعد الهجرة النبوية، وذلك ماصرح به في نزول سورة المائدة،[6]وعلى هذا يكون المكي مانزل قبل الهجرة. وهو الاشهر على مايذكر السيوطي في الاتقان.[7].

والغالب ان يعزو القول المأثور في النزول الى مصدره من الصاحبة والتابعين كقوله في زمن نزول الايات التي تنهي عن الربا: " روي عن ابن عباس وعمر أن آخر مانزل من القرآن آي الربا".[8]". وقوله في زمن نزول قوله تعالى(واتقوا يوما

---

(١)التبيان: ٦٧/١.
(٢)النساء: ٩٤.
(٣)التبيان ٢٩٨/٣.
(٤)التبيان: ٤١٣/٣.
(٥)التبيان: ٩١/٤.
(٦) التبيان: ٤١٣/٣.
(٧) السيوطي: الاتقان ٩/١.
(٨)التبيان: ٣٦٩/٢.

ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمـــون).[1]:" قـال ابـن عباس وعطية والسديّ: هذه الآية آخر مانزل من القرآن".[2].وقد لايعـزو القـول المأثور في النزول الى مصدره، بل يكتفي بعبارة" روي "،[3]أو" قبل".[4].

د. المنقول في المبهمات والنسخ:

وعني الطوسي بالمنقول في بيان المبهمات القرآنية[5]. فـهو يـورد الأقـوال المختلفة التي وردت في تبيينها. وكثيرا مانراه يعرضها أمامنا دون أن يفصل بينها بقول، فيه ترجيح أو تضعيف لبعضها، وانما يقف منها موقفا منها موقفاً حياديـاً خالصاً. من ذلك ما أورده في تفسير قوله عز وجل في سورة الانبياء(واسـماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين)[6]، فقد بين ان الاقوال تباينت في ماهيـة ذي الكفل على ضربين: فقال ابو موسى الاشعري وقتادة ومجاهد: انه ليس بنبـي بـل هو رجل صالح. وقال الحسن البصري هو نبي اسمه ذو الكفل.[7]ولم يفصـل بيـن هذين القولين بكلمة مع أن ذلك ممكن في رأينا إذا لوحظ سياق هذه الاية والايـات التي تقدمتها. فقد ذكر ذو الكفل في سياق واحد مع ذكر من الانبياء فـي السـورة وهوم: ابراهيم ولوط واسحق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وايـوب واسـماعيل وادريس وذو النون وزكريا ويحيى[8] عليهم السلام. وقد اطرد فـي القـرآن ذكـر الانبياء،مع الانبياء فلا داعي لافراد ذي الكفل منهم، وعده ليس نبيا مـن بينـهم. وتسمية السورة بسورة الانبياء يعضد ذلك. والقول بأن التسمية جرت على الغـالب يحتاج الى دليل. ومنه مأورده في تفسير قوله عز وجل(قال عفريت من الجن أنا آتيك به)[9]فبين أنه روي ان العفريت هو الخضر، ولم يضعف هذا القول، مع أنـه

---

(١)البقرة: ٢٨١.

(٢)التبيان: ٢/٣٦٩.

(٣)التبيان: ٢/١٤٦.

(٤)التبيان ٢/١٣٧.

(٥)يراد بالمبهمات القرآنية في الاصطلاح: اسماء الاشخاص والاشياء التي وردت مبهمة في القـرآن مـن غير تبيين لماهيتها. وهي كثيرة منها: قربان ابني آدم مانوعه؟ وبعض بقرة بني اسـرائيل مـاهو؟ والذي مر على قرية من هو؟ وطيور ابراهيم الاربعة مانوعها؟ وقد الف فيه السـهيلي والسـيوطي وغيرهما.

(٦)الانبياء: ٨٥.

(٧)التبيان: ٧/٢٧٢.

(٨)الانبياء: ٥١-٨٩.

(٩)النمل: ٤٠.

في غاية البعد لان قصة الخضر مع موسى في سورة الكهف تشعر بآدميته. والمفسرون مجمعون على هذا، ومنهم الطوسي، وانما الخلاف بينهم في نبوته أو عدم نبوته، وهو ماحكاه الطوسي نفسه عنهم.(١)والجمهور على أنه نبي.

على أن موقف الطوسي من المنقول في المبهمات القرآنية يتسم بالعلمية في عدة مواضع من تفسيره . اذ نراه يلتزم بدلالة النص القرآني، ويقف حيث يقف،، ولايتعداه الى ترجيح مالا مرجح له. ولعل خير مثال على ذلك تفسير السكينة في قوله تعالى(وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم).(٢)اذ حكي عن علي بن ابي طالب (ع) انها ريح هافة لها وجه كوجه الانسان. وعن مجاهد: لها رأس كرأس الهرة، وبين أن ذلك روي في اخبار الامامية ايضا. ونقل عن وهب بن منبه : أنها روح من الله تكلمهم بالبيان عند وقوع الاختلاف، وعن عطاء: آية يسكنون اليها، وعن ابن عباس وقتادة والسدي: عصا موسى ورصاص الالواح، وبين أنه احدى روايتين عن محمد الباقر، والاخرى انها الذي وضعت أم موسى فيه موسى حين ألقته في اليم.وكما نقل عن الحسن البصري انها التوراة وشيء من ثياب موسى، وبعد أن ذكر هذه الاقوال المتباينة، لم ير من الصحيح أن يخصص السكينة بواحد منها، بل رأى أن يحملها على مفهومها اللغوي العام، المحتمل لجميع ماذكروه واختلفوا فيه،" وهو "انه كان فيه مايسكنون اليه".(٣)وهو منهج سليم في تفسير مثل هذه الالفاظ التي عرفت بالمبهمات. لأنا في الواقع نشم رائحة الاسرائيليات في كثير مما ورد في تفسيرها من مأثور. وكثير من هذه التأويلات غير ثابت عمن نقل عنهم. ولقد آن لنا ان نتجنبها ونقف عند النص الكريم محتكمين اليه مادمنا لانملك الدليل القاطع على المراد منها. وكان الطوسي محقا حين علق على هذه الاقوال المتباينة بقوله:" ولايقطع بشيء من ذلك الا بدليل يوجب العلم.(٤)".

وعني الطوسي بالمنقول في نسخ القرآن ،عنايته بالمنقول في التفسير والنزول والمبهمات، مما أسلفنا بيانه. فأورد كثيراً من الروايات المأثورة عن

---

(١) التبيان:٧/٧٠-٧١.

(٢)البقرة: ٢٤٨.

(٣)التبيان:٢/٢٩٢-٢٩٣.

(٤)التبيان:٢/٢٩٣.

الصحابة والتابعين في نسخ بعض الآي لبعض. اذ هو ممن يرى جواز النسخ في الشريعة بل يعتقد بوقوعه في الحياة الاسلامية[1]. وقد استدل على ذلك بأدلة متنوعة منها قرآنية كقوله تعالى:(ماننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها أو مثلها)[2]وقوله (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه)[3] ومنها أدلة نقلية رويت عن بعض الصحابة والتابعين كأبي بكر الصديق وابي موسى الاشعري وقتادة تفيد وقوع النسخ في القرآن.[4] وعلل النسخ بتغير المصلحة" فاذا زال الوقت الذي تكون المصلحة مقرونة به،زال بزواله وذلك مشروط بما في المعلوم من المصلحة به".[5]وبين ان " هذا القدر كاف في ابطال قول من أبى النسخ جملة".[6]وعد اجماع الامة حجة على قوة المأثور فيه او ضعفه. فرجح لذلك قول عبد الرحمن بن زيد بن اسلم في أن قوله تعالى(ماكان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه)[7]خاص بالمسلمين الاوائل حين كانوا قليلين. فلما كثروا نسخ بقوله:" وما كان المؤمنون لينفروا كافو فلولا نفر من كل فرقة طائفة".[8]مستندا في هذا الترجيح الى اجماع الامة على أن حكم الجهاد كفائي لاعيني، اذا قام به البعض سقط عن الآخرين. فقال:" وهذا هو الأقوى لانه لاخلاف أن الجهاد من فروض الكفايات، فلو لزم كل احد النفر، لصار من فروض الأعيان".[9].

وموقف الطوسي من نسخ الآي موقف العالم المحقق، فهو لايسرف في القول به. بل قد يستبعده بأدلة علمية. وقد جعل التاريخ عنصرا مهما في جواز نسخ الآي او عدمه. فعندما قال سعيد بن المسيب ان قوله تعالى(وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين)[10]منسوخ بقوله(وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف مافرضتم)،لم ير الطوسي ذلك لازما على كل حال، بل قيده بتأخر الاية الثانية عن الأولى في النزول.[11]وهذا صحيح،لان المصلحة في

---

(١)التبيان:٢/١٢.
(٢)البقرة :١٠٦.
(٣)البقرة:١٤٣.
(٤)التبيان:٢/٣٩٤.
(٥)التبيان:١/٣٩٤.
(٦)التبيان : نفس المكان.
(٧)التوبة:١٢٠.
(٨)التوبة:١٢٢.
(٩)التبيان:٥/٣٢٠.
(١٠)البقرة:٢٤١.
(١١)التبيان:٢/٢٨٠.

تدرج الاحكام الشرعية وتطورها، لاتتحقق حين تنزل الآيتان المتناسختان معـــا، اذ التراخي بينهما لابد فيه- كما التفت الطوسي-[1]لتحقيق هذا الهدف. وقـــد صـــرح ابن الحصار، فيما حكاه السيوطي عنه، بأن التاريخ بينة مهمة فـــي اثبـــات نســـخ الآي، بعد النقل الصريح عـــن النبـــي(ص) والصحابـــة ليعـــرف المتقـــدم منـــها والمتأخر.[2]

والطوسي أبدا يطالب بالدليل على النسخ، ويرى أنه متى احتمل بعض نصوص القرآن النسخ" لم يجز أن يقال هو منسوخ الا بحجة"[3]ولذلك رجح قـــول الحســـن البصري على قول السدي في عدم نسخ قوله تعالى(ويسألونك ماذا ينفقـــون قـــل ماأنفقتم من خير فللوالدين والاقربين واليتامى والمساكين وابن الســـبيل)[4]، بآيـــة فرض الزكاة" لأنه لادليل على نسخها"[5].

والاية يجوز أن تنسخ بأخرى ، عنده، حين يكون بينهما تناف في الحكم. فـــأن لم تتنافيا فلا نسخ.[6].وهو ما اشار اليه ابن قتيبة وسماه" اختلاف التضاد" وبيـــن أنه في الامر والنهي من الناسخ والمنسوخ.[7]وعنده أن الاخبار التـــي لاتتضمـــن معنى الامر والنهي والاباحة لايجوز نسخها.[8]ولذلك ضعف قول الربيع بـــن أنـــس حين جعل قوله تعالى(وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهـــم الموت قال اني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار اولئك أعتدنـــا لـــهم عذابـــا اليماً).[9]منسوخاً بقوله: (ان الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مـــادون ذلـــك لمـــن يشاء) مبينا أن " هذا خطأ لان النسخ لايدخـــل فـــي الخـــبر الـــذي يجـــري هـــذا المجرى".[10]. وهذا ماعليه المحققون، وبه صرح السيوطي في الإتقان فقال" لايقـــع النسخ الا في الامر والنهي ولو بلفظ الخبر. أما الخبر الذي ليس بمعنى الطلب، فـــلا يدخله النسخ". ثم قال مشيرا الى مادخل كتب الناسخ والمنسوخ مما لايصـــح فيـــه النسخ:" واذا عرفت ذلك، عرفت فساد صنع من أدخل في كتب النسخ كثـــيرا مـــن

---

(١)التبيان: ٣٩٣/١.
(٢)السيوطي: الاتقان في علوم القرآن ٢٤/٢.
(٣)التبيان: ٤٢٧/٣.
(٤)البقرة: ٢١٥.
(٥)التبيان: ٢٠٠/٢.
(٦)التبيان ٧٤/٥.
(٧)ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن ص ٤٠.
(٨)التبيان ٣٨٢/٢.
(٩)النساء: ١٨.
(١٠)التبيان ١٤٧/٣.

واذا عرفت ذلك، عرفت فساد صنع من أدخل في كتب النسخ كثيرا من آيات الاخبار".[1].

على أن تعامل الطوسي مع المنقول في نسخ الآي لم يسلم من الهفوات، اذ نراه في تفسير قوله تعالى(واذا أخذنا ميثاق بني اسرائيل لاتعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم الا قليلا منكم وأنتم معرضون)،[2]ينقل عن عبد الله بن عباس أن قوله تعالى(وقولوا للناس حسناً) منسوخ بقوله(قاتلوهم حتى يقولوا لا إله إلا الله أو يقروا بالجزية). ومعنى هذا أنه منسوخ بالسنة؛ لأن هذا حديث وليس آية. وينقل عن قتادة انه منسوخ بآية السيف. ثم يقول:" والصحيح أنها ليست منسوخة، وأنما أمر الله تعالى بالقول الحسن في الدعاء اليه واحتجاج عليه، كما قال تعالى لنبيه(ص)(أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) وبين في آية اخرى فقال(ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم). وليس الامر بالقتال ناسخا لذلك، لان كل واحد منهما ثابت في موضعه".[3] .

والحق أن هذه العبارة لاتحتمل النسخ اصلا، لانها من الاخبار التي وردت في القرآن عن، احوال الاديان السابقة. والحديث من أوله الى آخره في الاية عن بني اسرائيل خاصة، وفيه اخبار عن أنهم أمروا بأن يقولوا للناس حسنا. فكيف يدخله النسخ؟. وما روي عن ابن عباس وقتادة- أن صح عنهما- يجعل الخطاب بعبارة" وقولوا للناس حسنا" موجها الى المسلمين لالبني اسرائيل.ويبدو أن الطوسي تابعهما في هذا الرأي، بدليل أنه نفى أن يكون الامر بالقتال ناسخا لذلك. وليس هذا الرأي بسديد، لأن فيه تمزيقاً للسياق الذي يشعر أن الخطاب كله لبني اسرائيل. ويدل عليه تمام الآية وهو قوله(واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم الا قليل منكم وأنتم معرضون). لأن الميثاق لما كان قد أخذ منهم، بدليل صدر الآية، فالتولي والاعراض عن العمل به كان منهم أيضا.

---

(١)السيوطي: الاتقان في علوم القرآن ٢/٢١.

(٢)البقرة: ٨٣.

(٣)التبيان ١/٣٣١.

(٣)

النقل عن أئمة التفسير

عني الطوسي بالنقل عن الأئمة في تفسيره عناية واضحة،فكان يشفع الرواية عن الصحابة والتابعين غالبا، بالرواوية عنهم في مواضع كثيرة منه. يفعل ذلك في التفسير والنزول والنسخ والمبهمات. معتمدا في ايراده على المؤلفات الشيعية السابقة له كتفسير ابي الجارود الزيدي، وعلي بن ابراهميم القمي، ومحمد بن مسعود العياشي.

وأكثر الروايات التي ذكرها منقولة عن محمد الباقر[١] ،ويكنيه ابا جعفر وعن جعفر الصادق[٢] ويكنيه ابا عبد الله. وغالب الروايات عن محمد الباقر أوردها عن طريق ابي الجارود. ثم تلتها الروايات المأثورة عن علي بن ابي طالب(ع)[٣]وهناك روايات قليلة منقولة عن علي بن الحسين[٤] وعلي بن موسى الرضا [٥] وزيد بن علي.[٦] ولم نجد في التفسير روايات عن بقية الأئمة، الا أنه أورد رواية عن محمد بن الحنفية[٧] .وما أورده عن هؤلاء الأئمة قليل قياساً الى ما أورده عن الصحابة والتابعين، وجلهم من أهل السنة. وذلك في رأينا يعود الى طبيعة هذه الروايات. اذ لاشك أن المأثور عن الصحابة والتابعين، أكثر مما أثر عن اهل البيت بكثيرولم يختلف منهج الطوسي في ايراد ماروي عن الأئمة، عن منهجه في ايراد ماروي عن الصحابة والتابعين، اذ هو يطرح اسانيد الروايات ويكتفي بمتونها. وكانت هذه الروايات مسندة في مصادرها التي استقاها منها، كتفسير القمي الذي لايزال يحتفظ الى هذا اليوم بأسانيده. وتفسير العياشي الذي وان خلا اليوم من الاسانيد الا أنه كان مسندا في عصر الطوسي، بدليل أن معاصره الحام الحسكاني المتوفى سنى ٤٩٥ هـ كان ينقل عنه طرفاً من رواياته بأسانيدها في كتابه" شواهد التنزيل لقواعد التفضيل"، وقد أثبتنا ذلك عند الكلام على التفسير عند

---

(١)التبيان: ٤٠٧/١، ٣٠١/٢، ٤١١/٤، ٤٦٠/٥.

(٢)التبيان: ١١١/١، ١١٩/٢، ٧٦/٤، ١٠١/٥.

(٣)التبيان: ١٨٣/٢، ٣٥٧، ١٩٢/٣، ٢٠٦.

(٤)التبيان ٩/٢، ١٥٥، ٤٤٠/٣.

(٥)التبيان: ٥٥/١، ٤٦٦/٦.

(٦)التبيان: ٤١٧/١-٤١٨.

(٧)التبيان: ٣٣٠/١، ٢٣٧/٢،١٥٧/٣،١٥٩/٤.

الامامية قبل الطوسي. ولا نستبعد أن يكون تفسير أبي الجارود مسندا ايضـــا. ولا دليل لدينا على حذف اسانيده. وكان من الصحيح في رأينا أن يقف الطوســي مـن هذه الروايات التي نقلها عن الأئمة موقفاً علمياً، يتناول فيه أســانيدها بالدراسـة الناقدة المبينة على اصول علم الحديث. وهو بلا ريب من اقدر علماء الاماميـة ان لم يكن اقدرهم، على ذلك. اذ كان على علم حسن بأقوال الرجال، ولـه فـي ذلـك كتابان مهمان يعدان من اقدم كتب الرجال عند القوم، وهما: (الفهرست) (والرجـال) اللذان حظيا بعناية العلماء الذين جاؤا من بعده، وعدا من المصادر الاساسية فـي موضوعهما.

ولاحظنا ان الطوسي قام بعملية تنسيق للمنقول عن الأئمة، يجمـع المتنـاظر منه في غير موضع من تفسيره، وهو عمل جيد. فاذا اتفق اثنان منهم أو أكثر فـي تفسير الاية التي يتناولها بالتفسير، بين ذلك بعبارات متنوعـة مراعيـا الـترتيب الزمني ، فيقول مثلا:" وهو المروي عن علي (ع)، وعن علي بن الحسين مثله[1]" او يقول:" روري عن علي(ع) وأبي جعفر (ع)[2]". والغالب أن يشير الى المنقـول عن محمد الباقر وابنه جعفر الصادق، فيقول" وروى عن ابي جعفر وأبي عبـد الله أن.."[3]أو" وهو المروي عن ابي جعفر وابي عبد الله"[4] ونحو ذلك من العبـارات. لان أكثر ما أورده من أقوال منسوب لهذين الامامين، اللذيـن وروى عنـهما فـي التفسير شيء كثير.[5].

وقد لايصرح الطوسي بأسماء من اتفقت رواياتهم من الأئمة في تفسـير الآي، بل يكتفي ببيان مايدل على ذلك. كأن يقول:" وروى عن ائمتنا"[6]، أو" وروى فـي أخبارنا"[7] أو " وعليه تدل أخبارنا"[8]أو " وهو الظاهر في رواياتنا"[9]ونحو ذلك مـن العبارات.

---

(١)التبيان: ١/١٥٥.
(٢)التبيان ١/٣٩١.
(٣)التبيان: ٥/٧٢.
(٤)التبيان: ١/٤٤٨.
(٥)انظر في ذلك: تفسير القمي والعياشي وفرات الكوفي.
(٦)التبيان: ٢/١٤٤.
(٧)التبيان: ١/٤٨.
(٨)التبيان: ٢/٣٥١.
(٩)التبيان: ٢/٢١٢.

ويندر أن يذكر الطوسي الرواة الذين حملوا التفسير عن الأئمة، فلم نرد يذكر منهم- وهم كثير-[١] إلا راويين، هما جابر بن يزيد الجعفي المتوفى سنة ١٢٨ هـ. وابو الجارود منذر بن زياد العبدي الذي عاش في القرن الثاني الهجري، وكلاهما يروي عن محمد الباقر. ولم يذكر من جابر الا اسمه دون اسم أبيه ولقبه، مع أن الجابرين الذين يروون عن الباقر أكثر من واحد. منهم جابر هذا، وجابر ابن أرقم[٢]، فكأنه اذا أطلق اسمه وحده، لم يرد غيره لشهرته بين رواة الامامية. يقول في تفسير قوله تعالى(وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى واتوا البيوت من ابوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون)[٣]:" وروي عن جابر عن ابي جعفر محمد بن علي (ع) في قوله(وليس البر بأن تأتوا البيوت)، الاية، قال: يعني أن يأتي الامر من وجهه، اي الامور. وروى ابو الجارود عن جعفر (ع) مثل قول ابن عباس سواء". وكان قد بين من قبل أن ابن عباس ذكر في معنى الاية: أن قوما كانوا في الجاهلية اذا أحرموا نقبوا في ظهر بيوتهم نقبا يدخلون منه ويخرجون. فنهوا عن التدين بذلك. وأمروا أن يأتوا البيوت من ابوابها. وقد رجح الوجه الاول الذي رواه جابر مبينا أنه: "اقوى وأجود".[٤]

واذا تباينت مضامين الروايات التي يوردها عن الائمة نص على ذلك، وبين مضمون كل رواية، اداء للامانة العلمية التي يحملها. سواء أكان هذا التباين فيما يروى عن الامام الواحد أوعن إمام وإمام. وله في التعامل مع هذا النوع من الروايات اسلوبان أن يرجح بعضهما على بعض، كما رأينا آنفا في روايتي جابر وابي الجارود عن محمد الباقر، اذ رجح الاولى على الثانية لقوتها وجودتها عنده من حيث المضمون. أو يتركها من غير ترجيح، حين يرى فيما يبدو، أن الاية محتملة لذلك كله، كما في تفسير" العفو" في قوله عز وجل(ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو)[٥]اذ نقل عن محمد الباقر أنه: مافضل عن قوت السنة، فنسخ ذلك بآية الزكاة. وعن جعفر الصادق أنه: الوسط.[٦].

---

(١)ذكرنا طائفة منهم عند الحديث عن التفسير عند الامامية قبل الطوسي فليراجع هناك.

(٢)انظر تفسير العياشي ٢/١٤١.

(٣)البقرة:١٨٩.

(٤)التبيان:٢/١٤٢.

(٥)البقرة:٢١٩.

(٦)التبيان:٢/٢١٤.

ويلاحظ أن الطوسي كثيرا مايورد المنقول عن الائمة، في خاتمة المنقول عن غيرهم. سواء اتفقا في المضمون أو اختلفا. فيشعرنا في عدة مواضع أن من أقوال الأئمة مايوافق قولا أو أكثر من أقوال الصحابة أو التابعين. كأنما يريد أن يبين أن ما اثر عن هؤلاء الأئمة لايخرج عما قال به بعض علماء الأمة، وأن من هؤلاء وهؤلاء كثيرا مايكون قولهم سواء. وآية ذلك نجده في تفسير قوله تعالى في ولي اليتيم:(ومن كان فقيرا فليأكل وليّه بالمعروف)[1] ، اذ قال :" قال عبيدة معناه القرض، وهو المروي عن أبي جعفر(ع)". ثم قال" واختلفوا في الوجه الذي يجوز له أكل مال اليتيم به، اذا كان فقيرا، وهو المعروف، فقال سعيد بن جبير وعبيدة السلماني وابو العالية وأبو وائل والشعبي ومجاهد وعمر بن الخطاب:هو أن ياخذ قرضاً على نفسه فيما لابد له منه ثم يقضيه. وبينا أنه المروي عن ابي جعفر محمد الباقر(ع)".[2] .

ويرينا الطوسي في بعض المواضع، أن المروي عن الائمة قد يوافق ماعليه أكثر المفسرين من الصحابة والتابعين وغيرهم. كأنما يوثق بهذا الصنيع ماروي عنهم من تفسير، ويدلل على قوته. لان موافقته لرأي الاكثرين يعني استناده الى الحجة التي هي اقوى، اذ الكثرة عنده من أدلة الترجيح في كثير من المواضع. في تفسير قوله تعالى(ومن أظلم ممن أفترى على الله كذباً أو قال أُوحي اليَّ ولم يوح اليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله).[3]يبين الطوسي أن اكثر المفسرين كابن عباس وعكرمة ومجاهد والسدي وابي علي الجبائي والفراء والزجاج وغيرهم يذهبون الى أن قوله تعالى:(ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا) نزل في مسيلمة الكذاب حين ادعى النبوة، وقال أنه يوحى اليه. وأن قوله:(من قال سأنزل مثل ما أنزل الله)، نزل في عبد الله بن سعد بن ابي سرح،[4] وكان كاتب الوحي للنبي(ص) ، فاذا قال له: اكتب عليماً حكيماً، كتب غفورا رحيماً... ثم ارتد ولحق بمكة وقال أني أنزل مثل ما أنزل الله. ثم حكي بعد ذلك قولين آخرين: أحدهما يفيد انها نزلت في مسيلمة خاصة والاخر: في ابن ابي سرح خاصة وقال بعد ذلك

---

(١)النساء:٦.

٢)التبيان٣/١١٩.

(٣)الانعام:٩٣.

(٤)ذكر ذلك الواحدي في أسباب النزول ص ١٢٦. وبين أنه قول ابن عباس في رواية الكلبي.

مشيرا الى موافقة المروي عن محمد الباقر للقول الاول الذي عليه أكثر المفسرين:" والاول هو المروي عن ابي جعفر".[1].

وقد يعكس الطوسي الوضع، فيذكر التأويل المنقول عن أحد الائمة، ثم مايشابهه أو يخالفه من أقوال مأثورة عن الصحابة والتابعين. فاذا كانت الرواية مثلا عن علي بن ابي طالب، الذي لاشك في أنه من الصحابة المقدمين في علم التفسير[2]،وكان ثمة رواية أخرى توافقها مأثورة عن مفسر آخر. كالصحابي الجليل ابي هريرة مثلا بيَن قول عليَ أولا ثم اشار الى أنه وروي عن أبي هريرة مثله. وكأنه يراعي في ذلك السبق والفضل. يقول في تفسير الاية الكريمة:(سمّاعون للكذب أكالون للسحت)[3]" روي عن علي (ع) أنه قال:السحت الرشوة في الحكم ومهر البغي وعسب الفحل وكسب الحجّام وثمن الكلب وثمن الخمر وثمن الميتة.. وروي عن أبي هريرة مثله".[4].

وقد يرجح الطوسي قول الائمة في التفسير، لا لكونه مرويا عنهم فحسب، بل لان له مايعضده من لغة ونحوها، فنراه في تفسير قوله تعالى:(واتموا الحج والعمرةَ لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي)،[5]يقول:" وقوله:" فإن احصرتم" فيه خلاف، قال قوم: فان منعكم خوف أو عدو أو مرض أو هلاك بوجه من الوجوه فامتنعتم بذلك. وقال آخرون: ان منعكم حابس قاهر. فالاول: قول مجاهد وقتادة وعطاء وهو المروي عن ابي عباس، وهو المروي في اخبارنا. والثاني : ذهب اليه مالك بن أنس. فالأول اقوى لما روي في أخبارنا، ولأن الاحصار هو أن يجعل غيره بحيث يمتنع من الشيء. وحصره: منعه. ولهذا يقال: حصر العدو، ولا يقال: أحصر".[6]

ويبدو الطوسي في غاية الموضوعية والعلمية حين يعرض المنقول عن الأئمة على القرآن محتكما اليه، فيقبل منه مايلائم ظاهر القرآن، ويستبعد مايعارضه، وهو في هذا يأخذ بأصل من الاصول الصحيحة في التفسير عند المحققين من

---

(١)التبيان ٢٠٢/٤.
(٢)الزركشي: البرهان في علوم القرآن ١٥٧/٢.
(٣)المائدة: ٤٢.
(٤)التبيان:٥٢٨/٣.
(٥)البقرة:١٩٦.
(٦)التبيان ١٥٥/٢.

الامامية، وهو أن الخبر اذا عارض ظاهر الكتاب طرح ولم يؤخذ به. ومعه في هذا حديث للنبي(ص) ذكره في أول تفسيره، وهو(اذا جاءكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله فما وافق كتاب الله فاقبلوه وما خالفه فاضربوا به عرض الحائط)[1]، واخبار أخرى رويت عن محمد الباقر وجعفر الصادق اوردها العياشي في تفسيره[2]، ونوه بها الطوسي ايضا.[3]ففي تفسير قوله تعالى:(وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا)[4] يبين الطوسي أن المفسرين اختلفوا في المعنى بقوله(وآتوا النساء). فقال ابن عباس وقتادة وابن جريح وابن زيد واختاره الطبري وابو علي الجبائي والرماني والزجاج: المراد به الازواج، أمرهم الله تعالى باعطاء المهر اذا دخل بها كملا.. وقال ابو صالح: هذاخطاب للأولياء، لأن الرجل منهم كان اذا زوج أيمة أخذ صداقها دونها، فنهاهم الله عن ذلك وأنزل هذه الاية. وبين أن هذا مروي عن أبي جعفر. وبعد أن ذكر قولا ثالثا رواه المعتمر بن سليمان عن حضرمي، رجح القول الاول، مع أنه خلاف الرواية عن محمد الباقر، مستندا الى قرينة السياق وما يدل عليه الظاهر فقال:" وأول الاقوال اقوى، لان الله تعالى ابتدأ ذكر هذه الآية بخطاب الناكحين للنساء، ونهاهم عن ظلمهن والجور عليهن، ولا ينبغي ان يترك الظاهر من غير حجة ولا دلالة".[5]مشيرا بذلك الى الاية التي قبلها وهي قوله تعالى:(وان خفتم الا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى ثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت ايمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا).[6]

وتبدو هذه الموضوعية والعلمية ،فيما أورده الطوسي عن الائمة في بيان المبهمات القرآنية، اذا نراه يلتزم بما قرره، وأشرنا اليه سالفا، من أنه: لايقطع بشيء مما قيل فيها الا بدليل يوجب العلم.[7]فقد ذكر اقوالا متباينة في المرأة التي وهبت نفسها للنبي(ص)، والتي اشارت اليها آية الاحزاب(وامرأة مؤمنة ان وهبت

---

(١)التبيان ١/٥ وقريب منه ماروواه العياشي عن النبي(ص) في تفسيره١/٩.

(٢)تفسير العياشي: ١/٩.

(٣)التبيان: ١/٥.

(٤)النساء: ٤

(٥)التبيان ٣/١٠٩-١١٠.

(٦)النساء: ٣.

(٧)التبيان: ٢/٢٩٣.

نفسها للنبي).[١]وهي اقوال مأثورة عن بعض الصحابة والتابعين كابن عباس والشعبي، بعضها يفيد أنها امرأة من الانصار والآخر انها ميمونة بنت الحارث. وذكر الى جانب ذلك رواية عن علي بن الحسين تفيد أنها أمرأة من بني اسد. ولم يقطع بواحد مما قيل ولا رجح قول علي بن الحسين على بقية الاقوال لكونه اماما له، يعتقد بعصمته وحجية قوله. وانما انتقل بعد هذا مباشرة الى بيان حكم شرعي يتعلق بالهبة عند الامامية.[٢]

ولم يعدم الطوسي نقل مايعبر عن بعض عقائد الامامية الاساسية عن الائمة كعصمة الامام ووجوده في كل زمان. وذلك مايتضح في تفسير قوله تعالى:(انما أنت منذر ولكل قوم هاد).[٣]اذ بين ان للناس في معنى قوله" ولكل قوم هاد" خمسة اقوال: أحدهما، روي عن ابي عباس ان الهادي هو الداعي الى الحق. والثاني، عن مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد أنه نبي كل أمة. والثالث في رواية أخرى عن ابن عباس وسعيد بن جبير ورواية عن مجاهد والضحاك أن الهادي هو الله سبحانه. والرابع، عن الحسن وقتادة وأبي الضحى وعكرمة أنه النبي محمد (ص)، وهو اختيار ابي علي الجبائي. والخامس، ماروي عن ابي جعفر وابي عبد الله:" أن الهادي هو إمام كل عصر، معصوم يؤمن عليه الغلط وتعمد الباطل".[٤]. ثم بيّن بعد ذلك أن الطبري روى باسناده عن عطاء عن سعيد بن جبير عن أبن عباس، أن الآية لما نزلت وضع رسول الله(ص) يده علي صدره وقال: أنا المنذر" ولكل قوم هاد"، وأومأ بيده الى منكب على، فقال: انت الهادي ياعليُ بك يهتدي المهتدون من بعدي[٥]. وهو نص مارواه الطبري في تفسيره باسناده عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.[٦]ويتبين لنا مما اسلفناه، أن ابا جعفر الطوسي عني بالتفسير المنقول عن النبي (ص) والصحابة والتابعين والائمة، عناية لم يسبقه اليها أحد من مفسري الامامية. اذا كان جل عناية من صنف تفسيرا قبله

---

(١)الاحزاب: ٥٠.

(٢)التبيان ٣٥٢/٨.

(٣)الرعد: ٧.

(٤)التبيان: ٢٢٢/٦-٢٢٣.

(٥)التبيان ٢٢٣/٦.

(٦)الطبري: جامع البيان ١٠٨/١٣ طبعة البابي الحبي الثانية، رواه الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل عن سعيد بن جبير وابن عباس وابي هريرة وعلي ص ٢٩٣-٣٠٣ ولم يطلع الطوسي فيما يبدو على هذه الروايات.

من علماء الامامية كالقمي والعياشي وفرات والكوفي ايراد الروايات المنقولة عن النبي(ص) والائمة، ولم يرووا عن الصحابة والتابعين الا النزر القليل. فجاء ابو جعفر الطوسي ليضع المعادلة الصحيحة، ويعطي مانقل عن الصحابة والتابعين ماهو حقيق به في تفسير الكتاب المبين. وقد سرى تيار هذا المنهج الجديد من بعده في تفسير خلفه الطبرسي صاحب" مجمع البيان"، فراح يقفو آثاره. ويطأ مواضع قدميه.

(٤)
تفسير القرآن بالقرآن

يفسر الطوسي القرآن بالقرآن تفسيرا ظاهريا، سالكا في ذلك مسلك العلماء الذين وصفوا هذا الاسلوب بأنه" أحسن طرق التفسير"[١]وعنده أن القرآن كالسورة الواحدة [٢]، وهذا يعني أن له وحدة معنوية شاملة، وان تناثرت آياته وتباعدت سوره وأجزاؤه. وقد صرح في بعض المواضع أن من الآي ماتفسره ىيات أخر وتبينه.[٣] ولهذا المنهج اثاره في اقوال المسلمين الاوائل، فقد روي عن علي بن أبي طالب في وصف القرآن قوله:(كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون، به وينطق بعضه على بعض، ويشهد بعضه على بعض) [٤]. وبهذا المعنى جاء قول العلماء" ما أُجمل في مكان فُسر في موضع آخر، وما اختُصر في مكان بُسط في آخر"[٥].

ويجد الطوسي في السنة النبوية مايدعم وجهته هذه في التفسير، اذ أورد عن عبد الله بن مسعود[٦] أن النبي (ص) فسر كلمة (الظلم) الواردة في قوله عز وجل(الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون)،[٧]بالشرك مستدلا بقوله تعالى:" يابني لاتشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم".[٨]وهو لذلك يرد الاية على اخرى ليفسرها بها، ويجعلها قرينة على المعنى

---

(١)الزركشي: البرهان ١٧٥/٢.
(٢)التبيان:٤١١/٣.
(٣)التبيان ٢٢٦/١-٢٢٧.
(٤)نهج البلاغة ٢٣/٢ بشرح محمد عبده.
(٥)ابن تيمية: مقدمة في اصول التفسير ص ٩٣. والزركشي: البرهان١٧٥/٢.
(٦)التبيان ١٩٠/٤.
(٧)الانعام:٨٢.
(٨)لقمان:١٣.

الذي يراه في مواضع كثيرة من تفسيره، يقول في وقوفه عند الآية الكريمة:(ثفاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكفافرين).[١]" الظاهر ان الناس والحجارة وحطبها، كما قال:(انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم)، تهيبا وتعظيما بأنها تحرق الحجارة والناس".[٢]ففسر القرآن بالقرآن. ومثله ما أورده في تفسير قوله تعالى(صم بكم عمي فهم لايرجعون).[٣]، اذ حمل العمي في الآية الكريمة على العمي المعنوي، وهو عدم معرفة الحق، دون العمي الحسي الذي هو عدم الرؤية بالعين مستدلا عليه بآية أخرى هي(وتراهم ينظرون اليك وهم لايبصرون).[٤].

وفي تفسير قوله عز وجل:(لعلكم تتقون)[٥] يستدل على أن المعنى:"تتقون عذابه بفعل ما اوجبه عليكم"، بقوله تعالى:(واتقوا النار التي أعدت للكافرين)،[٦].

وقد يفسر الآية بأكثر من آية، كأنما يستقري المعني الواحد من مواضعه المتعددة في القرآن، فإن ورد وجه عن بعض المفسرين، خلاف مايدل عليه هذا الاستقراء استبعده ورده. وذلك مايبدو في تفسير قوله تعالى:(واذا فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون).[٧]اذ يقول:" معنى (فرقنا بكم البحر) اي: جعلناكم بين فرقيه تمرون في طريق يبس. كما قال تعالى:(فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا) وقال: " وأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فكان كل فرق كالطود العظيم". وقال بعضهم: معنى " فرقنا" يعني: بين الماء وبينكم، اي فصلنا بينكم وبينهم، حجزنا، حيث مررتم فيه. وهذا خلاف الظاهر وخلاف مابينه في الايات الاخر التي وردت مفسرة لذلك، ومبينة لما ليس فيه اختلاف".[٨]ومن تفسير القرآن بالقرآن تخصيص ماظاهره العموم في القرآن. فاذا كان ظاهر أية يقتضي عموم المعنى، فان اخرى قد تخصصه، فتكون قرينة منفصله على ارادة معنى غير المعنى الاول الذي اشعر به عموم اللفظ أو التعبير في الاية الاولى.

---

(١)البقرة: ٢٤.
(٢)التبيان: ١/١٠٦.
(٣)البقرة: ١٨.
(٤)التبيان ١/٨٩.
(٥)البقرة: ٢١.
(٦)التبيان: ١/٩٨.
(٧)البقرة: ٥٠.
(٨)التبيان: ١/٢٢٦-٢٢٧.

فلما استدل علي بن عيسى الرماني على أن ابليس لم يكن من الملائكة لعموم قوله تعالى(جاعل الملائكة رسلا أولي اجنحة مثنى وثلاث ورباع)، وانه تعالى عمها بالوصف بالرسالة، ولايجوز على رسل الله أن يكفروا ويفسقوا،تماما كما هي حال الرسل من البشر. حين قال الرماني ذلك. ضعف الطوسي قوله مبينا ان الآية التي استدل بها معارضة بآية أخرى هي قوله(الله يصطفي من الملائكة رسلا)، وأنه إن كان ظاهر تلك يقتضي العموم . فظاهر هذه يقتضي التخصيص، لأن" من" هنا للتبعيض[١].

وفي تفسير قوله تعالى في صدر سورة البقرة(ذلك الكتاب)[٢]،بين ان من" حمل " ذلك" على أنه اشار به الىالتوراة والانجيل فقد أبطل، لأنه وصفه بأنه (لاريب فيه) وأنه(هدى للمتقين) ووصف مافي ايديهم- يريد اليهود والنصارى- بأنه مغير محرف في قوله(يحرّفون الكلم عن مواضعه)[٣]، وعلى هذا فإن المراد بالكتاب هنا القرآن[٤]دون التوارة والانجيل بدلالة السياق والاية الكريمة.

وهو يستمسك بهذا المنهج القويم في التفسير، حيث يحاول التوفيق بين الآي التي قد يشعر ظاهرها بالتعارض. أو بعبارة أخرى بين الآي التي تعد من المتشابه في اصطلاح المفسرين.

فنراه يقول في بعض المواضع، وقد اصطنع اسلوب" الفنقلة":" فإن قيل : كيف يجمع بين قوله(ولايسأل عن ذنوبهم المجرمون) وقوله(فلنسألن الذين ارسل اليهم)؟ قلنا : فيه قولان: أحدهما أنه نفى أن يسألهم سؤال استرشاد واستعلام، وانما يسألهم سؤال توبيخ وتبكيت. والآخر: تنقطع المسألة عند حصولهم في العقوبة، كما قال: (فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنس ولا جان)، وقال في موضع آخر (وقفوهم إنهم مسؤولون). والوجه ماقلناه: من أنه يسألهم سؤال توبيخ قبل دخلوها في النار، فاذا ادخلوها انقطع سؤالهم".[٥]فجعل معنى الآيتين الاخيرتين دليلا على معنى الأوليين، ثم وفق بينهما ونفى التعارض الذي ظَن أنه بينهما.

ومن هذا الوادي رد الآيات المتشابهات الى الأخر المحكمات، الذي عقد له

---

(١)التبيان: ١/١٩٣.

(٢)البقرة: ٢.

(٣)التبيان: ١/٥٢.

(٤)التبيان ١/٥١.

(٥)التبيان: ٤/٣٤٩.

الطوسي بحثا خاصا عند تفسيره لآية المتشابه في القرآن، وهي الاية السابعة من آل عمران. وبين فيه أنه منهجه في تفسير الآيات المتشابهات أن يردها الى أخواتها المحكمات. ومثل لذلك بأمثلة منها قوله تعالى(ثم استوى على العرش)[1].
فرأى ان الاستواء يحتمل في اللغة أن يكون كاستواء الجالس على السرير، ويحتمل أن يكون بمعنى الاستيلاء، نحو قول الشاعر:

ثمَ استوى بشرٌ على العراق*** من غير سيفٍ ودم مُهْراق

واحد الوجهيت، وهو الاول. لايجوز عليه تعالى لقوله" ليس كمثله شيء" وقوله" لم يكن له كفوا أحد". والاخر يجوز عليه فينبغي ان تحمل الاية عليه. ومنه قوله تعالى(ربنا ولاتحملنا مالا طاقة لنا به).[2]فاحتمل ظاهرة تكليف المشاق واحتمل تكليف مالا يطاق. واحدهما، وهو الثاني: لايجوز عليه لقوله تعالى (لا يكلف الله نفسا الا وسعها)[3]وهذا الذي ذكره قريب ولا مشاحة لنا فيه.

غير إنا لانوافقه في رد قوله تعالى" قل كل من عند الله"[4]بعد اعتباره متشابها الى قوله(ويقولون: هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون)[5]الذي وجد فيه" دلالة على أن المعاصي ليست من عند الله. بخلاف ماتقول المجبرة، ولا من فعله. لأنها لو كانت من فعله لكانت من عنده.."[6]إذ إن الآية التي وردت فيها العبارة الاولى، نزلت ردا على اليهود أو المنافقين- على خلاف في الرواية- ذلك لانهم كانوا، حين قدم النبي(ص) الى المدينة، اذا زكت ثمارهم واخصبوا قالوا: هذا من عند الله واذا اجدبوا وخاست ثمارهم قالوا: هذا لشؤم محمد. فأمر تعالى نبيه أن يقول إن جميع ذلك من عند الله. وهذا مابينه الطوسي نفسه،[7]وسبقه الى بيانه القاضي عبد الجبار في كتابه" تنزيه القرآن عن المطاعن".[8]وهو من القرب بمكان ويعضده تمام الآية وهو قوله تعالى:(وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل

---

(١)الاعراف: ٥٤ يونس: ٣..
(٢)البقرة: ٢٨٦.
(٣)التبيان: ٢/ ٣٩٦-٣٩٧ والاية من البقرة : ٢٨٦.
(٤)النساء: ٧٨.
(٥)آل عمران: ٧٨.
(٦)التبيان: ٢/ ٥٠٩.
(٧)التبيان: ٣/ ٢٦٤.
(٨)القاضي: تنزيه القرآن عن المطاعن ص ١٠٢.

كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا)؟. فلا تعلـــق اللآيـــة إذا بأفعال العباد. وانما هي مخصوصة بما يقدره الله عليهم من الخير والضر. وهــــي محكمة وليست متشابهة لكي نردها الى آية اخرى محكمة لنفسرها بها. وقد التفـت القاضي عبد الجبار لاثبات هذا المعنى التفاتة ذكية، فبين ان قوله" قل كل من عنـــد الله" لوكان متعلقا بخلق افعال العباد. لادعت العرب بتناقض القرآن، لان الله تعـالى يقول في آية اخرى:(ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك مـــن سـيئة فمـن نفسك) وانما عدلوا عن ذلك، لان المراد بالاول المصـــائب والامــراض، وبالثـاني الطاعات والمعاصي. ولذلك أضاف السيئة الى الانسان.[1]

على إن قوله عز وجل (وماهو من عند الله) ليس عاما في كل فعل ليســوغ رد الآية التي عدها الطوسي متشابهة اليه، بل مخصوص بما كان يفعله أهل الكتـــاب من اضافة مايحرفونه ويبدو لونه من الكتاب، الى الله. وبه قال مجاهد وقتادة وابن جريح والربيع ومالك بن أنس، على مانقل الطوسي عنهم.[2]وأول الايـــة صريـح بذلك اذ قال تعالى(وان منهم لفريقا يلوون السنتهم بالكتاب لتحسبوه مـــن الكتـاب وما هو من الكتاب)، ثم قال(ويقولون هو من عند الله وما هو من عنـــد الله..). فلا دلالة فيه إذاً على مابينه الطوسي وأوردناه آنفاً، من أن المعاصي ليســت مــن عند الله، وان كنا لانخالفه في ذلك الأصل دفعا للجـــبر المنــافي للعـدل الالـــهي. وتفصيل مجمل القرآن مظهرٌ آخر لتفسير القرآن بالقرآن، فما أجمـــل فـــي مكـان فصل في آخره ،كما اشرنا اليه سالفا، وقد لمحه الطوسي في قولـــه تعــالى(فأمــا الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من نـــاصرين وأمـــا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم اجورهم والله لايحب الظالمين).[3] وبين أنـــه تفصيل لمجمل قوله تعالى قبل ذلك في مخاطبة النبي عيسى والذين اتبعوه(ثم الـــي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون)،[4]، واول الكلام" على قولك: فيجـازي العباد، أما المؤمن فبالثواب وأما الكافر فبالعقاب".[5]

---

(١)القاضي: تنزيه القرآن عن المطاعن ص ١٠٢.

(٢)التبيان:٥٠٨/٢.

(٣)آل عمران:٥٦-٥٧.

(٤)آل عمران:٥٥.

(٥)التبيان:٤٧٩/٢.

ولم نر الطوسي يفسر القرآن بكتب العهدين القديم والجديد، أو بغيرهما من كتب الاديان السماوية السابقة للاسلام. وهذا يلائم نظرته اصلا لهذه الكتب إذ كان يبين في أكثر من موضع ما دل عليه صريح القرآن من تحريفها وتبديلها على ايدي متبعيها. فليس يمكن والحالة هذه ان يعول عليها في تبيان معاني القرآن الذي تكفل الله تعالى بحفظه من كل تحريف. ولكنا ألفيناه في احد المواضع يرد آية من القرآن الى اخرى في بعض هذه الكتب.. لا ليفسرها بها بل ليستدل على حقيقة تخدم العقيدة الاسلامية، وتكون حجة في موضوعها على من لم يؤمن بها. وذلك مابينه في تفسير قوله تعالى:(إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم).[1].فقال:" وفي الآية حجة على النصارى بما قاله المسيح مما يقرون به أنه في الانجيل من نحو هذا الكلام؛ لأن فيه: أذهب إلى إلهي والهكم" كقوله هنا: (ان الله ربي وربكم).[2]

وبذلك يكون الطوسي أول امامي يفسر القرآن بالقرآن في تفسير كامل.

(٥)

التفسير العقلي والتأويل

المسلمون مجموعون على اعتبار العقل حجة في الامور الدينية، ولم يختلفوا الا في مقدار اعتباره، من حيث تقديمه على السماع المتمثل بالكتاب والسنة أو تأخيره عنه. فالمعتزلة يقدمونه على السماع. وأهل السنة يؤخرونه عنه. يقول القاضي عبد الجبار الهمداني المعتزلي:" يحسن التكليف السمعي بعد التكليف العقلي".[3]ويقول ابو بكر الباقلاني امام أهل السنة في عصره، في معرض كلامه على أدلة التوحيد عند أهل السنة:" والدليل على صحة مذهب أهل السنة والجماعة.. الكتاب والسنة واجماع الامة وأدلة العقول".[4]وهذا مذهب الشيعة ايضا. وقد افصح عنه الشريف المرتضى في بعض رسائله، اذ بين أن الدليل على أن الله لم يفعل افعال العباد، وأن فعل العبد غير فعل الرب: الكتاب والسنة واجماع الامة وحجج العقول".[1] والسماع والعقل كلاهما طريق للعلم عند الطوسي، ومالم

---

(١) آل عمران: ٥١.

(٢)التبيان: ٤٧٢/٢.

(٣)القاضي: متشابه القران ٢٩/١.

(٤)الباقلاني: الانصاف فيما يجب اعتقاده ص ١٤٤.

وحجج العقول".[1] والسماع والعقل كلاهما طريق للعلم عند الطوسي، ومالم يصح أن يثبت من أحد هذين الوجهين باطل لامحالة، لان مالايصح أن يعلم باطل لامحالة".[2]. وكلاهما دليل في معرفة مايجوز وما لايجوز[3] ، وفي أدراك الحسن والقبيح. فالمعروف:" كل ماحسن في العقل فعله او في الشرع، ولم يكن منكرا ولا قبيحا عند العقلاء.[4]

غير إن الطوسي لايخفي ان دلالة العقل قد تقصر عن الحجية، وأن السماع قد ينفرد بها ويدل على مالايدل عليه العقل، كسقوط العقاب عند التوبة فإنه في رأي الشيخ واصحابه الامامية، تفضل من الله، والسماع ورد بذلك، والا فلا دلالة في العقل عليه.[5].

وقد يكون دليل السماع، في نظر الطوسي، مؤكداً لدليل العقل في الحكم كوجوب طاعة الله ورسوله في مثل قوله تعالى (واطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون)، ونفى الشبيه عن الخالق في مثل قوله (ليس كمثله شيء)، وتنزيهه عن الرؤية في مثل قوله(لاتدركه الأبصار). فان ذلك جاء تاكيدا لما في العقل عنده.[6]

ولا يفتأ الطوسي يؤكد في تفسيره اهمية العقل وحجيته، من مثل قوله" والعقل يمنع الاقامة على دعوى بغير حجة" ،وقوله: والعقل طريق العلم فكيف يضل عن الرشد من قد جعل الله اليه السبيل".[7]. وهو يرى ان الاختلاف في ماهية العقل. لايعني اسقاط الاستدلال به. فذلك مايبينه تعليقا على قوله تعالى:(أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وانتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون)[8]اذ يقول: " فإن قيل: اذا كان العقل مختلفا فيه، فكيف يجوز أن يستشهد به؟ قيل : الاختلاف في ماهية العقل لايوجب الاختلاف في قضاياه. ألا ترى أن الاختلاف في ماهية العقل،حتى قال بعضهم معرفة وقال بعضهم قوة،لايوجب الاختلاف في أن الالف أكثر من

---

(١)المرتضى: رسالة انقاذ البشر من الجبر والقدر ص ٧٣.
(٢)الطوسي: التبيان ٤/٣١١-٣١٢.
(٣)التبيان: ٨/٤.
(٤)التبيان: ٦٢/٥.
(٥)التبيان: ٥٢٦/٢.
(٦)التبيان: ٥٨٩/٢- ٥٩٠.
(٧)التبيان: ٤٩٠/٢.
(٨)البقرة: ٤٤.

الواحد، وأن الموجود غير المعدوم، وغير ذلك من قضايا العقل"؟.[١]

ولسنا نزعم أن الطوسي أول من اصطنع المنهج العقلي في تفسير القرآن من الامامية، اذ قد سبقه الى ذلك الشريفان الرضي والمرتضى، ولكنا نزعم أنه أول من ألف تفسيرا كاملا للقرآن منهم سلك فيه هذا المسلك. وليس ذلك بغريب على الطوسي الذي أمضى جل حياته في بغداد، حيث ازدهرت الدراسات العقلية ونمت نموا مطردا. فكان" أكثر من قام بالتفسير العقلي علماء العراق اصحاب مدرسة الرأي في التشريع".[٢].

وكان الطوسي يعلم أن بينه وبين التفسير العقلي بخاصة والتفسير بالرأي بعامة، جداراً سميكاً من الروايات المانعة ظواهرها من ذلك. وهي روايات منقولة عن النبي(ص) والائمة والصحابة والتابعين. فكان لابد له والحال هذه، من ان يقول كلمته في هذه الروايات من أول الطريق. في مقدمة تفسيره، ليمهد بذلك لنفسه السبيل الطويلة التي سيقطعها في بيان معاني كتاب الله، على اساس جديد يضاف الى القديم لدى اصحابه الامامية، الذين لم يألفوا في تفاسيرهم المنهجية المنظمة الا التفسير بالمأثور. لقد كانت خطوة قوية وجريئه. ولذلك استلزمت من الشيخ المجدد هذا البيان الذي يقول فيه:" واعلم أن الرواية ظاهرة في أخبار اصحابنا بأن تفسير القرآن لايجوز الا بالأثر الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله، وعن الأئمة عليهم السلام.. وأن القول فيه بالرأي لا يجوز". ثم يبين أن أهل السنة يروون في ذلك خبرا عن النبي(ص) هو :"مَنْ فسّر القرآن برأيه وأصاب الحق فقد أخطأ"، وأن جماعة من التابعين والفقهاء كرهوا القول في القرآن بالرأي، كسعيد ابن المسيب وعبيدة السلماني ونافع ومحمد بن القاسم وسالم بن عبد الله وغيرهم، وأنه روي عن السيدة عائشة إنها قالت: لم يكن النبي(ص) يفسر القرآن الا بعد أن يأتي به جبرئيل، وكل هذه الاخبار دالة في ظاهرها على عدم جواز التفسير رأي، ولذلك رأي الشيخ أن ظاهرها متروك[٣]، لان الله تعالى قال(انا جعلناه قرآنا عربيا)،[٤] وقال:" بلسان عربي مبين"[٥]وقال: (وما أرسلنا من

---

(١)التبيان: ١/١٠٢.

(٢)شحاتة: القرآن والتفسير ص ١٠٣.

(٣)التبيان: ١/٤-٥.

(٤)الزخرف: ٣.

(٥)الشعراء: ١٩٥.

رسول الا بلسان قومه)،[١]فدل بذلك على أن القرآن ليس من قبيل اللغز والمعمّى الذي لايفهم بظاهره شيء. كيف وقد مدح سبحانه اقواما على استخراج معاني القرآن فقال)لعلمه الذين يستنبطونه منهم)[٢]، وقال في قوم يذمهم اذ لم يتدبروا القرآن ولم يتفكروا في معانيه:(افلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها).؟[٣].

ثم قسم معاني القرآن اربعة اقسام. ورأى أن هذا التقسيم لايهدر تلك الروايات من جهة، ولايمنع من تأويل الآى بالعقل والرأي جملة. من جهة أخرى. يقول: ان معاني القرآن على اربعة اقسام: أولها: ما اختص الله تعالى به، فلا يجوز لأحد تكلف القول فيه ولا تعاطى معرفته، وذلك مثل قوله(يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لايجليها لوقتها إلا هو)[٤]، ومثل قوله(ان الله عنده علم الساعة..)[٥] الى آخرها. فتعاطى معرفة ما اختص الله تعالى به خطأ.

وثانيها: ماكان ظاهره مطابقاً لمعناه. فكل من عرف اللغة التي خوطب بها عرف معناه. مثل قوله تعالى:(ولاتقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق)[٦]ومثل قوله تعالى(قل هو الله أحد)[٧]وغير ذلك.

وثالثها:ماهو مجمل لاينبئ ظاهره عن المراد به مفصلا مثل قوله تعالى(اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة)[٨]ومثل قوله (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا).[٩]وقوله(وآتوا حقه يوم حصاده)[١٠].وقوله(والذين في أموالهم حق معلوم)[١١]وما اشبه ذلك. فإن تفصيل أعداد الصلاة وعدد ركعاتها، وتفصيل مناسك الحج وشروطه، ومقادير النصاب في الزكاة لايمكن استخراجه الا ببيان النبي(ص) ووحي من جهة الله تعالى. فتكلف القول في ذلك خطأ ممنوع منه، ويمكن أن تكون الاخبار متناولة له.

---

(١)ابراهيم: ٤.
(٢)النساء: ٨٣.
(٣)التبيان: ١/ ٤-٥ والاية من سورة محمد: ٢٤.
(٤)الاعراف: ١٨٧.
(٥)لقمان: ٣٤.
(٦)الانعام: ١٥١.
(٧)الاخلاص: ١.
(٨)البقرة: ٤٣، ٨٣، ١١٠، النساء: ٧٧..
(٩)آل عمران: ٩٧.
(١٠)الانعام: ١٤١.
(١١)المعارج: ٢٤.

ورابعها: ماكان اللفظ مشتركا فيه بين معنيين فما زاد عنهما، ويمكن أن يكون كل واحد منهما مرادا، لاينبغي أن يقدم أحد به فيقول: ان مراد الله فيه بعض مايحتمل- الا بقول النبي(ص) أو الامام المعصوم- بل ينبغي أن يقول: ان الظاهر يحتمل لامور. وكل واحد يجوز أن يكون مرادا على التفصيل، والله أعلم بما اراد.[1].

ويرى الدكتور عبد الله محمود شحاته" أننا نستطيع أن نصف[2]الشيخ الطوسي في تبيانه بأنه من رواد المدرسة التي تتبنى التفسير بالمعقول- مالم يصح الاثر ويتواتر-" لبينات خمس ذكرها في كتابه" القرآن والتفسير"[3]وهذا صحيح، وقد نوهنا به سالفا مبينين أنه أول من عني بالعقل من مفسري الامامية الذين الفوا تفسيرا كاملا للقرآن. ولابد لنا بعد أن نفصح عن مظاهر هذا المنهج العقلي الذي اتبعه الطوسي في تفسيره.

يأخذ الطوسي تفسيره بالقياس الشرعي المنصوص عليه، وهو الذي أجازه جماعة من الامامية[4] وسموه" منصوص العلة" وعدوه من القياس الذي لايشك في حجيته.[5]والقول به ضرب من الاستدلال العقلي بالنصوص، على حكم شرعي لانص فيه، لعله ظاهرة تجمع بين المقيس والمقيس عليه. وقد انتصر به الطوسي لبعض عقائد الامامية الشرعية كعدم جواز تزوج الكتابية، الذي يلحظه بدليل قوله تعالى(ولاتنكحوا المشركات حتى يؤمن ولامة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولاتُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون الى النار والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون)[6]فيقول." ولايجوز نكاح الوثنية اجماعا، لأنها تدعو الى النار، كما حكاه الله تعالى. وهذه العلة بعينها قائمة في الذمية من اليهود والنصارى فيجب أن لايجوز نكاحها".[7]. وقد يقيس على مالم ينص على علته، كما في تفسير قوله

---

(١)التبيان ١/٥-٦.

(٢)في الاصل نضع ويبدو أنه خطأ مطبعي.

(٣)شحاته: القرآن والتفسير ص٢٣١-٢٣٣. وفيه بحث خاص عن تفسير الطوسي.

(٤)وذهب كثير من اعلامهم الى أن القياس المنصوص العلة ليس بقياس .انظر الحكيم: الاصول العامة للفقه المقارن ص ٣٣٠-٢٣١.

(٥)الحيدري: اصول الاستباط ص ٢٣٦.

(٦)البقرة: ٢٢١.

(٧)التبيان: ٢١٨/٢.

تعالى في أمر المشركين:(فان انتهوا فان الله غفور رحيم)[١]،اذ يقيس قبول توبة القاتل عمدا، على قبول توبة المشرك قياسا شرعيا بطريق" الأولوية"؛ لبداهة أن الحكم اذا ماجرى على ماهو أولى كان على مادونه أولى. على مايقرره الاصوليون. وهذا هو الذي يسمونه" مفهوم الموافقة" أو " قياس الأولوية"، وهو ماكان الجامع فيه للحكم بالفروع، اقوى واوكد منه في الاصل.[٢]وعده الغزالي في " المستصفى" من المسالك الصحيحة في علة القياس، ومما كانت العلة مدلولة فيه بالدلالة الالتزامية.[٣] يقول الطوسي في تفسير الاية الكريمة: وفي الاية دلالة على أنه يقبل توبة القاتل عمدا؛ لأنه بيَن أنه يقبل توبة المشرك، وهو أعظم من القتل، ولا يحسن أن يقبل التوبة من الاعظم ولا يقبل من الأقل"[٤].

ولعل من هذا الوادي ما أورده في تفسير قوله تعالى:(ربنا لاتؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا)[٥]، اذ بين أن جعفر بن مبشر المعتزلي يرى أنه" يجوز أن يؤاخذ الله العبد بما يفعله ناسياً، أو ساهياً ولكن تفضل بالعفو في قوله(لايكلف الله نفسا الا وسعها). ورأى ان هذا غلط"؛ لأنه كما لم يجز تكليف فعله ولا تركه، لم يجز أن يؤاخذ به".[٦]. فقاس، في تخطئته له، عدم المؤاخذة، على عدم التكليف بفعل النسيان والسهو وتركهما.

ومنه القياس الذي دلالته الايماء والتنبيه، وهي الدلالة المقصودة للمتكلم. وقد ذكره الغزالي ايضا.[٧]ومثاله في تفسير الطوسي ما أورده في الاية الكريمة.(فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ان كنتم بآياته مؤمنين)؛[٨]فقال:" وهذا التحليل عام لجميع الخلق، وان خص به المؤمنين بقوله:" ان كنتم بآياته مؤمنين" لان ماحلل الله للمؤمنين، فهو حلال لجميع المكلفين. وما حرم عليهم حرام على الجميع". [٩]فقاس حلية المذبوح من المطعومات لجميع المكلفين، على حليته لجميع

---

(١)البقرة:١٩٢.
(٢)الحكيم: الاصول العامة للفقه المقارن ص٣١٧.
(٣)الغزالي: المستصفى من علم الاصول ٢/٢٧٤ وانظر الحكيم الاصول العامة للفقه المقارن ص٣١٦.
(٤)التبيان:٢/١٤٦.
(٥)البقرة:٢٨٦.
(٦)التبيان ٢/٣٨٥.
(٧)الغزالي: المستصفى من علم الاصول ٢/٢٧٤. وانظر الحكيم: الاصول العامة للفقه المقارن ص ٣١٧.
(٨)الانعام:١١٨.
(٩)التبيان ٤/٢٥٢.

المؤمنين، بعد ان استنبط من النص الكريم ان العلة في حله، ذكر اسم الله عليه.
وهذا كله يعزز قول من قال إن الطوسي كان يقيس في كتبه الفقهية قياسا شرعيا.

وقد يقيس الطوسي النظير على النظير قياسا عقليا، وهو يفسر الآى ، لينتهي الى المعنى الذي يراه. يقول في وقوفه عند الآية الكريمة:(ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون).؟[1]: أراد الله بهذا الاحتجاج عليهم أن يبين أن سبب مجيء الآيات، ليس لأنه يؤدي الى ايمان هؤلاء، وانما مجيؤها لما فيها من اللطف والمصلحة. بدلالة أنها لو كانت سببا لايمان هؤلاء، لكانت سببا لايمان أولئك. فلما بطل أن تكون سببا لايمان أولئك. بطل أن تكون سببا لايمان هؤلاء على هذا الوجه".[2]

ويقول في تفسير قوله تعالى: (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون)[3]" ثم أخبر تعالى أنه لم يرسل قبل نبيه محمد(ص) الى الامم الماضية" الا رجالا نوحى اليهم". ووجه الاحتجاج بذلك أنه لو كان يجب أن يكون الرسول الى هؤلاء الناس من غير البشر، كما طلبوه، لوجب أن يكون الرسول الى من تقدمهم من غير البشر. فلما صح ارسال رجال الى من تقدم، صح الى من تأخر".[4]فهذا مظهر لاستخدام العقل في فهم النص القرآني وتبيان معانيه عند الطوسي.

وهناك مظهر آخر يتصل بتفسير المفردات القرآنية، وهو أنالطوسي كثيرا مايحدد هذه الالفاظ تحديدا منطقياً كلامياً، بوحي من ثقافته الواسعة في علم الكلام. فيقول مثلا حين يفسر قوله تعالى:(الا الذين تابوا واصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم)[5]:" واصلاح العمل: هو إخلاص له من قبيح يشوبه. والتبيين:هو التعريض للعلم الذي يمكن به صحة التمييز".[6].

وربما حمله الموقف العقلي والكلف بهذا التحديد المنطقي الى عدم الوقوف عند ماوقف عنده القرآن ، وأشعر بصريح خطابه أن السكوت عليه واحب لحكمة

---

(١)الانبياء:٦.
(٢)التبيان:٧/٢٣١.
(٣)الانبياء:٧.
(٤)التبيان:٧/٢٣١-٢٣٢.
(٥)البقرة:١٦٠
(٦)التبيان:٢/٤٩.

أو لمصلحة تتعلق بالمخاطبين، فالقرآن لم يبين ماهية الروح، بل عد ذلك من أمور الغيب التي لاتدركها العقول، ولاتنالها الاوهام. ووكل العلم بحقيقتها الى الله وحده. وعد الانسان قاصرا عن العلم بماهيتها والاحاطة بكنهها حين قال:(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم الا قليلا)[١].وعند هذا البيان الالهي وقف اكثر المفسرين ولاسيما من كان منهم من الصحابة والتابعين. فلم يُعلموا العقل في تفسيرها او تحديد مفهومها. غير أن أبا جعفر الطوسي حاول أن يتعقل حقيقة الروح وان يضع لها حدا، بل وصفا لحالاتها المتباينة، متابعا في ذلك بعض مفسري المعتزلة كالرماني، الذي حدد الروح بأنها" جسم رقيق هوائي على بنية حيوانية، في كل جزء منه حياة".[٢]. فقال الطوسي وهو يفسر قوله تعالى:(فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)[٣]:" الروح: جسم رقيق روحاني فيه الحياة التي بها يجيء الحي. فاذا خرجت الروح من البدن كان ميتا في الحكم. فاذا انتقلت الحياة من الروح فهو ميت في الحقيقة".[٤]وقال في موضع اخر من تفسيره:" الروح: جسم رقيق هوائي بها يتم كون الحي حيا، لتخرقه في مخارق الانسان. وهو مشتق من الريح،[٥]واحسب أن اصل اشتقاق الروح لايمكن القطع به أيضا، بعد أن غمض الفرع ولطف على مابيناه آنفا، بدلالة الآية الكريمة، آية الروح.

وكأن الطوسي استصوب، حين اعتمد على العقل في تفسير الروح، قول من قال" انهم لم يجابوا عن الروح لان المصلحة اقتضت أن يحالوا على مافي عقولهم من الدلالة عليه، لما في ذلك من الرياضة على استخراج الفائدة، وأن ماطريقه السمع فقد أتى به وما طريقه العقل فأنما يأتي به مؤكدا لما في العقل، لضرب من التأكيد ولما فيه من المصلحة".[٦]. وكأن هذا لم يكن عنده من المتشابه الذي لايدرك بالرأي والتفكير الذاتي، مع انه جعل وقت الساعة، كما اسلفنا، مما اختص

---

(١)الكهف:٨٥.
(٢)التبيان:٦/٥١٥.
(٣)الحجر:٢٩.
(٤)التبيان:٦/٣٣٢.
(٥)التبيان:٦/٥٨٠.
(٦)التبيان:٦/٥١٥.

الله بالعلم به،ولايجوز لاحد تكلف القول فيه. ومثل له بقوله تعالى(يسألونك في الساعة أيان مرساها قل انما علمها عند ربي لايجليها لوقتها الاهو"[١] وقوله (ان الله عنده علم الساعة).[٢]. وختم ذلك بالقول: فتعاطى معرفة ما اختص الله به خطأ.[٣] ولاشك أن ماهية الروح نظير وقت الساعة في الخفاء وتجاوز حدود المعرفة الانسانية، بدلالة النصوص القرآنية التي ورد فيها ذكرهما فالتوقف في أحدهما دون الاخر لاوجه له.

والكلام يسلمنا لرأي الطوسى في فواتح السور. هل عدها من المتشابه الذي لايعرف معناه، أو التمس لتفسيرها الوجوه المبنية على مدارك العقل والنظر؟ وفي الجواب عن هذا نقول: ان الطوسي لم يعد هذه الحروف من المتشابه، وأنما اشار الى انها كذلك في اخبار الامامية. وحتى لوعدها منه، لما توقف عن تأويلها لانه يرى أن المتشابه يعلم تأويله الله والراسخون في العلم.[٤]ولهذا اختار مما قيل في تأويله رأي الحسن البصري وعبد الرحمن بن زيد، من "انها اسماء للسور خص الله تعالى بها بعض السور.. كما قيل للمعوذتين: المشقشقتان، أي تبرئان من النفاق، وكما سميت الحمد أم القرآن وفاتحة الكتاب"[٥]. وهو اختيار القاضي عبد الجبار،ايضا،[٦]الذي عد هذه الحروف من المحكم[٧]. على حين عدها ابن قتيبة من المتشابه[٨]، وبين أن بعضهم يجعلها أسماء للسور تعرف كل سورة بما افتتحت به منها"، وذكر وجوها اخرى في تأويلها دون أن يرجح واحدا منها، بل جعل لكل مذهب منها وجها حسنا، وتمنى: ألا يكون ماأريد بالحروف خارجا منها".[٩]

ولم يأخذ الطوسي بأخبار الامامية التي تفيد" إن ذلك من المتشابه الذي لايعلم تأويله الا الله".[١٠]وهو الذي يراه" الأكثرون من الصحابة والتابعين واتباعهم، ومن

---

(١)الاعراف:١٨٧.
(٢)لقمان:٣٤.
(٣)التبيان:٥/١.
(٤)التبيان٣٩٩/٢.
(٥)التبيان٤٨/١.
(٦)القاضي: متشابه القرآن١٦/١-١٧.
(٧)القاضي: متشابه القرآن١٦/١.
(٨)ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن ص١٠٢.
(٩)نفسه ص ٢٩٩-٣٠٠.
(١٠)التبيان٤٨/١.

بعدهم ولاسيما أهل السنة.. وهو أصح الروايات عن ابن عباس[1]ونحن الى هذا الرأي أميل لتضافر الروايات على صحته. ولأن الرأي الذي يجيز تفسير هذه الحروف لايخلو من مجازفة.[2].

واذا كان هذا صنيع الطوسي في بعض الالفاظ المفردة في القرآن. كذلك هو في بعض التراكيب، فاذا نراه يسلك هذا الاتجاه العقلي في تفسيرها، ويعطي العقل مكانه في الكشف عن المعنى المراد منها. مثال ذلك عبارة " كل شيء" في قوله تعالى (فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا اخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون)[3]لايراد بها العموم الذي يدل عليه الظاهر بل يراد بها الخصوص وموضوعه التكثير. كما في قوله:(وأوتيت من كل شيء). وقوله(ولقد أريناه آياتنا كلها)، وكقول القائل: أكلنا عند كل شيء، ورأينا منه كل خير. وكما يقال: هذا قول أهل العراق وأهل الحجاز، ويراد به قول أكثرهم. فكل ذلك يراد به الخصوص وموضوعه التكثير والتفخيم. والدليل على ذلك العقل الذي يعلمنا في الجملة أن هذه الآية مخصوصة. غير أنه" لاينبغي أن نعتقد فيها تخصيص شيء بعينه، وليس علينا أكثر من أن نعتقد انهم أوتوا خيرا كثيرا، وفتح عليهم أبواب اشياء كثيرة كانت مغلقة عليهم"[4].

غير أن الطوسي لايكتفي بهذا البيان العقلي للآية، بل هو يريد نقاشا بينه وبين معترض على هذا التأويل- يفترضه – سالكا في تأملاته العقلية المنهج العلمي الذي يحسب لكل شيء حسابه، ويضع نصب عينيه احتمالات المعارضة والمحاججة. وهو يجري النقاش هنا، كما هي الحال في عدة مواضع، بأسلوب" الفنقلة" الذي هو مظهر عقلي في صياغة مادة تفسيره . ليدافع عن وجهة نظره في استبعاد التأويل الذي رآه الخصم جاعلا العقيدة هي المناط في هذا الاستبعاد،بحسب ما استقرت لديه أصولها. فنراه يقول:" فان قيل: الذي يسبق الى القلوب غير ما تأولتم عليه، وهو أن الله انما فتح عليهم أبواب كل شيء ليفرحوا ويمرحوا ليستحقوا العقاب. قلنا: الظاهر وان كان كذلك، انصرفنا عنه بدليل كما انصرفنا عن قوله(الرحمن على العرش استوى) وعن قوله:(وجاء ربك) وعن

---

(١) السيوطي: الاتقان في علوم القرآن ٢/٣.

(٢) قارن بالشوكاني: ارشاد الفحول ص٣٠.

(٣)الانعام: ٤٤.

(٤)التبيان ٤/١٣٧-١٣٨.

قوله(أأمنتم من في السماء) فكما يجب أن نترك ظاهر هذه الآيات وان كان ظاهرها التشبيه، فكذلك ترك ماظاهره يوجب اضافة القبيح اليه وينافي عدله".[1]

ومراده إن حمل الآية على العموم يوحي بان الله سبحانه جرأهم على المعاصي حين فتح لهم أبواب كل شيء من النعم والخيرات بلا حدود. وهل هذا الا الظلم الصراح الذي ينزه عنه الخالق العادل. وإذا لابد من تخصيص الآية بدليل العقل الذي يأبى مايدل عليه العموم الذي يشعر به الظاهر. لئلا يفوت المعنى السليم.

وهذا الموقف العقلي في التفسير جعل الطوسي يحمل مايصدر عن عناصر الطبيعة الحية والجامدة من أفعال العقلاء- مما لاصلة له بمعجزات الانبياء- على معان تناسب تكوين هذه المخلوقات. فيؤول تسبيح السموات والارض والطير في قوله تعالى: (ألم تر أن الله يسبح له ما في السموات والارض والطير صافات كل قد عليم صلاته وتسبيحه والله عليهم بما يفعلون).[2]يؤوله بما يطلق عليه أحيانا اسم التسبيح التكويني، الذي يعني دلالة هذه المخلوقات على وجود مكوناها ووحدانية البارئ لها، بتكوينها وهيئاتها. فلا يحمله على التسبيح الحقيقي الذي هو من تعبد العقلاء، بل يؤوله قائلا:" وتسبيح من في السموات والارض انما هو بما فيها من الدلالات على توحيده ونفي الصاحبة عنه، ونفي تشبيهه بخلقه وتنزيهه عما لايليق. مما يدل على ذلك ويدعو اليه. كأنه المسبح له. وقوله(والطير صافات)، معناه: وتسبحه الطير صافات في حال اصطفافها في الهواء؛ لانها اذا صفت اجنحتها في الهواء وتمكنت من ذلك، كان في ذلك دلالة وعبرة على أن ممكنها من ذلك لايشبه شيئا من المخلوقات".[3]وهذا التأويل مبني على قاعدة عدم تكليف غير العقلاء من البهائم والطيور، التي يؤمن بها الطوسي ويدافع عنها ويحتج لها بعدم تكليف الصبيان. فيقول في موضوع من تفسيره: "وكيف يصح تكليف البهائم والطيور، وهي غير عاقلة، والتكليف لايصح الا لعاقل ؟ على أن الصبيان اعقل من البهائم. ومع هذا فليسوا مكلفين. فكيف يصح تكليف البهائم"؟. [4]وهو قياس بالأولوية كما ترى.

---

(١)التبيان : ٤/١٣٨.
(٢)النور: ٤١.
(٣) التبيان ٧/٤٤٥.
(٤)التبيان: ٤/١٢٩-١٣٠.

وقريب من هذا دعاء الجماد، فهو في نظر الطوسي، قبيح ولوتعلق الامر بالاعجاز. ولذلك أول دعوة الطير في قوله تعالى في مخاطبة ابراهيم(قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم ان الله عزيز حكيم)[1]، اولها بالاشارة اليها والايماء لتقبل عليه اذا احياها الله.[2]ولكي يستقيم له هذا التأويل قدر في الكلام حذفا" فكأنه قال" :فقطعهن واجعل على كل جبل منهن جزءا، فان الله يحييهن. فاذا احياهن فادعهن يأتينك سعيا. فيكون الايماء اليها بعد أن صارت احياء لأن الايماء الى الجماد لايحسن".[3]. ولاحاجة، فيما نرى، الى هذا التقدير الذي لايدل عليه الظاهر؛ لأنه " اذا صح حمل الكلام على ظاهره من غير حذف كان أولى من تقدير محذوف منه من غير ضرورة" على مايقرره الطوسي في موضع آخر.[4]. والمعنى على خلاف ماذكره هنا اقوى ،لان احياء الاجزاء المقطعة واحالتهن الى طيور بمجرد دعوتهن، أدل على قدرة الله على البعث والنشور وابهر في باب الاعجاز ، فضلا عن أن الكلام الذي قدره الطوسي كثير، وقد بناه على شرط وجواب لايحتمله الظاهر الا بضرب من التكلف. ولايحول دون ماقلناه هذه القاعدة العقلية التي يأخذ بها المتكلمون من أن" دعاء الجماد قبيح " لانا لانجد لها اعتبارا حين يتعلق الأمر بالمعجزات بل لعل العكس هو الصحيح هنا، اذ يحسن ذلك أظهاراً لقوة الدليل وسطوع البرهان.

ونفى التعارض بين آي القرآن ، مظهر آخر لمنهج الطوسي العقلي في تفسيره فهو كمتكلم لايعني يدفع عن الكتاب المبين كل شبهة يمكن أن ترد عليه، ويجعلها الخصم قادحة في معانيه أو مبانيه. وقد بدأ الطوسي ذلك من أول الطريق فوق – في مقدمة تفسيره- بين الآي الدالة على المحكم والمتشابه في القرآن بما يدفع التهمة ويزيل الشبهة. فقال:" فان قيل: كيف تقولون ان القرآن فيه محكم ومتشابه، وقد وصفه تعالى بأنه اجمع محكم، ووصفه في موضع آخر بأنه متشابه. وذكر في موضع آخر أن بعضه محكم وبعضه متشابه، كما زعمتم، وذلك

---

(١)البقرة: ٢٦٠.
(٢)التبيان: ٢/ ٣٣٠.
(٣)التبيان ٢/ ٣٣٠-٣٣١.
(٤)التبيان ٢/ ٥٥٣

نحو قوله(الـر.كتاب أحكمت آياته) وقال في موضع آخر(هو الـذي أنـزل عليـك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات). وهـل هـذا الا ظـاهر التناقض؟؟. قلنا : لاتناقض في ذلك، لان وصفه بأنه محكم كله المراد به أنه بحيث لايتطرق عليه الفساد والتناقض والاختلاف والتباين والتعارض. بل لاشيء منـه الا وهو في غاية الاحكام، اما بظاهره أو بدليله على وجه لامجـال للطـاعنين عليـه ووصفه بأنه متشابه أنه يشبه بعضه بعضا في باب الأحكام الذي اشرنا اليه، وأنـه لاخلل فيه ولا تباين ولاتضاد ولا تناقض. ووصفه بـأن بعضـه محكـم وبعضـه متشابه، مأشرنا اليه[1]من أن بعضه يفهم المراد بظاهره فيسمى محكما . ومنه مـا يشتبه المراد منه بغيره. وان كان على المراد والحق منه دليل. فلا تناقض في ذلك بحال".[2]ومثل هذا كثير في تفسيره.[3].

والطوسي الفقيه المجتهد، شيخ الامامية على الاطلاق، يسـلك فـي تفسـيره مسالك الفقهاء والمجتهدين في استنباط احكام فقهيـة مـن الآى بطريقـة عقليـة اجتهادية فهو يرى مثلا في قوله تعالى:(ولأمـة مؤمنة خير مـن مشـركة ولـو أعجبتكم)[4]، دلالة على جواز نكاح الأمة المؤمنة مع وجود القدرة الماليـة علـى نكاح الحرة.[5] . وفي تفسير قوله تعالى(واذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعِ اذا دعان)[6] يتساءل قائلا: هل يجوز أن تكون اجابة الدعـاء ليسـت ثوابا للداعي؟.. ويجيب عن ذلك بأن أبا على الجبائي كان يقول لاتكون الا ثوابـا. لان من أجابه الله يستحق المدح في دين الله، فلا يجوز أن يجيب كافرا ولا فاسـقاً. وأن أبا بكر بن الاخشيد- وهو من المعتزلة ايضا- كان يرى أن الاجابة قد لاتكـون ثوابا، اذ يجوز في العقل أن يستجيب الله لغير المؤمن على وجه الاستصلاح له. ثم يرجح هذا القول المبني على اساس عقلي فيقـول:" وهـذا الوجـه أقـرب الـى الصواب".[7].

---

(١)اشار اليه عند تعريفه المحكم والمتشابه في ١/٩-١٠.
(٢)التبيان ١/١١.
(٣)انظر مثلا ١/١٢٧و١١٥/٥ من التبيان.
(٤)البقرة:٢٢١.
(٥التبيان:٢/٢١٨.
(٦)البقرة:١٨٦.
(٧)التبيان ٢/١٢٩-١٣٠.

ولعل أظهر دلالة على نزعة الطوسي العقلية في الفقه، رأيه في تصوير ذوات الارواح وخاصة تجسيمها. اذ اجتهدا فيه إجتهادا خالف فيه جميع من تقدمه من علماء الامامية، بأن جعله مكروها لامحرما، وأول الحديث الذي يدل ظاهره على التحريم، وذلك حين فسر قوله تعالى:(واذ واعدنا موسى اربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون).[1]فقال:" ومعنى قوله:" ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون": أي اتخذتموه الها. لأنه بنفس فعلهم لصورة العجل لايكونون ظالمين، لأن فعل ذلك ليس بمحظور وانما هو مكروه. وما روي عن النبي(ص) ان لعن المصورين، معناه: من شبه الله بخلقه أو اعتقد فيه أنه صوره. فلذلك قدر الحذف في الآية، كأنه قال: اتخذتموه آلهاً. وذلك انهم عبدوا العجل بعد موسى".[2].

ويبدو رأي الطوسي هنا على جانب كبير من الحداثة، اذ هو موائم لوجهة النظر العامة في صنع التماثيل، لتلك الوجهة التي لاترى اليوم بأسا في صنعها باعتبارها فنا لاعلاقة له بالعقائد التي كانت سائدة في تلك العصور الخالية التي كان الانسان يتخذ فيها التماثيل آلهة يعبدها من دون الله.

والاستدلال الفلسفي في معالم المنهج العقلي لدى الطوسي في تفسيره. فهو لايعدم استنباط قضايا فلسفية من الآي حين يعرض لها بالتفسير، سالكا مسلك الفلاسفة في اساليب الاستدلال واستعمال المصطلحات. كالعدم والوجود والجواهر والاعراض والصحيح والفاسد والتسلسل والحدوث والازلية وغيرها. وهذا يرجع في الاصل الى عنايته بعلم الكلام، الذي يعتمد، فيما يعتمد، على الفلسفة ومقدماتها وقضاياها في عرض المسائل التي يعنى بها. ومن مثله ما أورده في قوله تعالى:(ياايها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم).[3]اذ بين ان " في الاية دلالة على أن المعدوم يسمى شيئا، لان الله تعالى سمى الزلزلة يوم القيامة شيئا وهي معدومة اليوم"[4]وفي تفسير قوله تعالى:(ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين).[5]. يقول في تركيب الانسان:" وفي الآية دلالة على أن الانسان هو هذا الجسم المشاهد، لأنه المخلوق من نطفة

---

(١)البقرة: ٥١.
(٢)التبيان: ١/٢٣٦-٢٣٧.
(٣)الحج: ١.
(٤)التبيان: ٧/٢٨٨.
(٥)المؤمنون: ١٢-١٣.

والمستخرج من سلالة، دون مايذهب اليه قوم من أنه الجوهر البسيط. أو شـــيء لايصح عليه التركيب والانقسام على مايهب اليه مُعمّر وغيره".[١]

ولايكتفي الطوسي في هذا الاتجاه العقلي بالاستدلال، بل هو يلج ابواب النقـاش الكلامي لمشاهير المتكلمين من المعتزلة كابي القاسم البلخي وغيره. وآيـــة ذلـك مانجده في تفسير قوله عز وجل(ان ربكم الله الذي خلق الســموات والارض فـي ستة ايام ثم استوى على العرش)[٢]اذ ناقش فيه البلخي فقال: واختـــار البلخـــي أن يكون خلق السموات والارض في ستة ايام، خلقه لها دفعة واحدة ليس ممكنا. كمـا لايمكن الجمع بين الضدين ولايمكن الحركة الا في المتحرك. وهذا الذي ذكره غـير صحيح، لان خلق السموات والارض خلق الجواهر واختراعها. والجواهر لاتختـص بوقت دون وقت ، فلا حال الا ويصح اختراعها فيه، مالم يكن فيما لم يزل. وانمـــا يصح ماذكره في الاعراض التي لايصح عليها البقاء، أو مايستحيل جمعه للتضـــاد، فأما غيره فلا يصح ذلك فيه.[٣]

ويورد الوسي شبهة ابليس التي جعلته يستكبر عن السجود لأدم، ثـم يفندهـا كلاميا ، وذلك في وقوفه عند قوله تعالى:(واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فســـجدوا الا ابليس قال أأسجد لما خلقت طينا)؟[٤]اذ يبين ان ابليس" لما اعتقد ان النار أكـرم اصلا من الطين، جاء منه أنه أكرم اصلا من الطيـــن، وذهـب عليـه بجهلـه أن الجواهر كلها متماثلة، وأن الله تعالى يصرّفها بالأعراض كيف يشاء مع كرم جوهر الطين وكثرة مافيه من المنافع التي تقارب منافع النار أو توفـــى عليـــها[٥]: فـــهذا تأويل كلامي للنص لاعهد لنا به في تفاسير الامامية السابقة لتفسير الطوسي وهـو مظهر لاتجاه الطوسي العقلي في التفسير.

وهناك مظهر آخر مهم نختم به كلامنا على التفسير العقلـــي والتـأويل عنـد الطوسي، ذلك هو العناية بمسائل العلم التي تتصل بالطبيعة وما فيها من عنـــاصر وظواهر. اذ نراه يقف عند الآي التي وتصفها وتتحدث عنها وقفات عقلية تمـــس قضايا العلم الطبيعي. فهو مثلا يقرر اذ يفسر قوله تعالى:(ان في خلـق الســموات

---

(١)التبيان:٧/٣٥٣.

(٢)يونس:٣.

(٣)التبيان ٥/٣٣٦.

(٤)الاسراء:٦١.

(٥)التبيان:٦/٤٩٦.

والارض واختلاف الليل والنار لآيات لأولي الالباب).[1]مانص عليه القرآن وايده العلم الحديث، من أن الاجرام السماوية لاتعتمد في ثباتها في الفضاء اللانهائي على شيء مادي مَحض. ويصوغ هذه الحقيقة صياغة فلسفية منطقية فيقول:" لو كانت السموات والارض معتمدة على غيرها، لكان ذلك الغير يحتاج الى مايعتمد عليه. وفي ذلك اثبات مالا يتناهى من الاجسام، وذلك محال".[2]وفي تفسير قوله تعالى:(خلق السموات والارض بغير عمد ترونها والقى في الارض رواسي ان تميد بكم)[3]يقول الطوسي:" لأنها لو كان لها عمد لكانت أجساماً عظيمة حتى يصح فيها اقلال(حمل) السموات. ولو كانت كذلك لاحتاجت الى عمد آخر، فكان يتسلسل. فاذاً لاعمد لها، بل الله تعالى أمسكها حالا بعد حال بقدرته التي لاتوازيها قدرة قادر".[4].

وبوحي من هذا الاستدلال العقلي العلمي، يستبعد الطوسي كل رأي لايلائم الواقع، ولو كان مأثوراً عمن يثق بهم من المفسرين كمجاهد الذي استبعد قوله في أن معنى قوله تعالى" بغير عمد ترونها"أي : لها عمد لاترونها، مبينا أن " هذا فاسد، لانه لوكان لها عمد، لكانت أجسامنا عظيمة. لأنه لايقل(يحمل) مثل السموات والارض، الا مافيه الاعتمادات العظيمة. ولو كانت كذلك لرُئيت، وكان يؤدي الى ماذكرناه من التسلسل".[5] يريد: لكان لها أعمد ترفعها الى منا لانهاية له. وهذا محال.

على أن الطوسي لايقطع في قضايا العلم الطبيعي التي تثيرها الآي برأي في كل حال، بل نراه في بعض المواضع محتاطاً، يتوقف عن الإدلاء برأي ليس عليه دليل قاطع من عقل او سماع. الا أنه لايعدم في هذا الموقف أن يحتمل ماهو الصواب مما يقره العلم اليوم ولا يرى غيره. فقوله تعالى(وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض).[6]يثير لدى الطوسي سؤالا وجوابا يتعلقان بحقيقة السحاب وتكونه ، هل هو بخارات تصعد في جو السماء، أو شيء

---

(١)آل عمران: ١٩٠.
(٢)التبيان: ٣/٧٩.
(٣) لقمان: ١٠
(٤)التبيان: ٨/٢٧٣.
(٥) التبيان: ٨/٢٧٣
(٦)البقرة: ١٦٤.

غير هذا؟ فيقول:" فان قيل: هل السحاب بخارات تصعد من الارض؟ قلنا: ذلك جائز ولايقطع به، ولا مانع ايضا من صحته من دليل عقل أو سمع".[1].

والطوسي من أقدم من قال بكروية الارض من المفسرين. وقد رد على أبي على الجباني الذي أنكر كرويتها بدعوى أن " الكرة لاتكون مبسوطة، والعقل يدل أيضا على القطع ببطلان قولهم، لأن الارض لايجوز أن تكون كروية مع كون البحار فيها، لأن الماء لايستقر الا فيما له جنبان يتساويان، لأن الماء لايستقر فيه كاستقراره في الأواني. فلو كانت ناحية في البحر معتلية على الناحية الاخرى، لصار الماء من الناحية المرتفعة الى الناحية المنخفضة".فعلق الشيخ على ذلك قائلا" وهذا لايدل على ماقاله، لأن قول من قال:" الارض كروية، معناه أن لجميعها شكل الكرة".[2]وقد ذكر ذلك حين فسر قوله تعالى:(الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء).[3] .

واذا صادم المنقول أصلاً من أصول العقيدة الاسلامية كتنزيه الانبياء والملائكة المرسلين وعصمتهم، رده الطوسي وضعفه بأدلة معتبرة متنوعة. أكثرها عقلية ومنها نقلية ولغوية، فضلا عن الرجوع الى النص القرآني وتحكيمه في تلك المنقولات. ففي وقوفه عند قوله تعالى: (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب)[4]،بين أن الجسد المذكور في الآية، في قول ابن عباس، شيطان اسمه صخر،[5] وفي قول مجاهد:آصف، وفي قول السدي خنفيق، وقد استولى على ملك سليمان، بعد أن أذنب سليمان ونزع الله منه الخاتم الذي كان ملكه فيه. فلما صار في يد الشيطان، اجتمعت عليه الجن والشياطين. ثم نقل بعد ذلك قولين في ماهية هذا الذنب المزعوم[6].

ولم يسكت الطوسي على هذا الافتراء الذي ألصق بنبي من أنبياء الله، بل انبرى يفنده بالدليل العقلي،وواقع التعبير القرآني. فيقول:" والذي قال المفسرون من أهل الحق، ومن نزه الانبياء عن القبائح، ونزه الله تعالى عن مثل ذلك، هو أنه

---

(١)التبيان: ٥٨/٢. وفي الاصل:" ولا سمع" . وما اثبتناه هو الملائم لمعنى الكلام.
(٢)التبيان:١٠٢/١-١٠٣.
(٣)البقرة:٢٢.
(٤)سورة ص:٣٤.
(٥)انظر هذه الرواية والاخرى التي عن مجاهد في تفسير الطبري ١٥٦/٢٣- ١٥٧ طبعة الحلبي الثانية.
(٦)التبيان:٥٦١/٨-٥٦٢.

لايجوز أن يمكّن الله تعالى جنيا ليتمثل في صورة نبي، لما في ذلك من الاستبعاد وأن النبوة لاتكون في الخاتم، وأنه تعالى لايسلب النبي نبوته.وليس في الآية شيء من ذلك، وانما قال فيها:" انه ألقى على كرسيه جسدا".[1] .

وفي تفسير قوله تعالى:(وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرّ راكعا وأناب. فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب).[2]بين الطوسي أن الله سبحانه عفر لداود اذ استغفر ربه وتاب اليه، بعد أن حكم لأحد الخصمين اللذين طلبا حكومته قبل أن يستمع الى الخصم الاخر. فكان بعمله هذا- عنده- تاركا لأمر مندوب، وليس مقترفا لاثم أو خطيئة. ثم أورد قصتين حكاهما القصاص في هذا الموضوع. احداهما تقول: إن داود أرسل قائده اوريا بن حيان لبعض الغزوات لعله يُقتل فيتزوج زوجته، التي وقع بحبها في قلبه حين احتكما اليه في أمر أهمهما. والأخرى تقول: أنه خطب امرأة كان حبها هذا القائد ودخل في سومه، فاختاره أهلها وفضلوه عليه، فعاقبه الله على ذلك.[3].

ولم يسكت الشيخ على هاتين القصتين، وانما استبعدهما جميعا وضعفهما على اساس من العقيدة الاسلامية التي تنزه الانبياء عن أن ينزلوا الى هذا الدرك الذي قد يتسامى عنه عامة الناس، ولا يليق بمقام النبوة الرفيع.. فقال:" وأولى الوجوه ماقدمنا: أنه ترك الندب فيما يتعلق بأدب القضاء، لأن باقي الوجوه ينبغي أن ينزه الانبياء عنها؛ لأنها تنفَر في العادة عن قبول اقوالهم".[4]

ولم يكتف الشيخ بهذا البيان بل شن حملة شديدة على القصاص الذين يتناقلون مثل هذه القصص. ووسمهم بالجهل لتحديثهم بما لايصح ولا يليق، وليس له سند من العلم، فقال:" فأما مايقول بعض الجهال من القصاص: إن داود عشق امرأة أوريا، وأنه أمره بأن يخرج الى الغزو، وأن يتقدم امام التابوت، وكان من يتقدم التابوت من شرطه ألا يرجع الى أن يغلب أو يُقتل، فخبر باطل موضوع، وهو مع ذلك خبر واحد لا اصل له. ولا يجوز أن تقبل أخبار الآحاد فيما يتضمن في الانبياء ما لايجوز على أدون الناس فان الله نزههم من هذه المنزلة، وأعلى قدرهم منها.

---

(١)التبيان:٨/٥٦٢.
(٢)سورة ص٢٤-٢٥.
(٣)التبيان ٨/٥٥٤.
(٤)التبيان:٨/٥٥٤.

وقال الله تعالى(الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس)[1]وقال) ولقد اخترنـاهم على علم على العالمين)[2]. فكيف يختار تعـالى مـن يتعشـق نسـاء أصحابـه، ويعرضهم للقتل من غير استحقاق؟؟. ولا يجوز مثل هذا علـى الانبيـاء الا مـن لايعرف مقدارهم، ولا يعتقد منزلتهم التي خصهم الله فيها. نعوذ بالله مـن سـوء التوفيق".[3].

وهو يجد في المصادر الاسلامية مايسند رأيه في اسـتبعاد هـذه الاقـاصيص الباطلة، والروايات الموضوعية. فيقول:" وقد روي عن علي عليه السلام أنه قـال لا أوتي برجل يقول إن داود ارتكب فاحشة الا ضربته حدين: أحدهما حد القـذف، والآخر لأجل النبوة".[4].

والطوسي يلتقي في هذا كما يتلقى في كثير غيره بمفسري أهل السنة، اذ هـم ينزهون الانبياء أيضا عن مثل هذه الترهات، وينصون على ذلك فـي تفاسـيرهم. وهذا يرجع في الواقع الى صفاء العقيدة الاسلامية وسموها. وعند هـذا الصفـاء يلتقي المفسرون من مختلف المذاهب الاسلامية، ليقولوا كلمة الحق والصدق. قـال النسفي في تفسيره، وما يحكى من أن داود بعث مرّة أوريا الـى غـزوة البلقـاء، وأحب أن يقتل ليتزوج امرأته، فلا يليق بين المتسمين بالصلاح من أفناء[5]النـاس، فضلا عن بعض أعلام الانبياء. وقال علي رضى الله عنه: من حدثكم بحديـث داود على مايرويه القصاص جلدته مئة وستين جلدة، وهو حد الفرية على الانبيـاء.[6] وعقد الخازن في تفسيره بعد نقل قصة داود وامرأة اوريا فصلا فـي تنزيـه داود عليه السلام عما لايليق به وينسب اليه، فنّد فيه كل ماقيل مما لايليق بعصمة النبـي داود عليه السلام.[7]

وبالاضافة الى العقل وواقع النص القرآني والمأثور، اعتمد الطوسي على اللغة في استبعاد بعض ماروي من تفسير قصصي. نجد ذلك مثلا في تفسير قوله تعـالى

---

(١)الحج:٧٥.
(٢)الدخان:٣٢.
(٣)التبيان :٨/٥٠٤-٥٥٥.
(٤)التبيان:٨/٥٥٥.
(٥)الافناء: الأوسط.
(٦)تفسير النسفي :٤/٣٦ وانظر: شحاته: القرآن والتفسير ص ٢٥٧.
(٧)تفسير الخازن٦/٣٨ ومابعدها. وانظر: شحاته: القرآن والتفسير ص ٢٥٧.

(واشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم)[1]اذ بين أن السدي قال" لما رجع موسى الى قومه، أخذ العجل الذي وجدهم عاكفين عليه، فذبحه ثم حزقه بالمبرد، ثم ذراه في اليم. فلم يبق بحر يجري يومئذ الا وقع فيه شيء منه. ثم قال: اشربوا فشربوا. فمن كان يحبه خرج على شاربه الذهب".[2].

ولم يرتض الطوسي هذا القول الساذج، الذي لم يلحظ روعة المجاز في الآية، بل اختار قول قتادة وابي العالية من أن المراد بالآية: أشربوا في قلوبهم حب العجل. وبين أن هذا" هو الصحيح، لأن الماء لايقال فيه: اشرب منه فلان في قلبه، وانما يقال ذلك في حب الشيء.. ولكن يترك له ذكر الحب اكتفاء بفهم السامع لمعنى الكلام. إذ كان معلوماً ان العجل لايشربه القلب، وان الذي أشرب منه حبّه. كما قال:(واسأل القرية) وانما أراد أهلها، وكما قال الشاعر:

حَسبتُ بُغامَ راحلتي عناقاً***وماهِيَ ويبَ غيركَ بالعَناقِ[3]

يريد بذلك: حسبت بغام راحلتي بغام عناق"،[4]ثم أورد شواهد شعرية دالة على هذا الاسلوب العربي البليغ في التعبير، يعضد بها الوجه السليم الذي بينّه.

---

(١)البقرة:٩٣.

(٢)التبيان ١/٣٥٤.

(٣)البيت الذي الخرق الطهوي. انظر نوادر أبي زيد ص ١١٦ واللسان مادة (بغم) ٣١٧/١٤. وبغام الناقة: صوت لاتفصح به. والعناق: الانثى من المعز.وويب: مثل ويل.

(٤)التبيان:٣٥٤/١-٣٥٥.



الفصل الثالث
القراءات واللهجات

(١)
عناية الطوسي بالقراءات واللهجات

عُني الطوسي بالقراءات والقرآنية واللهجات العربيـــة عنايـــة واضحـــة فـــي تفسيره وكان قد اشار في مقدمته له، عند الكلام على منهجه فـــي تحريـــره، الـــى عنايته بالقراءات. وعدها من" فنون علم القرآن". وقدمها على بقية الفنـــون التـــي اوردها معها، كالمعانى والاعراب والكلام على المتشابه وغيرها.[١] وخصص لـــهـا بعد ذلـــك فـــي جميـــع التفســير موضوعـــا ســـماه" القـــراءة"[٢]. أو " القـــراءة والحجة[٣]"وجعلها أحيانا مع اللغة بعنوان" القراءة واللغة".[٤]كما جعل البحـــث فـــي اللهجات ضمن هذه الموضوعات أو بعنوان" اللغة"[٥]، وطريقته في تحرير الجميـــع تتلخص في أنه يذكر عقب كل آية أو مجموعة من الآيات يروم تفسيرها، مـــايتعلق بها من قراءات، سواء أكانت مشهورة أم شاذة. ويشفع ذلك فـــي الغـــالب ببيـــان قراءات الصحابة والتابعين وأهل البيت، الموائمة لتلك القـــراءات والمباينـــة لـــها ايضاً. ثم يذكر ماله صلة بالقراءات من اللغات واللهجات، ومـــالا صلـــة لـــه بـــها أحياناً.

وعناية الطوسي بالقراءات تتفق ووثوقه بحرفية النص القرآني[٦]، اذ إن علـــم القراءات يتوخى قبل كل شيء صيانة الكتاب العزيز" من التحريف والتغيير" فضـــلا عن " ثمرات كثيرة" كما يقول الدمياطي.[٧]. وهي بعدُ تناسب اتجاهـــه الاصولـــي والفقهي، لان القراءات أثرتْ علمي الاصول والفقه بالوجوه المتعددة في اســـتنباط الاحكام الشرعية. حتى قال الدمياطي:" لم تزل العلماء تستنبط من كل حرف يقرأ به قارئ معنى لايوجد في قراءة الآخر" وقال:" والقراءة حجة الفقهاء في الاســـتناط، ومحجتهم في الاهتداء، مع مافيها[٨]من التسهيل على الامة"[٩].

---

(١)التبيان ١/ ٢.
(٢)التبيان ١/ ٣٣، ٤٠، ٤٣، ٢/ ٥، ١٣.
(٣)التبيان:٢/ ٤٠٥، ٣/ ٧٣، ٩٧، ١٢٥.
(٤)التبيان:٢/ ٣٧٩، ٣/ ١٠، ١٤٣، ١٦٨.
(٥)التبيان:١/ ٢٦٨، ٢٩٨، ٣٤٦.
(٦)انظر رأيه في البيان ١/ ٣.
(٧)اتحاف فضلاء البشر في قراءات الاربعة عشر ص٥.
(٨)في الاصل (فيه). وما اثبتناه هو الوجه،لان الضمير يعود على القراءات.
(٩)الدمياطي: اتحاف فضلاء البشر ص ٥.

ومن هنا كانت القراءات من اقدم العلوم المتعلقة بالقرآن، لانها صحبت النص المنزل، كما صحبه علم التفسير. فالاهتمام بها، كما يقول الدكتور مصطفى الصاوي الجويني بحق" من آصل المناهج العملية في الدراسات القرآنية[١]".

واذا رجعنا الى تفسير الطوسي لنتبين منه رأيه في القرءات ، ألفيناه يقول:" اعلموا أن العرف من مذهب اصحابنا والشائع من أخبارهم ورواياتهم أن القرآن نزل بحرف واحد على نبي واحد. غير أنهم أجمعوا على جواز القراءة بما يتداوله القراء، وأن الانسان مخير بأي قراءة شاء قرأ".[٢]ثم يشير بعد ذلك الى حديث الاحرف السبعة، فيبين أن غير الامامية، رووا عن النبي (ص) أنه قال:(نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف) وفي بعضها:(على سبعة أبواب). ويبين ان رواياتهم في ذلك قد كثرت. وأورد بعض ماقيل في تفسير هذه الأحرف.[٣]

ولا بد لنا بعد هذا أن نتعرف موقف الطوسي العملي من القراءات والمنهج الذي سلكه في ايرادها وتوجيهها والاحتجاج لها وقبولها أوردها.. سواء أكانت من القراءات المشهورة أم الشاذة أم من قراءات الصحابة والتابعين وأهل البيت أم غيرها من القراءات المأثورة.

واذا رجعنا الى القراءات التي أوردها، وجدناه لايقتصر على السبع منها فحسب، وهي قراءاة نافع بن ابي نعيم المدني وعبد الله بن كثير المكّي وابي عمرو بن العلاء البصري وعبد الله بن عامر الشامي وعاصم بن أبي النجود وحمزة بن حبيب الزيات وعلي بن حمزة الكسائي الكوفيين، الذين يعرفون بالقراء السبعة.[٤]. وانما يذكر معها قراءات للثلاثة الذين هم تتمة العشرة وهم : ابو جعفر يزيد بن القعقاع المدني ويعقوب بن اسحق الحضرمي وخلف بن هشام البزار.[٥] كما يورد قراءات ، في عدة مواضع، للقراء الاربعة الذين هم بعد العشرة[٦]وهم: الحسن البصري ومحمد بن عبد الرحمن بن محيصن المكي وسليمان بن مهران

---

(١)الجويني:مناهج في التفسير ص٥٠.

(٢)التبيان: ٧/١.

(٣)التبيان: ١/٨-٩.

(٤)انظر حياة هؤلاء القراء في مقدمة ابن مجاهد لكتابه " كتاب السبعة في القراءات" ص ٥٣ وما بعدها. وفي كتاب" التيسير في القراءات السبع للداني ص ٤-٧.

(٥)انظر نبذة عنهم في: شرح طيبة النشر في القرءات العشر. لابن الجزري ص١١-١٢.

(٦)انظر النص على هؤلاء القراء في: اتحاف فضلاء البشر في قراءات الاربعة عشر للدمياطي ص٧.

الأعمش ويحيى بن المبارك اليزيدي. بل نراه يورد قراءات لقراء الامصار الاخرين المشهورين المعترف لهم بالامامة والاقراء في أمصارهم، مثل حميد بن قيس الاعرج المكي ويحيى بن وثاب الكوفي وعبد الله بن ابي اسحق وعيسى بن عمر وعاصم الجحدري البصريين، وشريح بن يزيد الحضرمي الشامي وغيرهم ممن ذكرهم أبو عبيد القاسم بن سلاّم في أول كتابه في القراءات، [1]وبين أنهم" تجودوا في القراءة فاشتدت بها عنايتهم ولها طلبهم، حتى صاروا بذلك أئمة يأخذها الناس عنهم ويقتدون بهم فيها"[2].

وقد ذكر الطوسي هؤلاء القراء مع القراء المشهورين في الامصار الاسلامية، الذين عرفوا من بعد بالقراء السبعة او العشرة. اذ لم يكن السبعة أو العشرة هم جميع القراء الذين يوثق بقراءتهم. وكثير ممن تجاوزهم ابن مجاهد. لم تكن قراءته متروكة الى عصر الطوسي، مثل قراءة يعقوب الحضرمي وعاصم الجحدري وابي جعفر المدني وشيبة امامي نافع. وانما كان أبو بكر بن مجاهد أول من اقتصر على السبعة، ثم تابعه على ذلك من أتى بعده.[3]

وعلى هذا، فإن طائفة من القرءات التي لم تعَد من العشرة بل الاربع عشرة كان يقرأ بها في عصر الطوسي. فلا غرابة إذاً أن يورد الطوسي قراءات لغير السبعة أو العشرة، بعد أن رأي أهل عصره يولونها أهمية ويقرأون والتابعين بها في جملة مايقرأون.

(٢)
قراءات الصحابة والتابعين وأهل البيت

أورد الطوسي قراءات كثيرة منسوبة لبعض الصحابة والتابعين وأهل البيت دون أن يصفها بالشذوذ، مع انها، على أصله في اعتبار ماخالف المجمع عليه شاذا، تعد شاذة. وهذه القراءات قسمان: منه ماوافق بعض القراءات المشهورة. ومنها ماخالفها بخروجه عن خط المصحف في الغالب. وهذا لايقرأ به عند أهل العلم، لان خط المصحف العثماني نفى ماكان يقرأ به قبل كتابته. قال مكي بن ابي طالب:" هذا يقبل لصحة معناه اذا صحت روايته، ولا يقرأ به لمخالفته المصحف،

---

(١)ابو شامة : المرشد الوجيز ص١٦٣.

(٢)نفسه: المكان نفسه.

(٣)مكي: الابانة عن معاني القراءات ص ٤٨.

ولأنه أتى بخبر الآحاد"[1]. ووصف الباقلاني مثل هذه القراءات بأنها" اخبار آحاد غير موثق بصحتها. وأنها لاتجوز القراءة بها لعدم تواترها.[2].

وقد سلك الطوسي في ايراد قراءات الصحابة والتابعين وأهل البيت منهجاً لايخلو من فائدة، اذ قام بعملية تنسيق بينها وبين القراءات المشهورة، فكان يذكرها في غير موضع الى جانب تلك القراءات التي قرأ بها السبعة أو العشرة. من ذلك مابينه في قراءة قوله تعالى:(ولكل وجهة هو مُوليّها)[3]، اذ قال:" قرأ ابن عامر وابو بكر عن عاصم[4]" مولاّها". وروي ذلك عن ابن عباس ومحمد بن علي- يريد الباقر- فجعلا الفعل واقعا عليه، والمعنى واحد. كذلك قال الفراء[5]ونراه يشير في موضع الى القراءات التي وافق فيها أهل البيت واحدا أو أكثر من الصحابة، من ذلك ما أورده في قراءة قوله تعالى(فليس عليهن أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة)[6]، فقال:"وفي قراءة أهل البيت:" أن يضعن من ثيابهن" وبه قرأ أُبَي"[7]. ومنه ما أورده في قراءة قوله عز وجل:(وجاءت سكرة الموت بالحق)،[8]فبين أن فيه تقديما وتأخيرا، والمعنى: وجاءت سكرة الحق بالموت. ثم قال:" وهي قراءة أهل البيت، وبه قرأ أبو بكر من الصحابة".[9]. وفي موضع آخر: أبو بكر وابن مسعود.[10]

وعنى الطوسي بقراءة السيدة عائشة، فأورد عدة قراءات رويت عنها، وتولى توجيه بعضها. كما في قراءة: (اذ تَلَقَّونهُ بألسنتكم)[11]،التي بين فيها أنه." روي عن عائشة أنها قرأت:" تلقونهُ"، من ولَق الكذب، وهو الاستمرار على الكذب. ومنه: ولق فلان في السَّيْر ،اذا استمر به" ثم احتج لهذا المعنى بقول الراجز:

([1])مكي: الابانة عن معاني القراءات ص ٤٠.

([2])الباقلاني : نكت الانتصار لنقل القران ص ١٠٢.

([3])البقرة:١٤٨.

([4])لم تثبت هذه القراءة عن عاصم عند ابن مجاهد. ولذلك لم يذكرها في كتابه

([5]) التبيان:٢/٢٣.

([6])النور:٦٠.

([7])التبيان ٤٦١/٧.

([8])سورة ق:١٩.

([9])التبيان ٢٦٢/٦.

([10])التبيان ٣٦٥/٩ وقارن بالابانة لمكي ص ٣٩. وفي المحتسب لابن جني ٢٨٣/٢: وقرأ بها سعيد بن جبير وطلحة.

([11])النور:١٥.

إنّ الحُصَين[1]زَلِقٌ وزُمَّلِقْ*** جاءت به عِيْسٌ من الشام تلقْ[2].

والشاهد فيه مجيء الوَلْق بمعنى الاستمرار في السير، اذ أن ذلك من معانيه في اللغة، كما أن من معانيه الاستمرار في الكذب.[3]ولهذا قال الامام علي لرجل:كذبت والله وولَقت.[4].فكان توجيه الطوسي لقراءة أم المؤمنين قائما على هذا المعنى. ونسب ابن جني هذه القراءة اليها والى ابن عباس وابن يعمر وعثمان الثقفي، ثم وجهها على معنى" تسرعون فيه ، وتَخفّون اليه"[5]وهو توجيه مبني على اللغة أيضا، اذ من معاني" الولَق: السير السهل السريع"، ومن معانيه: الإسراع.[6].

ورد الطوسي بعض القراءات الى مصحف السيدة عائشة[7]، كقراءة:(إلا أوثاناً)[8]، في قوله تعالى::(إنْ يدعونَ من دونه الا إناثاً)[9].وبين أن ذلك روي عن عروة عن ابيه، وإن ابن عباس كان يقرؤها:(إلا وُثُناً)[10] ، جمع و ثن.. حتى قال:" والقراءة المشهورة(إناثاً) وعليه القراء من أهل الامصار"[11] .

واشار في غير موضع الى موافقة قراءتها لقراءة الامام علي بن أبي طالب خاصة. من مثل مابينه في قراءة الآية ٩٨ من سورة الأنبياء، وهو أنهما قرأ(حطب جهنم)، وان الحسن قرأ: حضب" بالضاد، ومعناه: ماتهيج به النار وتذكى[12] والقراءة المشهورة : (حَصَب) بالصاد.

---

(1)هذه احدى روايتين للبيت، والاخرى وهي الصواب على مايذكر ابن منظور ان الجليد . ويعضدها أن المهجو هو الجليد الكلابي. انظر : اللسان مادة(زلق)١٢/١٠-١١. وقارن بمعاني القرآن ٢/٢٤٨.

(2)التبيان :٧/٤١٧.

(3)ابن منظور: اللسان، مادة (ولق) ١٢/٢٦٤،٢٦٥.

(4)نفسه ١٢/٢٦٤

(5)ابن جني: المحتسب ٢/١٠٤.

(6)ابن منظور: اللسان، مادة (ولق) ١٢/٢٦٤.

(7)انظر الحديث عن مصحفها في كتاب المصاحف لابي داود ص ٨٣-٨٥.

(8)انظر هذه القراءة في : مختصر في شواذ القرآن لابن خالويه ص ٢٩.

(9)النساء:١١٧.

(10) انظر ابن جني : المحتسب ١/١٩٨.

(11)التبيان:٣/٣٣١.

(12)التبيان:٦/٢٨٠ وانظر هاتين القراءتين في مختصر في شواذ القرآن لابن خالويه ص ٩٣. والمحتسب لابن جني ٢/٦٦-٦٧.

وعناية الطوسي بقراءات أهل البيت ظاهرة في تفسيره، ففيه قراءات كثيرة لعلي بن أبي طالب،[1] ومحمد الباقر[2] جعفر الصادق،[3] وأغلبها موافق لقراءة المشهورين، أو قراءة بعض الصحابة والتابعين. وقد تبين فيما أوردناه آنفا شيء من ذلك. كما أن منها ماتفردوا بقراءته ، أو قل: روي عنهم كذلك، وكان موافقا للعربية وخط المصحف. مثل القراءة التي نسبها الى جعفر الصادق، وهي(ولاتموتن الا وأنتم مُسلِّمون) بتشديد اللام،[4] في مقابل تخفيفها لدى بقية القراء. ثم بيّن معناها فقال:" ومعناه: الا وأنتم مستلمون لما أتى به النبي، ومنقادون له"[5].

ومن هذه القراءات التي أوردها الطوسي منسوبة الى أهل البيت، مايخالف خط المصحف. كالقراءة التي أوردها القمي من قبل ،[6](واجْعلْ لنا من المُتقين إماماً)[7]، بدلا من القراءة المشهورة المجمع عليها: (وآجْعَلنا للمتقين إماماً).[8] فهذه القراءة مخالفة لخط المصحف، وكأنها اجتلبت لتؤكد الامامة التي هي أصل مهم من أصول الدين عند الامامية، وكم كان جميلا ومفيدا لو أن أبا جعفر الطوسي رحمه الله أبدى رأيه في هذه القراءة وأمثالها، ولم يكتف بحكايتها، وخاصة أن نسبتها الى الائمة غير مقطوع بها.

(٣)
القراءات المشهورة وتوجيهها

عني الطوسي عناية فائقة بالقراءات المشهورة التي قرأ بها العشر، وهم الذين ذكرناهم سالفا، فانبرى يوجه هذه القراءات ويعللها ويحتج لها، ويوازن بينها فيرجح بعضها على بعض او يرتضي بعضها دون بعض، ويقيم ذلك كله على أسس وقواعد مقبولة. وكأنه عرف لهؤلاء مكانتهم. اذ كان أهل أمصارهم مجمعين على قراءتهم أو كان أكثرهم كذلك. وعنايته بالقراءات السبع خاصة أظهر

---

(١)التبيان ٥/٤٩٥، ٦/٢٥٥، ٧/٢٠٥.
(٢)التبيان: ٣/٥٣٧، ٥/٤٩٥.
(٣) التبيان: ٢/٥٤٤-٥٤٥.
(٤)التبيان: نفس المكان. والآية ١٠٢ من آل عمران.
(٥)التبيان :٢/٥٤٥.
(٦)تفسير القمي: ٢/١١٧.
(٧)البيان: ٧/٥١٢.
(٨)الفرقان: ٧٤.

وأوضح. ويقول ابن مجاهد ان قراءها" خلفوا في القراءة التابعين وأجمعت على قراءتهم العوام[١]من أهل كل مصر من الامصار التي سميت وغيرها من البلدان التي تقرب من هذه الامصار". وكان قد ذكره قبل ذلك أن هؤلاء السبعة من أهل الحجاز والعراق والشام.[٢].

وكثيرا مايورد الطوسي قراءة السبعة ويقابلها بقراءة بعض العشرة، وخاصة اذا اجمع السبعة على حرف واحد، كما في قراءة قوله تعالى:(وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس)[٣]. اذ يقول:" والشق : المشقة وفيه لغتان: فتح الشين وكسرها. فالكسر عليه القراء السبعة، وبالفتح قرأ أبو جعفر المدني".[٤]وابو جعفر ثامن القراء العشرة.[٥]وقد تقدمت الاشارة اليه فيما مضى.

ونراه يسمي السبعة وبقية القراء المشهورين:" قراء أهل الامصار" فيقول في القراءة المشهورة:(وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً)[٦]:" وقد روي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما(ولم تجدوا كتاباً)، يعني ما تكتبون فيه من طرس وغيره. والمشهور هو الاول الذي حكيناه عن قراء أهل الامصار".[٧]هذا اذا اجمعوا على قراءة ، فان اختلفوا فله في ذلك- غالبا- أسلوبان بحسب ماتقتضيه القراءة أحدهما: أن ينص على القراء فيذكر أسماءهم دون الإشارة الى أمصارهم. سواء أكانوا من السبعة أم من العشرة، كما في قراءة قوله تعالى: (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر)[٨] التي يقول فيها:" قرأنا في جميع القرآن(يحزنك) بضم الياء، الا قوله:(لايحزنهم الفزع الاكبر)"[٩] والباقون بفتح الياء في جميع القرآن. وقرأ أبو جعفر عكس ما قرأ نافع، فأنه فتح في جميع القرآن الا قوله:" لايحزنهم" فإنه ضم الياء. ثم قال:" وحكى البلخي عن ابن أبي محيصن[١٠]. الضم في

---

(١)المراد بالعوام هنا: عامة القراء. انظر تعليق الدكتور شوقي ضيف بهامش ص ٨٧٠ من كتاب السبعة.

(٢)ابن مجاهد: كتاب السبعة في القراءات ص ٨٧.

(٣)النحل:٧.

(٤)التبيان:٦/٣٦٢.

(٥)ابن الجزري- أحمد - شرح طيبة النشر ص ١١.

(٦)البقرة:٢٨٣.

(٧) التبيان:٢/٣٨١.

(٨)آل عمران: ١٧٦.

(٩)الانبياء :١٠٣.

(١٠)كذا في الاصل. والمشهور أنه: ابن محيصن، وهو محمد بن عبد الرحمن ابن محيصن. انظر كتاب السبعة لابن مجاهد ص ٦٥.

الجميع".[1]فانظر اليه كيف وازن بين قراءة نافع المدني وقراءة بقية السبعة. ثم بين قراءته وقراءة استاذه أبي جعفر المدني ، واوضح أن احدهما كان يقرأ، في الحروف التي ذكرها، عكس الآخر. ثم اليه وهو يقابل قراءة الجميع بقراءة ابن محيصن الذي هو من القراء الأربعة عشر. والاسلوب الثاني: أن ينص على امصار هؤلاء القراء دون اسمائهم، اذا كان أهل المصر الواحد مجمعين على قراءة واحدة لآية من الآيات الكريمة. وذلك مايتبين في قراءة قوله تعالى:(من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدوّ للكافرين)[2]، التي يقول فيها:"... وقرأ أهل البصرة (ميكال)، بغير همز ولا ياء. وقرأ أهل المدينة بهمزة مكسورة بعد الألف مثل " ميكاعل" والباقون باثبات ياء ساكنة بعد الهمزة على وزن (ميكاعيل)[3]. وهذا يعني أن اهل المدينة قرأوا(ميكائل) وان الباقين الذين أشار اليهم قرأوا:"ميكائيل" مثل (جبرائيل). والمشهور من أهل البصرة أبو عمرو بن العلاء، ومن أهل المدينة نافع. والباقون هم أهل مكة والكوفة والشام. وهي الامصار التي اشتهرت بالاقراء ونبغ فيها كبار القراء.

فاذا انفرد قارئ أو اكثر في مصر من الامصار بقراءة مخالفة لقراءة مصره بين ذلك الطوسي. كما في قراءة قوله عز وجل:(خُشّعاً أبصارهم)[4]، التي قال فيها:" قرأ(خُشَّعاً) على الجمع، أهل العراق الا عاصما. والباقون:(خاشعاً) على وزن " فاعل" ونصبوه على الحال"[5]. وكذا الحال حين ينفرد راوٍ من رواة القراء المشهورين بقراءة مخالفة لبقية الرواة. فان الطوسي يبين ذلك كما بينه في قراءة قوله تعالى(وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها)[6].اذ قال:" قرأ أهل الكوفة الا ابا بكر" سُعدوا" بضم السين. والباقون بفتحها[7]." وأهل الكوفة هم عاصم وحمزة والكسائي من السبعة، وخلف البزار من العشرة. وليس المراد بأبي بكر

---

(1)التبيان ٣/٥٥-٥٦.

(2)البقرة:٩٨.

(3)التبيان: ٣٦٢/١ وراجع كتاب السبعة لابن مجاهد ص١٦٦.

(4)القمر:٧.

(5)التبيان ٤٤٤/٩. وفي كتاب ابن مجاهد اختلاف فيمن قرأ بالقراءتين عما أورده الطوسي. انظر ص ٦١٧-٦١٨.

(6)هود:١٠٨.

(7) التبيان : ٧٠/٦.

الذي ذكره الطوسي عاصم بن أبي النجود الذي يكنى أبا بكر أيضا[١] بل المراد بـه شعبة بن عياش احد أشهر روايين عن عاصم، والآخر حفص المشـهور بروايتـه عنه. [٢]. ويدل على ماقلناه أن أبا بكر بن مجاهد قال في هذه القراءة: " واختلفـوا في ضم السين وفتحها من قوله(وأما الذين سعدوا) فقرأ ابن كثـير ونـافع وأبـو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر(سَعدوا)بفتح السـين. وقـرأ حمـزة والكسـائي وحفص عن عاصم :(سُ عدوا) بضم السين".[٣]. وهؤلاء هم الكوفيون الذين اشـار اليهم الطوسي بذكر امصارهم دون اسمائهم ايجازا فيما يبدو. ولمـا كـان كتـاب الطوسي ليس بكتاب قراءات. بل هو كتاب تفسير، فأنه لم يفرد لأصول القّراء بابـا خاصا بها، كما يفعل المصنفون في القراءات. وانما كان يذكـر ذلـك مـع فـرش الحروف. فهو كثيرا مايشير الى أصول القراء ومذاهبهم المتعددة فـي القـراءات، من خلال ايراد القراءات في مواضعها المتباينة في تفسيره. فمثلا نراه يذكـر فـي قراءة قوله تعالى:(قل أرأيتكمُ ان أتاكم عذاب بالله)[٤]، أنه " قرأ الكسائي وحـده: (أرَيتكُم) وما جاء منه اذا كان استفهاما، بحذف الهمزة التي بعد الراء، والبـاقون باثباتها وتخفيفها، الا أهل المدينة فإنهم جعلوها بين بين. فان كان غـير اسـتفهام اتفقوا على اثبات الهمزة وتخفيفها، الا مارواه ورش في تحقيقها في ستة مواضـع ذكرت في باب الهمزة القراءات"[٥]. وورش هو عثمان بن سعيد المصري الملقـب بورش[٦]، احد راويين شهيرين عن قارئ المدينة نافع بن أبي نُعيم ، والآخر هـو عيسى بن مينا الملقب بقالون.[٧] وكلاهما أخذ القراءة فيمن أخذ عن نـافع[٨]مـن غير واسطة. فمراد الطوسي بقوله:" الا مارواه ورش في تحقيقها" يعني عن نـافع لأنه كما بينا اشهر الرواة عنه. وقد اختاره مع قالون في رواية قراءة نـافع ابـو بكر بن مجاهد في كتابه في القراءات السبع، ثم حذا خذوه من تبعـه مـن أئمـة الاقراء مثل مكي بن أبي طالب وأبي عمرو الداني والشاطبي، ثم مـن بعـد ابـن الجزري وكثير غيرهم حتى يومنا هذا، وان لم يقتصر ابن مجـاهد علـى هذيـن

(١) الداني: التيسير في القراءات السبع ص ٦.

(٢) نفسه: المكان نفسه. وفيه نقل عن ابن معين أن حفصا أقرأ من أبي بكر بن عياش.

(٣) ابن مجاهد:كتاب السبعة ص٣٣٩.

(٤)الانعام: ٤٠.

(٥)التبيان :١٣٢/٤.

(٦)الداني : التيسير في القراءات السبع ص ٤.

(٧) الداني: التيسير في القراءات السبع ص ٤.

(٨)ابن مجاهد: كتاب السبعة ص٦٤.والداني: التيسير ص١٠-١١.

غيرهم حتى يومنا هذا، وان لم يقتصر ابن مجاهد على هذين الراويين، وانما ذكر روايات لآخرين رووا عن نافع وهم كثير.[1].

وكما يذكر الطوسي القراء المشهورين ورواتهم الذين أخذوا عنهم القراءات يذكر ايضا الطرق[2] التي رويت بها تلك القراءات التي شاعت وذاعت بين الأمصار الاسلامية، وتلقاها الناس بالقبول. فهؤلاء الرواة متعددون عن القارئ الواحد، وكذلك طرقهم. ولنضرب لذلك مثلا قارئ مكة الكبير عبد الله بن كثير ثاني القراء السبعة. فان له راويين مشهورين هما أحمد بن محمد البزي ومحمد بن عبد الرحمن الملقب بقُنبُل[3] ، ولكل راو منهما طرق متعددة. فنرى الطوسي يذكر بعض هذه الطرق عن البزي في بيانه لقراءة قوله تعالى(فاذا هي تلقف مايأفكون)[4] ، اذ يقول:" قرأ حفص عن عاصم (تَلْقَفُ) خفيفة. والباقون بتشديد القاف. وقرأ ابن كثير(فاذا هي تَّلَقَّفُ) بتشديد التاء والقاف في رواية البزي عنه، الا النقاش وابن فليح"[5].ونراه في قراءة الآية ٤٤ من سورة فُصِّلَتْ، يذكر مع طرق الرواية عن ابن كثير، بعض طرق الرواية عن عبد الله بن عامر قاريء الشام، وأحد رواة قرائه هشام بن عمار.[6] فيذكر أن الحلواني قرأ عن هشام (أَعجمَي وَعربِي) على الخبر.[7].

وعني الطوسي بتوجيه القراءات القرآنية المشهورة وبيان حججها، فكان يذكر في فرش الحروف كل حرف ومن قرأبه وعلته وحجة كل فريق، ثم يختار في عدة مواضع مايراه الارجح، وينبه على علة ذلك الاختيار في أخرى. وقد بنى توجيهه للقراءات على أسس متنوعة أظهرها قواعد النحو والصرف واللغة وأساليب البلاغة والقراءات الاخرى الواردة وخط المصحف. وبنى موازنته بين القراءات

---

[1] انظر هؤلاء الرواة في كتاب السبعة لابن مجاهد ص ٢٠٨ وما بعدها.

[2] الطريق في اصطلاح علم القراءات: للرواية عن الرواة عن أئمة القراءات وان نزلوا. فيقال مثلا: هذه قراءة نافع من رواية قالون من طريق ابي نشيط من طريق بن بويان من طريق الفرضي. انظر: شرح طيبة النشر لاحمد ابن الجزري ص١٣ والصفاقسي: غيث النفع في القراءات السبع ص ٣٤.

[3] ابن الجزري -احمد -: شرح طيبة النشر ص ٧.

[4] الاعراف: ١١٧.

[5] التبيان ٥٠٣/٤ وانظر ابن مجاهد ص ٢٩٠.

[6] ابن الجزري -احمد -: شرح طيبة النشر ص٨.

[7] التبيان ١٣٠/٩ وانظر هذه القراءة في اتحاف فضلاء البشر ص ٣٨١.

وترجيح بعضها على بعض او تضعيف بعضها دون بعض على أساس من الاجماع والنحو واللغة وخط المصحف والنزول.

والطوسي حين يبني توجيهه للقراءات المشهورة وبيان حجيتها على قواعد النحو والصرف، يلحظ أن هذه القواعد لابد للقراءة المقولة أن توافقها، اذ هي أحد الاركان الثلاثة الرئيسة اللازمة لصحتها ومجافاتها عن الضعف والشذوذ. فنراه مثلا يوجه قراءة عبد الله الملك بن عامر قارئ أهل الشام(وبالزُّبُر) باثبات الباء، وقراءة الباقين(والزُبُر) بحذفها، في قوله تعالى(جاؤا بالبينات والزُبُر)،[1]توجيها قائما على احد القواعد النحوية المقررة، وهو أن" مَن حذف فلأن واو العطف أغنت عن تكرار العامل. ومن أثبتها فانما كرر العامل تأكيداً. ولما كان هذان الوجهان متساويين من ناحية القوة وليس لاحدهما مايرجح به على الآخر، بين ذلك الطوسي فقال: وكلاهما جيدان".[2]

وفي تفسير الآية ١٧٣ من البقرة، يذكر أن نافعا وابن عامر وابن كثير والكسائي قرأوا(فمن اضْطُرَّ) بضم النون" وان الباقين قرأوها بكسرها.[3]ثم يوجه القراءتين توجيها صرفيا فيقول:" من كسر فلالتقاء الساكنين، ومن ضمها أتبع الضمة الضمة في الطاء".[4]

ونراه يبني توجيهه لبعض القراءات على قواعد اللغة. وهذا يرجع الى الاصل الذي ذكرناه سالفا، وهو موافقة العربية ، كقراءة من قرأ (الريح) بالافراد في قوله عز وجل:(وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض)[5] ،فقد بين بعد ايراد هذه القراءة والاخرى التي بالجمع، أن" من وحّد أراد به الجنس، كما قالوا: أهلكَ الناسَ الدينارُ والدرهمُ".[6]

ونراه أيضا يوجه طائفة من القراءات توجيها لغويا صوتيا، مبنيا على العلاقة الصوتية بين الحروف في العربية. وهي العلاقة التي كان القراء المجيدون يولونها أهمية عند القراءة والأداء. فهو يذكر في قراءة قوله تعالى(وليس البر بأن تأتوا

([1]) آل عمران:١٨٤.
([2])التبيان ٦٩/٣.
([3])التبيان٨٣/٢.
([4])التبيان ٨٥/٢.
([5])البقرة:١٦٤.
([6])التبيان ٦١/٢.

البيوت من ظهورها)[1]،ان" من كسر الباء من البيوت فلاستثقال الخروج من الضم الى الياء"[2]وهذا صحيح، لان الضمة وان كانت تشابه الكسرة من الناحية الصوتية، باعتبارهما من أصوات اللّين الضيقة، حتى ان احداهما تحل محل الاخرى في كثير من الظواهر اللغوية،[3]إلا أن الكسرةَ تتسم بالرقة وتلائم حرف اللين الياء، وهي أرق من الضمة التي تعد مظهراً من مظاهر الخشونه البدوية.[4]فالانتقال من الكسر الى الياء ايسر من الانتقال من الضم اليها.

ويوجه الطوسي بعض القراءات توجيها مبنيا على أساليب البلاغة العربية كأسلوب الالتفات، ويحتج لذلك بأشعار العرب ونص القرآن وغيرهما من الأدلة المعتبرة، ففي قراءة قوله تعالى(واذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لاتعبدون الا الله وبالوالدين إحسانا) وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا[5]،يذكر أن ابن كثير وحمزة والكسائي قرأوا (لايعبدون) بالياء، وأن الباقين قرأوا بالتاء، ثم يوجه القراءة الاولى على قاعدة الالتفات البلاغية فيقول :" من قرأ بالياء تقديره أنه أخبر أنه تعالى أخذ ميثاقهم لايعبدون الا الله، وبالوالدين إحسانا. ثم عدل الى خطابهم فقال: (وقولوا للناس حسنا). وحتى يدلل على قوة هذا الوجه، يبين ان الالتفات معروف في ألسنة العرب، وأنها" تفعل ذلك كثيراً". ويحتج له بقول عنترة[6] .

شَطّتْ مَزارَ العاشِقين فأصبحتْ   عِسراً عَلَيَّ طِلابُك ابنةَ مخْرَم

ويقول:" والتاء من أصبحت كناية عن المرأة، فأخبر عنها ثم خاطبها".[7].ومثل ذلك ما أورده في قراءة قوله تعالى (تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها)[8]،اذ بين أن نافعا وابن عامر قرأ، "ندخله" بالنون، وأن الباقين قرأوا بالياء. ثم قال: " فمن قرأ بالياء فلان ماتقدم لفظ

(1) البقرة: ١٨٩.

(2) التبيان ٢/١٤٢.

(3) أنيس: اللهجات العربية ص ٦٩.

(4) المصدر نفسه: المكان نفسه.

(5) البقرة: ٨٣.

(6) ابن منظور: لسان العرب، مادة (شطط) ٢٠٧/٩ وروايته فيه طلابُها"بدلا من طلابك"وفي ديوان عنترة ص ١٦ وجمهرة اشعار العرب ص١٥٠: حلت بأرض الزائرين. والباقي كما في بيت الطوسي.

(7) التبيان: ٣٢٦/١-٣٢٧.

(8) النساء: ١٣.

الغائب، ومن قرأ بالنون عدل عن خطاب الغائب الى الاخبار بنون العظمة" ثم احتج له بقوله تعالى في موضع أخر " بل الله مولاكم": وقوله بعده" سنلقي"، وبين أنه عدل فيه عن الغائب[1]. ومراده بالغائب قوله تعالى:" بل الله".

ووجه بعض القراءات توجيها بلاغيا قائما على أساليب المجاز في العربية، كقراءة حمزة والكسائي(ولاتقتلوهم حتى يقتلوكم) (فان قتلوكم) بغير ألف، بدلا من قراءة الباقين بألف في جميع ذلك.[2]، فقد بين أن وجه القراءة الاولى" انه جاء في كلام العرب اذا قُتِلَ بعضُهم قالوا قُتلنا. فتقديره: حتى يقتلوا بعضكم"[3] ومراده أن هذه القراءة مبنية على ضرب من المجاز عرفته العرب في كلامها وتحاورها، وهو ذكر الكل وارادة الجزء، كما قال سبحانه(جعلوا أصابعهم في آذانهم)[4]، مع أن المجعول فيها بعض الأصابع وهو أطرافها، لا جميعها. وبين في موضع آخر أن أهل الكوفة قرؤوا قوله تعالى(سحْرانِ تظاهرا)[5]بغير ألف، وأن الباقين قرأوها:(ساحِرانِ تظاهر) بألف. ثم قال: " ومن اختار" ساحران" فلانه قال:(تظاهرا)، وذلك انما يكون بين الساحرينِ دون السّحرين، ومن قرأ(سحران) قال: في ذلك ضرب من المجاز، كما قال: (بكتاب من عند الله هو أهدى). والكتاب يهتدى به ولايهدي، وانما يقال ذلك مجازاً.[6]

وكما رد الطوسي آية الى أخرى ليفسرها بها، ردّ بعض القراءات الى بعض ليحتج لها, فالآية تكون عنده قرينة على أخرى في تبين وجوه القراءات وعللها فنراه مثلا في قراءة قوله تعالى(ووَصّى بها ابراهيم بنيه ويعقوب)[7]،يبين أن أهل مكة والبصرة والكوفة قرأوا كلمة " وصّى" مشددة الصاد، وأن أهل المدينة وابن عامر قرأوا (أوصى). ثم أورد حجة الفريقين وساوى بينهما في القوة والدلالة، فقال :" ومن قرأ(وصّى) ذهب الى قوله:" فلا يستطيعون توصيِة".. ومن قرأ(أوصى) فلقوله(من بعد وصيةٍ يوصي بها) وكلاهما جيدان"[8]. فلم يختر واحدة

---

(1)التبيان ٣/١٣٩. وانظر ابن مجاهد ص٢٢٨.
(2)في سورة البقرة: ١٩١.
(3)التبيان: ٢/١٤٦.
(4)البقرة:١٩.
(5)القصص:٤٨.
(6) التبيان:٨/١٥٧-١٥٨.
(7)البقرة:١٣٢.
(8)التبيان ١/٤٧٢.

منهما، على حين اختار مكي القراءة الأولى، لما في التشديد من المبالغة في المعنى، ولاتفاق أكثر القراء عليها.[1].

ويبين الطوسي أن مصاحف الأمصار المشهورة، كمصحف أهل الشام وأهل البصرة، حجة للقراء وسند لهم في قراءاتهم. اذ وافقوا تلك المصاحف المجمع عليها في أمصارهم، فيما قرأوا من قراءات. ففي قراءة الآية ٧٥ من الاعراف يذكر ان عبد الله بن عامر، قارئ الشام الكبير، قرأ (وقال الملأ)، بزيادة واو. ثم يقول مستمدا من ابن مجاهد:" وكذلك هي في مصاحف أهل الشام"[2]. وفي قراءة الاية ٨٨ من سورة" المؤمنون" يذكر أن أبا عمرو- إمام قراء البصرة- قرأ (سيقولون الله) بألف، وأن الباقين قرأوا: (لله) بغير ألف. ثم يقول: وذكر أنها في مصاحف أهل الامصار بغير ألف، وفي مصحف أهل البصرة بألف.[3].

ويشعرنا الطوسي في أحد المواضع أن من القراء من يجعل بعض المصاحف الخاصة التي اشتهرت عن عدد من الصحابة حجة له في قراءته، من دون أن يخرج فيها عما يحتمله خط المصحف. فذلك ما يبينه في قراءة قوله عز وجل(ويَقْاتلونَ الذين يأمرون بالقسط)[4]، فيقول:" قرأ حمزة ونصير:ويقاتلون الذين[5] يأمرون" بألف ، لأن في مصحف عبد الله- يريد ابن مسعود- (وقاتلُوا). ثم يرجح قراءة الاكثرين على هذه القراءة فيقول:" والاجود ماعليه الجماعة".[6]

ويشعرنا في موضع آخر أن من القراء من كان يحتج لقراءته بقراءة بعض الصحابة فيبين في قراءة الآية ٣٥ من سورة" المؤمن" أنه" قرأ أبو عمرو، والاخفش والداجوني عن هشام، وقتيبة[7](على كلِ قلبِ متكبرٍ) منوناً، والباقون

---

[1]) مكي: الكشف عن وجوه القراءات ١/١٢٦.

[2])التبيان ٤/٤٥١. وقارن بكتاب السبعة لابن مجاهد ص ٢٨٤.

[3]) التبيان ٧/٣٨٩. وانظر ابن مجاهد ص٤٤٧

[4]) آل عمران:٢١.

[5])نصير: هو نصير بن يوسف الرازيِ النحويِ أخذ القراءة عن الكسائي. توفي في حدود ٢٤٠. انظر ابن الجزريِ: غاية النهاية ٢/٣٤٠-٣٤١.

[6]) التبيان ٢/٤٢٣. وانظر ابن مجاهد ص ٢٠٣.

[7])انظر الدمياطي: اتحاف فضلا البشر ص ٣٨٧-٣٨٨ والاخفش والداجوني وهشام شاميون من رواة قراءة عبد الله بن عامر احد السبعة. قرأ الاخفش علي هشام بن عمار المتوفى سنة ٢٤٥ هـ(انظر الذهبي: معرفة القراء الكبار ١/١٩٩-٢٠٠. وأخذ الداجوني الكبير محمد بن احمد المتوفى سنة ٣٢٤هـ القراءة عن اصحابه عن هشام. انظر: الدمياطي: اتحاف فضلاء البشرص ٨. وأخذ هشام القراءة عن ابن عامر بسند كما تقدم بيانه سالفا. وقتيبة : هو قتيبة بن مهران الكوفي، أخذ القراءة عرضا وسماعا عن الكسائي توفي قبل المئتين للهجرة بقليل. انظر: ابن الجزري: غاية النهاية ٢/٢٦-٢٧.

على الاضافة" يريد: على كلِّ قلب متكبر". ثم يوضح وجه القراءتين وحجج الفريقين فيقول:" مَن نوّنَ جعله نعتا للقلب، لان القلب اذا تكبر تكبر صاحبه كما قال: (فظلّت اعناقهم لها خاضعين). لان الاعناق اذا خضعت خضع أربابها.. ومن أضاف قال: لأن في قراءة ابن مسعود(على قلب كلِّ متكبرٍ جبارٍ).[1].

ولم يقف الطوسي عند توجيه القراءات المشهورة وبيان عللها وحجج القراء فيها فحسب، بل أبدى رأيه في طائفة منها، بترجيح بعضها على بعض واختيار مارآه الاقوى منها، وتضعيف البعض الآخر، أو استحسان الجميع، واستبعاد ماعدّ خطأ من القراء بحمله على وهم الراوي، وغير ذلك مما تبدو فيه شخصيته ناقدة ممحصة لاتقف عند حدود جمع الآراء وتدوينها، وكأنه لحظ قول أبي بكر بن مجاهد في أول كتاب السبعة من أن" ماروي من الاثار في حروف القرآن منها المعرب السائر الواضح، ومنها المعرب الواضح غير السائر، ومنها اللغة الشاذة القليلة ، ومنها الضعيف المعنى في الاعراب ، غير أنه قرئ به ومنها ماتوهم فيه فغلظ به- فهو لحن غير جائز- عند من لايبصر من العربية الا اليسير، ومنها اللحن الخفي الذي لايعرفه الا العالم النحرير وبكل قد جاءت الآثار".[2]

وأهم ما اعتد به الطوسي في ترجيح القراءات عند الموازنة بينها، إجماع القراء على قراءة واحدة، أو اتفاق جمهورهم والكثرة الكاثرة منهم عليها. وهذا الاصل معتمد عند مكي بن ابي طالب خاصة، وقد أخذ به في مواضع كثيرة من كتابه" الكشف"[3]. وهو بعد قائم على اصول الرواية عند الطوسي، اذ هو يعتد بالمجمع عليه، وبما عليه الاكثرون، كما رأينا ذلك في تعامله مع المنقول في التفسير، ولا يطمئن اطمئناناً كافيا للقول المفرد والرواية الشاذة. غير أنه، فيما يتعلق بالقراءات المشهورة، لايعد القراءة المخالفة لجميع القراء أو أكثرهم ضعيفة أو شاذة، اذ صحت عنده ولم يجد فيها مايضعفها، وانما يرجح ماعليه الاكثرون عليها، أو يختاره دونها. وآية ذلك أنه ذكر في قراءة قوله تعالى (وأرنا مناسكنا)،[4] أن الاختيار في " أرنا" كسر الراء، وأنها قراءة الجمهور، وأن ابن

([1])التبيان ٧٤/٩.
([2]) ابن مجاهد: كتاب السبعة ص ٤٨.
([3])انظر مثلا ١٢٦/١ في قراءة " وصّى": و١٧/٢ في قراءة "كذبوا".
([4]) البقرة : ١٢٨. وانظر ابن مجاهد ص١٧٠.

كثير سكّنها، وفي بعض الروايات عن أبي عمرو، على وجه التشبيه بما يُسكّن في مثل كبد وفخذ. واحتج لها بقول أبي النجم العجلي[١].

لو عُصرْ منهُ المسكُ والبانْ انعَصَرْ[٢]

فاختار قراءة الجمهور دون قراءة ابن كثير وأبي عمرو، بعد أن احتج للاخيرة ببعض المأثور من اشعار العرب. وهذا دليل على أن لها وجها في العربية عندد، فهي على هذا مقبولة وان لم تكن المختارة.

وذكر في قراءة قوله تعالى(ولا يحسبنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم)[٣]، أنّ حمزة قرأ(ولا تَحسبنّ) بالتاء المعجمة من فَوق" وأن الباقين قرأوا بالياء، ثم قال: " وهو الأقوى لان عليه أكثر القراء"[٤]. فرجح قراءة الاكثرين على قراءة حمزة لانفراده بها دون الباقين.

وعلى أساس من قواعد النحو رجح الطوسي بعض القراءات على بعض، وان لم يقل بضعفها، وضعف أخرى ونصّ على ذلك. فمن الاول قراءة أكثر القراء في قوله تعالى(ولايَحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم)[٥] بالياء وفتح السين، فقد رآها أقوى من قراءة حمزة(ولاتحسبن) بالتاء وفتح السين. وعلة ذلك:" أن حَسبتُ يتعدى الى مفعولين و " أن" على تقدير مفعولين لأن (أنما نملي لهم خير لانفسهم) سد مسدّ المفعولين اللذين يقتضيهما" يحسبن"[٦]. وهذا يعني قوة القراءة التي بالياء. وكأنه لم ير لقراءة حمزة وجها نحويا قوياً أو مساويا لهذه القراءة. على حين وجد لها مكي ذلك الوجه فجعل" الذين كفروا "مفعولاً اولا للفعل" تحسَبُ" و" أنما"[٧]وما بعدها بدلا من المفعول الاول في موضع نصب" فيسد مسد المفعولين كما لو لم يكن بدلاً. وقدّرَ" هاء" محذوفة في " نملي" وجعل معنى الكلام:" ولا تحسبن يامحمد الذين كفروا أن الذي نمليه لهم خير لانفسهم".[٨]وهذا الاعراب

---

(١)انظر البيت في : المنصف لابن جني١/٢٤. والمخصص لابن سيدة ١٤/٢٢٠.

(٢)التبيان ١/٤٦٦.

(٣)آل عمران : ١٨٠.

(٤)التبيان ٣/٦٣.

(٥) آل عمران :١٧٨.

(٦)التبيان٣/٥٨-٥٩.

(٧)ضبطها محقق الكشف:" إنما" بكسر الهمزة. والصحيح ماأثبتناه، وهو فتحها. اذ هو المروي عن حمزة دون غيره.

(٨)مكي: الكشف عن وجوه القراءات ١/٢٦٦.

ذهب اليه من بعد ابو البركات الأنباري في كتابه" البيان في غريب اعراب القـوآن"، عندما عرض لاعراب القراءتين، وبين وجه قراءة الاكثر كما بينه الطوسي، الا أنه لم يرجحها على قراءة حمزة من الوجهة النحوية، بل اكتفى ببيان وجهها النحـوي كما أسلفا[١]، وكذلك كان موقف مكي. ومن الثاني الذي ضعفه على أساس نحـوي أيضا، قراءة عبد الله بن عامر برفع(ميتة) في قوله عزّ وجل: " قل لا أجـد فيمـا أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة.."[٢] ،بدلا من قراءة الباقين بنصبها. فقد وجه هذه القراءة بأن (ميتةٌ) فيها ، فاعل للفعل" يكون" الذين هو هنـا فعل تام، وليس فعلا ناقصا يدخل على المبتدأ والخبر. ثم ضفها بعد ذلـك بقرينـة السياق في الآية نفسها فقال: " وهذه القراءة ضعيفة، لأن مابعده(أودماً مسـفوحاً أو لحم خنزير) بالعطف عليه".[٣]ومراده أن المعطوف والمعطوف عليه متشـاكلان في الحكم الاعرابي، واذا فلا بد من نصب" ميتة" في الآية الكريمـة، لان مـاعطف عليها منصوب. وتلمس ابن الانباري وجها لقراءة ابن عامر،فقال:" وكان يلزم مـن قرأ ميتة بالرفع أن يكون: أودمٌ مسفوحٌ، بالرفع وكذلك ما بعده الا أنه عطف علـى " أن" ولم يعطف على " ميتة".[٤].

وبنى الطوسي قوة بعض القراءات على ظواهر صوتية لغوية تتصل بمخـارج الحروف وجرسها وصفاتها ونحو ذلك مما عنى به القراء واللغويون قديما. فبيّـن في قراءة قوله تعالى: (ومافتلوه يقينا بل رفعه الله اليه)[٥]. أن من القـراء مـن أدغم اللام في الراء في " بَلْ رَفعهُ"، ومنهم من لم يدغمه. ولم يقـف عنـد بيـان صورة القراءتين، بل رجح الاولى منهما على أساس صوتي قائلا، وهـو الاقـوى لقرب مخرج اللام من مخرج الراء". ثم وازن بين هذا الادغام وادغام آخر قريـب منه إلا أنه عكسه فقال:" وهو أقوى من ادغام الراء فـي الـلام، لان فـي الـراء

---

(١)الأنباري: البيان في غريب اعراب القرآن ٢٣٢/١.

(٢) الانعام:١٤٥.

(٣)التبيان: ٣٠٣/٤.

(٤)ابن الانباري: البيان في غريب اعراب القرآن ٣٤٧/١.

(٥) النساء: ١٥٧.

تكريرا، فهو يجري مجرى الحرفين".[1] وعلة القرب بين اللام والراء الذي اشـــار اليه، أن كليهما من الحروف المذلقة التي تخرج من ذلق اللسان.[2]

وامتدت عناية الطوسي بخط المصحف ومراعاته له، الـى تحكيمـه فـي أداء القراءات وقفا ووصلا. فرأى أن الوقف على " لات" في قوله تعالى:(فنـادوا ولاتَ حين مناص)[3] يكون" بالتاء على قياس نظيرها من ثُمتْ ورُبتْ، لان ماقبلها ساكن" وبيّن أنه قول الفراء، وأن الكسائي كان يقف عليها بالهاء:" لاه" يجعل الألف فـي نية الحركة. ثم قال:" ومن زعم أنه (لاتحين) موصولة فقـد غلـط، لأنـها فـي المصحف وتأويل العلماء مفصولة"[4]. وكأن هذا رد على من لايجيز الوقوف على " لات" وحدها لأنها اذا كانت مفصولة في الخط- وهي كذلك- صح الوقوف عليـها، وامتنع اذا اوصلت بالحين، لانهما عندئذ في حكم الكلمـة الواحـدة. وقـد اختـار الطوسي الأقوى في الوقف على (لات)، اذ ليس وقف الكسائي هو المختـار فيمـا يبدو. وحكى خلافه كما ترى ، عن أقرب تلاميذه اليه وهو الفراء وأيضا بين مكـى أن" المعمول عليه بالتاء كما هي في الخط" وقال:" وهو الاختيار".[5]فكان اختيـاره طبقا للآشهر مراعاة لخط المصحف. غير أن الطوسي كان اختياره علـى أسـاس لغوي وهو القياس على النّظير كما بيناه آنفا، اعتمادا على قول الفراء. مع أن خط المصحف أقوى دلالة من ذلك لانه نص. وقد رسمت فيـه بالتـاء الطويلـة دون المدورة ولم يحكوا خلافا في ذلك، في أي مصحف من مصاحف الامصـار. وممـا يذكر للطوسي في هذا المقام، حمله لبعض القراءات المروية عن السبعة على وَهْـم الراوي لاخطأ القارئ. وهذا قائم عنده على الثقة بهؤلاء القـراء. فـنراه يحمـل ماروراه قنبل عن ابن كثير في قـراءة قولـه تعـالى(فطفـق مسـحاً بالسُـوْق والأعناقِ)[6]، بهمز (السوق) بدلا من تركه في قراءة الباقين، على وهم الـراوي فيحكى عن أبى مجاهد أن القراءة الصحيحة عن ابن كثـير (بالسُـؤوقِ) علـى "

---

(1)التبيان :٣/٣٨٥.
(2)القاري: المنح الفكرية على متن الجزرية ص ١٧.
(3)سورة ص: ٣.
(4)التبيان : ٨/٥٤٢-٥٤٣.
(5) مكي : الكشف عن وجوه القراءات ٢/٢٣٠.
(6)سورة ص: ٣٣.

فَعول". لان الواو لما ضُمتْ [1]همزها.[2] غير أن الطوسي لم يعدم توجيه القراءة المروية عن ابن كثير: السُؤق. بل حاول أن يتلمس لها وجها مقبولا في العربية، اذ ردها الى لغة من لغات العرب فقال:" ومن همز(سوق) فعلى لغة من قال: أحبُّ المُؤقدين إليَّ مؤسى، فهمز، أنشده أبو الحسن- يريد الأخفش- لأبي حية النميري"[3]. واضاف الى هذا الدليل الذي يعتمد على الرواية ، دليلا آخر من قبيل الدراية، وهو أن الوار لما لم يكن بينها وبين الضمة التي على السين حاجز، صار كآن الضمة عليها فهمزت.[4].

(٤)
القراءات الشاذة والاحتجاج لها

هناك خلاف في ماهية القراءات الشواذ، هل هي تتعين بعدد معلوم من القراءات، كالذي تجاوز السبع أو العشر، أو تتعيَن على وفق أصول أخرى لاعلاقة لها بالعدد؟ فابن جني يذكر في كتابه" المحتسب" أن أهل زمانه يعدون ماتجاوز القراءات السبع شاذاً،[5]وهذا المفهوم أصَلَه من قبل ابن مجاهد،[6]، ثم أخذ به الناس فيما يبدو، حتى انتهى الى أيام ابن جني فحكاه عنه، وألف كتابه في القراءات الشواذ على هذا الأساس. وكأنه لم يكن مقتنعا تمام الاقتناع بتسمية هذه القراءات جميعا شاذة حين قال في مقدمة كتابه المذكور: غرضنا منه أن نرى وجه قوة مايسمى الان شاذا"[7]. وكأنه لحظ أن الناس قد تتوهم أن ماعدا السبع بأجمعه واهن في فصاحته وعربيته، فأراد أن يسد هذا الباب فقال: "إلا أنه مع خروجه عنها- أي عن السبع- نازع بالثقة الى قرائه، محفوف بالروايات من أمامه وورائه. ولعله او كثير منه مساو في الفصاحة للمجتمع عليه[8] "وهذا يصدق بوجه خاص على القراءات الثلاث المتممة للعشرة، وهي قراءة أبي جعفر المدني

---

(1)في الاصل: ضُمنتْ. وهو خطأ النسخ أو الطبع.

(2)التبيان :٥٥٩/٨. وقارن بكتاب السبعة: لابن مجاهد ص٥٥٣-٥٥٤.

(3) ونسبه ابن جني في المحتسب ٤٧/١ لجرير. وروايته: لحبَ المؤقدان اليَ مؤسى. وهو غير موجود في ديوان جرير. وتتمته: وجعدة اذ أضارهما الوقود.

(4)التبيان: ٥٥٩/٨.

(5) ابن جني: المحتسب ٣٢/١.

(6)ضيف: مقدمة كتاب السبعة ص ١٩.

(7) ابن جني: المحتسب ٣٢/١.

(8)المصدر نفسه: المكان نفسه.

ويعقوب الحضرمي وخلف بن هشام البزار، اذ لم تعد هذه القراءات من الشواذ التي استقر في عرف العلماء عدم جواز القراءة بها بل غدت من القراءات المشهورة التي تجوز القراءة بها مع السبع. وقد نقل البغوي في تفسيره الاتفاق على ذلك،، وجزم به تقي الدين السبكي[1]. لان هذه القراءات لم ترد في رأي الجمهور آحادا، بل رويت مستفيضة، بل" في الصحيح المختار المشهور" متواترة كما يذكر الدمياطي،[2]ومتفقا على تواترها كما يذكر القسطلاني[3].

أما القراءات الاربع التي هي بعد العشرة، وهي قراءة ابن محيصن واليزيدي والحسن البصري والاعمش فقد اتفق على شذوذها.[4]. لعدم استفاضتها. وحكى الصفاقسي عن تقي الدين السبكي، أنه قال: " لاتجوز القراءة بالشاذ،والصحيح أنه ماوراء العشرة".[5] فحاصل هذه الاقوال ان الشاذ من القراءات ماتجاوز العشر، هذا عند الفقهاء والأصوليين والمحدثين خاصة.

اما عند غيرهم وهم الذين يطلق عليهم اسم المحققين مثل مكي بن ابي طالب وابن عبد البر وأبي شامة وابن الجزري وغيرهم ممن تابعهم ، فان القراءات لاتعد شاذة الا اذا خالفت الاسس الثلاثة التي اجمعوا عليها، أو خالفت بعضها. وكان ابو بكر بن مجاهد رحمه الله قد وضع هذه الاركان الثلاثة الاساسية في قبول القراءة، وهي أن تكون موافقة لخط المصحف العثماني، وان تكون منقولة عن الرواة الثقات، ولابد أن تكون موافقة للعربية.[6]" وبذلك درأ عن القراءات مزلات كانت توشك أن تقع فيها، حتى عند قراء مهمين في زمنه مثل : ابن مقسم العطار وابن شنَبوذ. ودرأ عن القراء بجانب ذلك اضطرابهم ازاء أئمة القراءات الكثيرين الذين أخذوا يعدون بالعشرات وتصنف فيهم المصنفات".[7]وعلى هذا الاساس المتين وقف علماء القراءات من بعد، قال مكي بن أبي طالب:" ان جميع ماروي من القراءات على ثلاثة أقسام: قسم يقرأ به اليوم، وذلك اجتمع فيه ثلاث خلال: وهي أن ينقل عن الثقات الى النبي(ص) ، ويكون وجهه في العربية التي نزل بها

(1)الدمياطي: اتحاف فضلاء البشر ص٦.
(2)اتحاف فضلاء البشر ص٩.
(3)لطائف الاشارات لفنون القراءات ص ٧٧.
(4) الدمياطي: اتحاف فضلاء البشر ص ٩٠٧.
(5)الصفاقسي: غيث النفع في القراءات السبع ص ١٨.
(6)ضيف: مقدمة كتاب السبعة لابن مجاهد ص٢٢.
(7)المصدر نفسه: المكان نفسه.

عن الثقات الى النبي(ص) ، ويكون وجهه في العربية التي نزل بها القرآن. شائعا،ويكون موافقا لخط المصحف. فإذا اجتمعت فيه هذه الخلال الثلاث، قرئ به وقطع بصحته وصدقه.لأنه أخذ عن اجماع من جهة موافقته لخط المصحف ..
والقسم الثاني: ماصح نقله في الآحاد وصح وجهه في العربية وخالف خط المصحف، فهذا يقبل ولا يقرأ به لعلتين: احداهما: أنه لم يؤخذ باجماع وانما أخذ بأخبار الاحاد. ولايثبت قرآن يقرأ به بخبر الواحد. والعلة الثانية: أنه مخالف لما قد أجمع عليه، فلا يقطع على صحته. وما لم يقطع على صحته لاتجوز القراءة به، ولا يكفر من جحده، وبئس ما صنع اذا جحده.
والثالث: مانقله غير ثقة أو نقله ثقة ولا وجه له في العربية. فهذا لايقبل وان وافق خط المصحف[1]، وهو نفيس. وقال في موضع آخر من كتابه" الإبانة":" وانما الاصل الذي يعتمد عليه في هذا أن ماصح سنده واستقام وجهه في العربية ووافق لفظه خط المصحف، فهو من السبعة المنصوص عليها".[2]ومضى على هذا الرأي من بعدُ ابن عبد البر يوسف بن عبد الله القرطبي،[3]الحافظ الفقيه العالم بالقراءات المتوفى سنة ٤٦٣هـ، المعاصر لمكي والطوسي، وأبو الخير محمد بن الجزري[4]، ومن تلاهما من القراء مثل الدمياطي[5]وغيره.
ولنا بعد هذا الذي أوردناه أن نسأل هذا السؤال : ماحكم القرأءة الشاذة عند الطوسي، وما الأسس التي اعتمدها في هذا الحكم؟ ثم كيف احتج لها وما أدوات هذا الاحتجاج؟.
وفي الجواب عن هذا نقول:" إن الذي تبين لنا من تتبع القراءات الشاذة في تفسيره ، أنه قد يتوقف في الأخذ بها، وقد يضعفها. من ذلك أنه بينّ في قراءة قوله تعالى(وقولوا للناس حُسْناً)[6] اعتمادا على ماحكاه الأخفش أنه قرئ في الشواذ" حسنى ". ثم بين حكم هذه القراءة مصحوباً بالتعليل المناسب ، وهو مخالفة العربية، فقال:" ولا يقرأ بها لشذوذها، لأن فُعلى وأفعل لايستعمل الا بالالف

---

(1) مكّي: الابانة عن معاني القراءات ص ١٨-١٩.
(2) نفسه ص ٥١.
(3) ابو شامة: المرشد الوجيز ص١١٥.
(4) النشر في القراءات العشر ٩/١.
(5) اتحاف فضلاء البشر ص ٦.
(6) البقرة : ٨٣.

واللام،نحو الأحسن والحسنى والأفضل والفضلى".واحتج له بقوله تعالى: (للذين أحسنوا الحسنى)[١]وبالمثل وصف قراءة الشعبي(فِعْلتك) بكسر الفاء في قوله تعالى: (وفَعلت فِعْلتك التي فعلت وأنت من الكافرين)[٢]، بأنها" شاذ لايقرأ به"[٣].
أما الأسس التي اعتمدها في الحكم على القراءة بالشذوذ، فأهمها وأظهرها مخالفتها لقراءة القراء. فهذا سبب قوي عنده في خروج القراءة من دائرة القبول الى وصف الشذوذ، ومن هذه القراءات ماقرأ به بعض الأربعة الذين بعد العشرة، مثل الحسن البصري الذي يذكر له الطوسي اكثر من قراءة ينعتها بالشذوذ، كقراءة (الملائكةُ) في قوله تعالى: (أولئك عليهم لعنةُ اللهِ والملائكة والناس أجمعين)[٤]فقد بيّن أنها حكيت عن الحسن بالرفع، ووجهها بالحمل على معنى يلعنهم الله والملائكة والناس أجمعون، واحتج لها بلغة التخاطب"كما تقول: عجبت من ضرب زيد وعمرو، بالرفع" ثم بيّن رأيه فيها قائلاً: وهذه قراءة شاذة لايعول عليها، لان المعتمد ماعليه الجمهور"[٥]. فالمراد بالجمهور هنا جمهور القراء اذ قراءتهم مقبولة من غير ريب.

وعلى الرغم من أن الطوسي يستجيد معاني كثير من القراءات الشاذة ويحتج لها لايتساهل في حكمها، وحجيتها من حيث القراءة بها، بل يلتزم بالمجمع عليه من عدم جواز القراءة بها. والأصل الذي اعتمده في هذا لاخلاف فيه بين أهل العلم، وهو أن القراءة سنّة متبعة يأخذها الاخر عن الاول والجمع عن الجمع. فما لم يكن متبعا منها مجموعا عليه لدى أهل الانصار، لايقرأ به في رأيه، وأن جاز أن يكون له اعتبار في غير القراءة كاللغة والنحو وغيرهما. فهو يذكر مثلا عدة قراءات في قوله تعالى (وعبد الطاغوت)[٦]،منها قراءة الاكثرين وعَبَد الطاغوت) بفتح الباء والدال ونصب التاء، ومنها قراءة حمزة- وهو من السبعة- (وعبُد الطاغوتِ) بضم الباء وخفض التاء" التي وجهها بأنه يريد: خدم الطاغوت، في قول الاعمش ويحيى بن وثاب، ومنها قراءة أبيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود(وعَبَد

---

(١)التبيان ١/٣٢٩-٣٣٠ والآية من سورة البقرة: ٨٣.
(٢)الشعراء : ١٩.
(٣)التبيان ٨/١٢.
(٤) البقرة : ١٦١.
(٥)التبيان ٢/٥٠.
(٦)المائدة : ٦٠.

الطاغوت) على الجمع التي نقلها عن الفراء، وبين أن معناها" الذين هم عبد الطاغوت... مثل: ثمار وثُمر،وعبيد وعُبد. على أنه جمعُ جمعٍ "، ثم قال: وحكى في الشواذ(وعُبد الطاغوتُ) على مالم يسم فاعله، ذكره الرماني.. وحكى البلخي(عابد الطاغوت)، و(عبد الطاغوت) مثل شاهد وشُهدّ وحكى أيضا: عباد الطاغوت"مثل كافر وكُفّار. ولا يقرأ الا بقراءتين أو ثلاث لان القراءة متبوعة يؤخذ بالمجموع عليه".[1]وقد أوصل ابن جني هذه القراءات الى عشر، كما نص على ذلك في أول كلامه عليها[2]،وفيها قراءتان لم يذكرهما الطوسي هما:(وعُباد الطاغوت) التي وصفها بأنها قراءة البصريين، و(عبد الطاغوت) كصُرد، وقد نسبها لعبد الله بن مسعود.[3].

ومراد الطوسي بالمجموع عليه ما أجمع عليه أهل الامصار الاسلامية التي وجهت اليها المصاحف العثمانية، والتي ينسب اليها القراء المشهورون المجمع على قراءتهم في كل مصر. فاجماعهم على قراءة هو المعول عليه عنده، وما لم يجمعوا عليه مما نسب الى بعض القراء لايؤخذ به.

وكان الطوسي يضع القراءة الشاذة في مقابل القراءة المشهورة المجمع عليها. وهذا أمر طبيعي، لأن القراءة اذا خرجت عن المشهور دخلت في الشاذ. يقول في قراءة قوله عزّ وجل(قالوا نعبد الهك واله آبائك)[4]،"وقد قرئ في الشواذ(واله أبيك). ثم يقول: " والقراءة الاولى هي المشهورة وعليها القراء".[5]وتكون القراءة شاذة غير مقبولة في رأي الطوسي حين تخالف سنن العرب في التعبير أو لايكون لها اصل في كلامهم، فينهد بهذا الركن الثاني من أركان القراءة المقبولة، وهو موافقة العربية. فمن ذلك قراءة الحسن لكلمة"إنجيل" في قوله تعالى(وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه)[6]بفتح الهمزة بدلا من كسرها في قراءة القراء. فقد عدها الطوسي من الشاذ الضعيف، لانه ليس في كلام العرب

---

(1) التبيان ٣/٣ ٥٧-٥٧٤.
(2) ابن جني: المحتسب ١/٢١٤.
(3) نفسه ١/٢١٥.
(4) البقرة: ١٣٤.
(5) التبيان: ١/٤٧٦-٤٧٧.
(6) المائدة :٤٧.

شيء على وزن أفعيل"[1]. ومراده أن المعلوم في لغتهم" إفعيل" مثل إزميل وإبريق وإكليل ونحوها.

واذا خالفت القراءة القواعد الصرفية عدها الطوسي شاذة أيضا كقراءة ابن أبي اسحق لقوله تعالى: (تشابهت قلوبهم)[2]بتشديد الشين، في مقابل تخفيفها في قراءة جميع القراء. فقد بين أن الادغام في هذه القراءة" خطأ لأن ذلك انما يجوز في المضارع بمعنى تتشابه، فتدغم احدى التاءين في الشين[3]"ولم يشر ابن جني وابن خالويه لهذه القراءة، غير أن الثاني اشار الى مايشاكلها في قراءة قوله تعالى(ان البقر تشابه علينا)[4] ،فبين أن ابن مسعود قرأها بتشديد الشين.[5]واللغة معيار مهم عند الطوسي في قبول القراءة أو القول بشذوذها، فقد تكون القراءة شاذه، لورودها على لغة شاذة. وهذا لاخلاف فيه بين أهل العلم. لأن القرآن لم ينزل على مالا يعتد به من كلام العرب، بل نزل على وفق الفصيح المعتد به من كلامهم .[6]والطوسي يرصد مثل هذه القراءات التي جاءت على وفق ماشذ من اللغات، فيشير الى شذوذها أو شذوذ اللغة التي قرئت بها. يقول في قراءة (المرء) من قوله تعالى: (فيتعلمون منها مايفرقون به بين المرء وزوجه)[7]." وقرئ في الشواذ:" مابين المُرْءِ" بضم الميم وهي لغة هذيل"[8]. وهذه القراءة ذكرها ابن خالويه[9]وابن جني[10]،وعزواها الى ابن ابي اسحق. ونكر ابن جني أنها لغة في " المرء" دون أن ينسبها الى هذيل، ووجهها بنقل الضمة التي على الراء، في نحو قولك: هذا امُرؤٌ، الى الميم. لانها متحركة، كما يقول بعض العرب في الوقف: هذا بكر[11].ولم يوجهها الطوسي، بل اكتفى بحكايتها ونسبتها الى اللسان الذي قرئت به كما بيناه، ومنه ماذكره في قراءة:" الرفد" من قوله تعالى(بئس الرِّفْد

([1])التبيان: ٢/٥٤٢.
([2])البقرة: ١١٩.
([3])التبيان ٤٣٥/١.
([4])البقرة: ٧٠.
([5])ابن خالويه: مختصر في شواذ القرآن ص ٧.
([6])ابو شامة : المرشد الوجيز ص ١٣١.
([7])البقرة :١٠٢.
([8])التبيان: ٣٧٩/١.
([9])مختصر في شواذ القرآن ص٧.
([10])المحتسب ١٠٢/١.
([11])ابن جني : المحتسب ١٠٢/١.

المرفود)[1]، فقال:" رووي بفتح الراء في الآية وهي لغة شاذة"[2]. ومراده أن" الرِّفد " التي قرأها القراء بكسر الراء، وروي أنها قرئت بالفتح. ولم يذكر ابن خالويه وابن جني هذه القراءة في شواذ سورة هود، مع أنها على اصلهما في تمييز الشواذ، تعد شاذة. وكأن الطوسي استقاها من مصدر آخر في القراءات الشواذ.

وكثير مما أورده الطوسي من القراءات الشواذ المنسوبة لبعض السبعة مذكور في كتاب ابن خالويه، ويرجع شذوذ أكثرها عنده الى مخالفته العربية فمن ذلك ماذكره في قراءة قوله تعالى:(لمَنْ تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين)[3]، فقال" حكى عن عاصم في الشواذ:(لمِن تبعك) بكسر اللام، ويكون خبره محذوفا وتقديره: لمنْ تبعك النار". ثم بين علة ضعف هذا الوجه بقوله:" وليس بمعروف"[4]. والقراءة المشهورة لعاصم وبقية القراء بفتح اللام، على أنه جواب القسم بدليل قوله بعد ذلك:" لأملأن جهنم" وحيث تصدر القسم فالجواب له، كما يقول الطوسي[5]وهذه القراءة الشاذة غير ثابتة،فيما هدانا اليه البحث، عن عاصم، اذ نسبها ابن خالويه الى عصمة عنه.[6]وهو عصمة بن عروة احد الذين رووا القراءة عن عاصم وعن أبي عمرو بن العلاء وغيرهما. وروي عنه الحروف يعقوب الحضرمي[7]غير ان حالة لم تكن معروفة من حيث الجرح أو التعديل،فقد" سئل عنه أبو حاتم فقال:" مجهول"[8]. والمجهول في اصطلاح المحدثين من لم تعرف دالته.[9]واذا كانت هذه حاله وصفته، فاحتمال وهمه وعدم ضبطه جائز. فهذه القراءة اذاً غير ثابتة عن عاصم، وايراد الطوسي لها بصيغة التضعيف(حُكي) يشعر بعدم اطمئنانه الى صدورها عن عاصم، وانما اشار اليها وفقا لمنهجه في ايراد القراءات الشاذة. هذه أظهر الأسس التى اعتمدها الطوسي في عد القراءة شاذة، الا أنه مع قوله بشذوذ طائفة من القراءات وعدم جواز القراءة بها ،

---

(1)هود: ٩٩.
(2)التبيان ٦/٦١.
(3)الاعراف: ١٨.
(4)التبيان ٤/٣٦٦.
(5)التبيان: نفس المكان.
(6)ابن خالويه: مختصر في شواذ القرآن ص ٤٢.
(7)ابن الجزري: غاية النهاية ١/٣٤٧ و ٥١٢.
(8) ابن الجزري: غاية النهاية ١/٥١٢.
(9)ابن حجر: شرح نخبة الفكر ص ٤٠.

ولايغفل مالها من اعتبارات وقيم معنوية ولغوية ولا يهمل توجيهها والاحتجاج لها، بما يعضد تلك الاعتبارات المقبولة منها اذ أن شذوذ قراءة ما، لايعني فقدها لجميع صفات القراءاة المقبولة دائما، بل هي كثيرا ما تحتفظ بأكثر من صفة من تلك الصفات التي جعلت الامة تتلقى القراءات المشهورة بحسبها بالقبول والتصحيح. فهو يرى أن بعض القراءات الشاذة لا يباين القراءات المشهورة في المعنى، وانما يوافقها فيه، وان اختلف وإياها في صفات أخرى كالتقديم والتأخير والحركات والسكنات ونحو ذلك. فلا يرى فرقا في المعنى في قراءة قوله تعالى (وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولاتُظلمون)[1]، بين فتح التاء في (تظلمون)، الأولى وضمها في الثانية في قراءة المشهورين، وبين ماروي في الشواذ بعكس ذلك: (لاتُظلَمون ولاتظلِمون)، بل يرى أن "المعنى واحد وانما فيه تقديم وتأخير"[2].وهو لاينكر أن من القراءات الشاذة ماهو جيد المعنى،[3]كقراءة (امّا أنا خيرٌ) التي نقلها عن الفراء في قوله تعالى(أمْ أنا خيرٌ)[4]. وقراءة (فأمْتِعْهُ ثم اضطرَّه) في قوله تعالى(ومن كفر فأمتِعهُ قليلا ثم أضطرُّه الى عذاب النار وبئس المصير)[5] ،ولكنه يرى ان المشهورة أجود لأنها:" قراءة الجماعة"[6]، بعد أن يوجه الثانية منهما توجيها بلاغيا سليما، فيبين أن ذلك دعاء بصورة الأمر" على أن يكون ذلك سؤالا[7] من ابراهيم، أن يمتع الكفار قليلا ثم يضطره بعد ذلك الى عذاب النار".[8].

اما موافقة الشواذ للعربية في كثير من الأحيان، فان الطوسي يكشف عنها في اكثر من قراءة، سواء تعلقت بالنحو أم بالصرف أم باللغة. كما أنه يحتج لها بالشواهد المتنوعة. وقد اتضح ذلك فيما أسلفناه، اذ رأيناه يحتج لطائفة منها بكلام العرب. ويذكر نظائرها في العربية، وعدم مجافاتها للقياس فيها.

وبه نكتفي عن ضرب مزيد من الامثلة.

---

(1)البقرة: ٢٧٩.

(2) التبيان ٣٦٨/٢.

(3) التبيان٢٠٧/٩.

(4) الزخرف:٥٢. وقارن بمعاني القرآن للفراء ٣٥/٣.

(5) البقرة : ١٢٧: وقارن بالمحتسب لابن جني١٠٤/١ وقد نسب تلك القراءة لابن العباس.

(6) التبيان ٤٥٨/١.

(7)أي دعاء ورجاء.

(8)التبيان ٤٥٧/١-٤٥٨.

ومما تجدر الاشارة اليه هنا، ان الطوسي لم يعد القراءات الثلاث بعد السبع شاذة. وقد رأيناه في صدر هذا الفصل يورد قراءة أبي جعفر المدني- ثامن القراء العشرة- في مقابل قراءة السبعة، من غير ان يعدها شاذة. وكذلك فعل في كل ما أورده من قراءات للثلاثة الذين هم تتمة العشرة. وهو موقف سليم يحمد عليه الطوسي، اذ أن قراءة هؤلاء مشهورة أيضاً، ويقرأ بها عند جمهور العلماء كما بيناه سالفا. كما أنه لم يصف أية قراءة مجمع عليها من القراءات المشهورة بالشذوذ.

(٥)

اللهجات

عني الطوسي في تفسيره باللهجات العربية عناية فائقة، فننثرها في عدة جوانب منه، وخاصة جانب القراءة، اذ كان يعزو طائفة من القراءات الى مصدرها من لسان العرب، توجيها لها وبيانا لحجيتها. فمن ذلك ماأورده في قراءة قوله عز وجل(الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أماتـهم ان امهاتـهم الاّ اللائي ولدنهم)[١]، فقال:" قرأ المفضل عن عاصم:(ماُهنّ أمهاتَهمْ) على الرفع، على لغة بني تميم. والباقون بنصب (اُمهاتِهم) على لغة أهل الحجاز، وهن لغة القرآن، كقوله (ماهذا بشَراً)[٢]. وكثيرا مايشير الى أن القراء قرأوا بأشهر اللغات وافصحها، كما في قراءة الآية ٥٩ من البقرة التي بين فيها أنهم أجمعوا على قراءة (يَفسُقونَ) بضم السين، ثم قال" وهو أشهر اللغات. وقد حكى في بعض اللغات بكسر السين".[٣]. ولغة الحجاز في آية الظهار أيضا أشهر، او على حد تعبير ابن جني:" أسيَر استعمالاً" ولذلك لم يجوزّ أن يستعمل المتكلم غيرها، لأنّ القرآن نزل بها. على حين وصف لغة تميم بأنها" اقوى قياساً "لأن"ما" مثل" هل" في دخولها على صدري الجملتين: الفعل والمبتدأ.[٤].

وكثير من هذه اللهجات عزاه الطوسي الى مصدره من لسان العرب، أي الى القبائل العربية التي كانت تتحاور به. ومنها ما أورده من غير عزو الى قبيلة

---

(١)المجادلة : ٢.

(٢)التبيان ٩/٥٤٠. والآية في سورة يوسف: ٣١.

(٣)التبيان ١/٢٦٨.

(٤)ابن جني: الخصائص ١/١٢٥.

معلومة. ومنها مابناه على أقوال كبار اللغويين ومشاهير المفسرين ونـص علـى ذلك. واحتج لطائفة منها بالمأثور من كلام العرب، وخاصة الشعر. اذ أولاه في هذا الموضوع عناية واضحة، وعلل ماصحب بعض اللهجات ولابسه من ظواهر لغويـة متباينة بعلل قائمة على علاقة الأصوات اللغوية بعضها ببعض، كتماثل مخارجـها وتقاربها ونحوهما مما عني به علم اللغة قديما وحديثا.

ويمكن ارجاع اللهجات العربية التي عرض لها الطوسي فـي تفسـيره الـى ظواهر لغوية متعددة منها اختلاف القبائل في الحركات والسكنات، وهو الاختـلاف الذي يرجع الى حركة فاء الكلمة أو عينها. وذلك كثير بينهم، شائع فـي السـنتهم وقد يصل في اللفظة الواحدة الى ست صور هي أقصى ماعرف بينهم من اختـلاف في هذه الظاهرة، كما يذكر ابن فارس.[1]في تفسير قوله عز وجل(قـالوا أتتخذنـا هزوا)؟[2]يذكر الطوسي عند كلامه على (هزواً) ونظيرتيها(كفواً) و (جـزواً)، أن " أهل الحجاز يُثقلون هذه الكلمات، وبنو أسد وتميم وعامة قيس يخففونهن"[3]. ولغة هذه القبائل الثلاث من مجموعة اللغات التي كانت سائدة في المجموعـة الشـرقية من بلاد العرب، وهي التي يطلق عليها القدامى من علماء اللغة اسـم لغـة نجـد. وهي تختلف عن لهجات المجموعة الغربية التي تتمثل بلغة الحجاز او لغة قريـش كما تسمى. وكلاهما تؤلف اللغة العربية الشمالية التي جـاءت الينـا بـها الآثـار الادبية.[4]والمراد بالتثقيل الذي ذكره الطوسي التحريك، وهو في هذه الكلمات ضـم فاءاتها. والمراد بالتخفيف التسكين لان السكون حركة خفيفة على اللسان، ولـهذا مالت اليها هذه القبائل. والمعروف عن تميم أنها تؤثر المقاطع الساكنة،وتفر مـن توالي المقاطع المتحركة ولهذا قالوا في " :فَخِذ:" "فَخْـذ"[5]. وفـي تفسـير قولـه تعالى:(فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا)[6]، بين الطوسي أن الكسـائي قـرأ" بزُعمهم بضم الزاي، وأن الباقين قرأوا بفتحها. ثم قال" وفي " الزعم" ثلاث لغـات :

([1])الصاحبي في فقه اللغة ص ٣٨.
([2]) البقرة:٦٧.
([3]) التبيان ١/٢٩٣.
([4])حمودة: القراءات واللهجات ص٣٤/٣٦.
([5])أنيس اللهجات العربية ص ٢٤.
([6])الانعام:١٣٦.

الفتح والضم والكسر، مثل: فتْك وفُتْك وفِتْك، وقَبل،ووقُبــل وقبـل،ووَد ووِد ووُد.. فالفتح لغة أهل الحجاز، والضم لغة تميم، والكسر لغة بني قيس".[1].

ولا يجيز الطوسي القياس في الحركات والسكنات على بعض لهجات العــرب، لان هذا عنده، فيما يبدو، قياس على القليــل، وهــو مــا لايــراه اتباعــا لــرأي البصريين[2]وآية ذلك أنه بين أن جمَل وجَبَل لايسكنان قياسا علــى درْك ودَرك: لان مثل ذلك لايجوز تسكينه" اذ إن دَرْك ودَرَك" لغتان مثل شَمْع وشمَع ونهْر ونهر".[3]

ومن هذه اللهجات التي ذكرها الطوسي في تفسيره ما يرجع الاختلاف فيه الــى التذكير والتأنيث. فقد تُذكرّ احدى القبائل لفظة، على حين تؤنثــها أخــرى. وهــذه الظاهرة رصدها الطوسي في اسم الجنس الجمعي بين قبائل الحجاز وقبائل نجــد، وذلك حين فسّر قوله تعالى (ان البقرة تشابه علينــا)[4]، فقــال:" وأهــل الحجــاز يؤنثون البقرة، فيقولون: هذه بقرة، وكذلك النخْل. وكل جمع كان واحــده بالــهاء وجمعه بطرحها، فأنهم يؤنثون ذلك، وربما ذكرّوا، والاغلب عليهم التأنيث، وأهــل نجد يذكرون وربما أنثوا، والتذكير الغالب".[5]

ومنها مايرجع الاختلاف فيه الى الابدال، وهي الظاهرة التي اشتهرت وشــاعت بين القبائل العربية، كابدال الزاي سيناً، والسين تاء، والثاء فــاء. والبــاء ميمــاً، والزاي تاء ونحوه مما تحدثت به المصادر المعتمدة في اللغة كخصائص ابن جنــي وغيره. فالطوسي يذكر في تفسير قوله تعالى(فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً مــن السماء بما كانوا يفسقون)[6]، أن " الرجز في لغة أهل الحجاز: العذاب، وفي لغــة غيرهم: الرجس، لأن الرجس الشر، ومنه قوله عليه السلام فــي الطــاعون: إنــه رجسٌ عُذِّبَ به بعضُ الامم" ثم يقول :" وقال أبو عبيدة: الرجز والرجس لغتان مثل الزَرع والسَرع، والبْزاق والبُساق:"[7]. والمعروف عن القبائل العربية أنــها تنــوع هذا الابدال في بعض الألفاظ، فيرد على ألسنتها بثلاثة أصوات متقاربة المخــارج،

([1])التبيان ٢٨٤/٤.

([2]) هذا هو الظاهر من مذهبهم، غير أن ابن جني يرى أن " الناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ، وان كان غير ماجاء به خيرا منه" الخصائص ١٢/١.

([3])التبيان ٣٦٨/٣.

([4]) البقرة : ٧٠.

([5])التبيان ٢٩٨/١.

([6])البقرة: ٥٩.

([7])التبيان ٢٦٨/١.

كل قبيلة تختص بصوت أو أكثر، كما في" صقر".فقد نطقه بعضهم بالسين فقال:" سقر"، وبعضهم بالزاي فقال:"زقر"[1]. وعلة ذلك أن بعض البيئات تميل الى جهر الاصوات عند النطق بها، وأخرى تميل الى همسها" فكل سين عند الحضريين قد ينطق بها زايا عند البدو".[2]اذ السين صوت مهموس، والزاي صوت مجهور، وان كان كلاهما من أصوات الصفير.[3]ومثل السين في صفة الهمس الصاد، ولهذا قلبوها زايا لتقارب الدال بالجهر، فقالوا في :"فُصدَ له: فُزد له"[4] والطوسي يعد السين والتاء مبدلتين من الزاي في بعض اللغات، ويعد التاء مبدلة من السين في أخرى، وكأنه يجعل ماكان أكثر في الاستعمال هو الاصل، وذلك هو المعتمد عند ابن جني. [5]

وفي تفسير قوله تعالى(قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب)[6]يذكر أن الرجس: العذاب، ثم يقول:"وقيل: الرجس والرجز واحد، فقلبت الزاي سينا، كما قلبت السين تاء في قول الشاعر:

ألا لحى اللهُ بني السَعْلاة عمرو بن يربوعٍ لئام النات

ليسْوا بأعفاف ولا أكيات

يريد: الناس وأكياس".[7]والاخيرة لغة أهل اليمن،[8]وقد ذكرها ابن جني وعدَّ منها هاتين الكلمتين، وأورد هذا الشاهد باختلاف في بعض الفاظه[9] والمسوّغ الصوتي لانقلاب السين تاء تقاربهما في المخرج، وكون كل منهما صوتا مهموسا.[10].

---

(1)ابن جني: الخصائص ١/ ٣٧٤. وروي في ذلك عن الاصمعي.

(2)أنيس : اللهجات العربية ص ٧١.

(3)القارئ: المنح الفكرية على متن الجزرية ص ١٨. ووافي: فقه اللغة ص ١٦٢.

(4)ابن جني: الخصائص ١٤٤/٢.

(5) ابن جني: الخصائص ٨٤/٢.

(6)الاعراف :٧١.

(7)التبيان ٤٤٦/٤.

(8)انيس: اللهجات العربية ص ٧٦.

(9) ابن جني: الخصائص ٥٣/٢. وروايته فيه: ياقاتل الله بدلا من الا لحي الله وغير أعفاء بدلا من ليسوا بأعفاف. والمعاني متقاربة. وفي مخصص ابن سيده ٢٨٣/١٣: ياقبَح الله. وشرار بدلا من لئام و ليسْو أعفاء بدلا مما في التبيان والخصائص.

(10) انيس: اللهجات العربية ص ٧٦.

وفي تفسير قوله عز وجل(انا خلقناهم من طن لا زب)[1]، يذكر الطوسي أن بعض بني عقيل يبدلون من الزاي تاء، يقولون: لاتب، ويقولون: لزب ولتب[2] . وهذا كما ترى انتقال من صوت مجهور الى آخر مهموس.

ويجعل الطوسي الميم أصلا للباء في بعض اللغات ، فيذكر في تفسير هذه الآية أن أصل:لازب" لازم، فأبدلت الميم باء" وعلة ذلك عنده" لانها من مخرجها، يقولون" طين لازب وطين لازم" واحتج لما ورد في القرآن بقول النابغة الذبياني[3] .

ولايحسبون الخير لا شرَّ بعده *** ولايحسبون الشرَّ ضربة لازب[4]

ومراده من قوله" لانها من مخرجها"، ان كلاً من الباء والميم صوت شفوي[5]ولهذا كان أحدهما يحل محل الآخر في لغة مازن، يقولون: " باسْمُك بدلا من ماسْمُكَ"و"مَكرٌ" بدلا من " بكر".[6] غير ان هذا التسويغ ليس كافيا، فيما يرى الدكتور ابراهيم أنيس، بل يرى أن قلب الميم باء لابد أن يكون قد شاع في قبيلة من القبائل البدوية التي تميل الى الاصوات الشديدة- كما زن تميم وقيس دون مازن ربيعة التي هي أقرب الى البيئة الحضارية- لان الباء تختلف عن الميم في انها صوت شديد، وأن الميم صوت متوسط، هو أحد الاصوات المائعة"Liquids"[7]وقال ابن منظور:"واللازم: الثابت. وصار الشيء ضربة لازبٍ أي لازماً... هذه اللغة الجيدة. وقد قالوها بالميم، والأول أفصح" واستشهد ببيت النابغة الذي أورده الطوسي، ثم قال:ولازم لغية. وقال كُثيِّر فأبدل - يريد الباء ميما-:

فما ورق الدنيا بباقٍ لأهله** ولاشدةُ البلوى بضربة لازم

وحكى عن الفراء بعد ذلك، أن اللازب واللاتب واللاصق واحد.[8] ومن الابدال الذي ذكره الطوسي ابدال الثاء فاء في كلمة"جَدث"، فبين انها لغة أهل

---

(1) الصافات :١١.

(2) التبيان ٤٨٦/٨.

(3) ديوانه ص ٥٣ وأبو عبيدة: مجاز القرآن ١٦٧/١ . وابن منظور: لسان العرب مادة(لزب)٢٣٤/٢.

(4) التبيان ٤٨٦/٨.

(5) انيس: اللهجات العربية ص ٨٢.

(6) وافي: فقه اللغة ص ١٢٠.

(7) أنيس: اللهجات العربية ص ٨٢-٨٣.

(8) ابن منظور: لسان العرب مادة (لزب) ٢٣٤/٢.

العالية،[1]،وان لغة أهل السافلة بالفاء، يقولون:"ج دَف[2] وهذا الابدال اشار اليه ابن جني في " الخصائص"،ومثلله بـ"ثم""و"فم"و " الأثافي"و الأثاثي". وعد الثاء في الابدال الاول هي الأصل، والفاء في الابدال الثاني هي الاصل. وراعى في هذا الحكم كثرة الاستعمال.[3]ولهذا الابدال آثار في لهجاتنا الحديثة، فأهل مصر يقولون في "مثروم":مفروم" وكذلك بعض أهل العراق ،وأهل تعز وتربة ذبحان من بلاد اليمن، يقولون في "ثوم"" " فوم"[4]،وأهل الوسط منها يقولون في " م ثـل":"مفـل[5] وكذلك بعض أهل العراق.

ويبدو أن: الطوسي مقتصد في القول بالابدال اللغوي، وقد رأى أن الأهل والآل كلمتان اصيلتان في العربية، وليست احداهما مأخوذة من الثانية. وفرق بينهما معنويا، فجعل الأهل أعم من الآل، لانه يقال: أهل الكوفة، ولا يقال:آل الكوفة. ويقال: أهل البلد، ولا يقال: آل البلد. على حين يقال:آل فرعون لانهم مخصوصون بالقوم والاتباع،[6]وهذا مارآه ثعلب من قبل اذ بين أن الناس اختلفوا في الآل، فقالت طائفة منهم: الآل والأهل واحد. واحتجوا بأن الآل اذا صغر، قيل: أُهيل، فكان الهمزة هاء. كقولهم: هَنَرتُ الثوبَ أنرتُهُ. اذا جعلت له علماً. وبين أن الفراء حكى عن الكسائي في تصغير آل: أوَيل، ووجد فيه دليلا على أن الآل والأهل اصلان لمعنيين.[7] .

وعرض الطوسي لبيان ظاهرة القلب المكاني في ألفاظ معينة من لسان العرب. وهي التي يختلف فيها ترتيب الأصوات في كلمتين، مع اتحادهما في الدلالة . فذكر في تفسير قوله تعالى(يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت)[8]، أن قريشا وغيرهم من الفصحاء يقولون: صاعقة وصواعق ، والقوم يُصعقون. وأن تميما وبعض ربيعة يقولون: صواقع، القوم يَصْقعون.[9]وهذه الظاهرة معروفة

([1])العالية: مافوق ارض نجد الى أرض تهامة والى ماراء مكة المكرمة. وهي الحجاز وما والاها.

([2])التبيان ٨/٤٦٦.

([3])ابن جني: الخصائص ٢/٨٤

([4])كامل : اللهجات العربية الحديثة في اليمن ص٨٥.

([5])نفسه ص ٨٦.

([6]) التبيان ١/٢١٩.

([7]) ابن منظور: لسان العرب مادة (أول) ١٣/٣٩.

([8])البقرة :١٩.

([9])التبيان ١/٩١.

في لغتنا العربية القديمة، بل في لهجاتنا الحديثة،[1]وقد سماها ابن جني قلبا، وذكر في الباب الذي عقده للاصلين، "يتقاربان في التركيب بالتقديم والتأخير"،أنه في كلام العرب كثير.[2] وعدَ اوسع اللفظين تصرفا، أصلا لصاحبه. ومثل له بأنى وآن وبئس وأيس واضمحلَ وامضحلَ.[3]

وفي تفسير قوله تعالى(واذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)[4]، بين الطوسي أن الملائكة جمع ملك بغير همز، وهو الأكثر، وأنه في الأصل:ملأك فحذفوا الهمزة وحركوا اللام ثم قال:" وقد يقال في واحدهم: مألك، مثل قولهم: جبذ وجذب، فيقلبونه، وشأمل وشمال".وبيَن أن أصل الملاك في اللغة الرسالة، واحتج له بقول عدي بن زيد العبادي[5]:

أبلغ النعمان عني ملأكاً *** أنهُ قد طال حبسي وانتظاري

ثم قال:" وقد ينشد: ملأكا، ملأكاً ومالكاً"[6] على اللغة الاخرى"[7]. ويلاحظ هنا أن الطوسي يجعل جبذ مقلوبا عن جذب، وهذا خلاف مايراه ابن جني، لأنه يجعلهما اصلين بدليل تصرفهما تصرفا واحداً، نحو: جذبَ يجذب جذباً، فهو جاذبٌ ومَجذوبٌ. وجبذ يجبذ فهو جابذ ومجبوذٌ،[8] بخلاف أنى وآن ونحوهما مما ذكرناه، سالفا، فإنه يجعل الثاني منقلبا عن الاول بدليل" وجودك مصدر أنى يأنى وهو الأنى. ولا تجد لآن مصدرا".[9].

ومن اللهجات التي ذكرها الطوسي مايرجع الى اختلاف صيغ الأفعال والوصف مثل اسم المفعول واسم التفضيل، لدى القبائل المختلفة. وأكثر ما أورده في هذا الباب يتعلق بصيغ الأفعال، وخاصة صيغتي فعلَ وأفعلَ. فهو كثير مايشير الى أن بعض القبائل تنطق ألفاظا معينة بالصيغة الاولى، وأخرى بالصيغة الثانية. ومن

([1]) من أمثلته في اللهجة المصرية: حملق وبحلق، وزوح وجوز. انظر اللهجات العربية ص ١٧٤-١٧٥.ومن أمثلته في اللهجة العراقية: فلسفة وفلسفة، وحدق ودحق.

([2])ابن جني:الخصائص ٢/٨٢.

([3])نفسه ٢/٧٠-٧٣.

([4]) البقرة:٣٠.

([5]) انظر البيت في تفسير الطبري ١/٤٤٦ من المحققة.

([6]) وعلى هذه اللغة ورد البيت في لسان العرب لابن منظور مادة(ألك) ٢٧١/١٢.

([7]) التبيان ١/١٢٩-١٣٠.

([8])ابن جني: الخصائص ٢/٦٩-٧٠. وذهب الجوهري في الصحاح١/٥٦١، الى أنهما من المقلوب.

([9])نفسه ٢/٧٠.

أمثلته مابينه في تفسير قوله تعالى :(بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين).[1]، فقال:" و وفى وأوفى لغتان. فأهل الحجاز يقولون:أوفيتُ وأهل نجد يقولون: وَفيتْ ".[2] وهاتان اللغتان اشار اليهما الزجاج دون أن يعزوهما الى قبيلة معينة، الا أنه قال:" والاختيار: أوفيت، وعليه نزل القرآن كله[3]"فدل على أنها لغة أهل الحجاز أو لغة قريش، لأن القرآن نزل بها. ثم استشهد ببيت من الشعر لطفيل الغنوي الشاعر الجاهلي جمع فيه بين اللغتين.[4]وفي تفسير قوله تعالى: (فلما رأى أيديهم لاتصل اليه نكرهم).[5] بيّن الطوسي أن "نكرته وأنكرته بمعنى" ثم قال:" وقيل: نكرته اشد مبالغة، وهي لغة هذيل وأهل الحجاز، وأنكرته لغة تميم. قال الاعشى[6] في الجمع بين اللغتين.

وانكرتني وما كان الذي نكرتْ*** من الحوادث الا الشيب والصلعا[7]

وفيما يتعلق بأختلافهم في صيغة اسم التفضيل، ذكر الطوسي أن " العرب مجمعون على القاء الألف من قولهم: هذا خيرٌ منك وشرٌ منك، الا بعض بني عامر، يقولون: ما أريد خيراً أخْير من ذا ، وقال بعضهم: هذا أشرُّ منْ ذا: ثم قال:" والوجه طرح الألف[8]".وهذا كما ترى على الأكثر في الاستعمال، والا فالقياس وروده بصيغة" أفعل: كما نطق به هؤلاء. وفيما يتعلق باختلافهم في صيغة اسم المفعول، ذكر الطوسي أن مصعوق وصاعق لغتان،يقال:" صُعق فلان فهو مصعوق، وصَعق فهو صاعق"[9]وفيما يتعلق بالصفة المشبهة ، بين أن" رؤوف على وزن فعول لغة الحجاز، وعلى وزن افعل لغة غيرهم" ثم احتج للأولى بقول كعب بن مالك الانصاري:

نُطيعُ نبينَا لنُطيع رباَ*** هُو الرحمنْ كانَ بنا رؤُوفاَ[10]

---

[1] آل عمران: ٧٦.
[2] التبيان ٥٠٥/٢.
[3] الزجاج: معاني القرآن واعرابه٩١/١ بتحقيق الدكتور عبد الجليل عبده شلبي.
[4] نفسه ٩١/١.
[5] هود: ٧٠.
[6] انظر ديوانه ص١٠١ والزمخشري: الكشاف ٣٢٠/٢.
[7] التبيان ٢٨/٦.
[8] التبيان ٣٨٦/١.
[9] التبيان ٤١٧/٩.
[10] التبيان١١/٢-١٢ والبيت من شواهد لسان العرب مادة (رأف) ١١/١١.وفيه:" ونطيع" بدلا من "لنطيع".

ومن اللغات التي اشار اليها الطوسي مايتعلق بالمد والقصر" وهـذه الظـاهرة تجلت في القراءات القرآنية أيضا ، وقد عرّف علماء القراءات المـد بأنـه" طـول زمان الصوت" واعتبروا " القصر الأصل لعدم توقفه على سبب بخلاف المد [1]. امـا في الاصطلاح اللغوي، فالمراد بالمد إثبات ألف في اللفظ وبالقصر طرح الالف لفظاً من موضعها وهذا مابينه الطوسي في غير موضع من تفسيره، فمن مثله ما أورده في تفسير قوله تعالى(قال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صـادقين)[2]، فذكـر أن هؤلاء في لغة قريش ومن جاورها باثبات ألف بين الـهاء والـواو ومـدّ الألـف الأخيرة، وأن تميما وبكرا وعامة بني أسد يقصرون الالف الاخـيرة ، وأن بعـض العرب يسقط الالف الاولى بين الهاء والواو ويمد الاخيرة. وبين أن بعضهم أنشـد قول الشاعر:

تجلّد لايقلْ هؤلاء هذا* * بكى لمّا بكى أسفاً وعيبا[3]

ولابد على لغة هذه الطائفة من العرب، من حذف الالف المقدرة بعد الهاء فـي البيت، والا أخل بوزنه.

وفي تفسير قوله تعالى:(ثم الله ينشىء النشأة الآخـرة)[4]، وبـيّن أن فـي النشأة لغتين: النشاءَة والنشأة، بالمد والقصر، كقولهم: رأفة ورأفة وكآبة وكأبـة وهما مصدران[5].

ومن اللغات التي أشار اليها الطوسي، مايتعلق باستعمال طائفة من الالفاظ فـي قبيلة من القبائل أو بيئة من البيئات، بمعان تختلف عما هـي عليـه فـي القبـائل والبيئات الاخرى. وأكثر مانقل في هذا الباب عـن المـؤرج السدوسـي النحـوي البصري المتوفى سنة١٩٥هـ. فنقل عنه أن " باؤا" في قوله تعـالى فـي وعيـد اليهود(فباؤا بغضب على غضب)[6] يعني: استوجبوا اللعنة بلغة جرهم.[7]وذكر فـي تفسير قوله تعالى(أتدْعونَ بعْلاً وتذرون أحسن الخالقين)[8]،ان الحسن والضحـاك

---

(1) القاصح: سراج القارئ ص ٤٨.
(2) البقرة :٣١.
(3) التبيان : ١٤١/١.
(4) العنكبوت:٢٠.
(5) التبيان ١٩٤/٨.
(6) البقرة : ٩٠.
(7) التبيان ٣٥٠/١.
(8) الصافات:٢٥.

وعبد الرحمن بن زيد قالوا:" المراد بالبعل ها هنا صنم كانوا يعبدونه:" ثـم قـال:" والبعل في لغة أهل اليمن هو الرب. يقولون: من بعل هذا الثوب؟ أي من ربـه"؟. وبيَن أنه قول عكرمة ومجاهد وقتادة والسدى. وذكر أنهم يقولون:" هو بعل الدابة، أي: ربهَا، كما يقولون: ربِّ الدار وربِّ الفرس".[١]

ومما ذكره من اللهجات تخفيف الهمز الذي يعد من الظواهر الشائعة على ألسنة قريش وكثير من القبائل العربية، حتى أنه وصفه وتحقيق الـهمز بأنهما" لغتان مشهورتان"[٢]. ومن ذلك ما أورده في تفسير قوله تعالى(سلْ بني اسرائيل كم آتيناهم من آية بيّنة ومن يبدل نعمة الله من بعد ماجاءته فان الله شديد العقاب)[٣]، فقال:" أهل الحجاز يقولون:إسلْ) بغير همز. وبعض بني تميم يقول:(اسْألْ) بالهمز، وبعضهم يقولون :إسلْ" بالالف وطرح الهمز".[٤].ويلاحظ هنا أن تميماً همزت وأن أهل الحجاز أسقطوا الهمزة وذلك ديدنهم. والهمزة من اشد الاصوات قوة،" وعملية النطق بها- وهي محققة- من أشق العمليات الصوتية، لان مخرجها فتحة المزمار التي تنطبق عند النطق بها، ثم تنفتح فجأة، فنسمع ذلك الصوت الانفجاري الذي نسميه بالهمزة المحققة"[٥]. فلا غرابة بعد هذا أن تتخلص منها بيئة الحجاز، اما باسقاطها او بقلبها الى حرف مد مناسب لحركة ماقبلها، أو تسهيلها بين بين.[٦]والطوسي ذكر لنا الصورة الأولى، فسمى اسقاط الهمزة"ترك الهمز" كما في سينَة" وسيَة" وبيَن أن الثانية لغة أهل الحجاز.[٧] وذكر لنا مثالا من الصورة الثانية في تعامل أهل الحجاز مع الهمزة، وهو قلبها الى حرف، وذلك حين فسر قوله عزّ وجل(واتقوا يوما لاتجزي نفس عن نفس شيئاً)[٨]فقال:" قوله:" لاتجزي" أي: لاتغني... وهي لغة أهل الحجاز. وبنو تميم: تجزيء بالهمزة من أجزأه، والاولى من جزت"[٩]،وهو يسمي هذا التخفيف تليينا.[١]وهذا موافق لطبيعة

---

(١) التبيان ٨/٥٢٤-٥٢٥.

(٢) التبيان٦/١٠٧.

(٣) البقرة:٢١١..

(٤) التبيان ٢/١٩٠.

(٥)أنيس : اللهجات العربية ص ٥٨.

(٦) أنيس : اللهجات العربية ص ٥٩-٦٠.

(٧)التبيان١/٣٢٥.

(٨)البقرة:٤٨.

(٩)التبيان١/٢١٢.

الصوت الذي انقلبت اليه الهمزة وصفته، وهو الياء، اذ هو حرف لين. كما يسمى النطق بالهمزة تحقيقاً.[٢]وذلك معروف في مصطلحات القراء واللغويين.

ويلاحظ أن الطوسي لم يعدّ ماحكي عن عاصم الجحدري أنه قرأ قوله تعالى (سواء عليهم)[٣]. بواو مضمومة لابهمزة(سواوٌ عليهم)، لم يعده تخفيفا للهمزة على لهجة الحجازيين، وانما رأى أنه" غلط، لأن العرب كلها تهمز مابعده مدة ، يقولون: كساء ورداء وهواء وجزاء".[٤]على حين رأى أبو حيان أن هذا التخفيف على لغة الحجازيين.[٥]

ويضع الطوسي ايدينا على حقيقة علمية، وهي أن تحقيق الهمز لم يكن مطردا في لهجة تميم.[٦]وانما كان غالبا عليهم. وأن تسهيله لم يكن مطردا في لهجة أهل الحجاز، وانما كان غالبا عليهم ايضا. وذلك مايشعر به كلام سيبويه في الكتاب، اذ يقول:" وقد بلغنا ان قوماً من أهل الحجاز، من أهل التحقيق يحققون نبيء ،وهذا يعني أن من أهل الحجاز من يحقق الهمز، وهم لاشك القلة، لان المشهور عنهم التخفيف، وهو مُستقِر على الكثرة الكاثرة منهم. والطوسي يذكر في قراءة قوله تعالى:(قالوا أرْجِهْ وأخاه)[٧]،أن من القراء من قرأ:" أرْجِهْ" بغير همز، ومنهم من قرأه بهمز: أرجئهُ"، ثم يقول" والهمزة لغة قيس وغيرهم، وترك الهمزة لغة تميم وأسد، يقولون أرجيتُ الأمر".[٨].

ومن اللهجات التي بينها الطوسي في تفسيره مايتعلق بالاظهار والادغام فبعض القبائل العربية تظهر الحرفين المتماثلين أو المتقاربين في المخرج أو الصفة، وبعضها يدغمهما فينطقان حرفا واحداً. وأكثر ماورد في العربية من هذا، ادغام الاول منهما في الثاني،. وهو الذي يسميه المحدثون من علماء اللغة" التأثر

---

(١)التبيان ٢١١/١.

(٢)التبيان ١٤٤/١.

(٣)البقرة:٦.

(٤)التبيان ٦٢/١.

(٥)ابو حيان: البحر المحيط٤٥/١. وانظر: الدكتور عبد الصبور شاهين القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ص٣٥.

(٦)أنيس : اللهجات العربية ص ٥٧.

(٧)الاعراف:١١٠.

(٨)التبيان ٤٩٤/٤-٤٩٥.

الرجعي".[1] والطوسي يشير الى هذه الظاهرة اللهجية المشهورة عند بعض القبائل العربية، من خلال بيانه لقراءة قوله تعالى(يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه)[2]، فيذكر أن أهل الحجاز يظهرون المثلين من الحروف اذا التقيا ساكنين، فيحركون الاول ويسكنون الثاني منهما، لان التقاء الساكنين في هذا الوصل على هذا النحو ليس من كلامهم. وقد قرأ نافع وأهل المدينة وابن عامر على لغة هؤلاء(يرتدد) بدالين. وعلى عكسهم بنو تميم، اذ هم يدغمون المثلين في مثل هذه الحال، ويحركون المدغم فيه لالتقاء الساكنين، لأنه لما أسكن الحرف الاول من المثلين للادغام، وكان الثاني ساكنا لم يمكن ادغام الاول فيه، حتى يحرك الثاني. وعليه قرأ بقية القراء(يرتدّ)[3]. وبين[4] أن للغة أهل الحجاز في الاظهار نظائر في القرآن، كقوله تعالى:(ومنْ يُشاقق الرسول)[5] وقوله:(ومنْ يشاقق الله ورسولهُ).[6]

وفي تفسير قوله تعالى(وأنه أهلك عاداً الأولى)[7]،بين أنه" قرأ أهل البصرة[8] غير هل[9](عاداً ل ولى) مدغمة بلا همز"، وبين وجه ذلك بقوله:" من أدغم ألقى حركة الهمزة على اللام فانضمت، ثم سكنها وحذف همزة الوصل، فلقيتها النون فأدغمت في اللام". ثم أشار الى ماينا ظر هذا الادغام من كلام العرب، فقال:" ونظير ذلك قول العرب: قم الان عنا. يريدون: قم الآن عنّا. وقولهم : صُمْ الثِّنيْن، أي صم الأثنين:.[10] وليس مراد الطوسي ان العرب جميعا تنطق بهذا الادغام، اذ لاشك أن أكثرهم أو كثيرا منهم على خلافه من الاظهار، وقراءة الأكثرين لهذه الآية تدل على ذلك. وانما مراده تلك الطائفة من القبائل او المجموعة التي كانت تميل الى الادغام، من مثل تميم وأسد وطَيء وبكر بن وائل

---

(1) أنيس: اللهجات العربية ص ٥١.
(2) المائدة: ٥٤.
(3) التبيان ٣/٥٥٤-٥٥٥.
(4) التبيان ٣/٥٥٥.
(5) النساء:١١٥.
(6) الانفال:١٣.
(7) النجم:٥٠.
(8) في كتاب السبعة لابن مجاهد ص٦١٥:" قرأ نافع وابو عمرو".
(9) سهل: هو سهل بن محمد أبو حاتم السجستاني إمام البصرة في النحو والقراءة واللغة والعروض. عرض على يعقوب الحضرمي وغيره . انظر: ابن الجزري: غاية النهاية ١/٣٢٠.
(10) التبيان ٩/٤٣٧-٤٣٨.

وفي تفسير قوله تعالى(وأنه أهلك عاداً الأولى)[1]،بين أنه" قرأ أهل البصرة[2]غيرهل[3](عاداً ل ولى) مدغمة بلا همز"، وبين وجه ذلك بقوله:" من أدغم ألقى حركة الهمزة على اللام فانضمت، ثم سكنها وحذف همزة الوصل، فلقيتها النون فأدغمت في اللام". ثم أشار الى مايناظر هذا الادغام من كلام العرب، فقال:" ونظير ذلك قول العرب: قم الان عنا. يريدون: قم الآن عنّا. وقولهم : صنمْ الثِّنيْن، أي صم الأثنين:.[4]وليس مراد الطوسي ان العرب جميعا تنطق بهذا الادغام، اذ لاشك أن أكثرهم أو كثيرا منهم على خلافه من الاظهار، وقراءة الأكثرين لهذه الآية تدل على ذلك. وانما مراده تلك الطائفة من القبائل او المجموعة التي كانت تميل الى الادغام، من مثل تميم وأسد وطيء وبكر بن وائل وعبد القيس.[5] وبذلك وضع أيدينا على ضرب من الادغامات الجارية على السنة بعض العرب، وزاد من معرفتنا للأصول اللغوية لقراءات هؤلاء المشهورين، عندما رد قراءة مشهورة اليه.

وأشار الطوسي الى الامالة كلهجة من اللهجات التي كانت تنزع اليها بعض القبائل العربية، والتي عرف بها" عامة أهل نجد من تميم وأسد وقيس"،[6]على حين احتفظت لغة أهل الحجاز بطابع الفتح[7]أو التفخيم كما يسمى أيضا، وهو ذكر هذين المصطلحين في مقابل الامالة حين يعرض لها بالبيان،[8] آخذاً بما تعارف عليه علماء القراءات[9]واللغة.[10] والامالة عند ظاهرة طارئة وعارضة في

([1])النجم: ٥٠.

([2])في كتاب السبعة لابن مجاهد ص٦١٥:" قرأ نافع وابو عمرو".

([3])سهل: هو سهل بن محمد أبو حاتم السجستاني إمام البصرة في النحو والقراءة واللغة والعروض. عرض على يعقوب الحضرمي وغيره . انظر: ابن الجزري: غاية النهاية ٣٢٠/١.

([4])التبيان ٤٣٧/٩-٤٣٨.

([5])انظر في ادغام هذه القبائل: انيس: اللهجات العربية ص٥٤.

([6]) السمنودي: شرح السمنودي على متن الدرة المتممة للقراءات العشر لابن الجزري ص١٩. وأنيس: اللهجات العربية ص٤١.

([7])المصدران نفسهما.

([8]) انظر الفتح في ١٥٧/٧، والتفخيم في ١٨٧/٤ من البيان.

([9]) انظر الفتح في كتاب السبعة لابن مجاهد ص١٤٣، والتفخيم في ص١٤٩ في مقابل الامالة.

([10]) انظر الفتح في معاني القرآن واعرابه للزجاج٩٣/١، والتفخيم ٢١٦/١ بتحقيق شلبي.

حسنة [١] . ومثلها في الحسن عنده امالة" هداني":لأنه من هدى يهدي، فهو من الياء" وكذلك امالة العرب في كلمتي" غزا" و " دعا" فهذا لاشكال في حسنه"، لأنه" قد يصير الى الياء في " غزي"و" دعي"[٢]، فالطوسي يبين لنا في هذا الكلام سببين في امالة ألف المد في لهجات العرب أحدهما: كون أصلها ياء كما في "هدى". والاخرى: امكان قلبها ياء في حالة إعرابية معينة، كما في غزا ودعا. اذ لاشك أن أصل ألفهما واو، بدليل ظهورها في المضارع مثلا، الا أنهما عند بنائهما للمجهول تقلب ياء،على مابينه الطوسي. لكن هناك خلاف في حسن هذه الامالة، اذ روي عن أبي العباس المبرد" أن امالة ماكان من ذوات الواو على ثلاثة أحرف نحو: دعا وغزا قبيح، الا اذا كان هناك مايبررها ككسرة ألف المد. كما في امالة " ربا" التي قرأ بها الكسائي وحمزة".[٣] ويبدو أن أبا العباس يعد امالة هذا الضرب من الكلمات جاريا على السنة فصحاء العرب، والا فلا وجه لقوله بقبحها مع نطق الفصحاء بها.

ويدو الطوسي الامالة بعض المواضع ةالى سبب آخر، غير ماذكرناه آنفا، وهو مجاورة صوت لآخرة، تحسن لذلك امالته معه. فهو يذكر مثلا في قراءة قوله تعالى(واذا انعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه)[٤] ، أن حمزة والكسائي- وهما اللذان يمثلان من السبعة بيئة الكوفة في الامالة- أما لا (نأى): بكسر النون والهمزة. ثم يذكر بعد ذلك أن العرب" أما النون لمجاورة الهمزة، لأنها من حروف الحلق"، وينظر له ببعض ما أمالته العرب من الأصوات من الفتح الى الكسر لمجاورته حرفا من حروف الحلق الستة كالغين والعين، فيقول:" كما يقولون: رغيف وشعير وبعير، بكسر أولهن".[٥]وهو هنا يستعد من ابن جني، إذ قد بين أن الامالة" انما وقعت في الكلام لتقريب الصوت من الصوت"[٦]، ثم قال:" ومن

([١])التبيان ١٥٨/٧.
([٢])التبيان ١٨٧/٤-١٨٨.
([٣])أنيس: اللهجات العربية ص ٥٠.
([٤])الاسراء : ٨٣.
([٥])التبيان ٥١٤/٦.
([٦])ابن جني: التصريف الملوكي ص٩٨.

ذلك تقريب الصوت مع حروف الحلق نحو شعير ورغيف وبعير. وسمعت الشجري غير مرة يقول : زئير الأسد، يريد: الزئير".[١]

ومن كل مامر يتبين لنا أن الطوسي عنى بالقراءات القرآنية واللهجات العربية عناية طيبة، لم يدانه فيها أحد من مفسري الإمامية. اذ لم يكن تفاسير الأمامية التي سبقته تعنى بالقراءات المشهورة، ولا بالقراءات الشاذة، ولا بقراءات الصحابة والتابعية. بل كانت تورد بعض القراءات المنسوبة الى عدد من الائمة، وهي قراءات في طائفة منها نظر كثير، وقد بينا رأينا في بعضها عند الكلام على التفسير عند الأمامية قبل الطوسي، وعند كلامنا على قراءات أهل البيت في هذا الفصل. وأيضا فأنه سابق لجميع الإمامية في عنايته باللغات واللهجات العربية وربطها بالقراءات المشهورة وغير المشهورة، وعزوها الى القبائل التي نطقت بها في البيئات المختلفة. وهذا كله يضع تفسير الطوسي بين التفاسير الجيدة التي صنفها الأمامية وغيرهم.

---

(١) نفسه ص ١٠١-١٠٢.

الفصل الرابع
اللغة والنحو

عني الطوسي في تفسيره باللغة والنحو عناية تلفت نظر الباحث، وتـــدل علـــى تمكن الشيخ من هذين العلمين المهمين من علوم لغتنا العربيـــة. ولا عجـــب ممـــن عنايته باللغة خاصة، اذ إن الأصوليين، وهو واحد من مشاهيرهم لـــدى الاماميـــة، يعنون عادة في مقدماتهم الأصولية بالمباحث اللغوية المتنوعة، لما لها من أهميـــة من استنباط الاحكام الشرعية من مصادرها الاصلية، التي عمادها الكتاب والسنة.

(١)

التفسير اللغوي للألفاظ

عني الطوسي بالمفردات القرآنية، وتلك خطوة ينبغـــي للمفســـر ان يخطوهـــا ابتداء، لأن هذه المفردات تمثل اللبنات التي تبنى منها الآية، وتفسيرها أولا يعنـــي التمهيد لتفسير الآية بعد ذلك مجملة. غير ان الطوسي لا يقف عند هذه الخطـــوة، التي قد تبدو أولية وساذجة إذا انتهت عند هذا الحد، بل هو يعمق الدراسة اللغويـــة للمفردات القرآنية، ويتناولها من جوانب عدّة لها مسّ مباشـــر او غـــير مباشـــر بالمعنى، كالرجوع الى الأصل عند النظر في الاشتقاق، وتصريـــف اللفظـــة علـــى وجوهها المختلفة، وبيان الصيغ الأخرى التي ترد في مادتها اللغوية، ومعاني تلـــك الصيغ المتعددة، والاشارة الى نظائرها ونقائضها في اللغة، وغير ذلك مما يعد مـــن صميم البحث اللغوي. وهذا المنهج هو الذي اوجبه العلماء على المفسر، على مـــا يذكر السيوطي، اذ رأوا أن يبدأ بالعلوم اللفظية، وأول ما يجـــب البـــدء بـــه فيـــها تحقيق الألفاظ المفردة، فيتكلم عليها من جهة اللغة ثم التصريف ثم الاشتقاق.[١]

ولا يعدم الطوسي، في بيان ذلك كله، الاســـتعانة بـــأقوال مشـــاهير اللغويـــين، كالخليل والفراء وابى عبيدة والمبرد والزجاج وابن دريد والازهري وغيرهم ممـــن بينا منهجه في الاخذ عنهم عند الكلام على مصادره. وكثيرا ما نـــراه يضـــع بيـــن ايدينا ما يشبه مادة المعجم اللغوي، ثم يختمه في الغالب بذكـــر الاســـتعمال الأول للكلمة، ويسميه: "اصل الباب". وهو عين ما اتبعه الطبرسي [٢] ثم الزمخشـــري [٣] من بعد. ولنضرب لذلك بعض الأمثال: في تفسير قولـــه عـــز وجـــل: (إنّ الصفـــا

---

[١] السيوطي : الاتقان ٢/١٨٥.

[٢] انظر تفسيره " مجمع البيان ١/١٩٩، ٢٠٤، ٢/٢٨٥.

[٣] السامراني : الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري ص٢٩٦ وما بعدها .

والمروة من شعائر الله) [١]، يقول الطوسي في باب " اللغة" " الصفا في الاصل: الحجر الأملس، مأخوذ من الصفو. قال المبرد: الصفا: كل حجر لا يخلط غيره، من طين او تراب يتصل به حتى يصير منه. وانما اشتقاقه من صفا يصفو: اذا خلص، وهو الصافي الذي لا يكدره شئ يشوبه [٢] ".ويقول في تفسير قوله عز وجل:" يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى " [٣]: " القصاص: الاخذ من الجاني مثل ما جنى. وأصله: التلْوُ، من يقص الاثر، وهو تلو الاثر. والقصاص والمُقاصّة والمُعاوضة والمُبادلة نظائر. يقال: قصّ يقصُّ قَصّاً وقصصاً، وأقصّه به إقصاصاً، واقتصّ اقتصاصاً، وتقاصّوا تقاصّاً، واستقصّ، اذا طلب القصاص [٤]، استقصاصاً. وقاصّهُ مقاصّةً وقصاصاً. وقصّ الشيء بالمقص يقُصّه قصّاً. وقصّ الحديث يقُصّهُ قصصاً، وكذلك قصّ أثرهُ قصصاً: اذا اقتفى أثرهُ. والقصّ والقصصُ: عظْمُ الصدر من الناس وغيرهم. والقُصّةُ: الخُصلةُ من الشَعْر. والقصّة من القصص معروفةٌ. والقصّةُ: الجصّ. والقصاص: التقاصُّ في الجراحات والحُقوق شيء بشيء. والقصيصُ: نباتٌ ينبُتُ في أصل الكمأة. وأقصّتْ الشاةُ فهي مُقص: اذا استبان ولدُها. واصلُ الباب: التلْوُ. [٥] ويلاحظ انه يجمع المادة دون محاولة لترتيبها كالبدء بالحسّي مثلا قبل المعنوي.

وفي تفسير قوله تعالى: (واذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون) [٦]، يشير الى النظائر والنقائض فيقول: والعجلةُ والسرعة والخفّةُ نظاير. ونقيضُ العجلة التأني، ونقيضُ السرعةِ الإبطاء. وبعد نقيض قبل، تقول: كان هذا بعد هذا .... [٧]

وقد يعبر عن التناظر المعنوي بين الألفاظ بالتقارب، فيقول مثلا في تفسير قوله تعالى: (ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب): [٨] والمسُّ واللمسُ متقاربان". [٩]

---

[١] البقرة : ١٥٨.

[٢] التبيان ٤٢/٢.

[٣] البقرة : ١٧٨.

[٤] القصاص هنا اسم كما في الآية ولهذا تكسر القاف .

[٥] التبيان ١٠٠/٢-١٠١.

[٦] البقرة : ٥١ .

[٧] التبيان ٢٣٦/١ .

[٨] هود : ٦٤.

[٩] التبيان ١٩/٦.

او يعبر عنه بالوحدة، فيقول في تفسير قوله تعالى (وانـــهم اتيـــهم عـــذاب غـــير مردود) [١]: " والردُ والدفع واحد ونقيْضهُ الأخذ [٢]. وكثيراً ما يشير الى الفـــروق المعنوية بين الالفاظ المتناظرة بدقة، كقوله في تفسير الآية ٧٨ مـــن آل عمـــران: (لتحسبوه من الكتاب):معناه لتظنوه. والفرق بين حَسِـــبتُ وزَعمـــتُ، ان زعمـــت يحتمل ان يكون يقيناً او ظناً، وحَسِبتُ لا يحتملُ اليقين أصلاً.[٣]

وليس الطوسي اول من ابتدع في التفسير اللغوي الاشارة الىالالفاظ التي تنـــاظر اللفظة القرآنية التي يفسرها، بل سبقه الى ذلك الرماني، الذي يعد تفسيره من اهـــم مصادر الطوسي، على ما بيناه في فصل المصادر. وربما سبق الرماني آخـــرون. ومع انه تأثر بهذه الطريقة في تحرير تفسيره، الا انه لم يعدم الرد على الرماني او مناقشته في بعض ما اورده من هذه الالفاظ المتناظرة. نجد ذلك مثلا فـــي تفســـير قوله تعالى: (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين)[٤]، اذ بين ان " البرهان والحجـــة والدلالة والبيان بمعنى واحد، وهو ما امكن الاستدلال به على ما هو دلالة عليـــه، مع قصد فاعله الى ذلك [٥].

ثم بين بعد ذلك ان الرماني فرق " بين الدلالة والبرهان، بأن قال: الدلالة قـــد تنبئ عن معنى فقط، لا يشهد بمعنى آخر، وقد تنبئ عن معنى يشهد بمعنى آخـــر. والبرهان ليس كذلك، لأنه بيان عن معنى ينبيء عن معنى آخر ". ولم ير الطوســـي هذا الذي ذكره الرماني " يسلم له" بل رآه " محض دعـــوى ". وبيـــن أن الحســـن ومجاهدا والربيع والسدي قالوا بما ذكره، [٦] من انهما بمعنى واحد.

وتبدو ثقافة الطوسي الكلامية واضحة هنا ايضاً، اذ تمـــتزج اللغـــة بـــالكلام احيانا في تفسيره. فنراه في غير موضع منه، يشفع بيانه المفهوم اللفظة القرآنيـــة في اللغة، بمفهومها في اصطلاح المتكلمين، كما في تفسير " أنشـــأ " مـــن قولـــه تعالى: (وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخريـــن [٧]، الـــذي

---

[١] هود : ٧٦.
[٢] التبيان ٣٧/٦.
[٣] التبيان ٥٠٩/٢.
[٤] البقرة : ١١١.
[٥] التبيان ٤١١/١.
[٦] التبيان ٤١١/١ .
[٧] الانبياء : ١١.

يقول فيه: " الانشاء: ايجاد الشيء من غير سبب يولده، يقال: أنشاء إنشأه، ومثل الانشاء الاختراع. هذا في اللغة، فأما في عرف المتكلمين: فالاختراع هو ابتداء الفعل في غير محل القدرة عليه ". [1] ويشير في موضع آخر الى العرف اللغوي والوضع اللغوي [2]، وهما من المصطلحات التي عني بها الاصوليون من مثله في مقدماتهم اللغوية في علم الاصول. وعلى هذا الاساس يحدد الطوسي مثلا كلمة " المثقال" وهو يفسر قوله عز وجل:(يابني انها إن تك مثقال حبة من خردل...)[3]، فيقول: " والمثقال: " مقدار يساوي غيره في الوزن ... وقد صار بالعرف عبارة عن وزن الدينار، فاذا قيل: مثقال كافور اوعنبر، فمعناه: مقدار الدينار بالوزن" [4].

<u>واللغة والعرف</u> من البينات التي يعتمدها الطوسي في تفسير المفردات القرآنية. وما لا يعرف من هاتين الجهتين من وجود التأويل، مستبعد عنده، ما لم يقبل التأويل. من ذلك تفسير بعضهم للكفر والايمان في قول الباريء عز وجل: (ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل) [5]، بالشدة والرخاء، فقد بين ان " هذا غير معروف في اللغة ولا العرف، الا ان يراد بذلك الثواب والعقاب اللذان يستحقان عليهما، فيكون له وجه في التنزيل ". [6]

ومن معالم التفسير اللغوي في " تبيان " الطوسي، بيان المعاني الاصطلاحية للالفاظ الشرعية التي وردت في القرآن، واتخذت مفهوما جديدا في ظل الاسلام. كالصلاة والزكاة والربا والحج والعمرة والسجود والفسوق ونحوها من الالفاظ التي يسمى استعمال الشارع لها في مباحث علم الاصول " الحقيقة الشرعية [7] ". وله في ذلك اسلوبان: ان يبدأ ببيان المفهوم الاصطلاحي الشرعي اولا، ثم يتبعه المفهوم اللغوي، او يعكس الوضع، فيأتي باللغوي ثم الشرعي. وكثيرا ما يعزز قوله بالشواهد الشعرية وغيرها. فمن الاول ما اورده في تفسير قوله تعالى:

---

(1) التبيان ٧/٣٤ .
(2) التبيان ١/ ٣١٣ .
(3) لقمان : ١٦ .
(4) التبيان ٨/٢٧٩.
(5) البقرة : ١٠٨.
(6) التبيان ١/٤٠٥.
(7) الحيدري : اصول الاستنباط ص ٣٨ .

(ورفع ابويه على العرش وخروا له سجدا). [١] فقال: والسجود في الشرع: خضوع بوضع الوجه على الارض. وأصله الذل. كما قال الشاعر: [٢]

ترى الاكم فيها سجدا للحوافر [٣]

ومن الثاني ما أورده في تفسير قوله تعالى: (وما يضل به الا الفاسقين [٤]). اذ بين ان اصل الفسق في اللغة: الخروج عن الشيء. يقال منه: فسقت الرطبة اذا خرجت من قشرها. ومن ذلك سميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها. ولذلك سمي المنافق والكافر فاسقين. لخروجهما من طاعة الله. ولذلك قال الله تعالى في صفة ابليس: (الا ابليس كان من الجن ففسق عن امر ربه). يعني: خرج من طاعته واتباع أمره. [٥]

وهو يلحظ الترابط بين المفهوم الشرعي واللغوي للالفاظ. وما بينهما من وشيجة في الدلالة. فيقول في وقوفه عند قوله تعالى: (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) [٦]: " الشريعة: السنّة التي من سلك طريقها أدته الى البغية، كالشريعة التي هي طريقٌ الى الماء. وهي علامةٌ منصوبةٌ على الطريق الى الجنة، كأداء هذا الى الوصول الى الماء ". [٧]

ويستمسك الطوسي بظواهر القرآن. فيعدها حججا في تبيان معاني الآى. ما لم يكن هناك دليل آخر يقتضى العدول عنها الى التأويل [٨]. كالتخصيص مثلا بدليل العقل، اذ رأيناه يأخذ به في تفسيره قوله تعالى: (فتحنا عليهم ابواب كل شيء) [٩] ويعده مانعا من الاخذ بالعموم الذي دل عليه الظاهر. [١٠] ونراه يعرف الظاهر بانه "الذي يصح ان يدرك من غير كشف عنه".[١١] ومعنى هذا انه يعرف بذاته من غير ضميمة او قرينة تدل على معناه. او هو كما عرفه فقهاء الحنفية: " الكلام الذي

---

[١] يوسف : ١٠٠ .

[٢] نسبه الطوسي في ١/٣١١ الى زيد الخيل . والبيت في الكامل للمبرد ٢/٢٠١.

[٣] التبيان ٦/١٩٧ .

[٤] البقرة : ٢٦ .

[٥] التبيان : ١/ ١١٨.

[٦] الجاثية : ١٨

[٧] التبيان ٩/٣٥٥.

[٨] وهو ما يلتزم به الاصوليون . انظر ابا زهرة : اصول الفقه ص ٢٧٣ وما بعدها .

[٩] الانعام : ٤٤ .

[١٠] انظر : التفسير العقلي والتأويل في فصل مادة التفسير .

[١١] التبيان ٨/٢٣١ .

يدل على معنى واضح ". [1] وهو احد اربعة اقسام يطلق عليها في علم اصول الفقه: " الالفاظ الواضحة ". [2] غير ان الظاهر لا يعنى عند الطوسي، فيما هدانا اليه التتبع لكلامه، الالفاظ المفردة فحسب، بل هو يشمل التراكيب والسياق. وقد استدل في اول تفسيره على حجية ظواهر القرآن بالقرآن من مثل قوله: (بلسان عربي مبين) [3] وجوّز لذلك التفسير بالرأي. وقال: " فكيف يجوز ان يصفه بانه عربي مبين وانه بلسان قومه وانه بيان للناس ولا يفهم بظاهره شيء؟ وهل ذلك الا وصف له باللغز والمُعَمى الذي لا يفهم المراد به الا بعد تفسيره وبيانه، وذلك منزه عنه القرآن" [4]. ولهذا فهو يلغي التفسير الباطني والرمزي للقرآن، ويرى في قوله تعالى (فان تولوا فقل آذنتكم على سواء وإن أدرى اقريب ام بعيد ما توعدون) [5]، دليلا " على بطلان قول اصحاب الرموز، وان للقرآن بواطن خَصَّ العلم بها أقوام [6] ". لان معنى " آذنتكم على سواء": أي " اعلمتكم على سواء في الايذان، تتساوون في العلم به، لم اظهر بعضكم على شيء كتمته عن غيره " [7].

والطوسي حين يعتمد ظاهر القرآن، بمفرداته وتراكيبه، حجة في التفسير يخطو بالتفسير عند الامامية خطوة خطيرة، لانه يخرجه بذلك من دائرة التأويل المبني، في بعض صوره، على الاعتساف والنزوع باللفظ الى غير مدلول الظاهر او النص – كالذي رأيناه في تفسير القمي والعياشي وغيرهما من مفسري الامامية الذين سبقوه – الى دائرة التفسير المبني على اعتبارات اللغة ودلالات الالفاظ والعبارات الجارية على السنة المخاطبين بالنص القرآني الكريم، ومن هنا تراه يعبر عن تمسكه بالظاهر بعبارات متباينة كثيرة، من مثل قوله: " لا ينبغي ان يترك الظاهر من غير حجة ولا دلالة [8] "، او قوله: " ان ما قالوه ترك للظاهر"[9] او ان " هذا ضعيف لانه خلاف الظاهر قليل الاستعمال ". [10]

---

[1] ابو زهرة : اصول الفقه ص ١١٩ .
[2] المصدر نفسه : المكان نفسه .
[3] الشعراء : ١٩٥.
[4] التبيان ١ / ٤ .
[5] الانبياء : ١٠٩ .
[6] التبيان ٧/٢٨٥ .
[7] التبيان : نفس المكان .
[8] التبيان ٣/ ١١٠.
[9] التبيان ١/ ٢٥٣.
[10] التبيان ١/ ٣٦٨ .

ويزداد الطوسي تمسكا بظاهر القرآن حين يعضد وجها فقيها او عقيديا يراد الشيعة الامامية، فلا ينزع مثلا الى التقدير - الذي هو صورة عنده لترك الظاهر - اذا لم يجد الدليل عليه. فان وجده، وكان الدليل قويا كالاجماع مثلا، لم يجد بدا من الاخذ به في ترك الظاهر، والعدول الى التأويل. ولذا هو يرفض في تفسير قوله تعالى: (ومن كان مريضا او على سفر فعدة من أيام أخر). [1]، تقدير من قدر في الاية: " او على سفر فأفطر فعدةٌ من أيام أُخر لانه "زاد في الظاهر ماليس منه ". وهذا يختلف في رأيه عن قوله تعالى: (فمن كان منكم مريضا او به اذى من رأسه ففدية من صيام) [2]، الذي قدروا فيه:" فحلق "، لانه انما قدروا هناك " للاجماع على ذلك وليس هاهنا اجماع، فيجب ان لا يترك الظاهر، ولا يزاد فيه ما ليس منه [3] ". وهذا احتجاج منه بظاهر القرآن على وجوب افطار المريض والمسافر، الذي هو عند الامامية عزيمة وليس رخصة، استنادا الى ظاهر الاية.

وعناية الطوسي بظواهر القرآن، تجعله يأخذ بالاظهر من مفهوم اللفظة او العبارة عندما يفسرها، وذلك حين تحتمل اكثر من مفهوم، كان يكون لها دلالة لغوية واخرى شرعية، فيأخذ بالمتبادر منهما، الذي يفهم عن قرب، ويترك الآخر. وذلك ما جاء في تفسير قوله عز وجل: (انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون). [4] اذ بين ان معنى (اليوم الآخر) هنا قولين: احدهما: انه آخر يوم من ايام الدنيا والمؤذن بالكرة والآخر. والآخر: انه يوم الجزاء والحساب، وهو يوم القيامة ثم رجح القول الثاني، وبين انه " الاظهر من مفهوم هذه اللفظة ". [5] ومراده ان المعنى الاصطلاحي الاسلامي لليوم الاخر هو الاظهر في الاية، بل في القرآن كله. لانه المفهوم عند الاطلاق، والمتبادر عند السماع. وهذا يسلمنا الى الالفاظ المشتركة في التنزيل - وهي التي عنى بها المفسرون، كما عُني الاصوليون في مباحثهم اللغوية - [6] الى منهج الطوسي في تفسيرها، ويجعلنا نعود الى ما اوضحه في مقدمة تفسيره من ان "

[1] البقرة : ١٨٥ .
[2] البقرة : ١٩٦ .
[3] التبيان ٢ /١٢٣.
[4] التوبة : ٤٦ .
[5] التبيان ٥/٢٢٩.
[6] ابو زهرة : اصول الفقه ص ١٢٨ . والحيدري : اصول الاستنباط ص ١٤٣ .

اللفظ المشترك بين معنيين فما زاد عنهما، ويمكن ان يكون كل واحد منهما مـرادا، لا ينبغي القطع فيه على بعض ما يحتمل الا بقول نبي او امام معصوم، بل ينبغـي ان يقال: الظاهر يحتمل لامور، وكل واحد يجوز ان يكون مرادا على التفصيـل والله اعلم بما اراد. فان دل الدليل على انه لا يجوز ان يريد الا وجها، جاز ان يقال انـه هو المراد [١] ". وهو حين يعين المعنى المراد من اللفظ المشترك في القـرآن، لا يخرج عما يحتمله من دلالة في اللغة. فنراه مثلا في تفسير قولـه تعـالى: (فـان تولوا فاعلموا ان الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير) [٢] يبين ان المولى يرد فـي اللغة على اقسام: فيعني الناصر والحليف والمُعتق والمعتق والأولى والأحـق، ثـم يذكر انه هنا بمعنى الناصر، ويستدل على انه يرد بمعنى الاولى والاحق ببيت للبيد وحديث للنبي (ص)، وهو قوله: أيما أمرأة نَكحـتْ بغـير إذن مولاهـا فنكاحُـها باطلٌ ". [٣] وحتى حين يكون المعنى المراد من اللفظ المشترك في غاية الظـهور والبيان، لا يعدم الطوسي الاشارة الى بقية المعاني التي تحتملها اللفظة، كالعين في قوله تعالى: (واذ يريكموهم اذ التقيتم في اعينكم قليلا ويقللكم في اعينهم ليقضـي الله أمراً كان مفعولا) [٤]، فانها كما يبين الطوسي، الباصرة. والمراد بالرؤية رؤيـة البصر، وهو الادراك بحاسة البصر. ثم يقول: " والعين مشتركة، فمنها عين المـاء وعين الميزان وعين الركيّة وعين الذهب، والعين: النفس ". [٥] ويلاحظ انـه لـم يقصد الى حصر جميع المعانى المحتملة للفظ المشترك، وانما اشار الى اشـهرها. اذ إن لكلمتي المولى والعين من المعاني اكثر مما ذكر.

ولا يكتفي الطوسي ببيان الالفاظ المشتركة في القرآن ومعانيها المتعـددة، حيـن يعرض لتفسيرها، بل نراه يناقش اقوال المفسرين فيها، على اساس مـن اصـول اللغة وقوانينها. فيرد علي ابي علي الجبائي لانه جعل الإسرار في قوله عز وجـل: (وأسرّوا الندامة لما رأوا العذاب) [٦]، يراد به الاظهار والمعنى: اظهروا الندامـة. فيقول في رده عليه: " هذا غلط لان لفظة الاخفاء هي المشتركة دون لفظ الاسرار،

---

[١] التبيان ١ /٦ .

[٢] الانفال : ٤٠.

[٣] التبيان ٥ /١٢١- ١٢٢.

[٤] الانفال : ٤٤ .

[٥] التبيان ٥ /١٣٠.

[٦] سبأ : ٣٣ .

فحمل احدهما على الاخر قياس في اللغة." [١] ومراده ان هذا قياس في مقابل النص، لان المنقول عن العرب في معناها عدم التضاد - الذي سماه الاشتراك -. وهو اعتراض اصولي سليم، وقد اقامه على ما سماه كمال الدين بن الانباري " فساد الاعتبار "، في الفصل الذي عقده للاعتراض على الاستدلال بالقياس، وجعل منه الاستدلال بالقياس في مقابلة النص عند العرب. [٢]

ولا يغفل الطوسي، وهو يفسر الآى ويحدد دلالات الالفاظ عن التنبيه على ورود الفاظ معينة بمعنيين متباينين ومتضادين في موضعين مختلفين من التنزيل. او بعبارة اخرى التنبيه على معانى الاضداد التي عُني بها كثير من اللغويين كابن الانباري محمد بن القاسم وابن الدهان وغيرهما، ممن صنفوا فيها كتبا مفردة. فنراه مثلا يقول في تفسير الاية الكريمة: (الذين يظنون انهم ملاقو ربهم) [٣]، وهو يدفع شبهة عارضة: ان قيل: كيف اخبر الله عمن وصفهم بالخشوع. بالطاعة، ومدحهم بذلك بأنهم يظنون انهم ملاقو ربهم؟ وذلك مناف لصفة المدح؟ قلنا: الظن المذكور في الآية المراد به العلم واليقين ... وقد جاء في القرآن الظن بمعنى الشك، كقوله: (ان هم الا يظنون) [٤] وقوله: (ان الظن لا يغني من الحق شيئا). [٥] وقد يستطرد الى الاشارة الى لفظة ذات معنيين متضادين لها وشيجة في الصيغة، باللفظة التي يتناولها بالتفسير، فلفظة (أُبسلَ) في قوله تعالى: (أولئك الذين اُبسِلوا بما كسبوا) [٦]، تعني، فيما يذكر الشيخ، دُفع الى التهلُكة على وجه الغفلة، غير قادر على التخلص منها [٧]، ثم هي تؤديه من بعد الى بيان المعنيين المتضادين الكلمة " البُسْل " في اللغة، فيقول: " ويقال: هذا بُسْلٌ أي حرام. وهو بسْلٌ: أي حلال، وهذا من الاضداد ". [٨]

وعنى الطوسي في تفسيره اللغوي بالتفرقة المعنوية بين الالفاظ القرآنية التي يُظن انها مترادفة، وخاصة تلك التي ترد معطوفا بعضها على بعض، او

---

[١] التبيان ٨ /٣٩٨ .

[٢] ابن الانباري : الاعراب في جدل الاعراب ص ٥٤ .

[٣] البقرة : ٤٦ .

[٤] الجاثية : ٢٤.

[٥] التبيان ١ / ٢٠٥- ٢٠٦ والاية من سورة يونس : ٣٦ .

[٦] الانعام : ٧٠ .

[٧] التبيان ٤ /١٦٧ -١٦٨ .

[٨] التبيان ٤ /١٦٨ ، وقارن بالصلح ٤ /١٦٣٤ مادة (بسل) .

مؤكدا بعضها لبعض. وهذه نقطة مهمة في بيان القرآن، وهي متصلة بالاعجاز، غير ان بحثنا عنها هنا من جهة لغوية، لئلا نخرج الى البحث البلاغي. ومنهج الطوسي في هذا الصدد سليم، اذ لم يدخر وسعا في تلمس الوجوه اللغوية التي تدفع شبهة التكرار المعنوي. فمثلا في قوله تعالى: (وكأيّن من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما اصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين)، [1] يفرق معنويا بين الوهن والضعف، فيقول: " وانما قال: (فما وهنوا وما ضعفوا) من حيث ان الوهن انكسار الجد بالخوف وغيره، والضعف نقصان القوة " [2]، فعد الوهن معنويا والضعف حسيا. وهذا يسلم له اذا جعله غالبا لا مطردا، لان الوهن يرد للدلالة على الضعف الحسي في اكثر من موضع في التنزيل، كقوله تعالى على لسان زكريا: (رب اني وهن العظم مني) [3]، وفي تصوير ضعف بيت العنكبوت: (وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون[4]). كما يرد للدلالة على الضعف النفسي المعنوي في مثل قوله تعالى: (ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلون ان كنتم مؤمنين). [5] وذلك بعد الانكسار النفسي الذي اصاب المسلمين عقب خسارتهم لمعركة احد، والقرينة على ارادة هذا المعنى، مقابلة الوهن بالعلو الذي لا شك انه معنوي ايضا. ونراه في تفسير قوله تعالى: (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك)، [6] يبين انه انما جمع بين صفتين في قوله: (فظا غليظ القلب)، " مع اتفاقهما في المعنى، لا زالة التوهم ان الفظاظة في الكلام دون ما ينطوي عليه القلب من الحال. وهو وجه من وجوه التأكيد، اذ يكون لا زالة الغلط في التأويل ". [7] والتفت الطوسي الى دقة استعمال القرآن للالفاظ، والى تناسقها وانتلافها المعنوي مع التعبير كله في الاية التي يتناولها بالتفسير. فهو يلحظ استعمال الأخذ مع الرجفة في قوله تعالى: (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) [8]، ويرى انه هو الدقيق وانه " لا يقال

---

[1] آل عمران : ١٤٦ .

[2] التبيان ٣ /١١.

[3] مريم : ٤ .

[4] العنكبوت ٤١.

[5] آل عمران : ١٣٩.

[6] آل عمران : ١٥٩.

[7] التبيان ٣/٣١ .

[8] الاعراف : ٩١ .

اخذتهم الرحمة، لان العذاب لما كان يذهب بهم هلاكا، صلح فيه الاخذ ولا يصلح في النعيم[١] ". ويلحظ استعمال السكوت بدلا من السكون في قوله عز وجل: (ولما سكت عن موسى الغضب) [٢]، فيرى انه احسن " لتضمنه معنى سكوته عن المعاتبة لأخيه، مع سكون غضبه" [٣]، ملتفتا الى ما يحمل هذا اللفظ من شحنة معنوية تجعل التعبير به اقوى من التعبير بمتضمنه وهو السكون.

والتفت الطوسي الى مفهوم عدد من الالفاظ القرآنية في الاستعمال اللغوي، ومفهومها في استعمال القرآن، وما قد يقع بين هذين الاستعمالين من تغاير معنوي. كما في لفظة " عسى " الواردة في قوله تعالى: (فعسى الله ان يأتي بالفتح او امر من عنده)، [٤] اذ بين انها " موضوعة في اللغة للشك، وهي من الله تعالى تفيد الوجوب " [٥]، كما التفت الى تطور الدلالات بكثرة الاستعمال، فقال في تفسير قوله تعالى: (يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم). [٦] فأما التفضل فزيادة النفع على مقدار الاستحقاق، ثم كثر استعماله حتى صار لكل نفع قصد به فاعله ان ينفع صاحبه ". [٧] كما لاحظ هذا التطور في بنية الالفاظ التي استعملها القرآن، فلم يفته ما يقر به علم اللغة الحديث، من ان اللغة تسير في تطورها الصوتي نحو التسهيل والتيسير، بل بين في تفسير قوله تعالى: (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني وانْ هم الا يظنون) [٨]، أن " الاماني واحدها أُمنيّة مُثقّل "، وانهم " يخففونها لكثرة الاستعمال، وكذلك الاضاحيَ ". [٩] وعني الطوسي، وهو يفسر الآي، بمباحث اخرى متنوعة، هي من صميم ما يعني به علم اللغة الحديث، كالاشارة الى الاصل الحسي والمعنوي للالفاظ القرآنية، الذي نلحظه في مواضع كثيرة من تفسيره، إلا أن كلامه هنا مشوب باضطراب، اذ لا يكاد يستقر على رأي في ايهما اسبق: الحسي او المعنوي. فتارة يجعل الحسي هو

---

[١] التبيان ٤ /٤٧٠ .
[٢] الاعراف : ١٥٤ .
[٣] التبيان ٤/٥٥٣ .
[٤] المائدة : ٥٢ .
[٥] التبيان ٣/٥٥١.
[٦] آل عمران : ٧٤ .
[٧] التبيان ٢ /٥٠٣ .
[٨] البقرة : ٧٨ .
[٩] التبيان ١/٣٢٠. وانظر قوله في " كَأيّن " في ٣ /١٠.

الاصل وأخرى يجعل المعنوي. مع ان الاول، فيما انتهى اليه علم اللغة الحديث هو الصحيح، لانه يمثل المعنى الحقيقي الذي يتفرع عنه عادة عن طريق المجاز، ما يشيع من معنويات. [١] ويذكر استاذنا المرحوم الدكتور مصطفى جواد ان اللغة تنتقل في تطورها من الاشارة الى العبارة ومن التجسيد الى التجريد. [٢] فمما جعل فيه الحس اصلا للمعنوي الصبر في مثل قوله تعالى: (واصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين)، [٣] اذ بين ان " الصبر: حَبسُ النفس عن الخُروجِ الى ما لا يجوزْ من ترك الحقِّ، وضدُّه الجزع. قال الشاعر:

فإنْ تصبروا فالصبْر خيرٌ مغَبة [٤] وانْ تجزعوا فالأمرْ ماتريان

ثم قال: والصبْر مأخوذٌ من الصبر المُرِّ، لانه تجرُّعْ مرارة الحقِّ بحبس النفس عن الخروجِ الى المُشتهى ". [٥] ومما جعل فيه المعنوي اصلا للحسي، ما اورده في تفسير قوله تعالى: (ولو انهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون) [٦]، اذ جعل الثوب مشتقا من الثواب الذي يعني في اصل اللغة: ما رجعَ اليكَ من شيء. فسُمي الثوب بذلك، لانه ثابَ لباساً بعد ان كانَ قُطناً او غزلاً، [٧] وايضاً جعل الرب مشتقا من التربية، حين فسر قوله تعالى: (الحمد لله رب العالمين)، [٨] وجعل الجانَّ، وهي الحية الصغيرة، مشتقة من الاجتنان وهو الاستتار، حين فسر قوله تعالى (فلما رآها تهتز كأنها جانٌّ ولى مدبرا ولم يعقِّب). [٩] والعكس في كل هذا هو الصحيح. فالثواب من الثوب - ان جاز ان يكون اصلا له - والتربية من الرب والا جتنان من الجان. كما ان " الرحمة مثلا قد اشتقت من الرحم موضع الولد ". [١٠]

---

[١] انيس : اللهجات العربية ص ١٤٤.

[٢] جواد : المباحث اللغوية في العراق ص ١٣ -١٤ .

[٣] هود : ١١٥ .

[٤] المغبة : العاقبة . انظر اللسان مادة (غبب) ٢/١٢٦ .

[٥] التبيان ٦ /٨٠-٨١ .

[٦] البقرة : ١٠٣ .

[٧] التبيان ١/٣٨٦ .

[٨] الفاتحة : ٢ .

[٩] النمل : ١٠ .

[١٠] أنيس : اللهجات العربية ص ١٤٤.

(٢)

الشواهد اللغوية

يعتد الطوسي المفسر اللغوي بالشواهد اللغوية، ويجري في ذلك على سنن المفسرين الاوائل من اللغويين، الذين كانوا يبحثون عن الشاهد ليفسروا كلام الله ويبينوا معانيه. وقد تنوعت شواهده، فكانت صنوفا عدة هي: القرآن والحديث وكلام العرب من شعر واقوال وامثال.

أ – القرآن الكريم:

عدة الطوسي في بيان معاني كثير من المفردات القرآنية وغير القرآنية وكذلك التراكيب. فمن ذلك ما اورده في تفسير قوله عز وجل: (الحمد لله رب العالمين) "[١] اذ بين ان " الرب " تأتي في اللغة بمعنى السيد المطاع،وذلك كقول لبيد: [٢].

فَأَهلكن يوماً رَبَّ كندةَ وابنهُ*** ورَبَّ معدٍّ بين خَبتِ وعرعر.

ثم قال: " يعني: سيد كندة، ومنه قوله تعالى: (اما احدكما فيسقي ربه خمرا) [٣]، يعنى: سيده سيّده " [٤] ويقول في تفسير قوله تعالى: (فأصابها اعصار فيه نار).[٥] وهو يقلب مادة " ع ص ر " على وجوهها المعنوية المختلفة،فيقول "العصرُ: عصرُ الثوب ونحوه من كل شيء رطب... والعصرُ: العشي، ومنه صلاة العصرُ، لانها تُعصرُ أي تُؤَخرُ كما يؤخر الشيء بالتَعصُّر فيه ". ثم يقول: " والعَصر: النجاةُ من الجدب، ومنه قوله تعالى: (فيه يغاث الناس وفيه يعصرون)، [٦]؛ لأنه كعصر الثوب في الخُروجِ من حال الى حال " [٧] فهو في هذين المثالين – وهما قليل من كثير – يجعل القرآن الكريم شاهدا على معاني الالفاظ في اللغة. وهو ما ينبغي الاخذ به قبل كل شيء في باب الاستشهاد اللغوي، لان الاستشهاد بالقرآن يعني اعتماد ابلغ الكلام واعلاه واوثقه، فلا بد اذاً من تقديمه على ما سواه من الشواهد الاخرى مهما علت واستوثقت.

---

[١] الفاتحة : ٢ .

[٢] انظر ديوان لبيد بشرح الطوسي ص ٥٥ .

[٣] يوسف : ٤١.

[٤] التبيان ٣٢/١.

[٥] البقرة : ٢٦٦.

[٦] يوسف : ٤٩.

[٧] التبيان ٣٤٢/٢ .

بـ الحديث النبوي الشريف:

الحديث في نظر الطوسي من اهم الشواهد اللغوية، بل اهمها بعد القرآن، وليس الشعر وغيره من كلام العرب بأوثق منه، ولا اصح في الاستشهاد على اللفظ المشتبه في القرآن، غير ان " عناد الملحدين وتعجرفهم "، دعا الى الاستشهاد بالشعر وغيره " لان غاية ذلك ان يستشهد عليه ببيت شعر جاهلي، او لفظ منقول عن بعض الاعراب " او مثل سائر عن بعض اهل البادية، ولا تكون منزلة النبي (ص) - وحاشاه من ذلك - اقل من منزلة واحد من هؤلاء، ولا ينقص عن رتبة النابغة الجعدي وكعب بن زهير وغيرهما " [1]. ويظهر الشيخ عجبه من اطمئنان هؤلاء المعاندين الى الشاهد الشعري دون الحديث النبوي الذي لامراء في فصاحته وبلاغته، يقول: " ومن طرائف الامور ان المخالف اذا ورد عليه شعر من ذكرناه ومن هو دونهم، سكنت نفسه واطمأن قلبه، وهو لا يرضى بقول محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ومهما شك الناس في نبوته فلا مرية في نسبه وفصاحته. فانه نشأ بين قومه الذين هم الغاية القصوى في الفصاحة، ويرجع اليهم في معرفة اللغة. وكيف يجوز ان يحتج بشعر الشعراء عليه، ولا يجوز ان يحتج بقوله عليهم؟ وهل هذا الاعناد محض وعصبية صرف "؟ ثم يبين العلة في احتجاج علماء الاسلام بكلام العرب من شعر ونثر، مع اعتدادهم الكبير بكلام النبي (ص)، فيقول: " وانما يحتج علماء الموحدين بشعر الشعراء وكلام البلغاء، اتساعا في العلم وقطعا للشغب وازاحة للعلة، والا فكان يجب الا يلتفت الى جميع ما يطعن عليه، لانهم ليسوا بأن يجعلوا عيارا عليه، بأولى من ان يجعل هو - عليه السلام - عيارا عليهم ". [2]

فلم يعتمد الطوسي الحقائق الدينية في هذا الترجيح، وانما التزم الى جانبها بقواعد علمية اساسها الفصاحة والبلاغة المشهودة لهما في ترجيح كلام ما على غيره، في معايير العرب والنقاد. وهذا موقف بعض علماء الفقه والتفسير والادب، ومنهم الامام ابن حزم، الذي اظهر كل العجب ممن ان وجد لاعرابي جلف او لامرئ القيس او الشمّاخ .... لفظا في شعر او نثر جعله في اللغة واحتج به، وقطع به على خصمه. ولا يستشهد بكلام خالق اللغات، ولا بكلام الرسول وهو

---

[1] التبيان ١/١٦.

[2] التبيان ١/١٦-١٧ .

افصح العرب، [1] ولا احسب ان الطوسي ينكر اصلاً الاستشهاد بكلام العرب على معاني القرآن، وخاصة الشعر الذي هو ديوان العرب. وانما هو ينكر الاعتماد عليه وحده، دون الحديث النبوي معه. فهو في هذا ليس من اولئك المتطرفين في الرأي الذين نعتهم ابو بكر بن الانباري – فيما نقل السيوطي عنه – بانهم " جماعة لا علم لهم " لانهم انكروا على النحويين ذلك " وقالوا: اذا فعلتم ذلك، جعلتم الشعر اصلا للقرآن ... وكيف يجوز ان يحتج بالشعر على القرآن، وهو مذموم في القرآن والحديث"؟ [2] وهذا التعليل، في رأينا، لا يخلو من سذاجة، لأن القرآن لم يقدح بحجية الشعر من جهة اللغة، وانما كان الذم منصباً على الفنون والاغراض، وعلى سلوك الشعراء الذي يخالف اقوالهم. على ان هذا ليس عاما في كل شاعر وشعر، بل هو خاص بغير المؤمنين، والاستثناء في الايات التي بينت ذلك [3] دال عليه في غاية الوضوح. ولم نر الطوسي في استشهاده بالحديث على المسائل اللغوية المختلفة التي اوردها في تفسيره – كالاصل اللغوي للالفاظ وغيره – ينقد الاسانيد والمتون، كالذي رأيناه عند الكلام على المأثور، وانما هو يتساهل هنا، فيقبل الحديث ما دام لا يتعلق بحكم شرعي. وكأنه يلحظ ان الحديث الضعيف او الموضوع لا يخرج عن كونه حجة في اللغة، لانه مما قيل في عصر قوة اللغة وفصاحتها. فهو ان لم يكن حجة في الدين، فهو حجة في باب الاستشهاد اللغوي. يقول في تفسير قوله تعالى: (تجرى من تحتها الانهار) [4]، عند بيانه لمعنى كلمة " تحت " في الاية الكريمة " وتحت نقيضُ فوقَ. وفي الحديث (لا تَقومُ الساعةُ حتى يظهر التِّحوتُ)، أي الذين كانوا تحت أقدام الناس، لايُشعرُ بهم ذُلاً ".[5] ويبين في تفسير قوله تعالى: (فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين) [6]، ان معنى الصبر: " حبس النفس عما تنازع اليه الجزع، ثم يقول: " واصله: الحبس، ومنه قوله عليه السلام: (اقتلوا القاتل واصبروا الصابر) [7]. ويقول في تفسير

---

[1] ابن حزم : الاحكام في اصول الاحكام ٤/٤٢٩ –٤٣٠ وانظر : عيد : الرواية والاستشهاد باللغة ص ١٢٤ .

[2] السيوطي : الاتقان ١/١١٩ .

[3] الشعراء : من آية ٢٢٤– ٢٢٧ . والاستثناء قوله تعالى : " الا الذين آمنوا ... " .

[4] البقرة : ٢٦٦.

[5] التبيان ٢ / ٣٤١-٣٤٢ .

[6] الاعراف : ٨٧ .

[7] التبيان ٤/٤٦٤ .

قوله عز وجل: (ومن قبلُ ما فرَطتمْ في يوسف): [١] ما فرطتم في يوسف " أي قصّرتم في حفظه " واصل التفريط: التقديم، من قوله صلى الله عليه واله: (أنا فرطكمْ على الحوضِ)، أي مُتقدمكم ".[٢]

جـ= كلام العرب من شعر ونثر:

استشهد الطوسي كثيرا في تفسيره باشعار العرب واقوالهم وامثالهم. وحجته في الاستشهاد بذلك، بيّناها سالفا. ومنهجه في الاستشهاد بالشعر يتسم بشيء غير قليل من الصرامة والدقة العلمية، فلم نره يستشهد بأشعار المولدين او المحدثين، وانما قصر شواهده، على اشعار الجاهليين، والاسلاميين الذين عاشوا في صدر الاسلام وعهد بني امية. فليس في تفسيره شعر لمثل بشار بن برد وابي تمام والبحتري وابي الطيب المتنبي والشريف الرضي ومهيار الديلمي وابي العلاء المعري واضرابهم من شعراء العصر العباسي، المشهود لهم بجودة الشعر وتأخر العصر او الحداثة. ولقد كان الزمخشري استشهد في الكشاف بشعر لابي تمام[٣]، غير انه لم يجعله شاهدا في اللغة، بل جعل " ما يقوله بمنزلة ما يرويه " لانه فيما يرى من علماء العربية. [٤] فاذا كان هذا صنيع الزمخشري وهو متأخر عن الطوسي بما يقرب من ثمانين عاما فما بالك بالطوسي نفسه، وقد تقدم عليه؟.

ويعد ابن عباس من اقدم من نهج في تفسير القرآن هذا النهج اللغوي اذ كان يفسر غريبه بالشعر العربي القديم [٥]. وفي اجابته عن سؤالات نافع بن الازرق الخارجي من هذا شيء كثير. حفظت لنا بعض الكتب، مثل اتقان السيوطي، [٦] طرفا منه.

والشعراء الجاهليون الذين استشهد الطوسي بأشعارهم كثيرون، واكثرهم من اصحاب المطولات، كامرئ القيس، [٧] وزهير بن ابي سلمى، [٨] والحارث بن حلزة

---

[١] يوسف : ٨٠ .

[٢] التبيان ٦/ ١٧٨ .

[٣] الزمخشري : الكشاف ١/ ٥٨، ٦٥ . وانظر استشهاده بشعر البحتري في ١ /٦٣ .

[٤] نفسه ١/ ٦٦ .

[٥] مقدمة في علوم القرآن لمجهول بتحقيق جفري ص ١٩٨- ١٩٩ . وجولد تسهير : مذاهب التفسير الاسلامي ص ٨٩ وما بعدها.

[٦] انظر هذه السؤالات واجوبتها في الاتقان ١/ ١٢٠- ١٣٣ .

[٧] التبيان ١/ ٣٣٩ ، ٢/ ٢٢٧ ، ٣/ ٦٩ ، ٤/ ٨٨ .

[٨] التبيان ١/ ٢٣٩ ، ٣٢٧ ، ٣/٢٥٣ ، ٦/ ٣٠٤ .

اليشكري، [1] وعلقمة بن عبده، [2] وعنترة بن شداد،[3] ودريـــد بـــن الصمـــة [4] وطرفة ابن العبد، [5] والنابغة الذبياني [6]. ومنهم شعراء وصعاليك مثل الشـــنفرى الازدي، [7] وتأبط شراً. [8] ولم يكن الشعراء الاسلاميون الذين يعتد بأشعارهم فـــي الاستشهاد اللغوي، باقل من هؤلاء وكان من بينهم شعراء مخضرمون مثـــل ابـــي الاسود الدؤلي، [9] ولبيد بن ربيعة العامري، [10] وحسان بن ثابت، [11] والنابغـــة الجعدي، [12] وكعب بن زهير، [13] وكعب بن مالك، [14] والخنساء، [15] والحطيئـــة، [16] وابي محجن الثقفي، [17] وغيرهم.

اما شعراء العهد الأموي، فقد تنوعوا، فكانوا ينتمون الـــى الفـــرق والاحـــزاب الدينية المختلفة. ففيهم من شعراء الشيعة الكميت بن زيـــد الاســـدي [18]، ومـــن شعراء بني امية جرير [19] ومسكين الدارمي [20]، ومن شعراء الخوارج عمـــران ابن حطان، [21] والطرماح بن حكيم [22]، ومن شعراء الزبيريين عبيد الله بن قيـس الرقيات. [23]

---

[1] التبيان ١/ ٣٨٠ ، ٢/ ١٩٦ ، ٨/ ٣٢٢ .
[2] التبيان ١/ ١٣٠ ، ٤/ ٨٨ ، ٧/ ١٩٣ .
[3] التبيان ١/٣٢٧ ، ٣/ ٥١٠ ، ٤/ ٣١٨ .
[4] التبيان ٣/ ١١١ ، ٥/ ٢٣١ .
[5] التبيان ١/ ٣٤٢ ، ٢/ ٣٤٧ ، ٨/ ٢٤٣ .
[6] التبيان ١/ ٣٥٩ ، ٤/ ٨٧ ، ٢٠٦ ، ٦/ ٤٣ .
[7] التبيان ١/ ٣٠ ، ١٣٢ ، ٩/ ٥٢٥ .
[8] التبيان ٢/ ٣٣٧ ، ٦/ ١٢١ .
[9] التبيان ١/ ٣٦٧ ، ٢/ ٧٦ ، ٣/ ٢٧٢ .
[10] التبيان ١/ ١٣٠ ، ٣٢٢ ، ٣/ ٥٠٧ ، ٥/ ٤٨٨ .
[11] التبيان ١/ ١٠١ ن ١١٣ ، ٦/ ٣٠٤ ، ٤٥٦ .
[12] التبيان ١/٨٥ ، ٣٥٥ ، ٢/ ١٠٠ ، ١٨٩ .
[13] التبيان ١/ ٣٧٨ ، ٢/ ٢٢٥ ، ٣/ ٣١٦ .
[14] التبيان ١/ ٣١٨ – ٣١٩ ، ٢/ ١١– ١٢ .
[15] التبيان ٢/ ٩٥ ، ٩/ ١٦٦ .
[16] التبيان ١/ ٣٨٠ ، ٢/ ٣٨٦ ، ٣/ ٣٥٤ ، ٨/ ٣٥٧ .
[17] التبيان ٢/ ٢٤٤.
[18] التبيان ١/ ٤٠١ ، ٣/ ٢٨٣ ، ٣٣١ ، ١٢١ .
[19] التبيان ١/ ١٢١، ٣١٩ ، ٣/ ١٠ ، ٧/ ٣٥١ –٣٥٢.
[20] التبيان ١/ ٩٠، ٣/ ٩٨ ، ٥/ ٣٧ .
[21] التبيان ٤/ ٥٣٠.
[22] التبيان ١/ ٣٥١ ، ٢/ ١٣٥ ، ٣٤٥ ، ٣/ ٢٧٤ .
[23] التبيان ٦/ ٥٠٩ ، ١٠/ ٣١٨ .

ويبدو الطوسي هنا على جانب كبير من الموضوعية والعلمية، اذ لم يقصر شواهده على شعراء نحلته فحسب، وهم غير قليلين في هذا العصر - الاموي -، وانما اورد من شواهد الشعر ما يحقق له هدفه العلمي، بصرف النظر عن اعتقادات قائليها واتجاهاتهم المذهبية. ومعظم شواهده منسوبة الى من ذكرناهم من الشعراء والى غيرهم ممن لم نذكرهم. وبعضها لم ينسبه الى قائله، مكتفيا بعبارة " قال الشاعر " [1]، او " ومنه قول الشاعر "، مثل قول عبيد الله بن قيس الرقيات:

إنّ هذا الليلَ قد غسَقا*** واشتكيتُ الهَم والأرَقا

الذي اورد منه صدره وترك العجز، لأن في الأول موضع الشاهد، وهو ان الغسق يرد بمعنى بدء الليل، على قول ابن عباس وقتادة، ويرد بمعان اخرى بيّنها، [2] حين فسر قوله تعالى: (اقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر). [3] ولم ينسب هذا الشطر من البيت الى قائله الرقيات، مع انه له كما يشهد بذلك ديوانه. [4] ويبدو انه فعل ذلك ايجازا.

وربما نسب الطوسي بعض الابيات الى غير قائليها، كبيتي الفرزدق:

فكيف بنفسٍ كلما قلتُ اشرفتْ*** على البُرء من حوصاء هيض اندما لها

تُهاضُ بدارٍ قد تقادَمَ عهدُها*** وإما بأموات ألَـمّ خيالُها

اللذين نسبهما الى ذي الرمة. [5] وديوان الفرزدق [6] ومصادر اخرى [7] تشهد بأنهما للفرزدق. واذا اشترك شاعران في اسم او وصف كالنابغتين الذبياني والجعدي، فرق الطوسي بينهما عند الاستشهاد باللقب. الا اذا كان الشاهد مشتهر النسبة الى احدهما، فانه يستغني عندئذ به عن لقب الشاعر. يقول في تفسير الاية الكريمة: (كان الناس أُمَةً واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) [8]: " معنى

---

(1) التبيان ١/ ٤٤٤ ، ٦/ ١٤ ، ٧/ ١٨٢ ...
(2) التبيان ٦/ ٥٠٩ .
(3) الاسراء : ٧٨ .
(4) انظر ص ١٨٧ من ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات . وانظر بيته الذي مطلعه : ما نقموا من امية الا ... في التبيان ١٠/ ٣١٨ وقارن بديوانه ص ٤ .
(5) التبيان ٤/ ٥٠١.
(6) ديوان الفرزدق ٢/ ٦١٨ .
(7) مثل المنصف لابن جنى ١/ ١١٥ .
(8) البقرة : ٢١٣ .

قوله: " كان الناس امة واحدة ": اهلَ ملَّةٍ واحدة، كما قال النابغة:

حلفتُ فلم أتركْ لنفسك ريبةً ***وهلْ بأثمن ذو أمَةٍ وهو طائعُ [1]

أي ذو ملةٍ ودين ". [2] فنراه هنا يطرح من اسم النابغة لقبه الذبياني، بالنظر لشهرة هذا البيت - الذي قيل انه يعتذر فيه الى النعمان - في انه اليه.

واقوال العرب وتحاورها من اهم ما عنى به الطوسي في الاستشهاد اللغوي، فنراه مثلا في وقوفه عند الاية الكريمة: (وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) [3]، يقول: وقوله تعالى: (وكلا): الاكلُ والمضغُ واللقمُ مُتقاربةٌ، وضدُ الاكلِ الأزْمُ. وسأل عمر بن الخطاب الحارث بن كلدة طبيب العرب، فقال له: ياحارُ ما الدواء؟، فقال: الأزْمُ، أي ترك الأكْل ". [4]

وعنى الطوسي بأمثال العرب السائرة، وافاد منها في تفسير كثير من المفردات القرآنية الغريبة، او ما هي في حكم الغريب، وفي الاستدلال على اصول اشتقاقها في اللغة. فمن ذلك ما اورده في تفسير قوله عز وجل: (ولا تبْخسُوا الناس اشياءهم) [5]، اذ بين ان معنى البخس في قول قتادة والسدى: الظلم،ثم قال: " ومنه المثل: تحْسبُها حمقاء وهي باخسٌ". [6] وفي تفسير قوله تعالى: (والله عزيزٌ ذو انتقام [7])، ذكر في باب " اللغة " ان " اصل الاعزاز الامتناع،ومنه ارضٌ عزازٌ: مُمتنِعةُ السكون لصُعوبتها " ثم قال: " ومنه قولهم: مَنْ عزّبَزّ، أي من غلب سلب. لأن الغالبَ يَمتنعُ منَ الضَيم ". [8]

وقد يجمع الطوسي في موضع واحد، اكثر من نوع من هذه الشواهد،ليوثق المعنى الذي يراه في تفسير الاية، ويقوى استدلاله له. فنرى اقوال العرب الى جانب

---

[1] انظر البيت في ديوان النابغة الذبياني ص ٨٢ .

[2] التبيان ٢/ ١٩٤ .

[3] البقرة : ٣٥ .

[4] التبيان ١/ ١٥٦- ١٥٧ وقارن بالصحاح ٥/ ١٨٦١ مادة (ازم) وانظر قول العرب في معنى الميل في ٣/ ٣١٠.

[5] الاعراف : ٨٥ .

[6] التبيان ٤ / ٤٦١- ٤٦٢ . والمثل في الكامل للمبرد ١/ ٣٥٢ .

[7] آل عمران : ٤ .

[8] التبيان ٣٩٢/٢ والمثل في الفاخر للمفضل بن سلعة ص ٧٢ والى هذا ذهبت الخنساء في قولها : اذ الناس اذ ذاك من عزبزا . انظر ديوانها ص ٨١ .

الشعر او الامثال، فاذا انضم الى ذلك المأثور الذي يعول عليه كثيرا في تفسيره، كما رأيناه، فقد جمع بين الحسنيين: النقل واللغة فمن امثلته ما اورده في تفسير قوله تعالى:(عطاءً غير مجذوذٍ) [١]، اذ بين ان معناه: غير مقطوع، في قول جماعة من الصحابة والتابعين، ثم قال: " يقال: جذّه يَجُذّه جذاً فهو جاذٌ. وجذّ الله اثرهم. قال النابغة:

يَجُذُّ السّلوقيَّ المُضاعف نسجُه** ويُوقدُ بالصُّفّاح نارَ الحُباحب [٢]

ويقال: جذّه اللهُ جذّ الصّليانة، وهي نباتٌ ". [٣] فجمع هنا بين المأثور واقوال العرب واشعارهم وامثالهم. وجعل ذلك كله شاهدا على معنى الجذ في الآية الكريمة.

ولا يقبل الطوسي من الشواهد الا ما كان معلوما بين اهل اللغة، واما ما طريقه الآحاد من الروايات الشاردة والالفاظ النادرة، فانه لا يقطع به. [٤]

(٣)

النحو

لا تقل عناية الطوسي بالمباحث النحوية عن عنايته بالمباحث اللغوية في تفسيره. وهذا ما جعل تفسيره فريدا بين تفاسير الامامية، لأنه جمع فيه انواعا عديدة من الدراسات النحوية التي نضجت في عصره، بعد ان وطّأ لنضوجها كبار النحاة الذين عاشوا في القرن الرابع الهجري، من مثل ابي علي الفارسي والرماني وابن جنى وغيرهم. فلما حل القرن الخامس الذي عاش فيه الطوسي وصنف تفسيره " التبيان " في منتصفه، كانت تلك الدراسات قد بلغت من التقدم والاكتمال مبلغا طيبا. وطبيعة المادة التي اوردها تدل على ذلك. وكان تراث النحويين الاوائل، بصريين وكوفيين كالخليل وسيبويه والكسائي والاخفش والفراء، بين يديه. ونقوله عنهم واستشهاده باقوالهم تفصح عن ذلك. وقد بينا طرفا منها سلفا في فصل المصادر.

وكانت دراسات الطوسي النحوية في تبيانه، موضع عناية ابي علي الفضل بن

---

[١] هود : ١٠٩ .

[٢] البيت للنابغة الذبياني . وروايته في ديوانه ص ٥٢ : " تقد " بدلا من " يجذ " و " توقد " بدلا من "يوقد" وانظر : فحول الشعراء ص ١١ واللسان مادة (سلق) ٢/ ٩٢.

[٣] التبيان ٦/٧١ - ٧٢ .

[٤] التبيان ١/٧ .

الحسن الطبرسي المفسر الامامي المتوفى سنة ٥٤٨ هـ. وقد افصح عن ذلك في مقدمة تفسيره، الا انه اخذ عليه " انه خلط في اشياء مما ذكره في الاعراب والنحو، الغث بالسمين والخاثر بالزباد، ولم يميز بين الصلاح مما ذكر فيه والفساد" [١]. واحسب ان الطبرسي عنى بذلك الوجود النحوية المتباينة التي اوردها الطوسي في تفسيره، وعرضها امام القارئ بما فيها من قوة وضعف وقرب وبعد، وترك للقارئ الحكم عليها دون تدخل منه في غالب الاحيان. فان كان الطبرسي اراد ذلك، فلسنا معه فيما قال، اذ ان هذا من منهج الطوسي في تفسيره بعامة، وهو ان يجمع الاقوال والاراء المتباينة، ثم يوازن بينها ويرجح بعضها على بعض، او يترك ذلك للقارئ من غير ان يبدي رأيه. ولعل الطبرسي لا يرى هذا المنهج في جملته سليما، وانما خص النحو بالنقد دون بقية موارد التفسير، لعنايته به وتقدمه على سائر الدراسات التي لها وشيجة بالتفسير. ويشعرنا بذلك قوله في مقدمة تفسيره: " ان الاعراب اجل علوم القرآن، اليه يفتقر كل بيان، وهو الذي يفتح من الالفاظ الاغلاق ... [٢] ". وهذا يذكرنا بما كان للنحو عند عبد القاهر الجرجاني من اهمية في تفسير اعجاز القرآن، اذ بناه على النظم وجعله " معاني النحو التي يدور عليها تعلق الكلام بعضه ببعض ". [٣]

ومهما يكن فقد اعرب الطوسي كثيرا من الالفاظ والتراكيب القرآنية مبينا لها الوجوه النحوية المتباينة دون ان يهمل المعنى الذي عليه المدار في الاعراب. فهو حين يبين هذه الوجوه المحتملة يقرب للقارئ معنى الاية بصورة او بأخرى لما بين الاعراب والمعنى من ارتباط لاريب فيه. فنراه مثلا يقلب لفظة " هدى " في قوله عز وجل: (ذلك الكتابُ لا ريب فيه هُدىً للمُتقين)، [٤] على وجوهها النحوية المتعددة في حالتي النصب والرفع، دون ان يهمل المعنى الذي هو الهدف المنشود اساسا من عملية التفسير. فيقول في باب " الاعراب ": " ويحتمل ان يكون منصوبا على الحال من (الكتاب) وتقديره: ذلك الكتابُ هاديا للمتقين، و " ذلك " يكون مرفوعا بـ " الم " [٥] و (الكتابُ) نعتٌ لـ (ذلك). ويحتمل ان يكون حالا من الهاء

---

[١] الطبرسي : مجمع البيان في تفسير القرآن ١/٢٠.
[٢] الطبرسي : مجمع البيان في تفسير القرآن ١/٢٧ .
[٣] ضيف : البلاغة تطور وتاريخ ص ١٦٠٨ .
[٤] البقرة : ٢.
[٥] يريد : الاية التي قبلها . فيكون " ذلك خبرا لـ الم

" فيه "، كأنه قال لا ريب فيه هادياً. ويحتمل ان يكون رفعاً من وجوه: اولها: ان يكون خبرا بعد خبر، كأنه قال: هذا كتاب هدى، أي قد جمع انه الكتاب الذي وعدُوا به، وانه هدى، كما يقولون: هذا حُلوٌ حامضٌ، يريدون انه قد جمع الطعمين. ويحتمل ان يكون رفعا بانه خبر ابتداء محذوف، وتقديره: هو هدى،لان الكلام الاول قد تم. [1] ويحتمل ان يكون رفعه على قولك: ذلك الكتاب لا ريب. كأنك قلت: هذا الكتابُ حقٌ، لان لا شكّ بمعنى حق ثم قال بعد ذلك: فيه هدى للمُتقين ".[2] ومراده على التقدير الاخير، ان " هُدى " مبتدأ مؤخر خبره الجار والمجرور " فيه " المتقدم عليه.

ويلحظ الطوسي السياق عند الاعراب، فيرد اللفظة او العبارة الى ما قبلها او ما بعدها ليتبين موقعها في ضوئه. فكلمة " هدى " في آية البقرة التي اوردناها سالفاً: (شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) [3]، لا تحتمل، فيما يرى، الا النصب على الحالية، لقوله تعالى: " وبينات من الهدى والفرقان ". [4] بل ان عناية الطوسي بالسياق لا تقف عند الآية التي يتناولها بالتفسير والاعراب، بل هي تمتد الى القرآن كله، ايمانا منه بأن " القرآن كله كالسورة الواحدة ". [5] فكثرة النظائر القرآنية للحكم النحوي، تعني عنده قوة لذلك الحكم وترجيحا له على ما سواه من الأحكام. وكأن هذا امتداد لمنهجه الذي رأيناه، في تفسير القرآن بالقرآن، ذلك المنهج الأمثل الأقوم، الذي بينا رأى العلماء فيه. فكلمة " ما " في قوله عز وجل: (واتموا الحج والعمرة لله فان احصرتم فما استيسر من الهدي) [6]. تحتمل في رأيه الرفع على الابتداء " كأنه قال: فعليه ما استيسر من الهدي. ويجوز النصب وتقديره، فليهد ما استيسر من الهدي " والرفع اقوى لكثرة نظائره، كقوله: (ففدية من صيام) [7] وقوله: (فعدة من ايام أُخر) [8]

---

[1] يريد : بقوله تعالى " ذلك الكتاب لا ريب فيه " فيكون " هدى " والمبتدأ المقدر كلاما مستأنفا .

[2] التبيان ١/ ٥٣ – ٥٤ .

[3] البقرة : ١٨٥ .

[4] التبيان ٢/ ١٢٢.

[5] التبيان ٣/٤١١.

[6] البقرة ١٩٦ .

[7] البقرة : ١٩٦ .

[8] البقرة : ١٨٤ .

وقوله:(فصيامُ ثلاثة أيامٍ). [١] وهو ملحظ دقيق وسليم في اعراب القــرآن، وفيــه استقراء لأسلوب القرآن، من جهة نحوية، في ايراد جواب الشرط حين يكون جملة اسمية. والنحو عند الطوسي تابع للمعنى يدور حيث يدور. فالوجوه النحوية تابعــة للمعاني القرآنية، وتوجيهها يكون بحسب تلك المعاني. فأو في قوله تعــالى: " يــا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عــدل منكم او آخران من غيركم [٢] "، للتفضيل لا للتخيير ؛ لان المعنى: أو آخران مــن غيركم ان لم تجدوا منكم". [٣] واللام في قوله تعالى: (واذا قيل لهم ماذا انزل ربكـم قالوا أساطير الأولين ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة) [٤]. " لام العاقبة، لانــهم لم يقصدوا بما فعلوه، ليتحملوا اوزارهم ".[٥] او بعبارة اخرى انها للعاقبة وليســت للعلة لان المعنى يقتضي ذلك، ولم يسلم اعراب الطوسي للايات القرآنية من بعـض الهفوات والاراء المرجوحة، وذلك امر طبيعي لكل من قام بمثل عمله الضخم، الذي يبدو في إعراب كثير من الألفاظ والعبارات القرآنية. فمن ذلك إعرابــه الــلام فــي قوله تعالى: (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم [٦])، جوابــا للقسـم على تقدير: أُقسمُ لقد كفر الذين قالوا ... [٧] وهو بعيد في رأينا، اذ نرى انــها لام التأكيد التي تدخل على الفعل الماضي المحقق بقد دون ان تغير معنى الكــلام. لان التوكيد الذي فيها لا ينافى التحقيق الذي في " قد " بل يعززه ويقويه. ولهذا عدهــا ابو الحسين بن الخباز في شرح " الايضاح " على ما ينقل الســيوطي عنــه، مــن الحروف التي تدخل على الجمل دون ان تغير لفظها او معناها. [٨] وزيادة التوكيــد جائز على مذهب سيبويه والبصريين، ولهذا جاز ان يؤتى بــاللام مــن " إنّ " وألا يؤتى. فاذا أتي بها كان اشد للتوكيد وابلغ. [٩] وامرها كذلك مع " قد". اذ يؤتى بــها معها فتزيد الكلام توكيدا وتحقيقا. على ان ابن هشــام اغنانــا مــن مزيــد مــن

---

[١] التبيان ٢ / ١٥٦ . والاية من سورة البقرة ١٩٦ والمائدة : ٨٩ .
[٢] المائدة : ١٠٦ .
[٣] التبيان ٤/ ٤٥ .
[٤] النحل ٢٤- ٢٥ .
[٥] التبيان ٦/ ٣٧٢ .
[٦] المائدة : ١٧ .
[٧] التبيان ٣/٤٧٦ .
[٨] السيوطي : الاشباه والنظائر ١٢/٢ .
[٩] الزجاجي: كتاب اللامات ص ٦٥ .

الاستدلال، اذ بين ان لام الابتداء تدخل على ثلاثة - باختلاف -: الماضي الجامد والماضي المقرون بقد والماضي المتصرف المجرد من قد. وان دخولها على الماضي المقرون بقد قول الجمهور. وعلله بأن " قد " تقرب الماضي من الحال فيشبه المضارع المشبه بالاسم. [١] فدل بذلك على ان اغلب النحاة يجيزون دخولها على الماضي المقترن بقد،كما في الاية. وهو الصحيح في رأينا، والقريب من اسلوب القرآن، فقد قال تعالى: (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم)[٢] وقال: (ولقد آتينا لقمان الحكمة) [٣]، وغير ذلك من الآي التي لا تشعر ان اللام فيها للقسم، وان هناك قسما مضمرا دلت عليه هذه اللام. على ان اللبس بين اللامين قديم على ما يحكيه الزجاجي، فنراه يقول عند الكلام على لام التوكيد: " وهذه اللام لشدة توكيدها وتحقيقها ما تدخل عليه، يقدر بعض الناس قبلها قسما، فيقول هي لام القسم ".[٤]

وحين اعرب الطوسي (غير إخراج في قوله تعالى: (والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا وصية لا زواجهم متاعا الى الحول غير اخراج [٥])، عدها منصوبة باحد شيئين: الاول: بان تكون صفة لمتاع، والثاني - وهو قول الفراء - ان تكون مصدرا وقع موقع الحال، كأنه قيل: لا اخراجاً. [٦] ويبدو ان الوجه الاول الذي رآه الشيخ بعيد، اذ لا يتضح من السياق ان (غير إخراج) تصف متاعاً " لان عدم الاخراج ليس من صفة المتاع في شيء. بل هو من صفة الممتعات ازواج المتوفين.

وما ذكره الفراء من انها حال وجه، وبه قال ابو البركات الانباري من بعد، غير انه جعلها حالاً من الموصين المتوفين، وتقديره عنده: غير ذوي اخراج، أي غير مخرجين لهن [٧] وكونها حالا من الازواج اقوى واقرب.

ومما وقع فيه الطوسي من اوهام في قواعد النحو. عدم تجويزه اضمار الفعل

---

[١] ابن هشام : مغنى اللبيب ١/ ٢٢٨ . وهو تعليل الرماني انظر : كتاب الحروف ص ٩٨.
[٢] الدخان : ١٧ .
[٣] لقمان : ١٢ .
[٤] الزجاجي : كتاب اللامات ص ٧٠ .
[٥] البقرة : ٢٤٠ .
[٦] التبيان ٢/ ٢٧٩ - ٢٨٠.
[٧] ابن الانباري : البيان في غريب اعراب القران ١٦١/١ .

في شيء من حروف الشرط وادواته، الا في "إنْ" لانها ام الباب والاصل الذي يلزمه. [١] ولذلك حمل قول عدي بن زيد: [٢]

فمتى واغلٌ يَنُبْهُمْ يُحيّو ***ويُعطفْ عليه كأسُ الساقيْ

على ضرورة الشعر. [٣] وهو في هذا الاعراب على رأي البصريين، غير ان المشهور من رأيهم خلاف ما بينه، اذ جوزوا اضمار الفعل بعد اذا الشرطية ايضا [٤]. من مثل (اذا السماءُ انشقتْ). [٥] بل ان الرماني يشير الى جواز اضماره بعد " لو " فيقول: " ولا يليها الا الفعل مظهرا او مضمراً ". [٦] ويبين ابن هشام ان " لو " تفيد الشرطية، وانها بمعنى إنْ عند كثير من النحويين. [٧]

وعنى الطوسي بحروف المعاني وحاول من خلال بيانه لمعانيها في التنزيل وضع قواعد نحوية عامة، منطقية عقلية، او لغوية استقرائية، تفيد في تعرف معانيها المختلفة والتفرقة بين تلك المعاني. فمن الاول ما بينه في دلالة " "إلا" على " لكن " وافادتها احيانا الانقطاع في الاستثناء، فقال " وكل موضوع يعلم ان ما بعد الا خارج عن الاول، فهو بمعنى لكن، كقوله: (ما لهم به من علم الا اتباع الظن)[٨]، وكقولهم: ما في الدار واحدٌ إلاّ حماراً والا وتداً. قال الشاعر:

ليس بيني وبين قيسٍ عتابٌ*** غيرُ طعن الكُلى وضرب الرقاب [٩]

وقال آخر:

حلفتُ يمينا غير ذي مثنويةٍ ***[١٠] ولا عِلْمَ إلا حُسن ظنَ بصاحب [١١]

معناه: لكنْ حُسنُ ظني بصاحبي ... ومثله: " ولا عاصِمَ اليومَ من أمرِ الله الا من

---

[١] وهذا مقرر لدى النحاة . قال السيوطي : " انْ " اصل ادوات الشرط وام الباب. الاشباه والنظائر ٢/ ٨.

[٢] وهو من شواهد سيبويه في الكتاب ١/ ٤٥٨ . والمبرد في المقتضب ٢/ ٧٦ وروايته : **تعطف بالتاء** . بدلا من الياء . وهو المناسب للكأس لانها مؤنثة .

[٣] التبيان ٥/ ١٧٥ .

[٤] ضيف : المدارس النحوية ص ٢٠٧ .

[٥] الانشقاق : ١ .

[٦] الرماني : كتاب معاني الحروف ص ١٠١ .

[٧] ابن هشام : مغني اللبيب ١/٢٦٤ .

[٨] النساء : ١٥٧ .

[٩] البيت لابن الايهم التغلبي . انظر كتاب سيبويه ١/ ٣٦٥ . والمقتضب للمبرد ٤/٤١٣ .

[١٠] المثنوية : الاستثناء .

[١١] قائله النابغة الذبياني . انظر : ديوانه ص ٤٩ والكتاب ١/ ٣٦٥ .

رحم ". [1] فوضع ضابطا عقليا وعززه بالشواهد. ومن الثاني ما بينه في تفسير قوله تعالى: (ان ما توعدون لآت وما انتم بمعجزين) [2] فقال: " واللام في قوله لآت " لام الابتداء، ولا يجوز ان تكون لام القسم لان لام القسم لا تدخل على الأسماء ولا الأفعال المضارعة، إلا ان تكون معها النون الثقيلة، ولا تعلق الفعل في:قد علمتُ إنّ زيدا ليقومنّ "، وعلى هذا فاللام في قوله تعالى: (لعمْرك إنهم في سكرتهم يعمهون)، [3] لام الابتداء لا القسم. [4]

وحاول الطوسي من خلال تفسيره للآي وضع ضوابط صرفية عامة، كالذي بينه وهو يفسر الغشاوة في قوله عز وجل: " وعلى ابصارهم غشاوةٌ ولهم عذاب عظيم" [5] فقال: " والغشاوةَ: الغطاءُ ... ويُقالُ تغشّاهُ السهم: اذا تجلله. وكل ما اشتمل على شيء مبني على فعالة، كالعمامة والقلادة والعصابة، وكذلك في الصناعة: كالخياطة والقصارة والصباغة والنساجة وغير ذلك. وكذلك من استولى على شيء: كالخلافة والأمارة والإجازة وغير ذلك ". [6] فبين لنا بذلك قاعدة عامة في دلالة الأوزان على معاني الأسماء واشار الى دلالتها على التعدي واللزوم في الأفعال، حين فسر قوله عز وجل: (فلا تقربوهن حتى يَطْهُرنَ فإذا تطهَّرن فأتوهن من حيث أمركم الله[7])، فقال: " والفرق بين طهُرتُ وتطهَّرتْ، أن فعُل لا يتعدى، لأن ما كان على هذا البناء لا يتعدى. وليس كذلك طهَّرَ ". [8]

وهناك قواعد كثيرة نثرها في أثناء تفسيره، وهو يعرب الآي ويفسرها، منها انه " لا يعطف الشيء على نفسه " [9]، وان عود الضمير الى الأقرب احسن في العربية. [10] ومنها ما يتعلق بالعامل خاصة. كاعتبار ما قبل الاستفهام لا يعمل في الاستفهام، [11] والصفة لا تعمل في الموصوف [1] والكلام يسلمنا لموضوع مهم له

---

[1] التبيان ١/٣١٩- ٣٢٠ والاية من سورة هود : ٤٣.

[2] الانعام ١٣٤ .

[3] الحجر : ٧٢ .

[4] التبيان ٦/ ٤٣٨ .

[5] البقرة : ٧ .

[6] التبيان ١/٦٤ .

[7] البقرة : ٢٢٢.

[8] التبيان ٢/٢٢١.

[9] التبيان ٣/٧ .

[10] التبيان ٣/٥٤٠.

[11] التبيان ٥/ ٣٨٠ .

له في تفسير الطوسي أهمية واضحة، الا وهو التعليل الذي صحب اكثر مباحثه ودراساته النحوية. واكثر من كلف به البصريون. وإمامهم الخليل " اول من بسط القول في العلل النحوية. " ثم " انفتح باب العلل واسعا أمام النحاة فأخذ كل حاذق منهم يجلب اليه كل ما يستطيع من غرائب ونوادر ". [٢] وما اورده الطوسي من تعليل يشعر بما بلغه من دقة منطقية. وقد اقامه على اسس كثيرة منها: ان العامل لا يكون جزءاً من المعمول. كالمضاف اليه، فانه لا يعمل في المضاف لانه من تمامه. [٣] ومنها مراعاة المرتبة في الوضع اللغوي، كتقدم المضاف على المضاف اليه دون العكس، لان المضاف اليه جزء من المضاف، وذلك ما يشعرنا به كلامه: " ان المضاف اليه لا يعمل فيما قبل المضاف، لانه لو عمل فيما قبله للزم ان يقدر وقوعه في موضعه، فاذا قدر ذلك لزم تقدم المضاف اليه على المضاف. ومن ثم لم يجز: القتالُ زيدٌ حين يأتي ". [٤] ومراده ان اصل الكلام: زيدٌ حين القتال يأتي. فلو اجزنا عمل المضاف اليه في الاسم الذي قبل المضاف، وهو زيد، للزم ان يقدم المضاف اليه عليه ليعمل فيه، وهذا ممتنع. ومن هذه العلل المشكلة التي يلحظها الطوسي علة في ابدال حرف باخر. فيذكر في تفسير قوله تعالى: (يريدون ان يطفئوا نور الله بافواههم ويأبى الله الا ان يتم نزوه ولو كره الكافرون)، [٥] ان " واحد الأفواه: فم في الاستعمال. وأصله: فوه، فحذفت الهاء وابدلت من الواو ميما، لانه حرف صحيح من مخرج الواو مشاكل لها ". [٦] ومن هذه العلل التقارب المعنوي مع أمن اللبس الذي علل به نيابة حروف الجر – او حروف الصفات او الاضافة كما يحلو له ان يسميها احياناً – بعضها عن بعض. [٧] ويسمى هذا التقارب تآخيا ايضا. ومنها الايذان بالعمل، الذي جعله علة في جواز تسكين لام الامر دون لام التعليل " لانه لما كان عملها التسكين، جاز فيها ذلك لايذانه بعملها"[٨] وهذا يعني ان في المبنى دلالة على العمل، كما جعلوا فيه دلالة على

---

[١] التبيان ٥/ ٣٨٥ .
[٢] ضيف : مقدمة كتاب الايضاح في علل النحو للزجاجي ص (ب) .
[٣] التبيان ٣/ ٧٦ .
[٤] التبيان ٤/ ٤٣ .
[٥] التوبة : ٣٢ .
[٦] التبيان ٥/ ٢٠٧ –٢٠٨.
[٧] التبيان ٣/ ٥٥٠.
[٨] التبيان ٢/ ١٣١ .

المعنى، فقالوا: الجزم للجزم. ومنها ضعف العامل، الذي علل به دخول لام التعدية على المفعول به المقدم على فعله في مثل قوله عز وجمل: (ان كنتم للرؤيا تعبرون).[1] بل ان الطوسي لا يقف عند العلل الثواني والثوالث. فمثلا في تفسير قوله تعالى: (فاينما تولوا فثم وجه الله). [2] يبين علة بناء الظروف " ثمّ"، وعلة بنائه على الحركة وعلة بنائه على الحركة بالفتح. فيقول: " وانما بني لان فيه معنى الاشارة الى المكان لا بهامها. وبني على الحركة لالتقاء الساكنين. وفتح لخفة الفتحة في المضاعف " [3].

(٤)

اصول النحو وأدلته

عنى الطوسي في تفسيره بأصول النحو وادلته، التي عرفت بادلة صناعة الاعراب.[4] وقد جعلها ابو بكر البركات الانباري ثلاثة هي: النقل والقياس واستصحاب الحال، ولم يعد الاجماع منها مع انه دليل وحجة، اذ هو معتّد به في الشريعة، فكيف لا يكون كذلك في غيرها. ذلك ان الاجماع لا ينعقد على شيء الا لحصول العلم به وظهور دلالته وامره. وهذه الادلة تشعرنا بالوشيجة الوطيدة بين اصول الفقه واصول النحو، فلا بدع إذاً ان يعنى بها الطوسي في تفسيره، وهو الاصولي، بعد ان عنى بها في كتبه الاصولية والفقهية. وعرّف الانباري النقل بأنه" الكلام العربي الفصيح المنقول بالنقل الصحيح، الخارج عن حد القلة الى حد الكثرة. فخرج عنه اذا ما جاء في كلامهم غير العرب من المولدين، وما شذ من كلامهم كالجزم بلن والنصب بلم ... وككسر نون " منْ " مع لام التعريف نحو: من الغلام، وضم نون " عنْ " معه نحو: عنُ الرجُل ... [5] " ثم فسر النقل الى قسمين، تواتر واحاد، وجعل التواتر شاملا للغة والقرآن، وما تواتر من السنة وكلام العرب، وبين ان هذا القسم دليل قطعي من ادلة النحو يفيد العلم. [6]

تبين لنا من دراسة مباحث الطوسي النحوية دراسة دقيقة متأملة. ان القرآن

---

[1] يوسف : ٤٣ .
[2] البقرة : ١١٦ .
[3] التبيان ١/ ٤٢٥ .
[4] ابن الانباري : الاغراب في جدل الاعراب ص ٤٥ .
[5] ابن الانباري : لمع الادلة في اصول النحو ص ٨١ وما بعدها .
[6] نفسه ص ٨١ – ٨٢ .

والقراءات اهم ادلته النقلية في النحو. وقد مر علينا سالفا استدلاله ببعض الآي على وجوه نحوية، ونود ان نتحدث هنا عن القراءات خاصة. ففي تفسير قوله تعالى: (فان خفتم الا تعدلوا فواحدة او ما ملكت ايمانكم) [1]. يعرب الطوسي كلمة (واحدة) في الآية الكريمة فيقول: " فواحدةً: نصب على انه مفعول به. والتقدير: فان خفتم الا تعدلوا فيما زاد على الواحدة، فانكحوا واحدة ". ثم يجيز حالة اخرى هي الرفع، مستدلا بقراءة احد القراء العشرة وبآية قرآنية وردت في موضع آخر فيقول: " ولو رفع كان جائزا، وقد قرأ به ابو جعفر المدني. وتقديره: فواحدةٌ كافيةٌ، او واحدةٌ مجزيةٌ، كما قال " فان لم يكونا رجُلين فرجلٌ وإمرأتان " [2] فعضد قراءة ابي جعفر بقرآن اجمع القراء على قراءته بحرف واحد، ليدعم تلك القراءة، وليجعل استدلاله بها على الحكم النحوي اقوى، فيسلم له الوجه الذي رآه. وفي تفسير قوله عز وجل: (وما كان قولهم الا ان قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا)، [3] يبين ان قولهم: نُصب بانه خبر كان، والاسم " أن قالوا "، وانما اختير ذلك لان ما بعد الايجاب معرفة فهو احق بان يكون الاسم "، ثم يحتج له بقوله تعالى: " ما كان حجتهم إلا أن قالوا " [4] وبقوله: (وما كان جواب قومه الا أن قالوا). [5] ثم يجيز حكما اخر ويحتج له بقراءة شاذة فيقول: " ويجوز الرفع على انه اسم كان، وقد قُرئ به في الشواذ ". [6]

اما ادلته النحوية من الشعر فهي كثيرة في تفسيره، وقد قصرها على الشعر الذي يعتد به في الاحتجاج عند النحاة. فجاءت شواهده النحوية من الشعر الذي يعتمد به في الاحتجاج عند النحاة. فجاءت شواهده النحوية من الشعر خالية من اشعار المولدين [7] والمحدثين، لانها مستقاة من مصادر النحو الاصيلة مثل كتاب سيبويه وغيره. وكثير منها ينسبه الى قائليه عند الاحتجاج به كبيت امرئ القيس المشهور في كتب النحو: [8]

---

[1] النساء : ٣ .
[2] التبيان ٣/١٠٧ .
[3] آل عمران : ١٤٧ .
[4] الجاثية : ٢٥ .
[5] الاعراف : ٨٢ .
[6] التبيان ٣/ ١٣ .
[7] انظر عدم الاحتجاج بكلام المولدين : السيوطي : الاقتراح في علم اصول النحو ص ٧٠ .
[8] انظر مثلا كتاب سيبويه ٢/ ١٤٧ والمقتضب للمبرد ٢/ ٣٢٦ .

فقَلتُ يَمينَ اللهِ أبرَحُ قاعداً ولو قطَعُوا رأسي لديكِ وأوصالي

اذ بين ان ابا علي الفارسي استدل به على جواز حذف " لا " من قوله تعالى: (أنْ يُؤتى أحدٌ مثل ما أُوتيتم) [١].

وكثير من شواهده معروفة لدى كبار النحاة من بصريين وكوفيين، وآية ذلك انه كثيرا ما ينسب انشادها لواحد او اكثر منهم، وخاصة سيبويه الذي اعتد بشواهده التي اوردها في كتابه، كبيت الشاعر:

فاليومَ قرّبت تَهجونا وتَشتُمنا فاذْهبْ*** فما بك والأيام من عَجب

وقد انشده شاهدا على ان العطف على الضمير المجرور جائز في ضرورة الشعر[٢]. وكبيت الاخفش الذي انشده دليلا على ان " الى " تكون في موضع "الباء[٣] ". وبيتي ابي عبيدة في زيادة كان [٤]، وبيت ثعلب في ان اللام في قوله تعالى (لضوا عنهم [٥])، ليست لام التعليل، او على حد تعبيره، ليست لام الغرض.[٦] فكل هذه الشواهد وغيرها كثير نقله عن هؤلاء النحاة وعن غيرهم من المشهورين، سواء اكانوا بصريين ام كوفيين.

وقد لا يكتفي الطوسي بالاستدلال على الحكم النحوي بشاهد شعري واحد، بل يعدد الشواهد، كأنه بذلك يعزز من قوة الحكم او الوجه النحوي الذي يراه، ويدلل على ان الشواهد عليه متضافرة، وليست قليلة او نادرة. كما في استدلاله على جواز جر ورفع كلمة (فئة) في قوله تعالى: (قد كان لكم في فِئتَين التقتا فِئةٌ تُقاتلُ في سبيلِ الله واخرى كافِرةٌ)، [٧] اذ اورد ثلاثة شواهد [٨]، الاول قول كُثَير [٩]:

وكُنتُ كذي رجلين رجلٌ صحيحةٌ ***ورجلٌ رمى فيها الزمانُ فشلتَ

وبين انه انشد بالرفع والجر، والثاني قول يزيد بن مفرغ الحميري: [١٠]

---

[١] التبيان ٢/ ٥٠٢ . والاية من آل عمران : ٧٣ .

[٢] التبيان ٩٨/٣ وقارن بكتاب سيبويه ١/ ٣٩٢ .

[٣] التبيان ١/ ٧٩ .

[٤] التبيان ٧/ ١٢٢- ١٢٣ .

[٥] التوبة : ٩٥ .

[٦] التبيان ٥/ ٢٨٢ .

[٧] آل عمران : ١٣ .

[٨] التبيان ٢/ ٤٠٧ – ٤٠٨ .

[٩] ديوان كثير ص ٩٩ . والكتاب ١/ ٢١٥ .

[١٠] ابو تمام : الوحشيات ص ١١٣ . والبغدادي : خزانة الادب ٢/ ٣٧٨ ، وقد نسب البيتين للنجاشي .

وكُنتُ كذي رجلين رجلٌ صحيحة *** ورجلٌ رماها صائبُ الحدثان
فأما التي صحّتْ فأزدُ شنُــوءة *** وأما التي شلتْ فأزدُ عُمان

والثالث قول شاعر لم يسمه: [١]

إذا مُتُّ كانَ الناسُ نصفَين شامتٌ *** وآخرُ مُثْنٍ بالذي كُنتُ أصنعُ

ونقل الطوسي عن كبار النحويين بعضا من اقوال العرب، واتخذها شاهدا علـــى مسائل نحوية متباينة. كقولهم: " لبئس ما تزويجٌ ولا مهر " الذي حكاه عـــن ابـــي عبيدة، شاهدا على ماقاله الفراء من ان " ما " في قوله تعالى: (بئس الذي اشـــتروا به انفسهم ان يكفروا بما انزل الله) [٢]، بمعنى شئ، والتقدير: " بئس الذي اشـــتروا به انفسهم ان يكفروا، فما اسم بئس و " ان يكفروا " الاسم الثاني ". وبين ان ابـــا عبيدة قال: " والعرب تجعل " ما " وحدها في هذا الباب بمنزلة الاسم التام ... بغـــير صلة ". [٣]

ويبدو اعتداد الطوسي باشعار العرب في الاستدلال النحوي، اكثر مـــن اعتـــداده باقوالهم، وآية ذلك كثرة شواهده الشعرية، واهماله بعض اقوالهم المنقولة عنـــهم والاكتفاء بالشعر الذي له عين الدلالة اذا روي مع تلك الاقوال. ومن ذلـــك ان ابـــا عبيدة استدل على زيادة كأن بشاهدين شعريين، وقول سمعه من قيس بـــن غـــالب البدوي هو: " ولَدتْ فاطمةُ بنتُ الخُرشُب الكملة من بَني عبـــسٍ لـــم يُوجـــدْ كـــان مثلهُمُ"، [٤] فنقل الطوسي الشاهدين من ابي عبيدة واهمل القول الذي ســـمعه مـــن قيس البدوي. [٥]

ولم نر الطوسي يستشهد بالحديث النبوي في النحو، مع انه استشهد بـــه فـــي اللغة في عدة مواضع من تفسيره. وقد مثلنا لذلك سالفا. ويبدوا انه نـهج في هـــذا نـهج قدامي النحاة، الذين لم يستشهدوا بالحديث، واستشهدوا بالشعر الذي يخضـــع

---

[١] نسبه سيبويه في الكتاب ١/ ٣٦ للعجير . وروايته فيه : نصفان " بالرفع بدلا من " نصفين " بـــالنصب . والوجه على أي من اللفظتين النصب خبرا لكان . واما رفع شامت فعلى الاستئناف خبرا لمبتدا محـــذوف . وليس بدلا من خبر كان ولهذا قال سيبويه بعد ايراد الشواهد : " أضمر فيها " .

[٢] البقرة : ٩٠ .

[٣] التبيان ١/ ٣٤٦- ٣٤٧ .

[٤] ابو عبيدة : مجاز القرآن ٢/ ٧-٨ والشاهد مشهور في كتب النحو كشرح ابن عقيل على الفية ابن مالك وغيره .

[٥] التبيان ٧/١٢٢ -١٢٣ .

للضرورة، حتى قال احد الدارسين ان كتاب سيبويه لم يرد فيه غير حديث واحد، جاء على سبيل التوكيد لغيره من النصوص وليس للاحتجاج [1]، حتى ان ابا حيان النحوي انكر على ابن مالك استشهاده، بالحديث في كتبه، حين شرح كتابه " التسهيل "، وذكر الاسس التي اعتقد ان السابقين انصرفوا لأجلها عن الاستشهاد به. [2] وكان الطوسي لم يشأ ان يخرج عن ذلك الاجماع الذي عقده النحاة، وخاصة انه يتقيد باجماعهم ويعتد به. واذا كان هذا صنيع الطوسي بالمنقول من ادلة النحو، فلا بد لنا بعد هذا ان نبحث في صنيعه بالمعقول، واعني بذلك القياس واستصحاب الحال اللذين يعد ان من ادلة النحو المعتبرة على ما نقلناه عن ابن الانباري سالفا، وخاصة القياس الذي أُعطِي اهمية كبرى من بين ادلة النحو، حتى قيل: " انما النحو قياس يُتَّبعْ " وحتى قال الانباري: " النحو كله قياس ... فمن انكر القياس فقد انكر النحو [3] " وعرف القياس بتعريفات عدّة منها ما رآه ابن الانباري من أنه " حمل غير المنقول على المنقول، كرفع الفاعل ونصب المفعول في كل مكان، وان لم يكن كل ذلك منقولا عنهم ". [4] وعرف النحو بأنه علم بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب[5]. والتعريفان يشعران بالعلاقة العملية بين القياس والنحو. وكأنهما توأمان لا يفترقان في واقع اللغة. ولقد رأينا الطوسي في فصل سابق، يأخذ بالقياس العقلي، بل الشرعي. ونراه هنا يأخذ بالقياس النحوي الذي يعد ضربا من القياس العقلي لأن العلة النحوية كالعلة العقلية".[6] فيذكر القياس والأقيس، وما هو من قبيل القياس المركب ،وما لا يقاس عليه. ويعلل تارة ويهمل اخرى،، مكتفيا بالوصف. فنراه مثلا ينتصر لرأي سيبويه في ان (ان تبروا) في قوله تعالى: (ولا تجعلوا الله عرضة لا يمانكم ان تبروا وتصلحوا) [7] موضعه النصب، لانه لما حذف المضاف وصل الفعل. خلافا للخليل

---

[1] عيد : الرواية والاستشهاد باللغة ص ١٣٠ .

[2] نفسه ص ١٣١ – ١٣٢ .

[3] ابن الانباري : لمع الادلة ص ٩٥ .

[4] ابن الانباري : الاغراب في جدل الاعراب ص ٤٥ .

[5] المصدر السابق ص٩٥ وانظر تعريفات اخرى في الاقتراح في علم اصول النحو للسيوطى ص٢٩-٣١.

[6] ابن الانباري : لمع الادلة ص ١١٢.

[7] البقرة ٢٢٤ .

والكسائي اللذين عداه مجروا بحذف اللام مع " ان " خاصة. وكان آية انتصار الطوسي لسيبويه وصفه لرايه بانه " هو القياس ". [1] وكانه لم ير في اعتبار الجر مع الام خاصة وجها، ورأى ان تعميم القاعدة وطردها هو الصحيح. وذلك ما عبر عنه بالقياس. وفي تفسير قوله تعالى: (ولما بلغ اشده اتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين) [2]، يقيس الطوسي ما لم يرد في كلام العرب على ما ورد فيه، فيبين ان: الاشد جمعٌ لا واحد له من لفظه مستعمل، وفي القياس واحده: شد. كواحد الاضر: ضر، وواحد الاشر: شر. ويستشهد بقول الشاعر: [3]

هل غير أن كثير الاشرُّ واهلكتْ *** حربُ الملوك أكاثر الأموال [4]

وفي تفسير قوله تعالى في الاية التي اوردناها سالفا: (غفرانك ربنا واليك المصير[5])، يعلل الطوسي القياس بالاولوية، فيبين ان نصب " غفرانك " بفعله الذي اخذ منه اقوى من نصبه بفعل محذوف تقديره: نسألك " لانه على الفعل الذي اخذ منه اولى، من حيث كان يدل عليه بالتضمين، نحو حمداً وشكراً، أي: أحمدُ حمداً وأشكُرُ شكراً. [6]

ويشير الطوسي الى ما يسميه الشرطية المركبة في مقدمة القياسات. حين يعوب قوله عز وجل: (فأما يأتينكم مني هُدى فمنْ تبع هدايَ أي فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) [7]، فيقول: " وقوله: (إما يأتيكم) شرط وجوابه الفاء وما بعد قوله " فمن " شرط آخر،وجوابه الذي بعده، من قوله " فلا خوف عليهم " وهو نظير المبتدأ والخبر الذي يكون خبره مبتدأ وخبرا. وهذا في مقدمة القياسات يسمى: الشرطية المركبة، وذلك ان المقدم فيها اذ وجب، وجب التالي المرتب عليه ". [8]

ويبين مالا يجوز ان يقال في العربية قياسا على كلام الله، مثل ان تقول: ضربت الا

---

(1) التبيان ٢/ ٢٢٧ .

(2) يوسف : ٢٢ .

(3) انشده الطبري في تفسيره ١٣ /١٧٧ من طبعة الحلبي الثانية ولم ينسبه .

(4) التبيان ٦/١١٧ .

(5) البقرة : ٢٨٥ .

(6) التبيان ٢/ ٣٨٣ .

(7) البقرة ٣٨ .

(8) التبيان ١/ ١٧٤ .

اخاك، قياسا على قوله تعالى: (ويأبى اللهُ إلاّ أنْ يُتمَّ نورَهُ). [١] وعلة ذلك " ان في الاباء معنى النفي، فكأنه قال: لا يمكنهم الله الا ان يتم نوره. واذا لم يكن في اللفظ مستثنى منه، لم تدخل " الا " في الايجاب وتدخل في النفي على تقدير الحذف. قال الشاعر: [٢]

وهلْ لي امٌّ غيرُها إنْ تركتُها أبى اللهُ ألا انْ أكونَ لها إبْنا

والتقدير في الاية: ويأبى الله كل شيء الا اتمام نوره، في قول الزجاج ". [٣]

ونلحظ في بعض المواضع ان الطوسي يأخذ في مباحثه النحوية باستصحاب الحال، دليلا من ادلة النحو. فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى: (لن يضرُوكُم إلا اذىً)، [٤] اذ جعل الاستثناء في الاية الكريمة متصلا وليس منقطعا باعتبار ان الاصل في الاستثناء الاتصال، لانه الحقيقة " واذا امكن حمله على الاستثناء الحقيقي لم يجز حمله على المنقطع ". فلما امكن حمل الاية عليه، كان لا بد من اعتباره " والمعنى في الاية: لن يضروكم الا ضرراً يسيراً. فالاذى وقع موقع المصدر الاول ". [٥] وخطا على هذا الاساس كلاً من ابى القاسم البلخي المفسر المعتزلي وابي جعفر الطبري، لانهما جعلا الاستثناء هنا منقطعا. [٦]

والطوسي يشعر ان استصحاب الحال، وان كان من ادلة النحو، الا انه ضعيف، وانه لا يجوز التمسك به ان كان هناك مانع، فان عدم المانع صح ان يستدل به " اذا استقرت " سيرة العقلاء على الاخذ بالحالة السابقة ما لم يثبت خلافها ". [٧] او كما يفهم من كلام لابن القيم: " ان المستمسك بالاستصحاب يستمسك بالاصل الذي كان ثابتا، ولم يقم دليل على نفيه فهو لا يقيم دليلا على صحة ما يدل عليه الاصل، ولكن يرد به كل مدع للتغيير، ما لم يكن مغير بالفعل " [٨].

وعنى الطوسي بالاضافة الى النقل والقياس واستصحاب الحال بالاجماع الذي

---

[١] التوبة : ٣٢ .

[٢] البيت من شواهد الفراء في معاني القرآن ١/٤٣٣ . ولم ينسبه .

[٣] التبيان ٥/٢٤٣.

[٤] آل عمران : ١١٠.

[٥] التبيان ٢/ ٥٥٩ .

[٦] التبيان : نفس المكان .

[٧] الحيدري : اصول الاستنباط ص ١٨٨ .

[٨] ابو زهرة : اصول الفقه ص ٣٠٠ .

يعد حجة في الشريعة عند الشيعة الامامية، [١] كما يعد حجة عنده ايضاً ـ اذ عـد اجماع اهل العصر حجة،[٢] وكذلك اجماع المفسرين على ما رأيناه فـي التفسـير بالمنقول. [٣] وجعل اجماع النحاة دليلا على صحة الوجه النحوي وقوته وارجحيته. يقول في تفسيره (الم) من سورة البقرة متحدثا عن اعراب الحروف المقطعة فـي اوائل السور: " واجمع النحويون على ان هذه الحروف، وجميع حروف الـهجاء، مبنية على الوقف لا تعرب، كما بنى العدد على الوقف. ولأجل ذلك جاز ان يجمـع بين ساكنين كما جاز في العدد. تقول: واحِدْ اثنانْ ثلاثةْ اربعةْ، فتنقطع الف اثنيـن، وهي الف الوصل، وتذكر الهاء في ثلاثة واربعة. فلو لم تنو الوقف لقلت: ثـلاث - بالثاء - ". [٤]

ويبدو ان الاجماع الذي يحكيه الطوسي عند النحويين محصـل فـي الكـثر لا منقول. او بعبارة اخرى: هو الذي استقراه من اقوالهم. والدليل على ذلك انه ادعى اجماعهم على ان اللام الثانية في قوله تعالى: (ولقد علموا لمن اشتراه ما له فـي الاخرة من خلاق) [٥]: لام القسم. على حين كان الاخفـش يراهـا " لام الابتـداء، تدخل بعد العلم وما اشبهه. ومبتدأ بعدها[٦] تقول: لقد عَلِمتُ لزَيدٌ خَيرٌ منكـم " [٧] فلا اجماع اذاً على انها للقسم، لان الاخفش يخالف في ذلك وخلافه يعتد بـه لانـه من كبار النحاة البصريين، وممن له اثر في مدرسـة الكوفـة. علـى ان بعـض المتأخرين جعلها للابتداء ايضاً، مثل ابن الانباري كمال الدين، غير انه عاد فجعلـها للقسم في الحقيقة على تقدير: والله لِمن اشتراه. [٨] ويبدا ان الطوسي لـم يطلـع على رأي الاخفش في هذه المسألة، والا يبين خلافه فيها. بدليل انه لم يغفل عـن مخالفته لاجماع النحويين في مسائل اخرى، كالعامل في كلمة " الذين " من قولـه

---

[١] الحيدري : اصول الاستنباط ص ٢٩ وما بعدها .

[٢] التبيان ٣/ ٤٤٩ . وانظر اجماع الصحابة في ٢/ ٥٣٧ .

[٣] واخذ باجماع المفسرين في بعض الاحكام الفقهية . كقطع اليمين من يد السارق دون الشمال . انظر ٣/ ٥١٦ .

[٤] التبيان ١/ ٥٠.

[٥] البقرة : ١٠٢ .

[٦] كذا وردت في الاصل . والمعنى واضح اذ اراد ان مدخولها مبتدأ .

[٧] الاخفش : معاني القرآن الورقة ٦٤ و .

[٨] ابن الانباري : البيان في غريب اعراب القرآن ١/ ١١٥ .

تعالى: (يا ايها الذين امنوا استعينوا بالصبر والصلاة) [1] اذ بين " ان العامل فيها ما يعمل في صفة المنادى عند جميع النحويين، الا الاخفش فانه يجعله صلة لأيِ ويرفعه بانه خبر ابتداء محذوف، كانه قيل: يامنْ هُمْ الذين آمنوا ". [2]

وكانت عناية الطوسي بالعوامل والمعلومات واضحة في تفسيره، اذ كان يشير الى العوامل اللفظية، وهو يعرب الآي. يقول في تفسير قوله عز وجل: (وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها) [3] مشيرا الى العامل اللفظي الظاهر والمقدر في نصب " بسم الله ": " والعامل في " بسم الله يحتمل ثلاثة اشياء: احدهما: " اركبوا " والثاني: ابتدنوا ببسم [4]، والثالث: اجراها وارساها ". [5] وفي تفسير قوله تعالى: (اولئك هم المؤمنون حقا [6])، يشير الى العامل في نصب حقاً". ويعده معنويا فيقول: " وقوله: " حقاً " منصوب بمعنى دلت عليه الجملة، وهي قوله: " اولئك هم المؤمنون. والمعنى: أحقٍ ذلك حقاً ". [7]

وربط الطوسي في بعض المواضع بين عمل الادارة واختصاصها، فجعل دخول اذاً على الاسم في قوله تعالى (لئن اتبعتم شعيبا انكم اذاً لخاسرون [8])، لالغائها، لانها " اذا الغيت عن العمل صلح ذلك فيها، وجعلها كهمزة الاستفهام " في انها لا تختص لانها لا تعمل ". [9]

وكان العكس هو الصحيح وهو انها لا تعمل لانها لا تختص. ويلاحظ ان الطوسي لم يلتفت الى ان " اذاً "لم تعمل في جميع القرآن، سواء ادخلت على الاسم كما في الاية، ام على الفعل كما في قوله تعالى: (واذاً لا يلبثون خلافك إلاّ قليلاً)[10]. وغير ذلك من الآي، ولم يشر الى ذلك.

واستعمل الطوسي المصطلحات النحوية الشائعة في عصره، من مثل تسمية

---

[1] البقرة / : ١٥٣ .
[2] التبيان ٣٤/٢ .
[3] هود : ٤١ .
[4] في الاصل : ابتدؤا .
[5] التبيان ٥/ ٥٥٩ .
[6] الانفال : ٤ .
[7] التبيان ٧٧/٥.
[8] الاعراف : ٩٠ .
[9] التبيان ٤٧٠/٤ .
[10] الاسراء : ٧٦ .

لام التعليل: لام الغرض، [1] والنصب على المفعولية المطلقة: النصب على المصدر [2] والعلمية: التعريف. [3] وسمى النائب عن المفعول المطلق مثل " قليلاً " في قوله تعالى: (فقليلاً ما يُؤمِنون[4]): نعت المصدر المتروك. [5] وسنرى انه اخذ بمصطلحات الكوفيين الى جانب مصطلحات البصريين.

(٥)
مذهبه النحوي

يبدو الطوسي بغداديا في مذهبه النحوي، اذ كان ينتخب من آراء المدرستين البصرية والكوفية جميعا. [6] فلم نره يلتزم باستمرار بآراء احدى المدرستين ومقولاتها النحوية، ولا بمصطلح من مصطلحاتها، غير ان، فيما نحس، الى مدرسة البصريين أقيل. اذ كان يؤثر في كثير من الاحيان آراءهم وخاصة تلك التي تتفق واتجاهه العام في النحو، كالقول بعدم اقحام بعض الحروف في التنزيل وزيادتها فيه، كما ان قياسهم على الكثير الشائع في اللغة يلائم اتجاهه اللغوي العام، اذ كان كما بينا سالفا، لا يعتد بالشواهد القليلة او النادرة في تفسير الكتاب العزيز.

فمما تابع فيه البصريين اعرابه الاسم المرفوع بعد (إنْ) الشرطية فاعلا لفعل محذوف يفسره الفعل المذكور، [7] كالذي بينه في تفسير قوله تعالى : (وإن امرأةٌ خافَتْ من بعلها نشوزاً او اعراضاً فلا جُناحَ عليهما أن يُصلحا بَينهما صُلحاً). [8] فقال: (وإن امرأةٌ خافتْ): ارتفعت المرأة بفعل مضمر دل عليه ما بعد الاسم، وتقديره: وان خافت امرأة "خافتْ ". [9] وهذا خلاف رأي الكوفيين الذين يجعلون الاسم المرفوع بعد ان مبتدأ والجملة الفعلية التي بعده خبراً، او كما يقول ابن

---

[1] التبيان ٧/٢٧٩ .
[2] التبيان ٣ /٨٩ ، ٤/ ٢٤٢ .
[3] التبيان ٤/ ٤٠٤ ، ٤٦١ .
[4] البقرة : ٨٨ .
[5] التبيان ١/ ٣٤٣ .
[6] انظر في منهج المدرسة البغدادية : ضيف المدارس النحوية ص ٢٤٥ ، والبحث الادبي ص ٥٧ .
[7] فتكون جملة الفعل المذكور لا محل لها من الاعراب لانها مفسرة .
[8] النساء : ١٢٨ .
[9] التبيان ٣/ ٣٤٨ .

الانباري: " يرتفع بما عاد اليه من الفعل من غير تقدير فعل ".[1] وكان ابو الحسن الاخفش يجيز ان يرتفع الاسم بعد ان بالابتداء "، [2] ولعله هو الذي فتح الباب للكوفيين في القول بذلك مخالفة للبصريين. ولما كان القول بزيادة حرف في القرآن ليس بصحيح عنده، ما دام في الامكان حمله على معنى، [3] فان القول بعدم اقحام الواو اجود من القول باقحامها، [4] ولذا يأخذ برأي البصريين في أن جواب " لمّا " في قوله عز وجل: " فلما ذهبوا به واجمعوا ان يجعلوه في غياهب الجب وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا " [5]، محذوف والواو في " واجمعوا " ليست مقحمة، ويقدر الجواب: " عظمتْ فتنتهم او كبُر ما قصدوا اليه "، ويبين ان الكوفيين يجعلون الواو مقحمة، وان البصريين لا يجيزونه. [6] ونراه يتابع البصريين في ان الاسم مشتق من السموّ وهو الرفعة، ويخطئ من يجعله مشتقا من وسم – بعد ايراد قوله بصيغة التضعيف: " قيل " –، لمخالفته القياس في الاشتقاق، وهو " ان ما حذفت واو الفعل منه لا يدخله الف الوصل، نحو عدة وزنه ووزن ... وايضاً كان يجب اذا صغر ان يرد الواو فيه، فيقال: وسيم، كما يقال: وعيدة ووزينة ووصيلة ... والامر بخلافه ". [7] وبالمثل يتابعهم في ان المصدر اصل المشتقات، وان الفعل مشتق منه، خلافا للكوفيين الذين يرون الفعل هو الاصل [8]، فيجعل الفعل (اتلو) في قوله تعالى: (قل تعالوا أتلُ ما حرّم ربكم) [9]، مشتقاً من التلاوة. [10]

ومما أخذ به من آراء الكوفيين النحوية قولهم ان " حتى " تنصب الفعل المضارع بنفسها، وليس بأن مضمرة بعدها، وذلك ما يتجلى في تفسير قوله تعالى: (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) [11] اذ قال

---

[1] ابن الانباري : الانصاف في مسائل الخلاف ٢/ ٣٢٣ .
[2] الرماني : كتاب معاني الحروف ص ٧٤ .
[3] التبيان ١/ ١٢٨ ، ٣٦٦ ، ٤٨٤ .
[4] التبيان ٧/ ٢٧٩ .
[5] يوسف : ١٥ .
[6] التبيان ١٠٩/٦ .
[7] التبيان ٢٧/١ .
[8] ينظر في خلافهم : السيوطي :الاشباه والنظائر ٥٦/١ وضيف : المدارس النحوية ص١٩٦ .
[9] الانعام : ١٥١ .
[10] التبيان : ٤/ ٣١٤ .
[11] البقرة : ١٢٠ .

(تتبع): نصب بحتى. وحكى الزجاج والخليل وسيبويه وجميع البصريين أنْ الناصب للفعل " انْ " بعد " حتى، " [1] ثم ذكر حجة البصريين في ذلـــك وهــي: " ان حتــى تخفض الاسم في قوله: (حتى مطلعِ الفجر) [2]، ولا يعرف في العربية حرف يعمــل في اسم وفعل، ولا ما يكون خافضا لا سم يكون ناصبا لفعل فصار ذلك مثل قولــك: جاءَ زَيدٌ ليضربك، فانها – يريد اللام – تنصب باضمار " أَنْ " لكونها جارة للاسم ". [3] وهو بيان لرأي البصريين في ان الحرف لا يعمل حتى يكــون مختصــا. وفــي النفس مما قالوه شيء، وخاصة ان عدم التقدير اسلم من التقدير.

والامر كذلك في المصطلحات، اذ نراه يختار من هــؤلاء وهــؤلاء. وذلــك مــا يشعرنا به في اعراب " عيناً "، من قوله تعالى: (فانفجرتْ منهُ اثنتا عشْرة عينــــاً)، [4] فيختار اصطلاح البصريين، ويشير الى ما يقابلــــه لــدى الكوفييــن فيقــول: " ونُصب عيناً على التمييز، وعند الكوفيين على التفسير ". [5] وينعكس الامر حيــن يعرب الضمير " هو " في قوله تعالى:(وما هو بمزحزحه من العذاب ان يعمــر) [6]، اذ نراه يذكر انه " عماد لطلب ما الاسم اكثر من طلبها الفعل، كما قال الشاعر: [7]

وهلْ هُوَ مَرَفوعٌ بما هاهُنا راسُ [8]

مختارا بذلك مصطلح الكوفيين، في مقابل ضمير الفصل عنــد البصرييــن. وحيــن يعرب " اتبع " الاولى في قوله تعالى: (اذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذيــن اتبعــوا)، [9] يسمي الفعل للمجهول " ما لم يُسَمَّ فاعلهُ "، اخذاً بمصطلح الكوفيين وعلى رأســـهم الفراء،[10] فيقول: " واتبعوا: ضمت الاف فيه لضمة الثالث، وضمة الثالث لما لــم يسم فاعله.. لانه انما يضم له اول المتحرك من الفعل فيمــا بنــى عليــه. والــف الوصل لا يعتد به، لانه وصلة الى التكلم بالساكن فاذا اتصل بمتحرك استغنى عنه".

---

[1] التبيان ١/ ٤٤١ .
[2] القدر : ٥ .
[3] التبيان ١/ ٤٤١ .
[4] البقرة : ٦٠ .
[5] التبيان ١/ ٢٧٠ .
[6] البقرة : ٩٦ .
[7] البيت من شواهد الفراء في معاني القرآن ١/ ٥٢ ، وصدر ما اورده الطوسي منه بثوب ودينار وشـــاة ودرهم ، ولم ينسبه الفراء . بل قال : انشدني بعض العرب ١/ ٥١ .
[8] التبيان ١/ ٣٥٩ .
[9] البقرة : ١٦٦ .
[10] ينظر استعمال الفراء لهذا المصطلح في : المدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف ص ٢٠٠ .

القراء،[1] فيقول: " واتبعوا: ضمت الالف فيه لضمة الثالث، وضمة الثالث لما لم يسم فاعله.. لانه انما يضم له اول المتحرك من الفعل فيما بنى عليه. والف الوصل لا يعتد به، لانه وصلة الى التكلم بالساكن فاذا اتصل بمتحرك استغنى عنه". [2]

على ان الطوسي وان كان يختار عادة احد المصطلحين المتباينين البصري او الكوفي، الا انه قد يأخذ بمقابله احيانا، وكأنه يسوي بينهما ولا يرى باساً في ذكر ايهما شاء. فمثلا نراه يستعمل في بعض المواضع مصطلح " التفسير " الكوفي المقابل للتمييزعند البصريين، فيقول في وقوفه عند قوله تعالى: (ومن يكُن الشيطانُ له قريناً فساء قريناً) [3] " وقوله (فساءَ قريناً): نُصِب على التفسير، كقوله: (ساء مثلاً) [4] وتقديره ساء مثلاً مثلُ الذين. وتقول: نعم رجلاً، وتقديره: نعم الرجل رجلاً [5] مع انه في المثال السالف اختار مصطلح البصريين.

---

[1] ينظر استعمال الفراء لهذا المصطلح في : المدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف ص ٢٠٠ .

[2] التبيان ٦٥/٢ .

[3] النساء : ٣٨ .

[4] الاعراف : ١٧٧ ، وتمامها : " ساء مثلاً القومُ الذين كذبوا بآياتنا وانفسهم كانوا يظلمون " .

[5] التبيان ٣/ ١٩٨ .

الفصل الخامس
البلاغة وفنونها



عنى الطوسي في تفسيره ببلاغة القرآن عناية تلفت نظر الباحث،اذ لم يد خر وسعا في الوقوف عند الآى وقفات يبين فيها ما في مفرداتها وتراكيبها من وجوه بلاغية، في ضوء ما انتهت اليه بحوث البلاغة ومصطلحاتها في عصره. وقد افادته هذه البحوث- عمليا- عمقا في فهم النص القرآني ووجود تأويله وقدرة على ترجيح بعض الأقوال على بعض، بحجج بلاغية صرف أحيانا. فضلا عما يسرت له من إظهار للناحية الجمالية في تعابير القرآن، وهي ناحية قصر عن بلوغها كل ماعرفته العربية من تراث قولي. وكان جل همه، فيما يبدو، من تحرير مباحث البلاغة وتبيين وجوهها، الدفاع عن القرآن وبيان سلامة تعبيره والإشادة ببلاغته وفصاحته التي طأطأت لها الرؤوس اجلالا وأعظاما. وذلك بالتنبيه عليها في مواضعها المختلفة من التنزيل. وهذا لاشك يخدم قضية الاعجاز القرآني ودلائل الإيحاء به.

(١)
اعجاز القرآن

استهل الطوسي المقدمة التي كتبها لتفسيره والتي جعلها بعنوان: ذكر جمل لابد من معرفتها قبل الشروع في التفسير"، بكلمة وجيزة عن أعجاز القرآن، بيّن فيها أن" القرآن معجزة عظيمة على صدق النبي عليه السلام بل هو أكبر المعجزات وأشهرها، وأن الكلام في وجهة اعجازه واختلاف الناس فيه لايليق بهذا الكتاب، لانه يتعلق بالكلام في الأصول- بحسب رأيه-، وأن علماء التوحيد ذكروه واطنبوا فيه واستوفوه غاية الاستيفاء[١].

ثم نشر بعد هذا آراءه في جهة أعجازه في أثناء تفسيره، وقد تبين لنا من دراسته أن الاعجاز يقوم عنده على أربعة أسس: أحدها- ماتضمنه القرآن من الاخبار عن الغيوب والحوادث المستقبلية.[٢]والثاني- ماتضمنه من قصص الاولين وأخبار الماضيين.[٣] والثالث- سلامته من التناقض والاختلاف. فالطوسي يذكر في تفسير الاية الكريمة(أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه

---

(١)التبيان ٣/١.
(٢) التبيان:٤٠٦/٢-٤٠٧، ٤٢٢/١٠.
(٣)التبيان٤٥٨/٢، ٢٠١/٦.

اختلافا كثيرا)،[١]، انها دالة على أربعة أشياء، منها: أن القرآن لو كان من عند غير الله. لكان على قياس كلام العباد. من وجود الاختلاف فيه، ومنها: أن المتناقض من الكلام ليس من فعل الله، لأنه لو كان من فعله لكان من عنده لا من عند غيره. ثم ينفي بعد ذلك الاختلاف عن القرآن، فيقول: أن القرآن ليس فيه اختلاف تناقض ولا اختلاف تفاوت، لان اختلاف التناقض أن يكون احد الشيئين يدعو الى فساد الاخر وبطلانه. واختلاف التفاوت هو في الحسن والقبح والخطأ والصواب وليس في القرآن شيء من الاختلافين. وأما اختلاف التلاوة، مثل اختلاف وجوه القراءات واختلاف مقادير السور والآيات، واختلاف الأحكام في الناسخ والمنسوخ، فكله صواب وكله حق..[٢].والرابع- وهو المتعلق بهذا الفصل: فصاحته وبلاغته ونظمه وحسن ترصيفه وتأليفه، فتلك هي دلائل الاعجاز الادبي للقرآن عنده، اذا رددنا كلامه بعضه الى بعض في المواضع المختلفة من تفسيره. وهي المقصودة بالمثلية في آية البقرة(فأتوا بسورة من مثله)، وآية هود(فأتوا بعشر سور مثله)، وآية الإسراء(لايأتون بمثله)، ونحوها من آيات التحدي والتعجيز، ففي الآية الأولى يذكر الطوسي أن " قوله" مثله": أراد به مايقاربه في الفصاحة ونظمه وحسن ترصيفه وتأليفه، ليعلم أنه اذا عجزوا عنه، ولم يتمكنوا منه، أنه من فعل الله تعالى جعله تصديقاً لنبيه "وبين أن قوله " من مثله" لايعني " أن القرآن له مثل عند الله ولولاه لم يصح التحدي" بل ان " الإعجاز يصح وان لم يكن له مثلٌ. بل ذلك ابلغ في الإعجاز، لان ذلك جار مجرى قوله(هاتوا برهانكم)، وانما نفى البرهان أصلاً.[٣].

ويبين في تفسير الاية الثانية، أن قوله تعالى(فأتوا)، وان كان لفظه لفظ الامر فالمراد به التهديد والتحدي" وان" المثل المذكور في الآية ماكان مثله في البلاغة والنظم او مايقاربه. لأن البلاغة ثلاث طبقات، فأعلاها معجز وأدناها ووسطها ممكن. فالتحدي وقع بما هو في اعلى طبقة في البلاغة".[٤]وهو في هذا التقسيم لطبقات البلاغة يستمد من الرماني.[٥]ثم يقول : ولايجوز أن يكونَ المراد

---

(١) النساء:٨٢.

(٢) التبيان ٣/٢٧٠-٢٧١.

(٣) التبيان ١/١٠٤.

(٤) التبيان٥/٤٥٧.

(٥) النكت في اعجاز القرآن ص ٧٥.

بالمثل الا المثل في الجنسية، لن مثله في العين - يريد في النص- يكون حكايته وذلك لايقع به تحد. وانما يرجع الى ماهو متعارف بينهم في تحدى بعضهم بعضا، كمناقضات امرئ القيس و علقمة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة.. وغيرهم". [١]

ونراه في الآية الثالثة يشير الى أنها تحد للخلق جميعا، أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وأنهم يعجزون عن ذلك ولايستطيعون معارضته والاتيان بمثله" في فصاحته وبلاغته ونظمه على الوجه الذي هو عليه من كونه في الطبقة العليا من البلاغة، وعلى حد يشكل- يخفى- على السامعين" مابينهما من التفاوت" . ثم يبين أن " المثلية التي تحدوا بالمعارضة بها معتاده بينهم"، ويكرر مابينه عند الآية السابقة من مناقضات الشعراء الجاهليين كامرئ القيس وغيره. [٢]

والطوسي حين يثبت عجز العرب عن معارضة القرآن، لاينفي عنهم حصافة العقل ولا سمو البلاغة، لأنه لو نفاهما عنهم لما جعل للتحدى وجهاً ولا للاعجاز بيِّنه، فنراه يذكر أنهم عجزوا عن الجنس والنظير، مع أنهم أقوام" عقلاء ألبّاء في الذروة العليا من الفصاحة والغاية القصوى من البلاغة واليهم المفزع في ذلك". ثم يبين أن النبي (ص)" جاءهم بكلام من جنس كلامهم وجعل عزهم عن مثله حجة عليهم، ودلالة على بطلان قولهم يريد في أنه ليس من عند الله- ووبخهم وقرعهم وأمهلهم المدة الطويلة.. وخبرهم أن عجزهم انما هو عن النظير والجنس. مع أنه -يريد النبي(ص) - ولد بين أظهرهم ونشأ معهم ولم يفارقهم في سفر ولا حضر، وهو من لايخفى عليهم حالة لشهرته وموضعه. وهم أهل الحمية والانفة، يأتي الرّجل منهم بسبب كلمة على القبيلة، فبذلوا أموالهم ونفوسهم في اطفاء أمره، ولم يتكلفوا معارضته[٣]بسورة ولا خطبة فدل ذلك على صدقه. [٤] وحمل الطوسي"من" في قوله تعالى(فأتوا بسورة من مثله)على التبعيض، وقدر المعنى: فأتوا ببعض ماهو مثل له وهو سورة"، واحتج لذلك بقوله(بسورة مثله)[٥]. وهذا

---

(١) التبيان٥/٤٥٧.
(٢)التبيان ٦/٥١٦-٥١٧.
(٣)الضمير يعود على الكلام المتقدم ذكره في أول النص.
(٤)التبيان ١/١٠٣.
(٥)التبيان ١/١٠٤.

يشعرنا أن أقل قدر عنده للاعجاز يصح التحدي به سورة، وهو الذي يشهد له ظاهر التنزيل.

واذا كان قد بين على وجه الاجمال في غير موضوع أن القرآن من جنس كلام العرب، كما هو واضح مما مَر، فقد فصل ذلك وبينه في أحد المواضع، فذكر في وقوفه عند قوله تعالى(وكذلك أنزلناه حكماً عربياً)،[1]أن " العربي هو الجاري على مذهب العرب في كلامها، فالقرآن عربي على هذا المعنى، لأن المعاني فيه على ماتدعو اليه الحكمة، والالفاظ على مذاهب العرب في الكلام".[2]غير أنه لم يخف في وقوفه عند آيتى الحاقة(وماهو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون* ولايقول كاهن قليلا ماتذكرون). " أن القرآن صنف من الكلام خارج عن الانواع المعتادة" من شعر الشعراء وسجع الكهان وخطب الخطباء، بل رأى أن" ذلك أدل على اعجازه لبعده عما جرت به العادة في تأليف الكلام".[3]وهو في هذا يوافق الرماني[4]والباقلاني[5].

(٢)
مفهوم البلاغة والفصاحة

عرف الطوسي البلاغة بأنها" ايصال المعنى الى النفس بأحسن صورة من اللفظ".[6]وهو تعريف الرماني لها.[7]ورأى أن اشتقاقها من البلوغ وهو الانتهاء، فقال:" بلُغَ الرجلُ بلاغةً: إذا صارَ بليغاً.. وأصل الباب: البُلوغ، وهو الانتهاء، فمنه البلاغة، لانها تبلغ بالمعنى الى القلب".[8] وكأنه ذهب في هذا الاصل مذهب العسكري في الصناعتين، اذ كان يرى أن جماع مادة" بلغ" في اللغة يرجع الى معنى الانتهاء، يقول:" البلاغة من قولهم: بلغتُ الغاية، إذا انتهيتُ اليها. وبلَغتها

---

(١) الرعد: ٣٧.
(٢) التبيان ٦/٢٦١.
(٣) التبيان ١٠/١٠٩.
(٤) النكت في اعجاز القرآن ص ١١١.
(٥) نكت الانتصار لنقل القران ص٢٤٧،٢٤٩،٢٥٦.
(٦) التبيان ٤/٣٤.
(٧) الرماني: النكت ص ١٧٥.
(٨) التبيان ٢/١٥٧-١٥٨.

غيري، ومبلغ الشيء: منتهاه والمبالغة في الشيء: الانتهاء الى غايته. فسميت البلاغة بلاغةً لأنها تُنهي المعنى الى قلب السامع فيفهمُهُ".[1]

فالطوسي اذاً استمد تعريف البلاغة من الرماني، وأصل اشتقاقها من العسكري. وهذا يدل على اطلاعه على كتابيهما المشهورين: النكت والصناعتين.

ويرى أن البليغ هو الذي يبلغ بعبارته" كثير مافي قلبه"[2]، فكأن البلاغة عنده تعبير عن أحاسيس النفس المختلفة وخلجاتها المتباينة، والانتهاء بها الى حيث يراد لها من نفوس الناس وقلوبهم. والبليغ- عنده-: منشئ البلاغة، لا الذي يأتي بها على وجه الحكاية.[3]ونراه يعبر في تفسير قوله تعالى(فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً)،[4] عن نظرته الى البلاغة وتقويمه لها، فيرى ان" في الاية دلالة على فضل البلاغة، وأنها أحد اقسام الحكمة. لما فيها من بلوغ المعنى، الذي يحتاج الى التفسير باللفظ الوجيز مع حسن الترتيب[5]". وكأن مدار البلاغة- عنده- على الإيجاز في اللفظ مع حسن ترتيبه، مصداقا لقول القدامى" البلاغة الايجاز [6]"، باعتبار أن الايجاز سمة العربية الأولى وخصيصتها الكبرى. بل انه ليذهب الى أبعد من هذا، فيرى أن الآية الكريمة دالة على فضل البلاغة وفيها" حث على اعتمادها"[7]،أو بعبارة أخرى علىالعناية بها في التعبير، وخاصة حين يراد به التأثير في نفوس الآخرين واقناعهم بمراد المتكلم. وهذا يرجع الى أن الكلام قسمان: بليغ وغير بليغ، والبليغ هو الذي يعول عليه في انهاء المعنى الى قلوب الاخرين والتأثير فيهم.

وكثيرا مايذكر في القراءات أن هذه اللفظة فصيحة وهذه أفصح منها لالشيء الا لما بينهما من تغاير في حركة فائها أو عينها، فنراه مثلا يذكر أن في" يبطشون" قراءتين احداهما بضم الطاء والاخرى بكسرها، ويشير الى أنهما لغتان. ثم يقول" والكسر أفصح وأكثر". [8] ومثل ذلك يذكره في قراءة (يعزب)، ثم يبين

([1])العسكري: الصناعتين ص١٢.
([2]) التبيان٣/٢٤٢.
([3])التبيان ٤/٤٣٨.
([4]) النساء : ٦٣.
([5]) البيان ٣/٢٤٢.
([6])العسكري : الصناعتين ص١٧٩.
([7]) التبيان ٣/٢٤٢.
([8]) التبيان ٥/٥٩. عند تفسير الآية ١٩٥ من الاعراف.

أن ضم الزاي أفصح وأكثر.[1]وكان ابن سنان الخفاجي يذهب الى مثل هذا فـــيرى أن القرآن يتفاضل بعضه على بعض في الفصاحة، ويرى أن الشبهة في هذا تدخـل على الاعاجم من الفقهاء والمتكلمين لجهلهم بهذه الصناعة.[2].

ويرى الطوسي أن فصاحة الالفاظ قد ترجع الـــى وضعـها فـــي مواضعـــها المناسبة من التعبير، بحيث لايغني عنها غيرها، في أداء المعنى الذي ترتب عليـــها وهي في ذلك الوضع، فنراه مثلا يقف عند قوله تعالى(للذين يؤلون مـــن نســـائهم تربص أربعة أشهر فإن فاؤا فان الله غفور رحيم، وان عزمـــوا الطـــلاق فـــإن الله سميع عليم).[3]فبين أنه قال في الآية الاولى(ان الله غفور رحيم) لأنه كمـــا أخـــبر عن المولي[4]أنه يلزمه الفيء أو الطلاق،بيّن أنه إن فاء(فان الله غفور رحيـــم)، بأن يقبل رجوعه ولا يتبعه ما ارتكبه". وأنه قال في الثانية(سميع عليـــم)، وأنـــه يسمعه، لأنه على صفة توجب إدراكه لذلك، وأنه عالم ببيانه" ثم يعقب علـــى ذلـــك بقوله" فلا الذي ذكر في الآية الأولى يليق بهذه الآية ولا الذي ذكر هنا يليق هنـــاك، وذلك من عظم فصاحة القرآن وجلالة موقعه".[5] وايجاز اللفظ مع ثـــراء المعنـــى، صورة من صور فصاحة اللفظ عند الطوسي. وهي تبلـــغ الـــذروة فـــي القـــرآن، وتصبح خرقا للمادة وتجاوزاً للمألوف في مثل قوله تعالى (خلصُوا نجيّا).[6]

ولابد أن نشير في خاتمة هذا الموضوع الى أن الطوسي كثير ما يشيد فـــي وقوفه عند الآى، بفصاحة القرآن وبلاغته، معبرا بذلك عما تجيش به نفســـه مـــن اجلال لكتاب الله المعجز المبين فنراه مثلا يوازن بين آية القصـــاص(ولكـــم فـــي القصاص حياة يا أولي الالباب لعلكم تتقون)،[7]، وبين قولهم: القتلُ أنفـــى للقتـــل. فيبين أولا أن" بينهما من التفاوت في الفصاحة والبلاغة مابين الســـماء والارض"، ثم يشير بعد ذلك الى أن الفرق بينهما من أربعة وجوه: أحدهـــا : أن الآيـــة أكـــثر فائدة. وثانيها ، أنها أوجز في العبارة. وثالثها، أنها ابعـــد عـــن الكلفـــة بتكريـــر

---

(١) التبيان ٣٩٩/٥. عند تفسير الآية ٦١ من يونس.

(٢)ابن سنان: سر الفصاحة ص ٢١٣.

(٣)البقرة:٢٢٦-٢٢٧.

(٤)وهو الحالف.

(٥)التبيان ٢٣٧/٢.

(٦) التبيان ١٧٨/٦ عند تفسير الآية ٨٠ من يوسف.

(٧) البقرة:١٧٩.

الجملة. ورابعها، أنها أحسن تأليفا بالحروف المتلائمة ثم يصل القول في هذه الوجوه ويبسطه، مستمداً من الرماني.[1]

وجوه البلاغة

لم يردّ الطوسي وجوه البلاغة التي ذكرها في تفسيره الى علوم البلاغة التي اتضحت أكثر عند المتأخرين. وهي : المعاني والبيان والبديع، وانما كان يكتفي ببيان تلك الوجوه والتنويه بحسنها وروعتها في نظم القرآن وتعابيره. وكأنه رأى ان هذا الأسلوب يتناسب ومنهجه كمفسر وهو البحث عن مواطن البلاغة القرآنية ووجوهها وصورها، بصرف النظر عن انتمائها لهذا العلم من علومها أو ذاك. ولعله وجد في اختلاف معاصريه ومن سبقهم، في تقسيم البلاغة، ما يصحح له هذا المنهج ويسوغه. ولمنهجية البحث آثرنا أن نوزع هذه الملاحظ والوجوه على علوم البلاغة الثلاثة، التي انتهى اليها تقسيم البلاغة حتى يومنا هذا. ولنبدأ أولا بالكلام على مايتعلق بعلم المعاني.

(٣)
علم المعاني

عنى الطوسي بموضوعات علم المعاني المختلفة من خبر وانشاء ووصل وفصل وتقديم وتأخير وايجاز واطناب ونحوها.

١ـ الخبر والانشاء:

فالخبر: فيما يقرره الطوسي" أصل الجمل" ولذلك يؤكد" بأبلغ التأكيد وهو القسم" ، ولايجوز تأكيده بالنون الثقيلة مثلا، لان هذه النون يؤكد بها الامر والنهي، من حيث أن الخبر يدل على حصول المخبر به، أو على حد تعبيره" على كون المخبر به"، وليس كذلك الأمر والنهي لانهما لابد لان على حصول المدلول عليه، فألزم لذلك الخبر التأكيد بالقسم وما يتبعه من جوابه،واختص هذان بنون التأكيد ليدل على اختلاف المعنى في المؤكد.[2] وبذا يجعل الطوسي التغاير المعنوي بين الخبر والانشاء، سببا في التغاير اللفظي بينهما. ويشير الى ان الخبر قد يؤكد بما يؤكد به القسم كاللام في مثل قوله تعالى(ولقد جاءت رسلنا ابراهيم

---

(١) أنظر التبيان ٢/١٠٥-١٠٦ وقارن بالنكت ص ٧٧-٧٨.

(٢) التبيان ٢/٢٣.

بالبشرى)[1]يقول:" وقوله لقد" دخلت اللام لتأكيد الخبر، كما يؤكد القسم"،[2]واشار الى ماتحدثه"قد" عند دخولها على الخبر. فبين أنها قد تفيد وقوعه على وجه التقريب من الحال. فاذا قلت: قد ركب الامير، فأنت تقول ذلك لقوم يتوقعون ركوبه[3] أو بعبارة أخرى أنها قد تفيد تحقق الخبر ووقوعه لمن هو غير خالي الذهن منه. واشار في وقوفه عند قوله عز وجل(رب أن قومي كذبون. فافتح بيني وبينهم فتحا)[4] الى ملحظ أدق يتعلق بأغراض الخبر أيضا ، أذ بين أن نوحا عليه السلام قال(ان قومي كذبون)" مع أن الله تعالى عالم بأنهم كذبوه، لأنه كالعلة فيما جاء بعده. فكأنه قال: افتح بيني وبينهم فتحا لأنهم كذبوني، الا أنه جاء بصيغة الخبر دون صيغة العلة". ثم وضع في ضوء ذلك قاعدة تتعلق بأغراض الخبر، وهي" أنه اذا كان- الخبر- على معنى العلة حسن أن يأتي بما يعلمه المتكلم والمخاطب".[5]ومعنى هذا ان الخبر قد يلقى على من هو عالم به، غير خالي الذهن منه، ولاشاك فيه أو منكر له،وذلك حين يكون كالعلة لما بعده.

ولعل اهم ماقدمه في موضوع الخبر، بيانه لبعض معانيه الاضافية، التي حفلت بها الآيات القرآنية، فهو يضع أيدينا على طائفة منها في غير موضع من تفسيره. فيلحظ مثلا في " وجوب ثبات الواحد للعشرة" في القتال، الذي دلَ عليه قوله تعالى(إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين)[6]، أنه ورد بلفظ الخبر والمراد به الأمر.[7]ويلحظ في بعض الآيات أن الخبر قد يتضمن أكثر من معنى اضافي، فقوله تعالى(قليلا ما تذكرون)،" معناه الاستبطاء في التذكير وخرج مخرج الخبر، وفيه معنى الامر".[8]. أي كأنه قال: تذكروا كثيرا لا قليلاً. فهذا معنى آخر يضاف الى معنى الاستبطاء الذي رآه. وقوله تعالى (ان الله بما تعملون بصير) في عقب قوله(واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وماتقدموا لانفسكم من خير

---

(1)هود:٦٩.
(2)التبيان ٦/٢٦.
(3)التبيان ٥/٤٦٩.
(4) الشعراء: ١١٨،١١٧.
(5) التبيان٦/٢٦.
(6)الانفال:٦٤.
(7)التبيان:٥/١٥٣.
(8)التبيان٤/٣٤٤. عند تفسير الآية ٣ من الاعراف.

تجدوه عند الله)[1]، "معناه: لايخفي عليه شيء من اعمالكم، جازاكم على الاحسان بما تستحقونه من الثواب، وعلى الاساءة بما تستحقونه من العقاب، فاعملوا عمل من يدري أنه يجازيه من لايخفى عليه شيء من عمله. ففي ذلك دلالة على الوعد والوعيد والأمر والزجر. وان كان خبراً عن غير ذلك في اللفظ".[2].

وكان للعقيدة الاسلامية دورها في اخراج بعض الاخبار عن ظواهرها الى معان أخرى ملائمة للمُسلمات الإسلامية، فتنزيه الأنبياء عن الكذب قبل النبوة وبعدها جعله يخرج الخبر في قول ابراهيم عليه السلام حين رأى الكوكب:" هذا ربي"،[3] الى معنى الفرض والتقدير، مستعينا في التدليل على ذلك بمعرفته الكلامية. يقول"... انه قال ذلك فارضا مقدار لا مخبرا، بل على سبيل الفكر والتأويل، كما يقول الواحد منا لغيره اذا كان ناظراً في شيء، ومحتملا بين كونه على أحدى صفتين: انّا نفرضه على احداهما لننظر فيما يؤدي ذلك الفرض اليه من صحة أو فساد. ولايكون بذلك مخبرا. ولهذا يصح من أحدنا اذا نظر في حدوث الاجسام وقدمها ، أن يفرض كونها قديمة ليتبين ما يؤدي اليه ذلك الفرض من الفساد".[4].

وفي الانشاء عني الطوسي بأسلوب الأمر والنهي والنداء والاستفهام والترجي وما اليها. واشار الى طرف من معانيها الإضافية التي خرجت اليها عن مقتضى ظواهرها.

فنراه ينص على ان الامر في الأصل يقتضي الوجوب او على حد تعبيره" الايجاب"، الا أنه قد ينصرف عنه بدليل، فيخرج الى معنى الندب في مثل قوله تعالى:(فانكحوا ماطاب لكم من النساء..)[5]ولهذا خطأ من قال إن الآية دالة على وجوب التزويج، اذ هو عنده مندوب لا واجب.[6].

---

(1) البقرة: ١١٠.
(2) التبيان ٤٠٩/١ .
(3) الانعام: ٧٦.
(4) التبيان ١٨٣/٤.
(5) النساء: ٣.
(6) التبيان ١٠٧/٣-١٠٨.

. وقد يخرج الأمر الى معنى الاباحة والتخيير، كما في آية البقرة: " كلوا من طيبات مارزقناكم".[1]ونراه يقف عند قوله تعالى(قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين)[2]فيبين أنه جاء على لفظ الامر والمراد به الانكار" ويقدر المعنى: ان أتيتم ببرهان صحت مقالتكم. ثم يقول:" ولن يأتوا به لان كل مذهب باطل البرهان عليه".[3]ويبدو لنا أن معنى التحدي أو التعجيز اقرب الى طلب الاتيان بالبرهان وأشكل به من الانكار. والتعليل الذي ذكره في آخر كلامه يقوي ذلك وينصره. وقد يحتمل للامر اكثر من معنى اضافي، فهو في قوله تعالى(اعملوا على مكانتكم)[4]يراد به التهديد"، وانما جاء بصيغة الامر لشدة التحذير"، ونظيره: اعملوا ماشئتم، ويحتمل له معنى آخر هو التبعيد، على تقدير: "اعملوا على مكانتكم" ان رضيتم بالعقاب. أي أنكم في منزلة من يؤمر به ان رضيتم بالعقاب" ثم يقول " فهذا على التبعيد أن يقيموا عليه، كالتبعيد ان يرضوا - به-".[5]

ونراه يتكلم على النهي في مواضع من تفسيره ، فيبين في بعضها أنه قد يكون مع الزجر لمن هو دونك.[6]ويقارن بينه وبين الامر من بعض الوجوه، فيرى انهما قد يلتقيان في الدلالة على اكثر من معنى، فقد يراد باحدهما مايراد بالاخر من التهديد والزجر[7]. وقد يختلفان في المفهوم الذي يؤديه كل منهما. فاذا قلنا: انتهوا عن شرب الخمر، لم يكن معناه معنى قولنا: لاتشربوا الخمر" لانه اذا قال: انتهوا،دل ذلك على أنه مريد لامر ينافي شرب الخمر. وصيغة النهي انما تدل على كراهة الشرب، لأنه قد ينصرف عن الشرب الى أخذ أشياء مباحة. وليس كذلك المأمور به، لأنه لاينصرف عنه الا في محذور. والمنهي عنه قد ينصرف الى غير مفروض".[8]

---

(1) التبيان ٨١/٢ عند تفسير الآية ١٧٢ من البقرة.
(2) البقرة:١١١.
(3)التبيان ٤١١/١.
(4)الانعام:١٣٥.
(5)التبيان: ٢٨٣/٤.
(6)التبيان:٥٧٤/٢.
(7)التبيان:١٠٨/٣.
(8)التبيان ١٩/٤.

بل أنه ليقارن بين أسلوبين من أساليب النهي، فيفرق بينهما من حيث الدلالة وقوة المعنى، فيرى أن قوله تعالى(فلا تكُنْ منَ المُمترين)[1]" أبلغ في النهي" من قول القائل: لاَتكُنْ مُمتَرياً" لأنه اشارة الى قوم قد عرفت حالتهم في النقص والعيب".[2]ومراده ان ادخال المنهي في جملة الممترين ابلغ في التأثير على نفسه مما لو جعل لوحده، للعلة التي بينها وهي كونه في زمرة قوم هذه صفتهم وتلك اخلاقهم. وكأن هذا يحفزه على التخلص من رقبة هؤلاء والانفراد عنهم بالايمان والتصديق. وهو ملحظ دقيق كما ترى، يكشف عن روعة التعبير القرآني وسمو بلاغته في معانيه.

ويفصح الطوسي عن بعض المعاني التي يخرج اليها النهي عن دلالته الاصلية، ولا تعدم العقيدة دورها في توجيه بعض هذه المعاني، فقوله تعالى لآدم وحواء" ولاتقربا هذه الشجرة" صيغته صيغة النهي، والمراد به الندب"[3]" دون نهي الحظر والتحريم، لان الحرام لايكون الا قبيحا. والانبياء لايجوز عليهم شيء من القبائح لاكبيرها ولا صغيرها".[4]وقوله تعالى على لسان ابراهيم ويعقوب عليهما السلام (فلا تموتن الا وأنتم مُسلمونَ)[5]، النهي فيه عن شيء والمراد ترك شيء آخر، فلم ينهوا عن الموت، اذ الموت ليس في مقدورهم فيصح أن ينهوا عنه، وانما نهوا في الحقيقة عن ترك الاسلام وتقديره: لاتتعرضوا للموت على ترك الاسلام بفعل الكفر. ومثلهُ من كلام العرب:رأيتك هاهُنا، فالنهي في اللفظ للمتكلم، وهو في الحقيقة للمخاطب. فكأنه قال: لاتتعرضْ لأنْ أراكَ بكونك هاهنا. ومثله: لايصادفنك الامام على مايكره، وتقديره لاتتعرض: لأن يصادفك على مايكره. فالاصل في هذا أن التعرض لوقوع الشيء بمنزلة ايقاع الشيء.[6] وكأنه عنده من انزال السبب منزلة المسبب.

وعرض الطوسي لاسلوب النداء في القرآن، ملتفتا الى دلالاته وكيفياته، فبين أن الاصل فيه تنبيه المنادي ليقبل عليك. وقد يخرج مخرج التنبيه في نداء

---

(1)آل عمران: ٦٠.
(2)التبيان :٤٨٣/٢.
(3)التبيان:١٥٩/١.
(4)التبيان ٢١٧/٧.
(5)البقرة:١٣٢.
(6)التبيان:٤٧٤/١.

الباري عزّ وجل ، للتأكيد، كما في قولك: ياالله اغفرلي. والغاية منه"أن يقبل عليك برحمته، ولانك تسأل سؤال المحتاج ان يُنبِّه على حاله. لان ذلك ابلغ في الدعاء وأحسن في المعنى"[1]، وأشار الى سبب حذف حرف النداء في مثل قوله تعالى (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة)[2]فبين أن التقدير: ياربنا، وانما حذف حرف النداء، وهو في الاصل لتنبيه المنادى، للاستغناء عنه ، لان الله سبحانه لايغيب عنه شيء- تعالى عن ذلك-[3] .وقارن بين أسلوبين من اساليب النداء وردا في سياق واحد،[4]أحدهما حذف فيه حرف النداء وهو قوله" رب اني أعوذ بك" والآخر اثبت فيه حرف النداء وهو قوله (يانُوحُ اهبط بسلام)، فبين أنه حذف في الاول وأثبت في الثاني" لان ذلك نداء تعظيم، وهذا نداء تنبيه، فوجب أن يأتي بحرف التنبيه".[5] .

وعنى الطوسي بأسلوب الاستفهام في القرآن وكلام العرب من شعر ونثر عناية واضحة، وسماه في بعض المواضع" السؤال"[6] وفي اخر الاستخبار"[7]، وعرف بأنه" طلب الاخبار بصيغة مخصوصة في الكلام"[8]وأنه" يقتضي الاخبار مما يحتاج اليه"[9]. وهذا لاشك يتعلق بمعناه الأصلي الحقيقي، دون معانيه الاضافية المجازية. واشار الى بعض اصوله وقواعده العامة، فبين أن" كل مايزجر العقل عنه بما فيه من الداعي الى الفساد لايجوز السؤال عنه، كسؤال الجدل لدفع الحق ونصرة الباطل، وكالسؤال الذي يقتضي فاحش الجواب، لأنه كالأمر بالقبيح"[10]،وكأنه بهذا يرسم لنا بعض قواعد الاستفهام المقررة في علم الكلام، ومايتطلبه أدب الجدل والمناظرات. ونراه يحتفي بكثرة في الكشف عن معانيه الاضافية وقد ذكر في موضوع واحد ثلاثة منها ثم نثر البقية في ثنايا تفسيره.

---

(1)التبيان٢/١٧١.
(2)البقرة:٢٠١.
(3)التبيان:٢/١٧١.
(4)هود:٤٧و٤٨.
(5)التبيان:٥/٤٩٦.
(6)التبيان ٤/٣٥٠.١٠/٢٣٨.
(7)التبيان ٢/٢٣.
(8)التبيان:١٠/٢٣٨.
(9)التبيان:٢/٧٥.
(10)التبيان:١٠/٢٣٨.

ونحن نشير الى طرف منها دون توخي الاستقصاء والحصر. فالاستفهام قد يـــراد به عنده التوبيخ والتقريع، وهذا خبر في المعنى، كقولك: ألم أحسنْ إليـــك فكفـــرت نعمتي؟ ألـــمْ أُعطك فجحدت عطيتي؟ ومنه قولــــه تعـــالى (ألـــــم أعـــهد اليكـــم) وقوله(ألـــم يأتكم رُسُلٌ) وعد منه قول الشاعر:

ألستم خير من ركب المطايا*** وأندى العالمين بُطونَ راحِ[1]؟.

وبين أنه" لو كان سائلا لما كان مادحاً[2] . ويبدو أن الاستفهام فيه للتقريـــر، لان الشاعر كان يبغي الصلة،فأراد أن يبين انـــــهم خـــير النـــاس، لا أن يوبخـــهم ويقرعهم.وأشار الى الاستفهام الذي يراد به توبيخ الذات في مثـــل قـــو العجـــاج: أطربا وأنت قنسري؟ فبين أن " معنى قنسري كبير السن" ثم قـــال" وهـــذا توبيـــخ لنفسه. أي كيف اطرب مع الكبَر والشيب"؟[3]

واشار الى الاستفهام الذي يراد به التخفيـــض وبيـــن أن فيـــه معنـــى (ألا) كقولك: هلاّ تقومُ؟ وألا تضربُ زيداً؟ وفسرهُ: بقُمْ واضربْ.[4]وواضـــح أنـــه جعـــل الهمزة وهل في المثالين حرفي استفهام مركبين مع (لا) مع أن الظاهر في " هـــلا" و " الا" انهما صيغتان خاصتان بالتحضيض دون أن تكونا خارجتين اليه من معنـــى الاستفهام الاصلي.

واشار غير مرة الى الاستفهام المراد به التقرير، وجعل منه قولـــــه تعـــالى: (أهؤلاء الذين اياكم كانوا يعبدون)[5]وبين انه" على وجه التقرير لهم،وان كان بلفـظ الاستفهام[6]". وهذا عنده من التقرير بالاثبات، أو على حد تعبيره بالايجاب. وامـــا التقرير بالنفي، فمثل قوله تعالى(وان يخـــذ لكـــم فمـــن ذا الـــذي ينصركـــم مـــن بعده)[7]والقاعدة التي يضعها لتضمن حرف الاستفهام لمعنى النفي" أن جوابه يجـــب أن يكون بالنفي فصار ذكره يغني عن ذكر جوابه.[8]

---

(١)البيت لجرير. انظر ديوانه ص٩٨.
(٢)التبيان: ٤/٣٤٩-٣٥٠.
(٣)التبيان: ٤/٣٥٠.
(٤)التبيان: نفس المكان.
(٥) سبأ: ٤٠.
(٦)التبيان: ٨/٤٠٢.
(٧)آل عمران: ١٦٠.
(٨) التبيان٣/٣٣.

واشار الى الاستفهام المراد به التقرير بالعجز والجهل. وضرب له مثلا قولك: هل تعلمُ الغيب؟ وهل تعرف مايكون غدا؟ وقول الشاعر: وهل يُصلحُ العطار ما أفسد الدهرُ؟ وبين ان المعنى" وليس يصلح العطار مأفسد الدهرُ".[1]والتفت الطوسي الى الاستفهام التعجبي في مثل آية البقرة:" الم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه"، وقد لاحظ فيه أن " الى" عملت عملها من دون بقية حروف الجر- في خروجه الى هذا المعنى. وعلل ذلك بقوله" لأنها لما كانت نهاية صارت بمنزلة: هل انتهت رؤيتك الى من هذه صفته؟، لتدل على بعد وقوع مثله وعلى التعجب منه".[2]واشار كثيرا الى الاستفهام الانكاري في مثل قوله تعالى(قُلْ أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء)،[3] وعلل افادته هذا المعنى بأنه لاجواب لصحابه الا بما هو قبيح في العقول منكر فيها.[4]ولم ينس مايترتب عليه وعلى الاستفهام التقريري من فائدة عملية في الجدل، بل بين أن اللفظ حين يخرج مخرج الاستفهام يكون ابلغ في الكلام وأشد مظاهرة في الحجاج، فان كان تقريريا لزمت الحجة. وان كان انكاريا ظهرت الفضيحة.[5].

وكان للعقيدة الاسلامية دورها في توجيه كثير من معاني الاستفهام، فالاستفهام الذي ورد على لسان الملائكة في آية البقرة(أتَجعلُ فيها من يُفسدُ فيها) كان على وجه الاستخبار منهم والاستعلام على وجه المصلحة والحكمة، لا على وجه الانكار، كأنهم قالوا: إن كان هذا كما ظننا فَـعرِّفنا عن وجه المصلحة فيه"[6]، وعلى هذا فالاستفهام حقيقي، وهو المناسب للطاعة والتسليم اللذين يتحلى بهما ملائكة الله، ولذلك وجهه الطوسي هذا التوجيه. والاستفهام في قول رسول من رسل الله(مَتى نصرُ الله) معناه الدعاء بالنصر" ولايجوز أن يكون معناه الاستبطاء لنصر الله على كل حال، لان الرسول يعلم أن الله لايؤخره عن الوقت الذي توجبه الحكمة".[7].

---

(1)التبيان: ٤/٣٥٠.
(2)التبيان: ٢/٣١٦.
(3)الانعام: ١٦٤.
(4)التبيان: ٤/٣٣٦و ٨/٤٥٢.
(5)التبيان: ١/٤٧٥.
(6)التبيان: ١/١٣٢.
(7)التبيان: ٢/١٩٩.

وهذا كما ترى راجع الى عصمة الانبياء. وهكذا نجد الطوسي يشير الى كثير من المعاني الاضافية للاستفهام ويوجهها ويعللها... وما اوردناه مثل منها، لان الكلام عليها بالتفصيل ليس مرادنا هنا. وأشار الطوسي الى اسلوب القسم وبين أنه يطلب به التصديق، ولذلك تدخل عليه نون التوكيد، لانها تدخل في غير الواجب.[1]. كما بين أن القسم من مواضع التأكيد في العربية ، وأنه أحق لذلك بالتأكيد من كل ماتدخله النون. ومن هنا كان لابد من مجيئها مع لام القسم في الفعل المضارع، لانها اذا جازت في غير القسم من الامر والنهي والعرض والجزاء، لزمت فيه لأنه أحق بها من غيره.[2].

بـ الفصل والوصل:

عنى الطوسي بموضوع الفصل والوصل بين الجمل في القرآن الكريم، وهو الموضوع الذي أولاه معاصره عبد القاهر الجرجاني أهمية واضحة في كتابه القيم" دلائل الاعجاز"[3]. وكان لايقنع بوصف الجمل بالعطف أو الاستئناف، بل كان يعلل ذلك في كثير من المواضع، وهذا هو المنهج الأمثل في هذا الموضوع لدى عبد القاهر[4] . ففي قوله تعالى(لن يضروكم الا أذى وان يُقاتلوكم يُولُوكمْ الادبار ثم لاينصرون)[5]، يذكر الطوسي أن قوله(ثم لايُنصرون) رفع على الاستئناف ولم يعطف ليجري الثاني على مثال الاول، لان سبب التولية القتال وليس كذلك منع النصر، لان سببه الكفر"[6]فهو يلحظ أن العطف لايصح لأن منع النصر ليس معلولاً للقتال،وانما هو معلول لأمر آخر لا ارتباط له بما تقدم وهو الكفر. واذاً فالكلام مقطوع عما قبله وليس موصولا به، ولابد على هذا من رفعه على الآستئناف.

ونراه يقف عند قوله تعالى(اولما أصابتكم مصيبة قد اصبتم مثليها قلتم أنّى هذا)[7]ليبين وجه وصله بقوله قبل ذلك" لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم

---

(1)التبيان ٥/٤٣١.

(2)التبيان:٣/٣٠.

(3)الجرجاني: دلائل الاعجاز ص ٢٣٠ وما بعدها.

(4)دلائل الاعجاز ص ٢٣٧ وفيها يلوم اولئك الذي يقنعون في الفصل بالقول: ان الكلام استؤنف وقطع عماقبله. ويصفهم بالغفلة الشديدة.

(5)آل عمران : ١١١.

(6)التبيان ٥٥٩/٢.

(7)آل عمران:١٦٥.

رسولا من أنفسهم.... فيقول" انما دخلت الواو في (أولما اصابتكم) لعطف جملة على جملة، الا أنه تقدمها ألف الاستفهام لان له صدر الكلام" ثم يبين أنه وصل بما قبله" ليدل على تعقله به في المعنى، وذلك أنه وصل التقريع على الخطيئة بالتذكير بالنعمة لفرقة واحدة".[1] فكان المسوغ للوصل هنا، التقابل بين المعنيين في الجملتين، لأن التقابل ضرب من الاتصال لمعنوي بين اجزاء الكلام.

على أن الطوسي عني بضرب آخر من الوصل، وهو الوصل المعنوي بين الآي والعبارات بمعزل عن حرف العطف، أو بعبارة أخرى بالوصل الذي لايقوم على العطف بالحرف. بل يقوم على الترابط والتناسب المعنوي بين آية واخرى، أو بين جملة وأخرى. وقد سماه في بعض المواضع" النظم"[2]. افراد له فيها- بهذا العنوان – بابا خاصا به. وكأنه أراد بذلك ان يدلل على الوحدة العضوية بين الاجزاء والوحدات الاساسية للقرآن، وهي الآي. اذ أنها تشبه اللبنات في البناء، فاذا دلل على إحكام هذه اللبنات وقوة ارتباط بعضها ببعض، دلل علىقوة ذلك البناء الذي يضمها جميعا وتماسكه وهذا لاشك يخدم قضية الاعجاز القرآني من بعض الوجوه، لان الطوسي جعل النظم، كما بيناه سالفا، من مظاهر الاعجاز القرآني ودلائله. ولنذكر بعض الامثلة: يكشف الطوسي في وقوفه عند آية آل عمران لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون" عن وجه الاتصال بينهما وبين الاية التي قبلها" ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل منهم ملء الارض ذهبا ولا افتدى به" فيقول: " ووجه اتصال هذه الاية بما قبلها، أنه تعالى لما ذكر في الاية الاولى" فلن يقبل من أحدهم ملء الارض ذهبا ولو افتدى به" ، وصل ذلك بقوله" لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون؛" لئلا يؤدي امتناع غناء الفدية – يريد عدم فائدتها-الى الفتور في الصدقة وما جرى مجراها من وجوه الطاعة".[3]فواضح أن الاتصال هنا ليس اتصالا بحرف عطف بين جملتين بل هو قطع من هذه الجهة، ولكنه اتصال في المعنى بين آيتين من غير عاطف.

ويعلل الطوسي بعض وجوه هذا الضرب من الوصل بالمشاكلة، ويضع في ذلك قاعدة عامة هي " ان حمل الكلام على الاتصال اذا صح المعنى، أولى من

([1])التبيان ٣/٤٠.
([2])التبيان:٢/٥٣١، ٥٥٥.
([3]) التبيان:٢/٥٣١.

حمله على الانفصال. لأن الاتصال أقرب الى التشاكل وابعد من التنافر"[1]، ولهذه العلة رجح ان قوله عز وجل(ان الله لايخلف الميعاد)[2]متصل، على وجه الحكاية بالدعاء في نفس الاية وهو (ربنا انك جامع الناس ليوم لاريب فيه)، وليس منقطعا عنه ومستأنفاً من عند الله سبحانه.[3]

ويعلل بعض وجوه باتصال بين الآي، باتصال الدليل بالمدلول عليه ويلاحظ ذلك في اكثر من موضع في التنزيل. فيذكر مثلا تحت باب" النظم" أن وجه انصال الاية الكريمة(ولله مافي السموات وما في الارض والى الله ترجع الأمور)[4]، بالآية التي قبلها(تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين)، اتصال الدليل بالمدلول عليه، لأنه " لما قال "وما الله يريد ظلما للعالمين"،وصله بذكر غناه عن الظلم، اذ(هو)[5] الغنى عنه العالم بقبحه ومعناه لايجوز وقوعه منه".[6].

جـ-التقديم والتأخير:

وقف الطوسي مرات عند ظاهرة التقديم والتأخير في التنزيل، وعللها بعلل متباينة ، منها: تقديم الاكثر مبالغة في الصفة على مادونه، وهذا عنده من باب تقديم الاعرف، كتقديم" الرؤف" على " الرحيم" في قوله تعالى " أن الله بالناس لرؤوف رحيم" وفيه يقول" وانما قدمت الرأفة على الرحمة لان الرأفة أشد مبالغة من الرحمة ، ليجري- على طريقة التقديم بما هو أعرف- مجرى اسماء الأعلام. ثم إتباعه بما هو دون منه".[7]. ومنها تقديم السبب على المسبَب،كتقديم المسند على المسند اليه في آية الانفال(وأنّ للكافرين عذاب النار)؛" لدلالته على الكفر الذي هو السبب للعذاب. ومرتبة السبب قبل مرتبة المسبب" فيما يقرره الطوسي[8].ومن ذلك التقديم لاجل العناية والاهتمام بالمقدم، يقول في آية البقرة:"

---

(1)التبيان:٢/٤٠٢.
(2)آل عمران:٩.
(3)التبيان٢/٤٠٢.
(4)آل عمران : ١٠٩.
(5)مابين القوسين زيادة من عندنا يقتضيها الكلام.
(6) التبيان:٢/٥٥٥.
(7) التبيان:٢/١١.
(8)التبيان٥/٩٠.

فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه"[1]":" فان قيل: اذا كانوا انما هدوا للحق من الاختلاف، فلم قيل: للاختلاف من الحق؟، قيل: لأنه لما كانت العناية بذكر الاختلاف- يريد الذي تقدم ذكره في الآية قبل ذلك- كان أولى بالتقديم، ثم تفسيره بمن".[2]ويقول تعليقا على آيتي هود (ولقد ارسلنا نوحا الى قومه اني لكم نذير مبين* أن لاتعبدوا الا الله..."":"، وانما بدئ بالدعاء الى العبادة دون سائر الطاعات ، لانها أهم مايدعي اليه من خالف الحق فيه،ولانه يجب أن يفعل كل واحدة من الطاعات على وجه الاخلاص والعبادة فيها لله".[3].

د-الايجاز والاطناب:

ووقف الطوسي عند مواضع الايجاز والاطناب في القرآن مشيرا الى قوتها وروعتها دالا على قيمها البلاغية. وكانت عنايته بالايجاز خاصة واضحة، وقد جعله، كما أسلفنا، من دلائل الفصاحة، ونوه في أول تفسيره عن ايجاز القرآن واطنابه. وسمى الاول اختصارا وايجازا واقتصارا، وسمى الثاني اطالة واسهابا،وعلل ورودهما فيه بالمصلحة الدينية التي قصد اليها الكتاب المبين[4]. وتسمية الاطناب إطالة، تسمية بالوصف لا باصطلاح، وهي قائمة على أن المطنب مطيل، وهذه التسمية جائزة لدى الباقلاني؛ اذ ذكر الاطالة في مقابل الايجاز واستشهد في مدحهما بقول داود بن صديق:

يَرمونَ بالخُطب الطويلِ وتارةً** * وحْيَ المَلاحِظِ خيفَةَ الرقباء[5]

الا ن كثيرا من البلاغيين يفرقون بين الاطالة والاطناب ولايسوون بينهما في الدلالة. فالرماني يرى الاطالة عيباً والاطناب بلاغة[6]، ويذهب العسكري مذهبه فيرى الاطالة عيبا، ويعد الاطناب بلاغة، [7]ثم يأتي من بعد ابن سنان الخفاجي، فاذا به ينتصر لرأي الرماني في التفرقة من حيث المفهوم بين الاطالة والاطناب[8].

---

(1)البقرة: ٢١٣.
(2)التبيان ١٩٦/١.
(3)التبيان:٤٧٠/٥.
(4)التبيان:١/١٠-١١.
(5)الباقلاني: نكت الانتصار لنقل القران ص ٢٥٣.
(6)الكرماني: النكت في اعجاز القران ص ٧٨.
(7)العسكري: الصناعتين ص ١٩٦.
(8)ابن سنان: سر الفصاحة ص ٢٠٠.

والخلاف بين الفريقين لفظي، اذ لاشك أن الطوسي ومن عبر عن الاطناب بالاطالة لم يريدوا منها، الا مالايند عن سمْت الفصاحة والبلاغة من الكلام الكثير المبسوط.ونحن نذكر ذلك هنا. ونرى التنويه عنه ضروريا، لئلا يظن قارئ كلامه الذي في أول تفسيره أنه يذهب بمفهوم الاطالة والاسهاب ونحوهما من معاني تكثير اللفظ، الى غير مفهوم الاطناب عند البلاغيين. وفي الايجاز، نراه يلتفت الى ايجاز الحذف، وما يدل عليه من قرائن لفظية ومعنوية وحالية فيقول تعليقا على الآية الكريمة:(ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وانتم تشهدون)[1]:" فيه حذف، وتقديره: وأنتم تشهدون ما عليكم فيه الحجة. فحذف للايجاز مع الاستغناء عنه بالتوبيخ الذي تضمنه الكلام"[2]فهو يشير هنا الى قرينة الايجاز المعنوية؛ لأن التوبيخ معنى وليس لفظا أو حالا. كما يشير الى قرينته اللفظية حين يقدر محذوفا بعد الطلب في آية البقرة:(فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا)،فيقول" معنى الكلام: قلنا اضرب بعصاك الحجر فضربه فانفجرت منه. فترك ذلك الخبر.. اذ كان فيما ذكر دلالة على المراد" كما يقدر محذوفا في قوله بعد ذلك" قد علم كل أناس مشربهم" فيقول" فترك ذكر" منهم" لدلالة الكلام عليه"[3].ويلتفت الى الايجاز بحذف المضاف في قوله عز وجل(واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها)[4]ويسميه اختصارا بعد أن يبين ان المراد: أهل القرية وأهل العير، فيقول" وحذف المضاف الذي هو الاصل،واقام المضاف اليه – من القرية والعير– مقامه، اختصاراً لدلالة الكلام".[5]ويقدر في قوله تعالى(وحيث ماكنتم فولوا وجوهكم شطره)[6]محذوفا هو " في الصلاة". ويحس ان القرينة على المحذوف هنا حالية فيقول" انه اجتزأ بدلالة الحال عن دلالة الكلام، ولو لم يكن هناك حال دالة، لم يكن بد من ذكر هذا المحذوف، اذا اريد به الافهام لهذا المعنى".[7].

---

(1)آل عمران :٧.
(2)التبيان :٢/٤٩٧.
(3)التبيان:١/٢٦٩.
(4)يوسف:٨٢.
(5)التبيان:٦/١٨٠.
(6)البقرة: ١٥٠.
(7)التبيان :٢/٢٦.

ونراه يشير الى حذف جواب الشرط في غير موضع، ملتفتا الى ملحظ دقيق عند حذفه مع (لو) خاصة وهو المبالغة في تصوره. وذهاب الفكر والخيال مذاهب شتى في ماهيته، وعدم تحديده بشيء معين. وذلك يجعل حذفه ابلغ عنده من ذكره. ففي تفسير آية البقرة(ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا)[١]يقول" وجواب" لو" محذوف، كأنه قيل: لرأوا مضرة اتخاذهم للأنداد. ولرأوا أمرا عظيماً لايحصر بالأوهام. وحذف الجواب يدل على المبالغة، كقولك: لو رأيت السياط تأخذ فلاناً".[٢]. وفي تفسير آية الانفال(ولو ترى اذ يتوفى الملائكة الذين كفروا يضربون وجوههم وأدبارهم) يقول" وجواب(لو) محذوف وتقديره: لرأيت منظرا عظيما وأمرا عجيبا، أو عقابا شديدا. وحذف الجواب في مثل هذا أبلغ لأن الكلام يدل عليه... وانما حذف جواب (لو) لان ذكره يخص وجها، ومع الحذف يظن وجوه كثيرة، فهو أبلغ".[٣].

وبالمثل يشير الى حذف القول حين يرد جوابا لأما الشرطية، ويبين أنه يحذف لدلالة الحال في مثل آية آل عمران:(فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم)[٤]فيقول" جواب أما... محذوف، وتقديره:" فأما الذين اسودت وجوههم" فيقال لهم" أكفرتم بعد ايمانكم". فحذف لدلالة اسوداد الوجوه على حال التوبيخ، حتى كأنه ناطق به"،[٥]، ثم يشير الى أن القول قد يحذف ايضا لقرينة لفظية، في مواضع كثيرة من التنزيل، أو على حد قوله" استغناءً بما قبله من البيان، كقوله(ولو ترى اذ المجرمون ناكسو[٦] رؤوسهم عند ربهم ربنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا)اي: يقولون ربنا، لدلالة تنكيس الرأس من المجرم على سؤال الاقالة".[٧].

ويلتفت الطوسي الى ايجاز القصر في مواضع من القرآن، ويشيد بما فيه من فصاحة عدة مرات، كما في آية الانعام:(وله ماسكن في الليل والنهار)،[٨]إذ يقول أي ما اشتمل عليه الليل والنار، فجعل الليل والنهار، فجعل الليل والنهار كالمسكن

([١])البقرة:١٦٥.
([٢])التبيان:٢/٦٤.
([٣])التبيان:٥/١٣٧–١٣٨.
([٤])البقرة:١٠٩.
([٥])التبيان:٢/٥٥٦.
([٦]) في الاصل: ناكسوا بألف بعد الواو وهو خطأ مطبعي فيما يبدو.
([٧])التبيان:٢/٥٥٢.
([٨])الانعام:١٣.

لما اشتملا عليه، لانه ليس يخرج منهما شيء، فجمع كل الاشياء بهذا اللفظ القليل الحروف. وهذا من أفصح مايكون من الكلام."[1]ويقول في معنى (خلصوا نجيّا)[2]:" اي انفردوا من غير أن يكون معهم غيرهم ممن ليس منهم. وهذا من عجيب فصاحة القرآن الخارقة للعادة، لانه بقوله "خَلصُوا" دل على ماقلناه من معنى الكلام الطويل".[3]فهو اذاً يلحظ مافي اسناد الخلوص الى إخوة يوسف- للدلالة على انفرادهم التام- من ايجاز رائع لايرقى اليه ايجاز. وكثيرا مايشير الى أن الايجاز في القرآن لايقوم مقامه التصريح لما فيه من فوائد وقيم بلاغية، يقول في وقوفه عند قوله تعالى (هل اتاك حديث الجنود)[4]: معناه: تذكّر يامحمد حديثهم تذكر معتبر فإنك تنتفع به. وهذا من الايجاز الحسن والتفخيم الذي لايقوم مقامة التصريح، لما يذهب الوهم في أمرهم كل مذهب ويطلب الاعتبار كل مطلب.[5].

ونلاحظ أن الطوسي كثيرا مايصف الايجاز الذي يتبينه في الآي، بعدم اخلاله بالمعنى.[6]وهذا يعني ان صحة المعنى عنده شرط في حسن الايجاز ومشروعيته، والا لم يكن ايجازا بلاغيا. وهو أمر يجري مجرى البدائه ولا يحتاج الى تدليل.

وبالمثل نراه يقف عند صور الاطناب وصنوفه المتعددة في التزيل، متلمسا لها الوجوه والتعليلات المسوغة لورودها فيه. وأكثر ماعني به التكرار وأول مايلقانا منه تكرار القصص في القرآن، فهو فيما يرى الطوسي وسيلة لنشر هذا القصص المفيد في اطراف الارض واذاعته بين الناس والقائه في كل سمع، واثباته في كل قلب، لان رسول الله (ص) كان يبعث الى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة، فلو لم تكن الانباء والقصص مكررة لوقعت قصة موسى الى قوم وقصة عيسى الى قوم، وقصة نوح الى قوم آخرين، فاراد الله بلطفه أن ينشر هذا القصص بتكراره في مواضع متعددة.[7].

([1])التبيان: ٨٧/٤.
([2])يوسف: ٨٠.
([3])التبيان ١٧٨/٦.
([4])البروج:١٧.
([5]) التبيان: ٣٢١/١٠.
([6]) التبيان:٣٨٣/٣. ٦٠/٦.
([7])التبيان: ١٤/١.

ونراه يشير في أعقاب ذلك الى غرض القرآن من تكرارالعبارات والالفاظ من مثل قوله تعالى (ان مع العسر يسرا) وقوله" كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون" وقوله " الرحمن الرحيم" وقوله" يسمع سرهم ونجواهم"، مع أن السر هو النجوى، فيعلله على وجه الاجمال بارادة التوكيد. ويذكر دفاعاً عن القرآن ورداً على الطاعنين فيه . أن هذا الاسلوب عربي صميم وأنه ليس طارئا على البيان العربي، بل هو معروف متداول بين العرب ، فيقول: ان القرآن نزل بلسان العرب، ومذهبهم في التكرار لغرض التوكيد وزيادة الافهام معروف كما أن مذهبهم في الايجاز والاختصار لغرض التخفيف معروف ايضا[1]. وبذلك يشعرنا أن التكرار عنده ضرب من الاطناب، لأنه جعله في مقابل الايجاز. وهو اذ يذكر هذا في مقدمة تفسيره، يشير الى أنه ذكره على الجملة تنبيها عن الجواب عما لم يذكره، وأنه قد يستوفيه فيما بعد اذا جرى مايقتضي ذكره.[2]

ولا نكاد نوغل في قراءة تفسيره، حتى يلقانا بألوان من أسباب التكرار القرآني وعلله. فمن ذلك التكرار لطول الكلام، أو طول القصة على حد تعبيره كتكرار(تحسبَنَّ) في قوله عز وجل:(ولا تحسبَنَّ الذين يفرحون بما أوتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب)[3]. ومن ذلك التكرار للمبالغة، كتكرار الاستقامة في قوله تعالى(قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم* دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا ومن كان من المشركين)[4] . ومنه التكرار لغرض تقرير شيء من الاشياء، كتكرار عبارة (فبأيِّ آلاءِ ربكما تكذبان)،في سورة الرحمن ، اذ يراد به التقرير بالنعمة والتذكير بها على التفصيل، نعمة نعمة.[5].

ونراه يشير الى غير التكرار من صور الاطناب، كالتفصيل بعد الاجمال في الآية الكريمة:(فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديداً في الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين)[6]، يقول" معنى قوله" أما" تفصيل المجمل على قولك: فيجازي العباد. أما

([1])التبيان: ١/١٤.
([2])التبيان: ١/١٦.
([3])التبيان:٣/٧٦. عند تفسير الآية ١٨٨ من آل عمران.
([4])التبيان: ٤/٣٣٤.
([5])التبيان: ٩/٤٦٨.
([6])آل عمران: ٥٦.

المؤمن فبالثواب وأما الكافر فبالعقاب".[1]واشار الى التفصيل الذي يراد بـــه بيـــان الماهية في مثل قوله تعالى (وما أدراك ما القارعة* يوم يكون النـــاس كـــالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش)[2] يقول" ومعناه: انك يامحمد- صلى الله عليه وآله- لاتعلم كبر وصفها وحقيقة أمرها على التفصيل، وانما تعلمـــها علـــى طريق الجملة. ثم وصفها تعالى فقال(يوم يكون الناس كـــالفراش المبثـــوث...)[3] ،وسماه في آيتي القارعة:" وما أدراك ماهية. نار حامية"، تفسيراً فقال:".. اي انـــك تعلمها على الجملة ولا تعلم تفصيلها وأنواع مافيها من العقـــاب... ثـــم فســـر الله تعالى فقال (نار حامية) أي هي نار شديدة الحرارة"..[4]

ونراد يشير الى الجمل المعترضة. الفعلية والاسمية. ففي وقوفه عند قولـــه تعالى(ليس لك من الامر شيء او يتوب عليهم أو يعذبهم فأنهم ظالمون)،[5]يذكـــر أن في قوله(أو يتوب عليهم) قولين: أحدهما بالعطف على " ليقطع طرفا من الذيـــن كفروا او يكبتهم"[6]" أو يتوب عليهم". ويكون (ليس لك من الامر شيء) اعتراضـــا بين المعطوف والمعطوف عليه. كما تقول: ضربت زيداً- فافهم ذاكَ- وعمـــراً.[7] وفي تفسير قوله تعالى(ولاتهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنيـــن).[8]، احتمل أن تكون جملة(وأنتم الأعلون) الاسمية اعتراضا" بوعد مؤكـــد"، وتقديـــره: ولاتهنوا ولاتحزنوا ان كنتم مؤمنين وأنتم مع ذلك الأعلون.[9]

هـ- وضع الظاهر موضع المضمر أو العكس

ولم يفت الطوسي التبادل بين الظاهر والمضمر في التزيل، بل وقـــف عنـــده مراراً مبينا ما يلابسه من مقاصد بلاغية ، ففي آية البقرة : (من كـــان عـــدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين) [10]بيّن أنه لم يقل " فأنـــه"

---

(1)التبيان:٢/٤٧٩.
(2) القارعة:٤-٥.
(3)التبيان:١٠/٣٩٩.
(4)التبيان:١٠/٤٠١.
(5)آل عمران: ١٢٨.
(6)يريد الآية التي قبلها.
(7)التبيان:٢/٥٨٥.
(8) آل عمران: ١٣٨.
(9)التبيان:٢/٦٠١.
(10)البقرة:٩٨.

بدلا من " فان الله". لئلا يظن ان الضمير يرجع الى جبريل أو ميكال. كما لم يقل" لهم " بدلا من " للكافرين" لانه يجوز أن ينتقلوا عن العداوة بالايمان[1]" ومراده أن القرآن أراد بالاظهار تخصيص عداوة الله لهم بحال كفرهم، وليس على كل حال، لانهم لو آمنوا فيما بعد، لزالت عنهم عداوته لهم سبحانه. ويبدو لي وجه آخر، كأنه أظهر مما ذكر، وهو أن عداوة هؤلاء لله وملائكته ورسله... تسمهم بالكفر وتخرجهم من أن يعدوا مؤمنين . وبذلك جمع التعبير:" عدو للكافرين" بين أمرين: عداوة الله لهم ووصفهم بالكفر. وفي آية القدر(انا أنزلناه في ليلة القدر)، يلحظ الطوسي وضع المضمر موضع الظاهر وهو القرآن،ويعلله بالظهور وعدم اللبس، فيقول" وانما كنى عما لم يجر له ذكر، لأنه معلوم لايشتبه الحال فيه".[2].

و- استعمال الأفعال:

ويقف الطوسي عند استعمال الافعال في القرآن بصيغ معينة، ليبين ماينطوي عليه من أغراض بلاغية، فيلحظ أن المضارع قد يرد في موضع الماضي للدلالة على الدوام والاستمرار وتجدد الحدث آنا بعد آن. يقول في قوله عز وجل(الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لايتقون)[3]"وقوله تعالى(ثم ينقضون) عطف المستقبل على الماضي، لأن الغرض أن من شأنهم نقض العهد مرة بعد مرة أخرى، في مستقبل أوقاتهم بعد العهد اليهم"[4]وبمثل ذلك يعلل ورود الفعل المضارع"يصدّون" في آية الحج(ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله)[5]فيقول" لان المعنى: ومن شأنهم الصد"ثم ينظرّ له بقوله(الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله).[6].

ويلحظ ان الماضي قد يرد في موضع المضارع، ويبين ان الغرض منه" ارادة التقريب"، ويضرب له مثلا قوله تعالى(ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة)، (ولو

([1])التبيان:١/٣٦٤.
([2])التبيان١٠/٣٨٤.
([3])الأنفال :٥٦.
([4])التبيان:٥/١٤٣.
([5])الحج:٢٥.
([6])التبيان:٧/٣٠٦.

ترى اذ وقفوا على النار).. ويحكى ذلك عن ابي علي الفارسي[1]وكأنه اراد بالتقريب، تقريب الحدث والاشعار بتحقق وقوعه. بدليل قوله في آية الانفال(ليقضي الله أمرا كان مفعولاً)[2]:"وانما قال(كان مفعولاً) والمعنى: يكون مفعولا في المستقبل، لتحقق كونه لامحالة حتى صار بمنزلة ما قد كان، اذ قد علم الله أنه كائن لامحالة."[3]والمشهور عند النحويين أن (كان) في مثل هذا الموضع تدل على الاستمرار، ولاتختص بزمن معين. ولعله أراد أن الاستقبال بعض مدلولاتها.

على أن الطوسي قد يتمسك بظاهر دلالة الفعل الزمانية وصيغته التي وردت في التنزيل، حين يرى أن العدول عنهما لاداعي له ، ففي قوله تعالى (أعدَّ الله لهم جناتٍ تجري من تحتها الانهار)[4]، لم ير أن إعداد الجنات مستقبل،لان ذلك ترك للظاهر، وانما رآه واقعاً، وقد أخر عنه القرآن قبل مجيئه، لان تصوره" أدعى الى الطاعة واكد في الحرص عليها".[5].

ز- **التغليب**:

أشار الطوسي غير مرة الى تغليب المذكر على المؤنث في القرآن. كما في آية البقرة:(ويحب المتطهرين)، اذ بين انه" لم يقل المتطهرات، لان المؤنث يدخل في المذكر لتغليبه عليه"[6]، وبين أن العرب يغلبون المذكر على المؤنث في مثل هذا" تنبيها على الأكمل"، كما يغلبون المخاطب على الغائب، فيقولون:بلَغنا كُما، وان كان أحدهما حاضرا، والآخر غائبا.[7] كما اشار مرات الى تغليب العاقل على غيره، كالذي في قوله عز وجل(والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع)[8]يقول:" وانما قال" منهم" تغليبا لما يعقل على مالا يعقل".[9]، واشار الى تغليب الاكثر على الأقل

([1])التبيان:٢/٦٥.
([2])الانفال:٤٤.
([3])التبيان:٥/١٣١.
([4])التوبة:٨٩.
([5])التبيان ٥/٢٧٦-٢٧٧.
([6])التبيان:٢/٢٢٢ وانظر ٣/١٣٣،٦/١٩٦.
([7])التبيان:٢/١٢.
([8])النور:٤٥.
([9])التبيان ٧/٤٤٨ وانظر ٨/٤٨٦.

في مثل قوله تعالى(والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها)،[1]اذ بين أنه أخبر عنهم بعبارة" يقولون"، وان كان فيهم الوالدن لاينطقون تغليبا للاكثر، كقولك: قال أهل البصرة وان كان قولا لبعضهم.[2] وجعل التغليب في مثل " سُنَّة العُمرين" من باب تغليب الأخف على الأثقل، وعلل ذلك بقوله"لأن المفرد أخف من المضاف"[3]. ومراده أن عمر غلّب على ابي بكر رضى الله عنهما، لانه اسم مفرد وليس مركبا، اذ الاضافة ضرب من التركيب في الكلام. والمفرد أخف من المركب. واشار الى ضرب من التغليب سماه تغليب الأوائل عل الثواني، في وقوفه عند آية البقرة:(يتربصْن بأنفسهن اربعة اشهر وعشرا).[4]وهو أنه قال" عشرا" " لتغليب الليالي على الايام اذا اجتمعت في التاريخ وغيره، لأن ابتداء شهور الاهلة الليالي منذ طوع الهلال. فلما كانت الاوائل، غُلبتْ، لان الاوائل أقوى من الثواني" ثم احتج له بقول الشاعر: أقامتْ ثلاثاً بين يومٍ وليلةٍ.[5].

(٤)

علم البيان

أ-التشبيه:

يتكلم الطوسي على التشبيه في مواضع من تفسيره، مشيراً الى بعض قواعده وصوره، فيرى أن التشبيه يكون أحسن حين يحذف منه وجه الشبه، ويجد مصداق ذلك في مثل قوله عز وجل:(مثلُ الذين كفروا كمثل الذي ينعق بمالا يسمعُ إلا دُعاءً ونداءً)،[6] فيبين أن المعنى عند أكثر المفسرين: مثل الذين كفروا في دعائك اياهم، كمثل الناعق في دعائه المنعوق به من البهائم التي لاتفهم، كالبقر والابل والغنم.. ثم يقول: والحذف في مثل هذا أحسن، كقولك في سيئ الفهم: هو

---

(1)النساء: ٧٥.
(2)التبيان ٣/٢٥٩ وانظر ٦/٧٧.
(3)التبيان: ٤/٣٦٦.
(4)البقرة: ٢٣٤.
(5)التبيان ٢/٢٦٣-٢٦٤.
(6) البقرة : ١٧١.

كالحمار، وفيمن هو شجاع: زيد كالأسد، لأن المعنى في أحد الشيئين أظهر، فيشبه به الآخر ليظهر بظهوره. وهذا من باب حسن البيان.[1]

ونراه يشير الى التشبيه الذي يتعدد فيه طرفا التشبيه، ثم يكتفي في كل طرف- للايجاز- بذكر شيء واحد، يدل على ماهو محذوف. ففي الآية الآنفة، يفترض الطوسي ان سائلا يسأل هذا السؤال:" كيف قوبل الذين كفروا- وهم المنعوق به- بالناعق، ولما يقابل المنعوق به بالمنعوق به- في ترتيب الكلام- أو الناعق بالناعق؟ ويجيب: بأن ذلك" للدلالة على تضمين الكلام تشبيه اثنين باثنين: الداعي للايمان للمدعو من الكفار، بالداعي الى المراد للمدعو من الانعام. فلما أريد الايجاز، أُبقي مايدل على ما أُلقِي. فأبقي في الاول ذكر المدعو، وفي الثاني ذكر الداعي. ولو ترتب على ماقال السائل لبطل هذا المعنى"[2]. ومراده ان التشبيه في الاية، لو كان كما أراده السائل: مثل الذين كفروا كمثل الذي لايسمع دعاء ونداء،أو مثل الداعي الى الايمان كمثل الناعق بالانعام، لما دل على هذا التعدد الذي في طرفيه، ولا شعر أنه تشبيه شيء بآخر لاتشبيه شيئين بشيئين.

ويسمي الطوسي التشبيه المركب تمثيلاً، ويلحظ أنه لايراد به تشبيه شيء بشيء، بل يراد تشبيه حال بحال وصورة بصورة، او على حد تعبيره" فعل بفعل". فنراه في وقوفه عند آية البقرة(مَثَلهم كمَثَل الذي استوقد نارا فلما اضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم...)[3] يتساءل: كيف اضاف المثل الى الجمع ثم شبهه بالواحد في قوله" كمثل الذي استوقدوا ناراً "هلا قال: كمثل الذين استوقدوا ناراً"؟ ويجيب بأن ذلك جائز حسن، لانه جعله مثلاً لافعالهم وليس مثلاً لاجسامهم. وينظر له بقوله تعالى(تدور اعينهم كالذي يغشى عليه من الموت)، ويقدر المعنى: كدورِ أعيُنِ الذين يغشى عليه من الموت، ويقول:"لأن التمثيل وقع للفعل بالفعل". ثم يشير بعد ذلك الى التشبيه المفرد، كتشبيه جماعة من الرجال في تمام الخلق والطول بجماعة النخل، ويبين أن المطابقة العددية بين المشبه والمشبه به في مثل هذا لازمة ، فلا يجوز تمثيل الجماعة بالمفرد، بل تمثل الجماعة بالجماعة والمفرد بالمفرد، ثم يحلل التشبيه في الاية ليوضح الفرق بينهما فيقول:" والفرق بينهما أن معنى الاية:

---

(1) التبيان:٢/٧٧.
(2) التبيان ٢/٧٨-٧٩.
(3)البقرة:١٧.

أن مثل استضاءة المنافقين بما اظهروا من الاقرار بالله وبمحمد صلى الله عليه وآله، وبما جاء به قولا، وهم مكذبون به اعتقادا، كمثل استضاءة المُوقِد، ثم اسقط ذكر الاستضاءة واضاف المثل اليهم"[1]وبذلك بين لنا الطوسي الفرق بين اسلوب التشبيه المركب واسلوب التشبيه المفرد. وأهم من ذلك كله التفاته الى التشبيه الذي يكون فيه المشبه به خيالياً وهمياً، اذ وصفه بأنه " مُتصور"، ونظّر له ببعض الشواهد التي اعتمدها البلاغيون من بعد شاهداً له. فقال في آية البقرة: (مثلُ الذينَ يُنفِقونَ اموالهم في سبيلِ الله كمثلِ حبةٍ انبتتْ سبعَ سنابلَ في كلِّ سنبلةٍ مائةُ حبةٍ والله يُضاعفُ لمن يشاءُ)[2]:"فان قيل : هل رُئيَ في سنبلة مائة حبة حتى يضرب المثل بها؟ قيل عنه ثلاثة أجوبة: أولها أن ذلك متصوّر، فشبه لذاك وان لم يُر، كما قال امرؤ القيس: ومسنونةٍ زرقٍ كأنياب أغوال، وقال تعالى" طلعُها كأنه رؤوس الشياطين".[3]

ومما يجدر التنويه عنه أنه عدّ التشبيه مثل قولهم:" إذ هو الشمسُ ضياء استعارةً. ورأى أنه أبلغ من قولهم: هو كالشمس ضياء وهذا يعني أن الاستعارة عنده ابلغ من التشبيه.

ب-الحقيقة والمجاز:

وعنى الطوسي بمباحث علم البيان الاخرى من حقيقة ومجاز واستعارة. وقد رأيناه، عند الكلام على منهجه اللغوي، يذكر الدلالات اللغوية والشرعية والعرفية - الفلسفية والكلامية- للالفاظ، وهي التي تمثل جانب الحقيقة من دلالة اللفظ.[4].
ونضيف هنا بايجاز ماله تعلق بالحقيقة والمجاز. فالطوسي حين يوازن بين الحقيقة والمجاز، يرى أن المجاز أفضل من الحقيقة، الا أن أفضليته ليست مطلقة، بل هي نسبية تختص بموضوع دون آخر . وهو يفصح عن هذا الرأي اذ يقول" فان قيل: هلا كان القرآن كله حقيقة ولم يكن فيه من المجاز؟ فان الحقيقة أحسن من المجاز. قلنا: ليس الامر على ذلك فان المجاز في موضعه أولى وأحسن

---

(1)التبيان: ١/٨٤-٨٥.
(2)البقرة: ٢٦١.
(3)التبيان: ٢/٣٣٢.
(4)التبيان : ٣٨/٢.

من الحقيقة .ويرى ان هذه الافضلية النسبية تعود الى مافي المجاز" من الايجاز من غير اخلال بمعنى"، كالمبالغة بالاستعارة التي لاتنوب منابها الحقيقة[١].

والطوسي يحمل بعض ماقيل أنه مجاز على الحقيقة العرفية، وهي التي حددت بأن " يشتهر المجاز بحيث يكون استعمال الحقيقة منكراً[٢]. فالمعروف أن البلاغيين يعدون مثل قوله تعالى" تجري من تحتها الانهار" مجازا عقليا أو حُكميا، متأثرين بهذه التسمية بعبد القاهر الجرجاني.[٣]ويقدرون الكلام: مياه الانهار. والطوسي يقدر هذا التقرير ويقول"لان الماء هو الجاري دون الانهار"، ولكنه يعده حقيقة عرفية اذ يقول" غير أنه بعرف الاستعمال سقط عنه اسم مجاز، كما سقط من قولهم: هذا شعر امرئ القيس وان كان المراد أنه حكاية عنه"[٤].على حين يعد قوله تعالى" واسأل القرية" مجازا لامحالة لانه لابد فيه من تقدير أهلها.[٥]وكأنه يجعل التقدير في المجاز العقلي الذي من هذا النوع، ضابطا لتمييزه من الحقيقة العرفية.

وللطوسي آراء في الحقيقة والمجاز تتعلق بأصول البلاغة، منها: عدم قياسية المجاز. فلا يصح أن تقول مثلا: لاظلم الا على الظالمين، قياسا على قوله تعالى: (لاعدوان إلا على الكافرين)،" لان ذلك مجاز والمجاز لايقاس عليه عند أكثر المحصلين لئلا تلتبس الحقيقة بالمجاز"،[٦]، وهذا الحصر نسبي اذ هو متعلق بعصر الطوسي. لان معظم العلماء يقولون بقياسية المجاز والنقل، متى تحقق بين المعنيين العلاقات المقررة في علم البيان، مما جرت عادة العرب أن يعتمدوا عليه في تعبيرهم المجازي.[٧] ومنها أخذه عند الترجيح باستصحاب الاصل- وهو الحقيقة-، اذا احتمل الكلام وجهين احدهما حقيقة والاخر مجاز. وليس هناك من دليل قطعي على أن المتكلم أراد أحدهما.[٨]فيكون الرجوع الى المعنى الحقيقي رجوعاً الى الاصل واستصحاباً له. ومنها: أن المجاز يتعلق بالحقية وجوداً وعدماً،

---

(١)التبيان ٣٨/٣.

(٢)العلوي: الطراز ٥٢/١

(٣)دلائل الاعجاز ص ٢٨٦ وما بعدها وقد مثل له من التنزيل بقوله تعالى " فما ربحت تجارتهم".

(٤)التبيان٢٣٢/٣-٢٣٣.

(٥)التبان-٢٣٣/٣.

(٦)التبيان:١٤٨/٢.

(٧)وافي : فقه اللغة ص ٢٢٦.

(٨)التبيان:٦٨/٢-٦٩.

فاذا استحالت الحقيقة استحال المجاز، يقول تعليقا على آية يونس(قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه):" ولا يجوز اتخاذ الولد على الله على وجه التبني، لانه لما استحال حقيقة عليه استحال مجازه المبني عليها".[١] وهذا كما ترى يتعلق بتنزيه الخالق عن الشبيه والمثيل.

جـ المجاز العقلي:

تنبه الطوسي الى المجاز العقلي في غير موضع من التنزيل، والتفت الى بعض علاقاته. الا أنه لم يسمه مجازاً عقليا أو حُكمياً، كما سماه عبد القاهر ومن تابعه من البلاغيين، فنراه يلتفت الى المجاز العقلي الذي علاقته الاسناد الى الزمان، في قوله تعالى:(ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ماقدّمتم لهن)،[٢] فيقول " اضاف الاكل الى السنين لانها بمنزلة مايأكل ذلك، لوقوع الاكل فيها ، كما يكون الاكل في الآكل" ثم ينظّر له بقول الشاعر:

نهارُك يامغرورُ سهوٌ وغفلةٌ ** وليلُك نومٌ والردى لك لازمُ[٣].

ويشير الى المجاز العقلي الذي علاقته الاسناد الى الفاعل والمراد المفعول، كما في قوله تعالى(فهو في عيشة راضية) يقول" أي مرضية، ففاعل- ههنا- بمعنى مفعول".[٤].

جـ المجاز المرسل:

ووقف الطوسي مرارا عند المجاز المرسل، في آي التنزيل وأشار الى كثير من علاقاته، كالجزئية- وهي تسمية الشيء باسم جزئه- في مثل قوله تعالى(بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن) فبين انه " انما جاز(أسلم وجهه لله)[٥]، على معنى أسلم نفسه لله، على مجرى العرب في استعمال وجه الشيء وهم يريدون نفس الشيء. الا أنهم ذكروه باللفظ الاشرف الأنبه ودلوا عليه. كما قال" كل شيء هالك الا وجهه اي إلا هو، " ثم اجتج له ببيتين من الشعر احدهما للاعشى والآخر لذي الرمة.[٦].

---

(١)التبيان:٥/٤٠٦.
(٢) يوسف: ٤٨.
(٣) التبيان: ٦/١٥٠.
(٤)التبيان:١٠/٤٠٠.
(٥)البقرة:١١٢.
(٦)التبيان:١/٤١٢.

واشار الى المجاز المرسل الذي علاقته اعتبار ماكان، في وقوفه عند قوله تعالى(وآتو اليتامى أموالهم)[1]مستدلا عليه بحديث الرسول(ص)،ومنظرا له بقول العرب، اذ قال" وسماهم يتامى بعد البلوغ وايناس الرشد مجازا، لأن النبي(ص) قال: (لايتم بعد احتلام)، كما قالوا في النبي(ص): انه يتيم أبي طالب، بعد كبره، يعنون أنه رباه".[2]

وبالمثل التفت الى المجاز المرسل باعتبار مايؤول اليه الشيء، حين وقف عند آية هود(فأما الذين شقوا ففي النار)[3]، فقال" وانما سمي الشقي شقيا قبل دخوله في النار؛لانه على حال تؤديه الى دخولها من قبائح اعماله. وجعل منه قول النبي (ص): (إنَّ الشقيَّ شقيٌّ في بطن أمِّه)، وعلق عليه بقوله" لان المعنى: أنَّ المعلوم من حاله أنّ سيشقى بارتكاب المعاصي التي تؤديه الى عذاب النار،كما يقال لولد شيخ هرمٍ :هذا يتيمٌ ،ومعناه انه سيتيتمُ[4] .

وتنبه الى المجاز المرسل الذي علاقته المسببية في مثل الاية الكريمة (ولقد كنتم تمنَّون الموت من قبل ان تلقوه فقد رأيتموه وانتم تنظرون)[5]،فبين ان في رأيتموه حذفا ومعناه رأيتم اسباب الموت ،لأن الموت لايرى ،كما يقال الشاعر :

ومحلَّماً يمشون تحت لوائه *** والموتُ تحت لواءِ آلِ مُحلَّمِ[6]

الاستعارة:

اشار الطوسي الى الاستعارة القرآنية في مواضع من تفسيره ،واشاد بحسنها وروعتها في مثل قوله تعالى ،"واشتعل الرأس شيبا "،مبينا انها "من احسن الاستعارات" وان القرآن اراد بذلك ان الشيب انتشر في الرأس كما ينتشر شعاع النار[7] .وقد رأيناه سالفا ينظمها في سلك المجاز ،ونراه في وقوفه عند آية البقرة :(وانّ منها لما يهبط من خشية الله)[8]يعدها ضربا من المجاز اللغوي والتشبيه ،ملاحظا ما احدثته اضافة الخشية الى الحجارة ،من تشخيص لهذا

---

(1)النساء:٢.
(2)التبيان:١٠١/٣.
(3)هود: ١٠٦
(4)التبيان ٦٦/٦-٦٧.
(5)آل عمران:١٤٣.
(6)التبيان:٥/٣.
(7)التبيان:١٠٤/٧.
(8)البقرة:٧٤.

العنصر الصامت من عناصر الطبيعة ،واضفاء صفة الحي المدرك عليه .ومنظـــرا لها بآية" الكهف فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ"[1] . ونراه يـنزع الـى اعتبـار التعبير استعاريا في بعض الآي التي يصادم ظاهريا عقيدته كحرية الاختيـــار فـي الافعال وعدم الجبر ،فهو يحمل الختم في آية البقرة (ختم الله على قلوبهم)[2] علـى الاستعارة ويؤوله بالشهادة فيقول :أي شهد عليها بأنها لاتقبـل الحـق . ويقـول القائل :أراك تختم على كل ما يقول فلان ،اي تشهد به وتصدقه ،وقد ختمت عليـك بأنك لاتعلم ،اي شهدت ،وذلك استعارة[3] .فهو يلتفت هنا الى الاستعارة التصريحية التبعية ،اذ يجعل الشهادة على قلوب المنافقين مشـــبهة بـالختم عليـها،ويجـري الاستعارة في الفعل.

ويفطن الطوسي الى (الاستعارة العنادية) ،وهي التي تستعمل فـــي ضـد او نقيض ،اذ يستعار فيها الشي لضده[4] . فيقول تعليقا على قوله تعالى :(فبشـرهم بعذاب أليم) :أي ضعه موضع البشارة ويحتج بقول الشاعر :

اخافُ زيادا أن يكونَ عطاؤُهُ *** أداهم سُوْداً او مُحدرجةً سُمْرا[5]

ويلتفت الطوسي الى الاستعارة التمثيلية ،فيسميها مثلا وتمثيلا ،ملاحظـا ان من فائدتها تصوير المعنوي بصورة الحسي ،لتقريب المعنى وتوضيحه في الاذهـان ،ففي آية البقرة (فمن يكفرْ بالطاغوتِ ويؤمنْ بالله فقد استمسك بالعروة الوُثقـى لا انفصامَ لها)[6] ،يقول فالعروة الوثقى :الايمان بالله عن مجاهد ،وجـرى مجرى المثل لحسن البيان بإخراج ما لايقع به الاحساس الى ما يقـع بـه[7] .وفـي آيـة الشورى (تكادُ السمواتُ يتفطّرنَ من فوقِهنّ)[8] يقول ذلك على وجه التمثيل ليـس لأن السموات تفعل شيئا او تنكر شيئا ،وانمـا السـموات لـو انشـقت لمعصيتـه

([1])التبيان: ٣١١/١.
([2])البقرة: ٧.
([3])التبيان: ٦٣/١.
([4])السيوطي:الاتقان ٤٦/٢.
([5])التبيان: ٢١/٣.
([6])البقرة: ٢٥٦.
([7]) التبيان: ٣١٣/٢.
([8])الشورى: ٥.

استعظاما لها .اولشي من الاشياء ،لتفطرت استعظاما لكفر من كفر بالله وعبد معه غيره[١] .

الكناية والتعريض:

لم تتخذ (الكناية) في تفسير الطوسي طابعها البلاغي المعروف ،وانما اتخذت طابعا نحويا صرفا غير مشوب بأية لمحة بلاغية .وهو ما اثار استغرابا حقا ،اذ كانت الكناية معروفة بسمتها البلاغية في مؤلفات البلاغيين الذين سبقوا عصره ،كالجاحظ وابن المعتز وقدامة بن جعفر وابي هلال العسكري[٢] وغيرهم .اما (التعريض)، فهو عند الطوسي التعريض البلاغي المعروف . وقد اشار اليهما معا عند تفسير قوله تعالى (ولا جناحَ عليكم فيما عرّضتم به من خطبة النساء او أكننتم في أنفسكم)[٣]،فقال والفرق بين التعريض والكناية ،ان التعريض :تضمين الكلام دلالة على شي ليس يذكر فيه . والكناية :العدول عن الذكر الأخص بالشيء الى ذكر يدل عليه. فالاول كقول القائل :ما اقبح البخل ،يعرّض بأن المخاطب بخيل، ولعن الله الملحدين ،يعرّض له بالالحاد .والثاني ،كقولك :زيد ضربته كنيت عنه بالهاء الموجودة في : ضربته[٤] . فواضح انه اراد بالكناية الكناية بالضمير عن الظاهر .وهي ليست من الكناية البلاغية في شيء .

(٥)

علم البديع

لم تكن عناية الطوسي بموضوعات البديع مثل عنايته بموضوعات المعاني والبيان ،وكأنه وجد الميزة الكبرى لبلاغة القرآن واعجازه البلاغي تتجلى في هذين العلمين الهامين من علوم البلاغة .

وقد اشار من خلال تفسيره لآى الى المقابلة والازدواج والفواصل والاسجاع والمشاكلة والمجانسة والمطابقة والالتفات ونحوها من الموضوعات التي ادرجها المتأخرون ،كالسكاكي ،ضمن علم البديع .

---

(١)التبيان: ١/١٤٣-١٤٤.

(٢)ضيف : البلاغة تطور وتاريخ ص ٥٤، ٧٣، ٩٠، ١٤٢.

(٣)البقرة:٢٣٥.

(٤)التبيان:٢/٢٦٦.

المقابلة:

لم يكتف الطوسي في كلامه على المقابلة القرآنية بالوصف وبيان صور التقابل وكيفياته وانما شفعه في الغالب بالتعليل . او بعبارة اخرى بالسبب الذي من اجله قابل القرآن بين لفظتين اوعبارتين ،وله في ذلك ملاحظ ذات قيمة.ونلاحظ انه جعل التقابل ضربين:احدهما لفظي والآخر معنوي ،وذكر من التقابل اللفظي عدة صور. فمنه التقابل بين اسمين في مثل آية الانعام(ان ربك سريع العقاب) وانه (لغفور رحيم)[١]يقول" وانما قابل بين العقاب والغفران ولم يقابل بالثواب؛ لأن ذلك أدعى الى الاقلاع عما يوجب العقاب، لانه لو ذكر الثواب، لجاز أن يتوهم أنه لمن لم يكن منه عصيان".[٢] ومنه التقابل بين فعلين، لا من جهة المعنى ولكن من جهة الزمن. يقول في آية الانعام(فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة)[٣] :" وانما قابل بين لفظ الماضي في قوله(كذبوك) بالمستقبل في قوله، فقل" لتأكيد وقوع القول بعد التكذيب، اذ كونه جوابا يدل على ذلك".[٤]ومن ذلك التقابل بين تركيب وتركيب أو صورة وصورة، وقد نوه عنه في سورة المرسلات، اذ لاحظ التقابل بين صورة العذاب الحي التي دل عليها قوله تعالى في مخاطبة الكافرين(انطلقوا الى ظلٍّ ذي ثلاثِ شعبٍ* لا ضليلٍ ولا يُغني من اللهب).[٥]ويبين صورة النعيم الحسي لأهل الجنة، التي دل عليها قوله بعد ذلك بعشر آيات(ان المتقين في ظلال وعيون) فقال" وجاء الكلام- على التقابل- للكافرين من قوله (في ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولايغنى من اللهب)، مقابل أهل الجنة في ظل قصور الجنة واشجارها".[٦]

واشار الى التقابل المعنوي في وقوفه عند آية آل عمران:(وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) فقال" وانما قابل بين التمحيص والمحقق، لان محق هؤلاء باهلاك ذنوبهم، نظير محق أولئك باهلاك أنفسهم.وهذا مقابلة في

---

(١)الأنعام:١٦٥.
(٢)التبيان :٣٣٩/٤.
(٣)الانعام:١٤٧.
(٤)التبيان:٣٠٨/٤.
(٥)المرسلات: ٣١،٣٠.
(٦)التبيان:٢٣٥/١٠.

المعنى".[1]ونلاحظ هنا أن التقابل المعنوي اتخذه عنده شكل التناظر بين **معنيين**، على حين اتخذ التقابل اللفظي، كما رأيناه آنفا، شكل التضاد، وكأنه ذهب **في هذا** مذهب أبي هلال العسكريِ، من أن المقابلة لفظية ومعنوية وأنها تكون" **على جهة** الموافقة أو المخالفة"[2]، الا أنه يخالفه في التمثيل؛ اذ جعل أبو هلال **اللفظية من** قبيل مابين" نُورثُ"و" ورثَ".[3]وهذا من التجنيس عند الطوسي.

المشاكلة:

يرى الطوسي أن الكلام مع المشاكلة أبلغ[4]، ويسميها المزاوجة، **ويجريها** فيما يدل على الجزاء من العبارات، متابعا في ذلك المبرد[5]والرماني[6]. **ففي قوله** تعالى(ومكروا ومكر الله والله خيرٌ الماكرين)،[7] يذكر أن في معنى **الاية قولين:** الثاني(مكروا)" باضمار الكفر" (ومكر الله)بمجازاتهم عليه بالعقوبة" **ثم يقول**" والمكر وان كان قبيحا، فانما اضافة تعالى الى نفسه لمزاوجة الكلام، **كما قال(فمن** اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم)،وليس باعتداء وانما **هو جزاء،** وهذا أحد وجوه البلاغة[8]ويسمى المزاوجة في بعض المواضع ازدواجا، **اذ يذكر** في آية النساء:(ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم)، ان معنى **الخداع من الله** يحتمل أمرين" احدهما أن يجازيهم على خداعهم. فسمى **الجزاء باسم الشيء** للازدواج، كما قال(وجزاء سيئة سيئة مثلها)، والجزاء ليس بسيئة، **وقال (ومكروا** ومكر الله)، والله لايمكر، غير انه يجازي عليه".[9]

الفواصل والاسجاع:

وعُني الطوسي بالفاصلة القرآنية، واشار الى حسن موقعها **في الآي،** وتناسقها معنويا مع ماقبلها من الكلام، بحيث لاتغني عنها لفظة أخرى. **وكان**

---

(1)التبيان: ٣/٣.

(2)العسكري: الصناعتين ص ٣٤٦.

(3)المصدر نفسه: المكان نفسه.

(4)التبيان:٢/١٤٨.

(5)ما اتفق لفظة واختلف معناه ص ١٣ وما بعدها.

(6)النكت في اعجاز القرآن ص ٩٩.

(7)آل عمران:٥٤.

(8)التبيان:٢/٤٧٦.

(9)التبيان:٣/٣٦٥.

لايقنع بالوصف دون التعليل، يقول في آية البقرة(قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى): " ولو وقع موقع" حليم" حميد" أو " عليم"، لما حسن، لانه تعالى نهاهم ان يتبعوا الصدقة بالمن، وبين أنهم ان خالفوا ذلك فهو غني عن طاعتهم، حليم في ان لايعاجلهم بالعقوبة".[1]

وفرق الطوسي بين الفواصل والاسجاع في التسمية والوصف، فلم يسمها اسجاعا ولم يجعلها كسجع الكهان في الخصائص والصفات، كما فرق بينهما وبين القوافي الشعرية. ففي تفسير آيتي الحاقة:(وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون* ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون).[2]يقول" فالكاهن: هو الذي يسجع في كلامه على ضرب من التكلف لتشاكل المقاطع، وهو ضد ماتوحبه الحكمة في الكلام، لانها تقتضي أن يتبع اللفظ المعنى، لانه انما يحتاج الى الكلام للبيان به عن المعنى.وانما البلاغة في الفواصل التي يتبع اللفظ فيها المعنى. فتشاكل المقاطع ثلاثة اضرب" فواصل بلاغة وسجع كهانة وقواف تتبع الزنة".[3]

فواضح ان الطوسي جعل سجع الكهان معيبا لكونه متكلفا لايراعي المعنى، وانما يراعي التناسق الموسيقي بين أواخر الالفاظ. وبذلك أخلاه من سمة البلاغة، على حين أثبتها للفواصل لانها تتبع المعنى وتراعيه. ويكاد رأيه هذا يقرب من رأي الرماني، لولا ان الرماني يعمم العيب على الاسجاع كلها؛ اذ يقول" الفواصل بلاغة والاسجاع عيب" [4]، على حين يخصصه الطوسي بسجع الكهان كما هو جلي من كلامه السالف. وهذا جيد، لان سجع النبي(ص)[5]والخلفاء الراشدين[6] وبلغاء العرب والمسلمين، مغاير تماما لسجع الكهان؛ لأنه يأتي عفو الخاطر ولا يحيف على المعنى. ولعل الطوسي يعد هذا الضرب من السجع من قبيل الفواصل، بعد أن ميزها من سجع الكهان ووصفها عموما بالبلاغة.

---

(1)التبيان: ٢/٣٣٥.
(2)الحاقة: ٤١، ٤٢.
(3)التبيان: ١٠/١٠٩.
(4)الرماني: النكت في اعجاز القرآن ص ٩٧ وقد نقد ابن سنان عليه هذا الاطلاق والتعميم. وبين ان من الاسجاع ماهو محمود ان خلا من التكلف. انظر سر الفصاحة ص ١٦٤-١٦٥.
(5)انظر في الصناعتين ص ٢٦٧ نماذج من سجع النبي(ص).
(6)انظر في نكت الانتصار للباقلاني بعض الاسجاع المستحسنة، مروية عن أبي بكر الصديق ص ٢٦٦.

وينوه الطوسي بالتلاؤم الموسيقي بين الالفاظ بصورة متعددة، فهو يرى مثلا أن القرآن قد يحدث تغييرا في روي الفاصلة، لتنسجم مع أخواتها في بقية الآيات.وهنا يجعل التقاء بينهما وبين القافية، مع احتفاظها طبعا بصفة البلاغة، التي ميزها بها من القافية، من حيث ان الاخيرة تتبع الزنة فلا تتقيد أحيانا بالمعنى. فنراه مثلا يلحظ أن (مواقيت) لم تصرف في آية البقرة(قل هي مواقيت للناس والحج)[1]وصرفت (قوارير) في آيتي الانسان(ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا* قواريرا قدّروها تقديراً) فيعلل ذلك بقوله" لان(قوارير) فاصلة في رأس آية فصرفت لتجري على طريقة واحدة في الآيات كالقوافي".[2]ويلحظ أن الياء اثبتت في " اتبعوني" في قوله تعالى(قل ان كنتم تحبون الله فاتّبعوني يحببكم الله)،[3] وحذفت من " اطيعوني" في قوله تعالى(فاتقوا الله وأطيعون)، فيرى أن الحال مختلفة في الموضعين؛ اذ إن الاولى" وسط آية" والثانية" رأس آية نوي بها الوقف، لتشاكل رؤوس الآي، لان سبيل الفواصل سبيل القوافي".[4]يريد في اتزان حروف الروي وتلاؤمها في الجرس. وكان ابن سنان يذهب الى أنهم حذفوا الياء من (يسري) و (الوادي) للموافقة في الفواصل[5].والضرب الآخر من المشاكل، وهو الخاص بغير الفواصل، يكون التغيير فيه بالعدول عن صيغة الى أخرى، لتكون الالفاظ متناسقة في الوزن منسجمة في البنية، ففي قوله تعالى(فلعلك تارك بعض مايوحي اليك وضائق به صدرك)[6]، يقول: و(ضائث) و(ضيق) واحد، الا أن (ضائق) هنها أحسن لمشاكلته لقوله (تارك)[7]. وهو ملحظ شكلي كما ترى، والذي يبدو لنا أن هذا الاستعمال متعلق بالمعنى، لما في (ضائق) من دلالة تختلف عن (ضيق)، اذ إن ضيق صفة مشبهة وهي تفيد ثبوت الصفة للموصوف، وظاهر الآية يشعر بأن ذلك الضيق موقوت

([1])البقرة:١٨٩.
([2])التبيان :١٤١/٢.
([3])آل عمران:٣١.
([4])التبيان:٤٣٨/٢.
([5])ابن سنان: سر الفصاحة ص ١٦٥-١٦٦.
([6])هود:١٢.
([7])التبيان:٤٥٦/٥.

بحالة معينة وظروف خارجية آنية، ولذلك عبر عنه القـــرآن باســم الفـــاعل دون الصفة المشبهة.

المجانسة:

اشار الطوسي استطراد اشارة عابرة الى الجناس والطباق في تفسير آيـــة آل عمران:(ومكروا ومكـــر الله والله خـــير المـــاكرين)، فبيـــن ان المجانســـة نحـــو قوله(يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار)، وأن المطابقة نحو قولـــه(مـــاذا أنزل ربكم قالوا خيرا)، بالنصب على مطابقة الجواب للسؤال"[1]، حتى اذا بلغ آيـــة الروم(فأقم وجهك للدين القيّم)، عاد الى ذكر الجناس ثانية، مـــوردا مزيـــدا مـــن الشواهد القرىنية. فبين أن الكلام في الآية" مجانس فيـــه للبلاغـــة" وأنـــه مثـــل قوله(انصرفوا صرف الله قلوبهم) وقوله(يوما تتقلـــب فيـــه القلـــوب والابصـــار) وقوله(يمحق الله الربا ويربي الصدقات)[2]وهذا يعني أن مفهوم التجانس عنده هـــو نفس رآه البلاغيون الاوائل الذين سبقوه كالرماني [3]، أو عاصروه كـــالبلاقلاني[4]، وابن سنان الخفاجي،[5]وعبد القاهر الجرجاني[6]، وهو ما أخـــذ بـــه المتـــأخرون قاطبة. على حين كان مفهوم المطابقة عنده أشبه بالتناسب، اذ عدها التوافق بيـــن الجواب والسؤال، وهو مفهوم مشوب بالغموض، فضلا عن مغايرتـــه لمـــا عليـــه البلاغيون، لأنهم لايختلفون في أن المطابقة في الكلام هي الجمـــع بيـــن الشـــيء وضده[7]...

الالتفات:

الالتفات في نظر الطوسي ضرب من التصرف في الكلام، واسلوب معـــروف في كلام العرب،[8]وله في تفسيره صورة متعددة نشرها في غير موضوع منه. مـــن ذلك الالتفات من الغيبة الى الخطاب، نوه به في وقوفه عند آية البقرة(واذ أخذنـــا

---

(1)التبيان:٢/٤٧٦.

(2)التبيان:٨/٢٥٨.

(3)النكت في اعجاز القرآن ص ١٠٠.

(4)نكت الانتصار ص ٢٦٢.

(5)سر الفصاحة ص ١٨٣-١٨٦.

(6)دلائل الاعجاز ص ٤٥٦ واسرار البلاغة ص ٤.

(7)العسكري: كتاب الصناعتين ص٣١٦ وقارن بقول الجرجاني في اسرار البلاغة ص ١٤.

(8)التبيان:١/٣٢٧.

ميثاق بني اسرائيل لاتعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذوي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا)[1]؛إذ لاحظ أنه قال- في قراءة من قرأ بالياء- (لاتعبدون) ثم عدل الى خطابهم فقال(وقولوا للناس حسناً)، فبين أن " العرب تفعل ذلك كثيراً" وأنهم" انما استخاروا ان يصيروا الى المخاطبة بعد الخبر، لان الخبر انما كان عمن خاطبوه بعينة لا من غيره"[2]ومراده أن المقصود بكلامهم في الحالين واحد ، ولهذا التفتوا. ومن ذلك الانتقال من الخطاب الى الغيبة. ففي آية يونس:(حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم) يقول" عدل عن الخطاب الى الاخبار عن الغائب تصرفاً في الكلام"[3]ومنه الالتفات من التكلم الى الغيبة في مثل آيتي البقرة:(ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين، إذ قال له ربه اسلم)،يقول" وانما قال: (اصطفيناه) على لفظ المتكلم، مع قوله(اذ قال له ربه)، على لفظ الغائب، للتصرف في الكلام، كما قال:

باتتْ تَشَكّى[4]إلي النفسُ مجهشةً***وقد حملتكِ سبعاً بعدَ سبعينا[5]

وبيت لبيدهذا يصلح أن يكون شاهداً للنوع الاول، وان كان التفاتا لأنه اخبرنا ثم خاطبها، كما هو واضح. وبذا ننهي بحثنا عن البلاغة في تفسير الطوسي، متوخين فيما أوردناه الايجاز دون بسط الكلام وتكثير الشواهد على كل وجه بلاغي أو التفريع في المقاربات ونحو ذلك..

([1])البقرة:٨٣.

([2])التبيان: نفس المكان.

([3])التبيان:٥/٣٦٠.

([4])في الاصل:(تشكى) بالياء. ةلاصحيح ماثبتناه لان الاصل: تتشكى، ثم حذت احد التاءين تخفيفا.

([5])التبيان:١/٤٧١-٤٧٢.

نتائج البحث :

(١)دلني البحث في حياة الطوسي على أن أبا جعفر محمد بن الحسن الطوسي المفسر الامامي، ولد في مدينة طوس حراسان سنة ٣٨٥ للهجرة وتلقى دراساته الاولى فيها، وانتقل الى بغداد طلبا للعلم سنة ٤٠٨ للهجرة فأخذ من كبار العلماء الاماميين والسنيين، واستقل بالإمامة العلمية لجماعة الامامية، بعد وفاة أستاذه المرتضى سنة ٤٣٦ للهجرة. وانتقل الى النجف عند نشوب الفتنة سنة ٤٤٨ هـ، وتوفي فيها سنة ٤٦٠ للهجرة، تاركا آثارا علمية متنوعة الموضعات: في الحديث والتفسير، والفقة واصوله، والعبادات، والادعية، والعقائد، وعلم الكلام، والتراجم والسير. وتبين لي أن الطوسي كان واسع الثقافة متنوع المعرفة، معتدلا في تشيعه، له عدد كبير من التلاميذ، وترك طائفة منهم آثارا علمية عديدة.

(٢)ودلني البحث في (تفاسير الامامية قبل الطوسي)، على أن الطوسي تقدمته عدة تفاسير للامامية، عنيت بالمأثور عن الأئمة وبعض الصحابة والتابعين، من أقدمها التفسير المنسوب للامام الحسن العسكري. وقد استبعدت أن يكون له، لضعف مادته العلمية. وركاكة اسلوبه، ولما فيه من غلو لايلائم اعتقاد الامام العسكري ولتعارض طائفة من رواياته مع ماروي عن بقية الائمة. ومنها تفسير القمي وتفسير العياشي وتفسير فرات الكوفي. وقد تبين لي أن هذه التفاسير كثيراً ماتنسب إلى الائمة تأويلات بعيدة عن ظاهر النص القرآني وروحه وسياقه، ولا أرى أنها صحيحة النسبة اليهم ولهذا لم أتناوله في الكتاب بالدرس وتنسب اليهم مقدمات في علوم القرآن والتفسير ذات اهمية وتأويلات للآي قريبة من المظاهر، يمكن نسبتها في رأيي اليهم. كما دلني البحث على أن الشريفين الرضي والمرتضى نحوا في تفسير الآي نحوا جديدا، في مناهج التفسير عند الامامية، عنيا فيه بالعقل واللغة والبلاغة، نتيجة للحياة العقلية التي ازدهرت في القرن الرابع الهجري، ولعنايتهما بتراث المعتزلة الفكري.

(٣)وتبين لي من البحث في (مصادر الطوسي في تفسيره) أنه رجع في تحريره إلى مصادر كثيرة متنوعة، فاعتمد من كتب معاني القرآن على كتاب الفراء والاخفش وأبي عبيدة والمفضل بن سلمة والزجاج. واعتمد في معرفة الروايات المنسوبة إلى الائمة على تفاسير شيعية قديمة، وهي تفسير ابي الجارود الزيدي وتفسير القمي وتفسير العياشي. كما اعتمد على تفاسير غير شيعية في

مقدمتها تفسير الطبري الذي اقام على رواياته في التفسير وأسباب النزول والنسخ هيكل تفسيره. واستقى منه أكثر ما أورده من الروايات المأثورة عن النبي(ص) والصحابة والتابعين، وعني بآرائه ومقولاته في التفسير واللغة والنحو. ورجع إلى تفاسير عدة للمعتزلة، مثل تفسير أبي علي الجبائي وأبي القاسم البلخي وابي مسلم الاصفهاني وعلي بن عيسى الرماني. واعتمد في ايراد الاحاديث النبوية على كتب شيعية مثل كتاب الأموال لمحمد بن علي الصدوق، ومحمد بن محمد بن النعمان المفيد، كما اعتمد على كتب سنية كثيرة مثل مسند الامام احمد بن حنبل، وكتب الصحاح، وتفسير الطبري الذي استقى منه جل ما أورده من أحاديث. واعتمد من كتب السير على كتاب السيرة لابن اسحق والمغازي للواقدي، فنقل منها شيئاً من أسباب النزول من التفسير. ورجع في بيان القراءات المشهورة وتوجيهها والاحتجاج لها، إلى كتاب القراءات وعللها لابن خالويه، والحجة للقرأة السبعة للفارسي. وكان رجوعه إلى الكتاب الثاني أكثر، اذ اعتمد عليه من بداية تفسيره. واعتمد على كتب في اللغة والنحو في مقدمتها كتاب العين المنسوب للخليل بن احمد، كتاب سيبويه، وجمهرة اللغة لابن دريد، وتهذيب اللغة للأزهري. وتبين لي أن الطوسي كان يلون منهجه في الإفادة من هذه المصادر، فقد يورد نص الكلام الذي ينقله كاملا، أو يجتزئ ببعضه دون بعض، أو يأخذ معناه دون أن يلتزم بألفاظه، أو يذكره من غير عزو. وبنيت ملاحظاتي هذه، على دراسة مقارنة معززة بنصوص الكتب التي رجع اليها الطوسي، مطبوعة كانت أو مخطوطة، ونصوص المصادر التي نقلت عن تلك الكتب عند عدم وجودها.

(٤)واتضح لي من البحث في (مادة التفسير) أن الطوسي عني بالمنقول عن الرسول(ص) والصحابة والتابعية عناية فائقة لم يسبقه اليها مفسر امامي، وانه كان يدرس الاحاديث النبوية دراسة علمية، ينقد فيها الاسانيد والمتون ويختار من المنقول عن الصحابة والتابعين على أسس متنوعة، أهمها الاجماع، والاحتكام إلى النص القرآني، واللغة، وسبب النزول. ويعني بالمنقول في أسباب النزول والمبهمات القرانية والناسخ والمنسوخ. كما يعنى بالمنقول عن الائمة فيورده غالبا ف خاتمة المنقول عن الصحابة والتابعين، الا أنه، فيما تبين لي لم ينقد أسانيد الروايات المنسوبة إلى الائمة، مع أنها مسندة في عصره، وهو متمكن من نقدها. وكان يوازن بين هذه المنقولات فيقبل بعضها ويرفض بعضاً، ويرجع

مايراه اكثر قوة، بأدلة متنوعة منها جودة المعنى ومواءمة اللغة، والقرب من الظاهر. وعني ايضا بتفسير القرآن بالقرآن في مواضع عديدة من تفسيره، وخاصة في نفي التعارض بين الآي، وتأويل المتشابه وتفصيل المجمل، وعمد إلى التفسير العقلي والتأويل، بعد أن انتصر للتفسير بالرأي في مقدمة تفسيره واحتج له بظواهر عدد من الآي، فأخذ بالقياس العقلي، وأنواع من القياس الشرعي، وحدد كثيرا من الالفاظ القرآنية تحديدا منطقيا كلاميا، وفسر بعض ماعده أكثر المفسرين متشابها، وخصص العام بدليل العقل واستنبط احكاما فقهية منم القرآن، وعني باستدلالا الفلسفي، وناقش كبار المتعزلة كابي القاسم البلخي وأبي علي اجبائي، بأساليب كلامية، واهتم بقضايا العلم الطبيعي، وما يتعلق بعناصر الطبيعة وظواهرها من حقائق علمية. مثل تكون السحاب وكروية الارض. وأورد بعض الاسرائليات، ورفض منها ماصادم العقيدة الاسلامية.

(٥)وتبين لي من البحث في (القراءات واللهجات)، أن الطوسي عني بالقراءات القرآنية واللهجات العربية عناية لم يتقدمة فيها مفسر امامي، وأنه أورد قراءات لكثير من الصحابة والتابعية وأهل، البيت، كما عني بالقراءات العشر المشهورة، فذكر قراءها ورواتها وطرقها، ووجهها واحتج لها، ووازن بينها على أسس متنوعة ، كاللغة والنحو والبلاغة والقراءات، كما عني بالقراءات الشاذة وبين وجوه شذوذها: من مخالفة للمجمع عليه وشرود عن سنن اللغة وأساليبها، ومجافاة لقواعد النحو والصرف، الا أنه مع ذلك لم يعدم توجيهها والاحتجاج لها، وبيان موافقة بعضها لمعاني القراءات المشهورة. ايمانا منه بأن القراءات الشاذة كثيرا ماتحتفظ بأكثر من صفة من صفات القراءة المشهورة. ولاحظت أن الطوسي لم يعد القراءات الثلاث بعد السبع شاذة، بل اعتد بها ، فأوردها مع السبع في غير موضع من تفسيره. وتبين لي أن الطوسي عني باللهجات العربية، وربطها بالقراءات القرآنية، وعزا كثيرا منها إلى القبائل التي نطقت بها، واحتج لطائفة منها بالمنقول من كلام العرب وخاصة الشعر، وارجعها إلى ظواهر لهجية متعددة، كاختلاف القبائل في الحركات والسكنات ، والابدال والقلب المكاني، وتباين صيغ الافعال والمشتقات، والمد والقصر، وتسهيل الهمز والادغام، والامالة.

(٦)ودلني البحث في (اللغة والنحو) على أن الطوسي عني بتفسير الألفاظ القرآنية تفسيرا لغويا، مشيرا إلى أصول اشتقاقها، ونظائرها او نقائصها في

العربية، وكان يستشهد في أثناء ذلك بأقوال كبـــار اللغويين كـــالخليل وسـيبويه والكسائي والفراء والاخفش وابي عبيدة والمبرد والزجاج وابن دريد والازهـــري، ويمزج اللغة والكلام أحياناً، ويشير إلى المعاني الاصطلاحيـــة للالفـــاظ القرآنيـــة، ويعتمد بظاهر القرآن كثيراً، فيلغى التفسير الباطني والرمزي، ويستبعد أن يكـــون للقرآن بواطن لايعلمها الا قوم مخصوصون، وذلك مايجعله، فـــي رأيـــي، يخطـــو بالتفسير عند الإمامية خطوة هامة، ويبين الالفاظ المشتركة في التـــنزيل، ويشـــير إلى معانيها المتعددة، كما يبين الاضداد ويناقش بعض المعتزلـــة فيـــها. ويفـــرق معنويا بين الالفاظ القرآنية التي يظن انها بمعنى واحد. ويشير إلى مفهوم بعـــض الالفاظ في اللغة ومفهومها في استعمال القرآن، والـــى تطـــور الـــدلالات بكـــثرة الاستعمال والى الاصل الحسي والمعنوي للالفاظ التي يفسرها. الا أن كلامـــه فـــي هذه المسألة لم يسلم من الاضطراب، اذ يجعل الحسي أصلا للمعنوي، أو العكـــس، هو يعني بالشواهد اللغوية المتنوعة ، فيستشهد بالقرآن الكريم، والحديث النبـــوي الشريف، وكـــلام العـــرب مـــن شـــعر ونـــثر، ويعتمـــد بأشـــعار القدامـــي دون المولدين،ويعرب كثيرا من الالفاظ والتراكيب القرآنيـــة مبينـــا وجوهـــها النحويـــة المتباينة. ويلحظ السياق عند الاعراب، ويجعل الاعراب تابعـــا للمعنـــى، بحـــروف المعاني، ويضع قواعد نحوية وصرفية عامة، الا أن اعرابه لم يسلم من المـــهنات. وهو يعني بأصول النحو وأدلته المنقولة والمعقولـــة، فيستشـــهد لوجـــوه النحـــو بالقرآن الكريم والقراءات، وبالشعر العربي القديم، وبأمثال العرب، ويُعنى بالقيـــاس واستصحاب الحال، وهو يستعمل المصطلحات النحوية الشائعة في عصره ويذهـــب في النحو مذهب البغداديين، فيختار من مدرستي البصرة والكوفـــة دون ان يلـــتزم بآراء ومصطلحات احدى المدرستين.

٧)ودلني البحث في (البلاغة وفنونها، على أن الطوســـي) عنـــي ببلاغـــة القرآن الكريم وفسر اعجازه بأربعة أمور: أخبار القرآن على الغيـــوب والحـــوادث المستقبلية وتضمنه لقصص الاوليين وأنباء الماضين، وســـلامته مـــن التنـــاقض والاختلاف وأخيرا وهو المتعلق باعجازه الادبي: نظمة وحسن ترصيفـــه وتأليفـــه وفصاحته وبلاغته. وقد عرف البلاغة مستمدا من الرماني وأبى هلال العســـكري، واشاد ببلاغة القرآن وفصاحته، وعني بموضوعات(علم المعـــاني)، فأشـــار إلـــى الخبر والانشاء وبين كثيرا من معانيهما الاضافية، وعني بالفصل والوصـــل بيـــن

الجمل القرآنية، والتقديم والتأخير، والايجاز والاطناب، ووضع الظاهر موضع المضمر أو العكس واستعمال الافعال بصيغ معينة لمعان معينة، والتغليب بأنواعه. كما عني بموضوعات (علم البيان) فأشار إلى بعض قواعد التشبيه المفرد، والتشبيه الخيالي أو الوهمي. وعرض للحقيقة والمجاز، واشار إلى الحقيقة العرفية وعرض لبعض اصول البلاغة، فمنع قياسية المجاز. وأخذ باستصحاب الأصل. كما اشار إلى المجاز العقلي، والمجاز المرسل بأنواعه، والاستعارة التصريحية والعنادية والتمثيلية، والكناية والتعريض، الا أن الكناية عنده، لم تتجاوز مفهومها النحوي. وذكر من موضوعات (علم البديع): المقابلة والمشاكلة والفواصل والأسجاع والمجانسة، والالتفات. واحتج للوجوه البلاغية المختلفة، بكثير من الاشعار العربية القديمة. فكان تفسيره لذلك أجمع تفاسير الامامية كافة. لمواد التفسير وعلوم القرآن، ومما يتعلق بهما من لغة ونحو وصرف وبلاغة، مما يجعله حربا بأن يأخذ مكانه بين التفاسير الجيدة الاصلية، التي تنبغي العناية بها، لانها من تراثنا الاسلامي والعربي، الذي نعتز به ونفخر بالمحافظة عليه. ولم يمنعنا ذلك كله من نقد بعض مافيه من آراء ووجهات نظر سواء تعلقت بوجوه التأويل أو باللغة أو بالنحو... فليس نقدنا انتقاصا منه، ولكنه تقويم لما فيه، وفتح لباب النظر في مواده على أسس علمية موضوعية بعيدة عن التعصب الذي مرده الاعجاب. وتقبل كل مايكتبه اسلافنا،من غير تأمل وتمحيص.

المصادر والمراجع

١ ابن الأثير: ابو الحسن علي بن أبي الكرم: الكامل في التاريخ، دارصادر ودار بيروت للطباعة والنشر - بيروت سنة ١٣٨٦ هـ ١٩٩٦م.

٢ ابن الانباري ابو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد: الاعراب في جدل الاعراب. بتحقيق سعيد الأفغانين الطبعة الثانية، دار الكفر للطباعة والنشر - بيروت سنة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

٣ = = البيان في غريب اعراب القرآن. بتحقيق الدكتور طه عبد الحميد ومراجعة مصطفى السقا، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر - القاهرة سنة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

٤ == لمع الادلة في أصول النحو. طبع مع رسالة الاغراب في جدل الاعراب.

٥ = = نزهة الالباء في طبقات الادباء. بتحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، مطبعة المدني - القاهرة. لم تذكر سنة الطبع.

٦ ابن تغري بردي: جمال الدين يوسف الأتابكي:
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - القاهرة سنة ١٩٦٣م.

٧ ابن تيمية: تقي الدين احمد بن عبد الحليم:
مقدمة في أصول التفسير. بتحقيق الدكتور عدنان زرزور. الطبعة الثانية، دار القرآن الكريم الكويت سنة ١٩٧٢.

٨ ابن الجزري: احمد بن محمد بن محمد:
شرح طيبة النشر في القراءات العشر. الطبعة الاولى ن مطبعة الحلبي - القاهرة سنة ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م.

٩	ابن الجزري:	أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي: تحبير التيسير في قراءات الائمة العشر بتحقيق عبد الفتاح القاضي ومحمد الصادق قمحاوي. الطبعة الاول . مطبعة النهضة الجديدة - القاهرة سنة ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.
١٠	ابن الجزري:	غاية النهاية في طبقات القراء: بشرح برجستراسر صورة بالاوفست لطبعة القاهرة سنة ١٣٥١ هـ- ١٩٣٢م.
١١	= =	النشر في القراءات العشر. بتصحيح ومراجعة على محمد الضباع. مطبعة مصطفى محمد على مصر سنة ١٩٢٦م.
١٢	ابن جني:	ابو الفتح عثمان: التصريف الملوكي. بتحقيق محمد سعيد النعسان، الطبعة الثانية، دار المعارف للطباعة- بيروت سنة ١٣٩٠هـ- ١٩٧٠ م.
١٣	=	الخصائص. بتحقيق محمد على النجار، الطبعة الثانية. دار المهدي للطباعة والنشر- بيروت لم تذكر سنة الطبع.
١٤	==	المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها.بتحقيق على النجدي ناصف ورفيقيه، لجنة احياء التراث الاسلامي- القاهرة سنة ١٣٨٦هـ- ١٩٦٦م.
١٥	= =	المنصف. بتحقيق ابراهيم مصطفى وعبد الله أمين، مطبعة الحلبي القاهرة، سنة ١٣٧٩هـ- ١٩٦٠م.
١٦	ابن الجوزي	أبو الفرج عبد الرحمن بن علي: المنتظم في تاريخ الملوك والامم. الطبعة الاولى. مطبعة دائرة المعارف العثمانية- حيد اباد الدكن سنة ١٣٥٧ هـ.
١٧	ابن حزم	ابو محمد على بن حزم الظاهر: الإحكام في أصول الأحكام ، الطبعة الثانية. مطبعة العاصمة- القاهرة. لم تذكر سنة الطبع

١٨ ابن حنبل: الامام احمد:
الرد على الزنادقة والجهمية. ضمن كتاب: عقائد السلف، بتحقيق الدكتور علي سامي النشار وعمار جمعي الطالبي. دار المعارف للطباعة والنشر- مصر سنة ١٩٧١ م.

١٩ = = مسند الامام احمد. شرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف للطباعة والنشر- مصر سنة ١٣٦٦هـ- ١٩٤٧م.

٢٠ ابن خالويه: الحسين بن احمد بن أبي عبد الله:
القراءات وعللها. نسخة مصورة عن مكتبة مراد ملا، معهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية- القاهرة. رقم ٥٢ قراءات.

٢١ = = مختصر في شواذ القرآن، نشر برجستراسر، صورة بالاوفست لطبعة المطبعة الرحمانية، بمصر سنة ١٩٣٤م.

٢٢ ابن خلكان: شمس الدين احمد بن محمد:
وفيات الاعيان، بتحقيق محيي الدين عبد الحميد الطبعة الاولى، مطبعة السعادة- مصر سنة ١٩٤٨م.

٢٣ ابن دريد محمد بن الحسن
جمهرة اللغة . الطبعة الاولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية- حيد اباد الدكن سنة ١٣٤٥هـ.

٢٤ ابن أبي ربيعة عمر:
الديوان. بشرح محمد العناني، مطبعة السعادة- مصر سنة ١٢٣،هـ

٢٥ ابن سنان محمد بن عبد الله بن محمد الخفاجي:
سر الفصاحة. بتحقيق علي فودة ، الطبعة الاولى، المطبعة الرحمانية- مصر سنة ١٣٥٠ هـ ١٩٣٢م.

٢٦ ابن سيدة: ابو الحسن علي بن اسماعيل الاندلس:
المخصص، الطبعة الاولى، مطبعة بولاق سنة ١٣١٦هـ.

٢٧ ابن شهر آشوب: محمد بن علي المازندراني:
معالم العلماء. راجعه وقدم له محمد صادق بحر العلوم، المطبعة الحيدرية- النجف سنة ١٣٨٠هـ - ١٩٦١ م.

٢٨ ابن الصلاح: ابو عمرو عثمان بن عبد الرحمن:
مقدمة في علوم الحديث. مطابع أوفست كونوغرافير- بيروت سنة ١٩٣٢هـ- ١٩٧٢م.

٢٩ ابن عطية عبد الحق بن غالب:
مقدمة المحور الوجيز. ضمن كتاب: مقدمتان في علوم القرآن، نشر آرثر جفري. الطبعة الثانية، مطبعة الصاوي- القاهرة سنة ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.

٣٠ ابن العماد ابو الفلاح عبد الحي الحنبلي:
شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتب التجاري - بيروت.

٣١ ابن فارس احمد:
الصاحبي في فقه اللغة. مطبعة المؤيد- القاهرة سنة ١٣٢٨هـ- ١٩١٠م.

٣٢ ابن قاضي شهبة طبقات النحاة واللغويين، بتحقيق الدكتور محسن غياض، مطبعة النعمان- النجف سنة ١٩٧٤.

٣٣ ابن قتيبة ابو محمد عبد الله بن مسلم:
تأويل مشكل القرآن، بتحقيق السيد احمد الصقر، الطبعة الثانية، مطبعة الحضارة العربية- القاهرة سنة ١٣٩٣ هـ-١٣٩٣ -١٩٧٣م.

٣٤ = = المعارف. تحقيق الدكتور ثروت عكاشة مطبعة دار الكتب- القاهرة سنة ١٩٦٠م.

٣٥ ابن كثير عماد اسماعيل الدمشقي:
الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث. دار الفكر- بيروت. لم تذكر سنة الطبع

٣٦ = = تفسير القرآن العظيم. الطبعة الاولى مطبعة المنار- القاهرة سنة ١٣٤٧ هـ--

٣٧ = = البداية والنهاية. الطبعة الاولى، مكتبة المعارف - بمصر سنة ١٣٧٦هـ- ١٩٥٦م.

٣٨ = = عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير. اختصار وتحقيق احمد محمد شاكر. مطابع دار المعارف - القاهرة سنة ١٣٧٦هـ ١٩٥٦م.

٣٩ ابن ماجة ابو عبد الله محمد بن يزيد القزويني:
سنن ابن ماجه، بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة الحلبي - مصر سنة ١٩٥٢ م.

٤٠ ابن مجاهد ابو بكر احمد بن موسى:
كتاب السبعة في القراءات. بتحقيق الدكتور شوقي ضيف، مطابع دار المعارف - مصر سنة ١٩٧٢م.

٤١ ابن المرتضى احمد بن يحيى:
طبقات المعتزلة، بتحقيق سوسنه ديلفد- فكنور، المطبعة الكاثوليكية- بيروت سنة ١٣٨٠هـ- ١٩٦١م.

٤٢ ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم:
لسان العرب، نسخة مصورة عن طبعة بولاق سنة ١٣٠٨ هـ، مطابع كوستاتسوماس وشركاه- القاهرة.

٤٣ ابن المنير ناصر الدين احمد بن محمد الاسكندري:
الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، بهامش تفسير الكشاف للزمخشري، الطبعة الثانية، مطبعة الاستقامة- القاهرة سنة ١٣٧٣هـ- ١٩٥٣م.

٤٤ ابن النديم محمد بن اسحق:
الفهرست المطبعة الرحمانية- مصر سنة ١٣٤٨هـ.

٤٥ ابن هشام جمال الدين عبد الله بن يوسف الانصاري:
مغني اللبيب عن كتب الاعاريب، بتحقيق محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني- القاهرة. لم تذكر سنة الطبع.

٤٦ ابن هشام ابو محمد عبد الملك
سيرة النبي(ص)، بتحقيق محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني ودار الاتحاد العربي للطباعة- القاهرة سنة ١٣٩١ هـ- ١٩٧١م.

٤٧ ابو تمام حبيب بن أوس الطائي:
الوحشيات، بتحقيق عبد العزيز الميمني الراجكوتي، مطابع دار المعارف- مصر سنة ١٩٦٣م.

٤٨ ابو حيان: محمد بن يوسف الاندلسي:
البحر المحيط، الطبعة الاولى، مطبعة السعادة- القاهرة سنة ١٣٢٨ هـ.

٤٩ أبو زهرة: محمد:
أصول الفقه، دار الثقافة العربية للطباعة- القاهرة سنة ١٩٧٣م.

٥٠ == الامام الصادق. دار الثقافة العربية للطباعة- القاهرة. لم تذكر سنة الطبع.

٥١ أبو زيد: سعيد بن أوس بن ثابت الانصاري:
النوادر في اللغة. الطبعة الثانية. دار الكتاب العربي- بيروت سنة ١٣٧٨ هـ - ١٩٦٧م.

٥٢ أبو زيد: محمد بن أبي الخطاب القرشي:
جمهرة اشعار العرب. ضبطها وشرحها احد فضلاء العلماء، المطبعة الرحمانية مصر سنة ١٣٤٥هـ- ١٩٢٦ م.

٥٣ أبو شامة: عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي:
المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز بتحقيق طيار آلتي قولاج، دار صادر للطباعة والنشر – بيروت سنة ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م.

٥٤ أبو الطيب: عبد الواحد بن علي:
مراتب النحويين، بتحقيق أبي الفضل ابراهيم، الطبعة الثانية، مطبعة نهضة مصر- القاهرة. لم تذكر سنة الطبع.

٥٥ أبو عبيدة: معمر بن المثنى التيمي:
مجاز القرآن ، بتحقيق الدكتور محمد فؤاد سزكين، الطبعة الثانية، مطبعة السعادة – مصر سنة ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م.

٥٦ الأخفش: أبو الحسن سعيد بن مسعد البلخي:
معاني القرآن، نسخة مصورة عن مكتبة القدس الشريف، محفوظة بمكتبة المشهد بايران. رقم ٢٢٠ تفسير، الرقم العمومي ١٥٢٢.

٥٧ الاشعري: أبو الحسن علي بن اسماعيل:
اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع. المطبعة الكاثوليكية- بيروت سنة ١٩٥٢م.

٥٧ = = مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين. بتحقيق محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية مطبعة السعادة- مصر سنة ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م.

٥٩ الأعشى: ميمون بن قيس:
الديوان. بشرح وتعليق الدكتور محمد محمد حسين، المطبعة النموذجية القاهرة سنة ١٩٥٠م.

٦٠ الأنصاري: عبد الواحد:
مع الله ،مطبعة المعارف – بغداد سنة١٩٦٧م.

٦١ الباقلاني أبو بكر بن الطيب:
الانتصار لنقل القران. بتحقيق الدكتور محمد زغلول سلام، دار بورسيعد للطباعة والنشر- الاسكندرية سنة ١٩٧١م.

٦٢ = = الانصاف فيما يجب اعتقاده ولايجوز الجهل به. بتحقيق محمد زاهد الكوثري، الطبعة الثانية مطبعة السنة المحمدية- القاهرة سنة ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣م.

٦٣ بحر العلوم: مهدي الطباطبائي:
الفوائد الرجالية، بتحقيق محمد صادق بحر العلوم وحسين بحر العلومن الطبعة الاولى، مطبعة الاداب- النجف سنة ١٣٨٦هـ- ١٩٦٧م.

٦٤ البخاري: أبو عبد الله محمد بن اسماعيل:
صحيح البخاري. بشرح الكرماني، الطبعة الاولى، المطبعة المصرية- القاهرة سنة ١٣٥٣هـ- ١٩٣٤م.

٦٥ البستاني: فؤاد افرام
دائرة المعارف، طبعة بيروت سنة ١٩٦٢م.

٦٦ البغدادي: عبد القادر بن عمر:
خزانه الادب. الطبعة الاولى، مطبعة بولاق سنة ١٩٠٠ م.

٦٧ البغوي: أبو محمد حسين بن مسعود:
معالم التزيل في التفسير. بذيل تفسير ابن كثير الطبعة الاولى، مطبعة المنار- القاهرة ١٣٤٥ هـ.

٦٨ البلخي: أبو القاسم عبد الله بن أحمد:
ذكر المعتزلة. ضمن ثلاث رسائل بعنوان فضل الاعتزال وطبقات المتعزلة، بتحقيق فؤاد السيد، الدار التونسية للنشر- تونس سنة ١٣٩٣هـ.

٦٩ بنت الشاطئ: الدكتورة عائشة عبد الرحمن:
التفسير البياني للقرآن الكريم. الطبعة الثالثة. مطابع دار المعارف- مصر سنة ١٩٦٨م.

٧٠ الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى:
صحيح الترمذي. بشرح ابن العربي، الطبعة الاولى، مطبعة الصاوي- مصر سنة ١٣٥٣هـ- ١٩٣٤م.

٧١ ثعلب: أبو العباس احمد بن يحيى:
مجالس ثعلب. بتحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثانية، مطابع دار المعارف- مصر سنة ١٩٦٠م.

٧٢ الجرجاني: عبد القاهر:
أسرار البلاغة، صححه وعلق حواشيه محمد رشيد رضا، مطبعة الترقي- مصر سنة ١٣١٩هـ-

٧٣ :== دلائل الاعجاز، علق عليه محمد بعد المنعم خفاجي، مطبعة الفجالة الجديدة القاهرة سنة ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م.

٧٤ جرير: ابن عطية:
الديوان . بشرح محمد اسماعيل عبد الله الصاوي، الطبعة الاولى ، مطبعة الصاوي، مصر سنة ١٣٥٣هـ.

٧٥ الجشمي أبو السعد المحسن بن محمد:
شرح العيون، ضمن ثلاث رسائل بعنوان: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، بتحقيق فؤاد السيد، الدار التونسية للنشر- تونس سنة ١٣٩٣هـ- ١٩٧٤م.

٧٦ جمال : محمد:
فحول الشعراء. الطبعة الثانية، المطبعة الوطنية- بيروت سنة ١٣٥٣هـ- ١٩٣٣م.

٧٧ جواد: الدكتور مصطفى:
المباحث اللغوية في العراق. مطبعة لجنة البيان العربي- القاهرة سنة ١٩٥٥م.

٧٨ جولد تسهر: اجنتس:
مذاهب التفسير الاسلامي، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار، مطبعة السنة المحمدية القاهرة سنة ١٣٧٤هـ- ١٩٥٥م.

٧٩ الجوهري: اسماعيل بن حماد:
الصحاح. بتحقيق احمد عبد الغفور . مطابع دار الكتاب العربي- مصر سنة ١٩٥٦م.

٨٠ الجويني: الدكتور مصطفى الصاوي:
مناهج في التفسير. شركة الاسكندرية للطباعة والنشر- الاسكندرية سنة ١٩٧١م.

(٨١) == : منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان اعجازه . مطابع دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٥٩ .

(٨٢) الحاكم الحسكاني : عبيد الله بن عبد الله الحذاء الحنفي :
شواهد التنزيل لقواعد التفضيل ، بتحقيق محمد باقر المحمودي ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات - بيروت . لم تذكر سنة الطبع .

(٨٣) الحاكم النيسابوري : ابو عبد الله محمد بن عبد الله :
المستدرك على الصحيحين . مطابع النصر الحديثة - الرياض - لم تذكر سنة الطبع .

(٨٤) الحسيني : احمد :
فهرس مخطوطات خزانة الروضة الحيدرية ، مطبعة النعمان - النجف سنة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .

(٨٥) الحكيم : محمد تقسي :
الاصول العامة للفقه المقارن . دار الاندلس للطباعة والنشـر - بيروت سنة ١٩٦٣م .
(٨٦) الحلّي : الحسن بن يوسف :
الرجال . بتحقيق محمد صادق بحر العلـوم الطبعـة الثانيـة / المطبعة الحيدرية - النجف سنة ١٣٨١ هـ = ١٩٦١ م .
(٨٧) حمودة : عبد الوهاب :
القراءات واللهجات . الطبعة الاولى ن مطبعة السـعادة - مصر سنة ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٦ م .
(٨٨) الحموي: ياقوت بن عبد الله : معجم البلـدان . دار بـيروت ودار صـادر للطباعة والنشر - بيروت سنة ١٣٧٦ هـ = ١٩٥٧ م .
(٨٩) الحموي : معجم الأدباء . مطبعة الحلبي ومطبعة دار المأمون - مصر سنة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م .
(٩٠) الحيدري : علي نقي :
اصول الاستنباط . شركة النشر والطباعة العراقية - بغداد سـنة ١٣٦٩ هـ ١٩٥٠ م .
(٩١) الخازن : علاء الدين علي بن محمد البغدادي :
لباب التأويل في معاني التنزيل . الطبعة الاولى مطبعـة التقـدم العلمية - مصر سنة ١٣٣٢ هـ.
(٩٢) الخزاعي : كثير بن عبد الرحمن :
الديوان . جمع وشرح الدكتور احسـان عبـاس ، دار الثقافـة - بيروت سنة ١٣٩١ هـ =١٩٧١ م.
(٩٣) الخضري : محمد :
اصول الفقه ، الطبعة السادسة دار الاتحـاد العربـي للطباعـة - القاهرة سنة ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م.
(٩٤) خليفة : حاجي :
كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون . الطبعة الاولى ، مطبعـة العالم سنة ١٣١٠ هـ .

(٩٥) الخنساء : تماضر بنت عبد الحرث :
الديوان . دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر بـــيروت ســنة ١٣٨٣هـــ ١٩٦٣م .
(٩٦) الخوانساري : محمد باقر :
روضات الجنات في احوال العلماء والسادات بتحقيـــق اسـد الله اسماعيليان ، طهران - قسم سنة ١٣٩٠هـــ .
(٩٧) الخياط : ابو الحسن عبد الرحيم بن محمد بن عثمان :
الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد المطبعة الكاثوليكية - بـــيروت سنة ١٩٥٧م . ومطبعة دار الكتب المصريـــة - القـــاهرة ســنة ١٣٤٤ هـــ = ١٩٢٥م.
(٩٨) الداني : ابو عمر عثمان بن سعيد :
التيسير في القراءات السبع . بتصحيح اوتـــو برتـــزل . صورتـــه بالاوفست مكتبة المثنى ببغداد عـــن طبعـــة مطبعـــة الدولـــة - استانبول سنة ١٩٣٠ م .
(٩٩) الداودي : شمس الدين محمد بن علي بن احمد :
طبقات المفسرين ، بتحقيق على محمد عمر ، الطبعـــة الاولـــى ، مطبعة الاستقلال الكبرى - القاهرة سنة ١٣٩٢ هـــ =١٩٧٢ م .
(١٠٠) الدمياطي : احمد بن محمد البناء: اتحاف فضلاء البشـــر فـــي قـــراءات الاربعة عشر . مطبعة عبد الحميد احمد حنفـــي - مصـــر ســـنة ١٣٥٩هـــ .
(١٠١) الذهبي : شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان :
معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار . بتحقيـــق محمـــد سيد جاد الحق ، الطبعة الاولى ، مطبعة دار التـــأليف - مصـــر سنة ١٩٦٩م .
(١٠٢) الذهبي : الدكتور محمد حسين :
التفسير والمفسرين . مطابع دار الكتاب العربي - القـــاهرة ســنة ١٣٨١ هـــ= ١٩٦١م .

(١٠٣) الرازي : ابو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر :
مفاتيح الغيب ، الطبعة الاولى ، المطبعة الخيرية - مصر سنة ١٣٠٨ هـ .
(١٠٤) الرضي : الشريف محمد بن الحسين الموسوي :
حقائق التأويل في متشابه التنزيل . دار التراث الاسلامي للطباعة والنشر - بيروت . لم تذكر سنة الطبع .
(١٠٥) الرقيات : عبيد الله بن قيس :
الديوان ، بتحقيق الدكتور محمد يوسف نجم دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر - بيروت سنة ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٨ .
(١٠٦) الرماني : ابو الحسن علي بن عيسى :
الجامع لعلم القرآن . الجزء الثاني عشر ، من مصورات المكتبة الخالدية بالقدس الشريف . معهد احياء المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية - القاهرة .
(١٠٧) الرماني : كتاب معاني الحروف . بتحقيق الدكتور عبد الفتاح اسماعيل شلبي ، مطبعة دار العالم العربي - القاهرة سنة ١٩٧٣ م .
(١٠٨) الرماني : النكت في اعجاز القرآن . بتحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام الطبعة الثانية مطابع دار المعارف - مصر سنة ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٨م.
(١٠٩) روندلسن : دوايت . م :
عقيدة الشيعة ، مطبعة السعادة - مصر سنة ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.
(١١٠) الزبيدي : ابو بكر محمد بن الحسن : طبقات النحويين واللغويين . بتحقيق ابي الفضل ابراهيم . مطابع دار المعارف - مصر سنة ١٩٧٣م .
(١١١) الزجاج : ابراهيم بن السريّ :
كتاب (فعلْتُ وأفْعلتُ) . ضمن كتاب (فصيح ثعلب والشروح التي عليه) . نشر وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي . المطبعة النموذجية - القاهرة سنة ١٣٦٨ هـ =١٩٤٩ م .

(١١٢) الزجاج: معاني القرآن ، بتحقيق هدى محمد قراعـــة ، مكتبـة جامعـة القاهرة - رسالة جامعية - رقم ١٣٩٥ ، سـنة ١٣٩٥ هـــ = ١٩٧٥ م . وبتحقيق الدكتور عبد الجليل عبده شـلبي ، الهيئـة العامة لشؤون المطابع الاميرية - القاهرة سنة ١٩٧٣ م .

(١١٣) الزجاجي : ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحق :
الايضاح في علل النحو . بتحقيق مازن المبارك وتقديم الدكتـور شوقي ضيف ، مطبعة المدني - القاهرة ســنة ١٣٧٨ هـــ = ١٩٥٩ م .

(١١٤) الزجاجي : كتاب اللامات ، بتحقيق الدكتـور مـازن المبـارك / مطبعـة الهاشمية - دمشق سنة ١٣٨٩ هــ = ١٩٦٩م .

(١١٥) الزرقاني : محمد عبد العظيم :
مناهل العرفان في علوم القرآن . دار احياء الكتـاب العربيـة - القاهرة . لم تذكر سنة الطبع .

(١١٦) الزركشي : بدر الدين محمد بن عبد الله :
البرهان في علوم القرآن . الطبعة الاولى ، دار احياء الكتـاب العربية - القاهرة سنة ١٣٧٦ هــ = ١٩٥٧ م.

(١١٧) الزركلي : خير الدين :
الاعلام . طبعة بيروت سنة ١٣٨٩ هــ = ١٩٦٩م .

(١١٨) الزمخشري : جار الله محمود بن عمر :
الكتشاق عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل. بتصحيح مصطفى حسـين احمـد الطبعـة الثانيـة ، مطبعـة الاستقامة - القاهرة سنة ١٣٧٣ هــ = ١٩٥٣ م .

(١١٩) الزنجاني : ابراهيم الموسوي :
عقائد الامامية الاثنى عشرية ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات - بيروت سنة ١٣٩٣ هــ =١٩٧٣م .

(١٢٠) الزجاني : فضل الله :
شرح اوائل العقالات ، بذيل اوائل المقالات لمحمد ابن محمـــد بن العمان المفيد ، طبعة الثالثة المطبعة الحيدرية النجف ســنة ١٣٩٣هـ =١٩٧٣ م.
(١٢١) السامرائي : الدكتور فاضل صالح :
الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري . مطبعة الارشاد - بغداد سنة ١٣٨٩ هـ = ١٩٧٠م.
(١٢٢) السبكي : تاج الدين عبد الوهاب بن علي :
طبقات الشافعية الكبرى ، بتحقيق عبد الفتــاح محمــد الحلــو ومحمود محمد الطناحي، الطبعة الاولى ن مطبعة الحلبـــي - مصر سنة ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٦م .
(١٢٣) سركيس : يوسف ألبان :
معجم المطبوعات العربية والمعرّبة ، القاهرة سنة ١٩٢٨ م.
(١٢٤) السجستاني : معجم ابو بكر عبد الله بن أبي داود :
كتاب المصاحف . بتصحيح الدكتور آرثر جفـــري ، الطبعــة الاولى ، المطبعة الرحمانية - مصـــر ســنة ١٣٥٥هـــ = ١٩٣٦م.
(١٢٥) السمنودي : محمد بن حسن بن محمد :
شرح السمنودي على متن الدرة الممة للقراءات العشر لابن الجزري . مطبعة المعاهد - مصر سنة ١٣٤٢ هـ
(١٢٦) سيبويه : ابو بشر عمرو بن عثمان :
الكتاب . مطبعة بولاق - القاهرة ســـنة ١٣١٦هــــ . وطبعــة مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، بتحقيـــق عبـــد الســـلام هارون .
(١٢٧) السيرافي : ابو سعيد الحسن بن عبد الله :
اخبار النحويين البصريين . نشر فريتس كرنكو صورة بالاوفست لطبعة المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩٣٦م.

(١٢٨) السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر :
الاتقان في علوم القرىن . الطبعة الثالثة مطبعة الحلبي مصر سنة ١٣٧٠ هـ = ١٩٥١م .
(١٢٩) السيوطي : الاشباه والنظائر في النحو . بتحقيق طه عبد الرؤف سعد ، شركة الطباعة الفنية المتحدة - القاهرة سنة ١٣٩٥ هـ = ١٩٧٥م .
(١٣٠) السيوطي : الاقتراح في علم اصول النحو . بتحقيق الدكتور احمد محمد قاسم ، الطبعة الاولى ، مطبعة السعادة - القاهرة سنة ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .
(١٣١) السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، بتحقيق ابي الفضل ابراهيم ، الطبعة الاولى ، مطبعة الحلبي - مصر سنة ١٣٨٤هـ =١٩٦٤م .
(١٣٢) السيوطي : طبقات المفسرين ، طبعة ليدن سنة ١٨٣٩ م .
(١٣٣) شاهين : الدكتور عبد الصبور :
القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث . مطابع دار القلم - القاهرة سنة ١٩٦٦م .
(١٣٤) شحاتة : الدكتور عبد الله محمود :
القرآن والتفسير ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة سنة ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤م.
(١٣٥) الشرباصي : الدكتور احمد :
قصة التفسير ، مطابع دار القلم - القاهرة سنة ١٩٦٢م.
(١٣٦) شرف الدين : عبد الحسين العاملي :
مؤلفو الشيعة في صدر الاسلام . مطبعة النعمان - النجف . لم تذكر سنة الطبع .
(١٣٧) الشنتناوي : احمد وجماعته :
دائرة المعارف الاسلامية ، القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣ م. لم تذكر المطبعة .

(١٣٨) الشهرستاني : محمد بن عبد الكريم :
نهاية الاقدام في علم الكلام . حررد وصححه الفرد جيوم ، اعادت طبعه بالاوفست مكتبة المثنى ببغداد .
(١٣٩) الشوكاني : محمد بن علي بن محمد : ارشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الاصول . الطبعة الاولى ، مطبعة السعادة - مصر سنة ١٣٢٧ هـ .
(١٤٠) الصالح : الدكتور صبحي :
علوم الحديث ومصطلحه . الطبعة الخامسة ، مطابع دار العلم للملايين - بيروت سنة ١٣٨٨=١٩٦٩م .
(١٤١) الصدر : حسن الكاظمي :
تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام .شركة النشر والطباعة العراقية المحدودة - بغداد سنة ١٣٧٠هـ =١٩٥١م .
(١٤٢) الصدر : محمد باقر :
المعالم الجديدة للاصول . مطبعة النعمان - النجف سنة ١٣٨٥هـ .
(١٤٣) الصدوق : محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي :
امالي الصدوق . المطبعة الحيدرية - النجف سنة ١٣٨٩ هـ =١٩٧٠م .
(١٤٤) الفاقسي: علي النوري :
غيث النفع في القراءات السبع . في هامش سراج القارئ المبتدئ للقاصح ، مطبعة الحلبي مصر ١٣٧٥ هـ = ١٩٥٥م.
(١٤٥) الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك :
الوافى بالوفيات . باعتناء هـ . ربتر ، الطبعة الثانية - استانبول سنة ١٩٣١م.
(١٤٦) ضيف : الدكتور شوقي :
البحث الادبي : طبيعته ، مناهجه ، اصوله مصادره . مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢م.

(١٤٧) ضيف :
البلاغة تطور وتاريخ . الطبعة الثانيـــة ، مطــابع دار المعــارف بمصر . لم تذكر سنة الطبع .
(١٤٨) ضيف : سورة الرحمن وسور قصار ، عـــرض ودراســة . مطــابع دار المعارف - مصر سنة ١٩٧١ م.
(١٤٩) ضيف : المدارس النحوية . الطبعة الثانية . مطابع دار المعارف - مصـر سنة ١٩٧٢ م.
(١٥٠) الطبرسي : ابو علي الفضل بن الحسن :
مجمع البيان في تفسير القرآن . دار مكتبة الحيـــاة - بـيروت سنة ١٣٨٠هـ = ١٩٦١ م .
(١٥١) الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير :
جامع البيان عن تأويل أي القرآن . بتحقيق محمود محمد شاكر، مطابع دار المعارف بمصر. والطبعة الثانية بمطبعة الحلبـــي - مصر سنة ١٩٥٤.
(١٥٢) الطهراني : اغا بزرك :
حياة الطوسي . في اول تفسير التبيان للطوسي ، طبعة النجـف ١٣٧٦ هـ = ١٩٥٧ م.
(١٥٣) الطهراني : الذريعة الى تصانيف الشيعة . مطبعة الغرى - النجف ســنة ١٣٥٥ هـ
(١٥٤) الطوسي : ابو جعفر محمد بن الحسن : الاستبصار فيمـــا اختلــف مــن الاخبار . بتحقيق حســن الموســوي الخرســان ، دار الكتــب الاسلامية النجف سنة ١٩٥٦ م.
(١٥٥) الطوسي : التبيان في تفسير القرآن . بتحقيق وتعليــق احمــد شــوقي الامين واحمد حبيب القصير العـــاملي المطبعــة العلميــة - النجف سنة ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م .
(١٥٦) الطوسي : تلخيص الشافي في الامامة ، بتقديم وتعليـــق حســين بحــر العلوم، الطبعة الثانية مطبعة الاداب - النجــف ســنة ١٣٨٣ هـ = ١٩٦٣م .

(١٥٧)الطوسي : رجال الطوسي . بتحقيق محمد صادق بحر العلوم ، الطبعة الاولى ، مطبعة الحيدرية - النجف سنة ١٣٨١ هـ = ١٩٦١م .
(١٥٨) الطوسي : الغيبة . النجف - سنة ١٣٥٨ هـ .
(١٥٩) الطوسي : الفهرست . الطبعة الثانية ، المطبعة الحيدرية - النجف سنة ١٣٨٠ هـ = ١٩٦١م .
(١٦٠) العامري : لبيد بن ربيعة :
الديوان . بتحقيق الدكتور احسان عباس ، مطبعة الحكومة - الكويت سنة ١٩٦٢ م.
(١٦١) العاملي : محسن الامين :
اعيان الشيعة الجزء الاول في مطبعة الانصاف - بيروت سنة ١٩٥١ م. والثامن والثالث عشر في مطبعة ابن زيدان - دمشق سنة ١٩٣٨ م ، ١٩٣٩ م. والحادي والعشرين في مطبعة الاتقان - دمشق سنة ١٩٤٦م . والثالث والاربعون في مطبعة الانصاف - بيروت سنة ١٩٥٨ م. وهي الاجزاء التي رجعنا اليها .
(١٦٢) العاملي : محمد بن الحسن الحر :
امل الآمل . بتحقيق احمد الحسني . الطبعة الاولى . مطبعة الاداب - النجف سنة ١٣٨٥ هـ
(١٦٣) العاملي : الفصول المهمة في اصول الائمة - الطبعة الثانية . المطبعة الحيدرية - النجف سنة ١٣٧٨ .
(١٦٤) العاملي : محمد بن الحسين :
الكشكول ، بتحقيق طاهر الزاوي ، مطبعة الحلبي - القاهرة سنة ١٩٦١ م.
(١٦٥) عبد الجبار : احمد الهمداني (القاضي) :
تنزيه القرآن عن المطاعن . دار النهضة الحديثة - بيروت . لم تذكر سنة الطبع .

(١٦٦) عبد الجبار : شرح الاصول الخمسة . بتحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان، الطبعة الاولى مطبعة الاستقلال الكبرى - القاهرة سنة ١٣٨٤هـ = ١٩٦٥ م.

(١٦٧) عبد الجبار: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة . ضمن كتاب بهذا العنوان فيه ثلاث رسائل . بتحقيق فؤاد السيد ، الدار التونسية للنشر - تونس سنة ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٤ م.

(١٦٨) عبد الجبار : متشابه القرآن . بتحقيق الدكتور عدنان زرزور مطبعة دار النصر - القاهرة . لم تذكر سنة الطبع .

(١٦٩) العبسي : عنترة بن شداد :
الديوان . دار صادر ودار بيروت - بيروت سنة ١٣٧٧هـ = ١٩٥٨ .

(١٧٠) العسقلاني : احمد بن علي بن حجر:
تهذيب التهذيب . مطبعة دائرة المعارف النظامية - الهند سنة ١٣٢٦ هـ .

(١٧١) العسقلاني : شرح نخبة الفكر في مصطلح الاثر مطبعة الحلبي - مصر سنة ١٣٥٣هـ = ١٩٣٤ م .

(١٧٢) العسقلاني : لسان الميزان . الطبعة الاولى ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية - حيدر ابمساد الدكن سنة ١٣٣١ هـ .

(١٧٣) العسكري : ابو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل :
كتاب الصناعيين . بتحقيق علي محمد البجاوي ومحمد ابي الفضل ابراهيم ، مطبعة الحلبي - مصر لم تذكر سنة الطبع .

(١٧٤) العسكري : الامام الحسن بن علي :
تفسير الحسن العسكري (منسوب) . طبعة حجرية - ايران سنة ١٣١٥ هـ .

(١٧٥) العلوي : يحيى بن حمزة :
الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز . مطبعة المقتطف - مصر سنة ١٣٣٢هـ = ١٩١٤م .

(١٧٦) العياشي : ابو النضر محمد بن مسعود السلمي السمرقندي :
تفسير العياشي . بتصحيح وتعليق هاشم الرسولى المحلاتـــي ، المطبعة العلمية – قم . لم تذكر سنة الطبع .
(١٧٧) عيد : الدكتور محمد :
الرواية والاستشهاد باللغة . مطبعة دار نشر الثقافـــة – مصـــر سنة ١٩٧٢م .
(١٧٨) الغزالي : أبو حامد محمد بن محمد :
المستصفى من علم الاصول . الطبعة الاولى مطبعة بولاق – مصر سنة ١٣٢٤ هـ .
(١٧٩) الفارسي : ابو علي الحسن بن احمد بن عبد الغفار :
الحجة للقرأة السبعة . مصورة بمكتبة جامعة القاهرة ن رقـــم ٢٤٠١٢ ، عن مكتبة مراد ملا والمطبوعـــة بتحقيـق علـــي النجدي ناصف ورفيقيه .
(١٨٠) الفراء : ابو زكريا يحيى بن زياد :
معاني القرآن ، بتحقيق محمد علي علـــي النجـار واخريـن ، الطبعة الاولى ، مطبعة دار الكتب- مصر ســنة ١٣٧٤ هـــ = ١٩٥٥ م.
(١٨١) الفراهيدي : الخليل بن احمد :
كتاب العين (منسوب) . مخطوطة بمكتبة الاثار العراقيـــة – قسم المخطوطات رقم ٧٧٣ و ٥٠٩ لغة .
(١٨٢) الفرزدق : همام بن غالب بن صعصعة :
الديوان ، جمع وتعليق عبد الله اسماعيل الصاوي الطبعة الاولى، مطبعة الصاوي - القاهرة سنة ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٦ م.
(١٨٣) فنسنك : ارنست جان :
مفتاح كنوز السنة . ترجمة محمد فؤاد عبد البـاقي ، مطبعـة مصر . القاهرة سنة ١٩٣٤ م .

(١٨٤) الفياض : الدكتور عبد الله :
تاريخ الامامية واسلافهم من الشيعة منذ نشأة التشيع حتى مطلع القرن الرابع . الطبعة الاولى، مطبعة اسعد - بغداد سنة ١٩٧٠م .
(١٨٥) القاريء : علي بن سلطان :
المنح الفكرية على متن الجزرية . دار الكتب العربية الكبرى- القاهرة سنة ١٣٣٥ هـ = ١٩١٦ م .
(١٨٦) القاصح : ابو القاسم علي بن عثمان البغدادي :
سراج القارئ المبتدئ . الطبعة الثالثة مطبعة الحلبي - مصر سنة ١٣٧٣ هـ = ١٩٥٤ م
(١٨٧) القرطبي : ابو عبد الله محمد بن احمد الانصاري :
الجامع لاحكام القرآن . مطبعة دار الكتب - مصر سنة ١٣٥٩ هـ = ١٩٤٠ م .
(١٨٨) القزويني : معز الدين محمد المهدي الحسيني :
قلائد الخرائد في اصول العقائد ، بتحقيق جودت كاظم القزويني، مطبعة الارشاد - بغداد سنة ١٩٧٢ م .
(١٨٩) القسطلاني : شهاب الدين احمد بن محمد :
لطائف الاشارات لفنون القراءات . بتحقيق عامر السيد عثمان وعبد الصبور شاهين، مطابع الاهرام التجارية - القاهرة سنة ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م.
(١٩٠) القشيري : ابو الحسين مسلم بن الحجاج :
صحيح مسلم . بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي الطبعة الاولى ، مطبعة الحلبي - مصر ، سنة ١٩٥٥ م.
(١٩١) القمي : ابو الحسن علي بن ابراهيم :
تفسير القمي . بتصحيح وتعليق طيب الموسوي الجزائري ، مطبعة النجف - النجف سنة ١٣٨٦ هـ .
(١٩٢) القمي : عباس بن محمد :
الكنى والالقاب مطبعة العرفان - صيدا سنة ١٣٥٨ هـ .

(١٩٣) القمي : مفاتيح الجنان . طبعة ايران . لم تذكر سنة الطبع .
(١٩٤) القيسي : قاسم : تاريخ التفسير . مطبعة المجمع العلمي العراقي - بغداد سنة ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٦ م .
(١٩٥) القيسي : ابو بكر مكي بن ابي طالب :
الابانة عن معاني القراءات بتحقيق وتعليق الدكتور عبد الفتاح اسماعيل شلبي ، مطبعة الرسالة - القاهرة . لم تذكر سنة الطبع.
(١٩٦) القيسي : الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها بتحقيق الدكتور محيى الدين رمضان . مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق - دمشق سنة ١٣٩٤ هـ =١٩٧٤ م.
(١٩٧) الكاشي : محسن محمد بن مرتضى : الصافي في تفسير القرآن . مطبعة حجرية - ظهران سنة ١٢٨٦ هـ .
(١٩٨) كامل : الدكتور مراد :
اللهجات العربية الحديثة في اليمن المطبعة الفنية الحديثة - القاهرة سنة ١٩٦٨ م .
(١٩٩) كحالة : عمر رضا :
معجم المؤلفين ، مطبعة الترقي - دمشق سنة ١٣٧٦ هـ = ١٩٥٧ م .
(٢٠٠) الكليني : محمد بن يعقوب :
اصول الكافي . الطبعة الثالثة . دار الكتب الاسلامية - النجف سنة ١٣٨٨ هـ .
(٢٠١) كمال الدين : هادي احمد :
فقهاء الفيحاء . مطبعة المعارف - بغداد سنة ١٩٦٢ م.
(٢٠٢) الكندي : امرؤ القيس بن حجر بن حارث : الديوان بتحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم مطابع دار المعارف - مصر سنة ١٩٥٨ م.
(٢٠٣) الكوفي : فرات بن ابراهيم : تفسير فرات الكوفي . مخطوطة بمكتبة آية الله الحكيم في النجف . رقم ٦١٩ (عربي تفسير) .

(٢٠٤) المامقاني : عبد الله : تنقيح المقـــال فـــي احـــوال الرجـــال . **المطبعـــة** المرتضوية . النجف سنة ١٣٥٢هـ .

(٢٠٥) المبرد : ابو العباس محمد بن يزيد :

الكامل . بتحقيق محمد ابي الفضل ابراهيـــم والسـيد شـحاته ، مطبعة نهضة مصر – القاهرة . لم تذكر سنة الطبع .

(٢٠٦) المبرد : ما اتفق لفظة واختلفه واختلف معناه . باعتنـــاء عبــد **العزيــز** الميمنـــي الراجكوتـــي ، المطبعـــة السـلفية ، القـــاهرة ســـنة ١٣٥٠هـ.

(٢٠٧) المبرد : المقتضب . بتحقيق محمد عبد الخالق عضيمة مطـــابع شـــركة الاعلانات الشرقية – القاهرة سنة ١٣٨٨ هـ .

(٢٠٨) المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية : المنتخب من الســنة ن الطبعـــة الثانيـــة. مطابع شركة الاعلانات الشرقية – القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

(٢٠٩) المرتضى : ابو لقاسم علي بن الحسن الموسوي :

الأمالي " غرر الفوائد ودرر القلائد " . بتحقيـــق محمـــد ابـــي الفضل ابراهيم ، مطبعة الحلبي – مصر سنة ١٩٥٤م .

(٢١٠) المرتضى: جمل العلم والعمل . بتحقيق رشيد الصفار الطبعـــة الاولـــى ، مطبعة النعمان – النجف سنة ١٣٧٨ هـ = ١٩٦٧ م.

(٢١١) المرتضى : رسائل الشريف المرتضى . بتحقيق احمد الحسيني ، **مطبعـــة** الاداب – النجف سنة ١٣٨٦ هـ .

(٢١٢) المظفر : محمد رضا :

عقائد الامامية . الطبعة الثالثة مطبعة النعمـــان – النجـــف سنة ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م .

(٢١٣) المفيد : محمد بن محمد بن النعمان :

اوائل المقالات . بشرح فضل الله الزنجاني ، المطبعة الثالثـــة ، الطبعة الحيدرية النجف سنة ١٣٨١ هـ = ١٩٦٢م .

(٢١٤) المفيد : شرح عقائد الصدوق . مطبوع مع اوائل المقالات .

(٢١٥) النابغة : ابو امامة زياد بن معاوية :
الديوان . بتحقيق فوزي عطوي . الشركة اللبنانية للكتاب للطباعة والنشر - بيروت سنة ١٩٦٩ م .
(٢١٦) النجاشي : ابو العباس احمد بن علي بن احمد :
الرجال . طبعة بومباي سنة ١٣١٧ هـ .
(٢١٧) نجف : محمد طه :
اتقان المقال في احوال الرجال . المطبعة العلوية - النجف سنة ١٣٤١هـ .
(٢١٨) النسفي : ابو البركات عبد الله بن احمد بن محمود :
مدارك التنزيل وحقائق التأويل . مطبعة محمد علي صبيح - مصر سنة ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٨م .
(٢١٩) النقاش : محمد بن الحسن بن زياد :
شفاء الصدور المهذب في تفسير القرآن الكريم . مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٥٢ تفسير .
(٢٢٠) النوبختي : ابو محمد الحسن بن موسى :
فرق الشيعة . بتصحيح هـ . ريتر . صورة بالاوفست لطبعة استنانبول سنة ١٩٣١ م .
(٢٢١) الهذليون :
ديوان الهذليين . الطبعة الاولى مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة سنة ١٣٦٧ هـ = ١٩٤٨ م.
(٢٢٢) ابو الحسن علي بن احمد :
اسباب النزول . الطبعة الثانية . مطبعة الحلبي - مصر سنة ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٨ م .
(٢٢٣) وافى : الدكتور علي عبد الواحد :
فقه اللغة . الطبعة السادسة . مطبعة الرسالة القاهرة سنة ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م .
(٢٢٤) الواقدي: محمد بن عمر بن واقد :
كتاب المغازي . بتحقيق مارسن جونس مطابع دار المعارف - مصر سنة ١٩٦٦م .

(٢١٨) النسفي : ابو البركات عبد الله بن احمد بن محمود :
مدارك التنزيل وحقائق التأويل . مطبعة محمد علـــي صبيــح - مصر سنة ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٨م.
(٢١٩) النقاش : محمد بن الحسن بن زياد :
شفاء الصدور المهذب في تفسير القرآن الكريـــم . مخطوطــة بدار الكتب المصرية رقم ٥٢ تفسير .
(٢٢٠) النوبختي : ابو محمد الحسن بن موسى :
فرق الشيعة . بتصحيح هـ . ريبتر . صورة بالاوفست لطبعـة استانبول سنة ١٩٣١ م .
(٢٢١) الهذليون : ديوان الهذليين . الطبعة الاولى مطبعـــة الكتـــب المصريـــة - القاهرة سنة ١٣٦٧ هـ = ١٩٤٨ م .
(٢٢٢) الواحدي : ابو الحسن علي بن احمد :
اسباب النزول ، الطبعة الثانية ، مطبعة الحلبي - مصر ســـــنة ١٣٨٧ هـ =١٩٦٨ م.
(٢٢٣) وافي : الدكتور علي عبد الواحد : فقه اللغة . الطبعة السادسة . مطبعـــة الرسالة القاهرة سنة ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م .
(٢٢٤) الوافدي : محمد بن عمر واقد :
كتاب المغازي ، بتحقيق مارسدن جونس مطـــابع دار المعـــارف - مصـــر ســنة ١٩٦٦ م .

ثبت الموضوعات

مقدمة

تمهيد: (في حياة الطوسي وتفاسير معاصرة لتفسيره

المبحث الاول: في حياة الطوسي

١) نشأته:

٢) شيوخته وثقافته

٣) آثار ه

٤) تلاميذه ووفاته

المبحث الثاني :تفاسير للرضي والمرتضى

١- التفسير في حائق التأويل للمرضي:

٢- التفسير في أمالي المرتضى

الفصل الاول(مصادر التبيان)

١)كتب معاني القرآن

٢)كتب التفسير بالمآثور

٣)كتب التفسير العامة

٤)كتب الحديث النبوي والسير

٥)كتب القراءات واللغة والنحو

الفصل الثاني:(مادة التفسير)

١) النقل عن الرسول والصحابة والتابعين

٢) أدلة الترجيح بين المنقول

أ)الاجماع

ب)اللغة

جـ)سبب النزول

د)المنقول في المبهمات والنسخ

٣)النقل عن ائمة التفسير

٤)تفسير القرآن بالقرآن

٥)التفسير العقلي والتأويل

الفصل الثالث (بالقراءات واللهجات)

